الكتاب الثاني

ألكسي تولستوي

ثلاثية درب الآلام

عام 1918

مكتبة ١٢٩٣

ترجمة: غائب طعمة فرمان

عام ١٩١٨

مكتبة | 1293

رواية

Author: **Алексе́й Никола́евич Толсто́й**
Title: **Road To Calvary**
Translator: **Gaeb Tohmeh Faramen**
cover designed by: **Majed Al-Majedy**
P.C. : **Al-Mada**
First Edition: **1975**
First Edition: **2016**

Copyright © Al-Mada

المؤلف: ألكسي تولستوي
عنوان الكتاب: ثلاثية درب الآلام -
الكتاب الثاني 1918
ترجمة: ترجمة: غائب طعمة فرمان
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: دار التقدم 1975
الطبعة الثانية: 2016

جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

6 8 2023
مكتبة
t.me/soramnqraa

ألكسي تولستوي

مكتبة | 1293

ثلاثية درب الآلام

الكتاب الثاني: عام ١٩١٨

ترجمة: غائب طعمة فرمان

غرقنا في الماء ثلاثاً، وسبحنا
بالدّم ثلاثاً، وسُلقنا بالمحلول
القلويّ ثلاثاً، فلا أنظف منّا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-١-

انتهى كلّ شيء. كانت الريح القارسة تسوق قمامة الأوراق في شوارع بطرسبورغ الخالية الراكنة إلى الهدوء—مزقاً من الأوامر العسكريّة، وإعلانات المسارح، ونداءاتٍ تحثّ الشّعب الروسيّ على التمسّك "بالضمير والوطنيّة". كانت مزق الأوراق الملوّنة بلطخات عجينة اللصق الجافّة عليها تزحف بخشخشة منحوسة دارجةً على الأرض مع حلزونيات الثلج المتولّدة عن الريح الأرضيّة.

كان ذلك كلّ ما تبقّى من الضجيج الذي كان يعربد مصطخباً في العاصمة قبل فترةٍ قصيرة من الزّمن. فرغت الساحات والشوارع من الحشود الفضوليّة، وخلا قصر الشتاء الذي خرقت سطحه قنبلةٌ أطلقها طرّاد "فرورا". واختفى في المجهول أعضاء الحكومة المؤقّتة، وأصحاب البنوك الكبار، والجنرالات المشهورون...وخلت الشوارع الموحلة الرّثّة من العربات الرائعة، والنساء المتأنقات، والضباط والموظفين ورجال المجتمع ذوي الأفكار الـمُثيرة. وفي الليالي كانت

تتكاثر أصوات المطارق تدقّ الألواح على أبواب المخازن. و لم تبق إلا واجهاتٌ قليلة يعرض بعضها قطعة جبنة، وبعضها كعكةً يابسة. إلا أنّ ذلك كان يزيد الشوق للحياة الـمُختفية. كان عابر السبيل يُحاذي الجدران وجلاً ينظر بطرف عينه إلى الدوريات—إلى جماعاتٍ من الرجال الـمُصممين السائرين وعلى طاقياتهم نجمةٌ حمراء، وعلى أكتافهم بنادق مُتّجهةٌ بمواسيرها نحو الأرض.

كانت الريح الشّماليّة تُرسل نفحات القرس في نوافذ البيوت الـمُعتمة، وترتفع في مداخل البيوت الخالية مُبدّدةً أشباح التّرف الزائل. لقد كانت بطرسبورغ رهيبةً في أواخر العام ١٩١٧.

رهيبة، غامضة، مُتعذّرة على الفهم. انتهى كلّ شيء. وأُلغي ما كان في الماضي. كان رجلٌ يرتدي قبّعةً بالية ويحمل دلواً وفرشاة يعبر الشارع الذي كانت تنكسه ريحٌ أرضيّة ويلصق هنا وهناك المزيد والمزيد من الإعلانات عن المراسيم، فكانت الملصقات تلوح كالرّقع البيض على جدران البيوت العتيقة. إنّ المراتب والفوارق ورواتب التّقاعد وكتافيّات الضباط، الملكيّة الخاصّة، والحقّ في أن تعيش على هواك—كلّ ذلك قد أُلغي. انتهى! أرسل ملصق الإعلانات نظرةً غاضبة من تحت قبّعته إلى زجاج النّوافذ، إلى قاطني البيوت الذين ما يزالون يذرعون الغرف الباردة في معاطفهم الفرائيّة وأحذيتهم اللباديّة قائلين وهم يفركون أصابعهم:

وماذا بعد؟ ماذا سيحدث؟ هلاك روسيا، نهاية كلّ شيء... الموت!

ولئن اقتربوا من النوافذ كان في وسعهم أن يروا على خطٍّ مائل عربة نقلٍ طويلة تقف قرب مدخل الدارة التي كان يقطنها صاحب

الفخامة، في الموضع الذي كان يقف فيه شرطيّ حارس في هيئة استعداد ينظر إلى الواجهة الرماديّة بطرف عينه، ويروا رجالاً مسلّحين يخرجون أثاثاً وأبسطة ولوحات من الباب المفتوح على مصراعيه. وفوق المدخل يرفرف علمٌ أحمر، وهنا أيضاً يحوم صاحب الفخامة نفسه بسبلتيه الشبيهتين بسبلتي الجنرال سكوبليف، مرتدياً معطفاً خفيفاً، ورأسه الأشيب يهتزّ. إنّهم ينقلونه! وإلى أين في شدّة الفقر هذه؟ إلى حيث ألقت... بينما كان صاحب الفخامة هذا درعاً حصيناً في جهاز الدّولة!

ويهبط الليل. ظلامٌ دامس لا مصباح في شارع، ولا ضوء في النّوافذ. لا يوجد فحم. ويقولون إنَّ سمولني[1] غارقٌ في الضّوء، وفي مناطق المعامل يوجد ضوءٌ أيضاً. والزّوبعة الثلجيّة تُعربد فوق المدينة الـمُعذّبة الـمُثقبة بالرّصاص وتصفر في ثقوب السطوح مُنذرةً بالويل. وتئزّ طلقاتٌ في الظلام. فمن يُطلق النار، وعلى من، ولأيّ شيء؟ هل الطّلقات هناك حيث يومض الوهج، ويلوّن غمائم الثّلج؟ حيث مستودعات النّبيذ تحترق... والناس يجرعون النبيذ من البراميل الـمُحطّمة في الأقبية... عليهم اللعنة، عسى أن يحترقوا أحياء!

أيها الروس، الروس!

كان الروس يعودون بالملايين محشورين في قطاراتٍ لا نهاية لها، قادمين من الجبهة إلى بيوتهم في القرى، والسّهوب، والمستنقعات، والغابات... إلى أراضيهم، إلى نسائهم. كانوا يقفون مضغوطين لا يستطيعون حراكاً في العربات الـمُحطّمة النوافذ الـمُكتظّة إلى أقصى

١- مقرّ هيئة أركان ثورة أكتوبر الاشتراكيّة العُظمى في ١٩١٧ ثمّ مقرّ الحكومة السوفييتيّة الأولى. (المترجم).

حدّ، حتى ليستحيل أن يُخرج ميّتٌ من الزّحام، ويُقذف من النافذة. كانوا يُسافرون راكبين على العوارض الحديديّة المُخفّفة للصدمات، وعلى سطوح العربات. كانوا يتجمّدون برداً، ويموتون تحت العجلات، ويشدخون رؤوسهم في المسافات الضّيّقة بين العربات وهياكل الجسور. وكانوا يحملون في صناديق صغيرة وفي صررٍ كلّ ما وقع تحت أيديهم من أشياء لأنّ كلّ شيءٍ ينفع: رشاشة، ترباس مدفع، سقط متاعٌ أخذ من ميّت، قنابل يدويّة، بنادق، حاك، جلدٌ قُطِعَ من مقعدٍ في عربة قطار. والشيء الوحيد الذي لم يجلبوه، هو النقود. فإنّ هذه الأوراق غير النافعة لا تستطيع حتى أن تلفّ بها سيكارة.

كانت القطارات تدبّ بطيئةً في سهول روسيا، وتتوقّف لتلتقط أنفاسها في محطات محطّمة النوافذ مخلوعة الأبواب. وكانت القطارات تستقبل كلّ محطّةٍ بوابلٍ من السُّباب. كان الجنود بمعاطفهم الرماديّة يقفزون من سطوح العربات، ويُقلقلون بترابيس بنادقهم، وينطلقون ليبحثوا عن ناظر المحطّة ليقضوا في الحال على ذيل البرجوازيّة العالميّة هذا قائلين: «أعطنا قاطرة!..هل سئمت من الحياة، يا بن كذا وكيت، يا بن الكلب؟ دع القطار يخرج!..» ويهرولون نحو قاطرةٍ في الرّمق الأخير هرب منها سائقها ووقادها إلى السّهب. «أعطونا فحماً! خشباً! اكسروا الأسيجة، حطّموا الأبواب، والنّوافذ!».

قبل ثلاثة أعوام كانوا لا يسألون كثيراً: من تحارب، ولأيّ شيء؟. كأنّ السّماء انشقّت، والأرض زُلزلت: تعبئةٌ وحرب! وأدرك الناس أنّ زمن الأحداث المُريعة قد اقترب. انتهى نمط الحياة القديم. والسلاح في اليد. ولن يعودوا إلى ما كانوا عليه. مهما يكن من شيء. فقد تراكمت مظالم كثيرة على مرّ القرون.

وفي ثلاث سنوات من الحرب عرفوا ما هي الحرب. رشاشةٌ من أمام، ورشاشةٌ من خلف. وأنت منبطحٌ في الرّوث، بين القمل إلى أن تحين منيّتك. ثمّ سرت الرّعدة في الأجساد، والزّغللة في العيون. إنها الثورة!..أفاق الناس على أنفسهم. ونحن ما مصيرنا؟ هل سيخدعوننا من جديد؟ واستمعوا إلى الدعاة: إذن، كنا أغراراً من قبل، والآن يجب أن نكون عقلاء...حاربنا ما فيه الكفاية، فلنعد الآن إلى بيوتنا لتصفية الحساب. الآن نعرف أيّ كرش سنبقر بحربتنا. لا قيصر الآن ولا إله. لا أحد غيرنا. فلنعد إلى بيوتنا، ولنقسم الأرض!

ومرّت القطارات العسكريّة كالمحراث في السهول الروسيّة مُخلّفةً وراءها المحطات وقطارات السّكك الحديديّة المُحطّمة، والمدن الرّثّة. ومن القرى والضياع كان ينبعث صريف واحتكاك معدن بمعدن، حيث كانت ماسورات البنادق تُقطع بالمبارد. إنّ الروس قد استقروا في الأرض جدياً. وعادت الشّعل تُضيء الأكواخ كما في الأزمنة السّحيقة، والنساء يلففن الغزول على مناول جدات الجدات. وبدا وكأنّ الزمن قد ارتدّ إلى القرون الخوالي. كان ذلك شتاء، حين بدأت الثورة الثانية، ثورة أكتوبر...

إنّ بطرسبورغ الجائعة المنهوبة بالقرى، المباحة للريح القطبيّة، المطوّقة بجبهة معادية، المهزوزة بالمؤامرات، الفقيرة إلى الفحم والخبز، مدينة المصانع المُنطفئة المداخن، الشبيهة بدماغ إنسانٍ مكشوف كانت في ذلك الحين تذيع على موجات محطتها الإذاعيّة المُسماة «تسارسكويه سيلو» أفكاراً جنونيّةً مُتفجّرة.

صاح شابٌ نحيل من على القاعدة الغرانيتيّة للتمثال، وكان يلبس قبّعةً فنلنديّة أدار مقدّمتها نحو مؤخّر رأسه:

– أيها الرفاق، أيها الرفاق الهاربون من الجيش، لقد أدرتم ظهوركم إلى الامبرياليين الحُقراء... ونحن عمال بطرسبورغ نقول لكم: أصبتم فيما فعلتم، يا رفاق... نحن لا نريد أن نكون مرتزقة البرجوازيّة الدّمويّة. فلتسقط الحرب الامبرياليّة!

– تسقط، تسقط، تسقط...

سرى ذلك بتوازنٍ بين جمع الجنود الملتحين. كانوا يقفون أمام تمثال الامبراطور ألكسندر الثالث متعبين مُثقلين يحملون البنادق وصُرر المتاع على أكتافهم. كانت طبقةٌ من الثلج تُغطي تمثال القيصر الأسود الضخم الذي كان بوز حصانه القصير يتدلّى فوق الخطيب ذي المعطف الخفيف المفتوح.

– أيها الرّفاق... ولكن يجب ألا نُلقي البنادق! إنّ الثّورة في خطر. والعدوّ ينهض ضدّنا من أطراف الدّنيا الأربعة... وفي يديه الـمُفترستين أكوامٌ من الذّهب وسلاحٌ فتاكٌ رهيب... وهو يهتزّ الآن فرحاً، إذ يرانا نشرق بالدّم... ولكننا لن نفزع... إنّ سلاحنا هو إيمانٌ ملتهب في الثّورة الاجتماعيّة العالميّة... إنها ستحدث، وعن قريب...

وحملت الريح نهاية العبارة. توقّف عند التمثال رجلٌ واسع المنكبين مرفوع الياقة ليقضي حاجةً صغيرة. والظاهر أنّه لم يلحظ التّمثال ولا الخطيب ولا الجنود حملة الصّرر. إلا أنّ عبارةً معيّنة قد أثارت انتباهه فجأة، أو ربّما ليست العبارة بحدّ ذاتها، بل تلك الثّقة الهائجة التي قيلت بها من تحت بوز الحصان البرونزيّ:

– ... ولتكونوا على علم... إننا بعد نصف عامٍ من الزّمن سنقضي على أفظع شر، على النّقود... ولن تكون هناك مجاعة، ولا فقر، ولا

ذلّة...خذ قدر حاجتك من المستودع العام..يا رفاق، وسنبني بالذّهب مرافق عامّة...

ولكنّ ريحاً ثلجيّة هبّت في تلك اللحظة، ونفذت عميقاً في حلق الخطيب، فبدأ يسعل منحنياً بضيقٍ حانق، غير قادرٍ على أن يتخلّص من سعاله. وبدا وكأنّ رئتيه ستنفجران. تريّث الجنود بُرهة، واهتزّت قبعاتهم العالية، وانصرفوا. بعضهم إلى المحطّة، والبعض الآخر عبر المدينة إلى ما وراء النّهر. نزل الخطيب من القاعدة، ساحباً أظافره على غرانيتها الـمُتجمّد. ناداه الرّجل ذو الياقة المرفوعة بصوتٍ خافت:

– روبليف، مرحباً.

زرّر فاسيلي روبليف معطفه الخفيف وهو ما يزال يسعل. ونظر إلى إيفان إيليتش تليغين نظرة جفاء دون أن يمدّ له يده.

– ماذا؟ ما حاجتك؟

– أنا مسرورٌ بلقياك...

– هؤلاء الملاعين، غلاظ العقول...

قال روبليف وهو ينظر إلى معالم محطّة القطار غير الواضحة بسبب تساقط الثّلج، حيث ما زال أولئك الجنود الملتحون الموبوؤون بالقمل يتجمهرون جماعات وعند أقدامهم صُررهم. وأردف قائلاً:

– هل من المعقول أن تحرّك أدمغتهم؟ إنّهم يُولّون من الجبهة كالصراصير، خفاف العقول...الإرهاب ضروريٌّ معهم...

وقبضت يده الـمُتجمّدة على الريح الثلجيّة...وضربت بقبضتها شيئاً غير منظورٍ في تلك الريح. ثم تدلّت وسرت رعدة بردٍ في أوصاله...

– روبليف، يا عزيزي، أنت تعرفني جيداً (وأنزل تليغين ياقته، وانحنى نحو وجه روبليف التّرابيّ اللون)...اشرح لي الأمر، بحقّ الرّبّ...نحن نضع رقابنا في الأنشوطة...يستطيع الألمان، إذا شاؤوا، أن يكونوا في بتروغراد[٢] في غضون أسبوع...افهمني. أنا لم أهتمّ بالسّياسة في يومٍ من الأيام...

– ماذا تعني بأنّك لم تهتمّ بالسّياسة؟ –سأل روبليف وتحوّل إلى إيفان إيليتش بحركة هوجاء وقد تجهّم وجهه–بم اهتممت إذن؟ والآن أتعرف من الذي لا يهتمّ؟ –وتفرّس في عيني إيفان إيليتش بجنون– الحياديّ...عدوّ الشّعب.

– لهذا السّبب بالذات أردت أن أتحدّث معك...فتحدّث كما يتحدّث الناس.

وغضب إيفان إيليتش أيضاً. زفر روبليف الهواء بعمق من خلال أنفه.

– أنت غريب الأطوار، يا رفيق تليغين، ليس لي الوقت لأتحدّث معك. هل تستطيع أن تفهم ذلك؟

– اسمع، يا روبليف، أنا الآن في حالتي النفسيّة هذه...هل سمعت بأنّ كورنيلوف يُثير منطقة الدون؟

– سمعنا.

– إمّا أن أخرج إلى الدون...وإما أن أبقى معكم...

– ولماذا: "إما" هذه؟

٢– الاسم الذي أُطلق على بطرسبورغ من ١٩١٤ حتى ١٢٣٤. (المترجم).

– هكذا، يجب أن أؤمن بشيء... أنت إلى جانب الثّورة، وأنا إلى جانب روسيا... وربما أنا أيضاً إلى جانب الثورة. أنا، إذا كنت تعلم، ضابطٌ مُقاتل...

انطفأ الحنق في عينيّ روبليف السّوداوين، ولم يبق فيهما غير الإرهاق المسهد. قال:

– حسناً. تعال غداً إلى سمولني، وسل عني... روسيا–وهزّ رأسه مُبتسماً بتهكّم–إنّ روسياك هذه تجعل المرء يتميّز غضباً... تملأ العين دماً... ومع ذلك فإننا جميعاً نموت في سبيلها... اذهب الآن إلى محطّة البلطيق وستجد ما يقرب من ثلاثة آلاف هاربٍ من الجيش يقضون أسبوعهم الثالث مُنطرحين على الأرض... اجتمع بهم وحرّضهم على الوقوف إلى جانب السوفييتات... قل لهم: إنّ بتروغراد بحاجة إلى الخبز، ونحن بحاجةٍ إلى مُقاتلين... (وجفّت عيناه من جديد) قل لهم: إذا كنتم ستنبطحون على سطوح مواقدكم البيتيّة كسالى فإنّكم ستهلكون، مثل الجراء، وستجرّبون بجلدكم ما هي الثورة... دقّ هذه الكلمات في رؤوسهم!.. لا أحد يستطيع الآن أن يُنقذ روسيا، وأن يُنقذ الثورة غير السُّلطة السوفييتية.. فهمت؟ لا شيء في العالم الآن أهمّ من ثورتنا...

ارتقى تليغين السُّلّم المُتجمّد في الظّلام إلى شقّته في الطابق الخامس. تلمّس الباب في الظُّلمة، وطرق ثلاث طرقات، وطرقةً منفردة. سمع وقع أقدامٍ في الداخل تقترب من الباب. وبعد بُرهةٍ من الصّمت سأل صوت زوجته الخافت:

– من؟

– أنا، أنا... داشا.

وسمع تليغين زفرات خلف الباب. صلصلت سلسلة وظلّ القفل مُستعصياً عن الدّوران وقتاً طويلاً. وكان يسمع همس داشا: «آه، يا ربّي، يا ربي». وأخيراً أفلحت في فتح الباب. وحالما فعلت ذلك غابت في ظلمة الممرّ لتجلس في مكانٍ ما.

أحكم تليغين إغلاق الباب بكلّ الأقفال والزّلاليج. وخلع الكالوش. وتلمّس جيوبه بحثاً عن الكبريت. اللعنة، لا يوجد كبريت. مدّ ذراعيه إلى الأمام دون أن يخلو معطفه وقبّعته، واتّجه إلى حيث غابت داشا. قال:

– استهتار، بلا ضوء مرّةً أخرى. داشا، أين أنت؟

أجابت من غرفة المكتب بصوتٍ خافت بعد بُرهةٍ من الصمت:

– أضاء تليغين غرفة المكتب، وكانت أدفأ غرفة في الشّقّة كلها، إلا أنها هي الأخرى كانت باردةً اليوم. أمعن النّظر ولكنه لم يتبيّن شيئاً، بل ولم يسمع أنفاس داشا. وكان جائعاً جداً، ويودّ بشكلٍ خاص أن يحتسي شاياً. إلا أنه أحسّ بأنّ داشا لم تعدّ شيئاً.

أنزل ياقت معطفه، وجلس على الكرسيّ قرب الأريكة ووجُهه إلى النافذة. كان ضوءٌ أغبش يراود الظلام الثلجيّ. وكان ضوء كشّافٍ يحوم في السماء طالعاً من كرونشتادت أو من مكانٍ قريبٍ منها.

وفكّر إيفان إيليتش مع نفسه: "لطيفٌ لو أشعل الموقد الآن. ولكن كيف أسأل داشا عن مكان علبة الثقاب دون أن أزعجها"؟

غير أنه لم يحزم أمره. ودّلو يعرف ماذا تفعل الآن: تبكي أم تهوم

نعسى؟ كان الهدوء شاملاً. خيّم سكون الصحراء على البيت ذي الطوابق الخمسة كلّه. لا شيء غير صدىً خفيف لطلقات نادرة تُطلق في مكانٍ ما. وفجأةً احمرّت مصابيح الثريا السّتّة قليلاً، وتنوّرت الغرفة بضوءٍ أحمر خافت. كانت داشا جالسةً إلى المكتب واضعةً معطفها الفرائيّ على ما عليها من ثياب، وقد مدّت إلى الأمام ساقاً واحدة في حذاء لباديّ. كان رأسها مُستقراً على المكتب، وخدّها على نشافة ورق. الوجه نحيلٌ معذّب، والعين مفتوحة. أبقتها مفتوحة وهي جالسةٌ تلك الجلسة غير المريحة وغير الطّبيعيّة، حسب ما اتّفق...

– عزيزتي داشا، لا يجوز ذلك، على أيّ حال.

قال تليغين بصوت كامد. فقد أشفق عليها إشفاقاً لا يُطاق أبداً. جاء إلى المكتب، إلا أنّ الخيوط الحمراء في المصابيح ارتعشت وانطفأت. لم يستمرّ الضّوء غير بضع ثوانٍ.

توقّف وراء داشا، وانحنى عليها ممسكاً أنفاسه. لا أسهل من أن يُمسّد شعرها صامتاً، على الأقلّ. إلا أنها كالجثّة لم تبد استجابةً لاقترابه منها.

– داشا، لا تُعذبي نفسك بهذا الشّكل...

قبل شهرٍ ولدت داشا طفلاً توفّي في اليوم الثالث من ميلاده. كانت الولادة مبتسرة، تمّت بعد صدمة عصبيّة فظيعة أصابت داشا حين بوغتت في الشّفق بشخصين ملفوفين بكفنين مُتطايرين في الريح فارهين بشكلٍ لاإنسانيّ هجما عليها وهي في ميدان «مارسوفوبوليه». وإنهما، بالتأكيد، من أولئك «القفازين» الذين كانوا يربطون أقدامهم بزرنبكاتٍ خاصّة، وينشرون الرّعب في بتروغراد كلّها في تلك

الأوقات الفريدة. وأخذا يُكشّران أسنانهما لداشا، ويُصفّران لها. وعندما سقطت مغشياً عليها انتزعا معطفها من عليها، وولّيا هاربين عبر جسر لبياجي. بقيت داشا فترةً من الوقت مُنطرحةً على الأرض. وهطل المطر مدراراً، وضجّت أشجار الزّيزفون الجرداء في حديقة ليتني ضجيجاً موحشاً، وصرخ شخصٌ وراء نهر «فانتانكا» صرخةً ممطوطة: «النجدة!» وأحسّت داشا بأنّ الطّفل يرفس في بطنها، يُريد الخروج إلى هذا العالم.

كان يُطالب، فنهضت داشا، وعبرت جسر ترويتسكي. كانت الريح تضغطها على درابزين الجسر الحديديّ، وثوبها المُبلّل يلتصق بين ساقيها. وما من ضوء، ولا عابر سبيل. والنيفا تحتها أسود الماء مضطرب. وأحسّت داشا بعد أن عبرت الجسر بأوّل نوبةٍ من الألم، وأدركت أنها لن تستطيع بلوغ البيت، فأرادت فقط أنْ تصل إلى شجرة، وتحتمي من الريح. وفي شارع كراسنيه زوري أوقفها جنديٌّ من جنود الدّوريّة. أمسك بندقيّته، وانحنى على وجهها الشاحب شحوب الموت.

– خلعوا ثيابك، الأوغاد! أوه، وأنت حبلى.

وأوصل داشا إلى دارها، وسحبها إلى الطابق الخامس. طرق الباب بأخمص بندقيّته، وحين أطلّ تليغين برأسه صاح به:

– أليس جميلاً أن تترك زوجتك ليلاً في الشارع لوحدها وهي على وشك أن تضع؟ أيها البرجوازيّ اللعين، العديم التّدبير...

وبدأ المخاض في نفس الليلة. جاءت إلى الشّقة قابلةٌ ثرثارة. واستمرّت آلام المخاض أربعاً وعشرين ساعة. وخرج الوليد حبيس

الأنفاس بسبب ما ابتلع من ماء. طبطبت القابلة عليه، ودلّكته، ونفخت في فمه. فتلوّى وجهه وأنشأ يُوَلْوِل. و لم تيأس القابلة رغم أنَّ الوليد أخذ يسعل. وظلّ يولول مُتشكياً كالقطيطة، و لم يرضع ثدي أمّه. ثمّ كفّ عن الولولة، وبقي ينطّ فقط. وفي صباح اليوم الثالث مدّت داشا ذراعها إلى المهد، ثم سحبتها حين مسّت جسده البارد. رفعته بسرعة، وفكّت لفائفه. كان شعره الخفيف الفاتح اللون يقف منتصباً على جمجمته العالية.

أرسلت داشا صرخةً وحشيّة. وقفزت من الفراش إلى النافذة لتكسرها، وتقذف نفسها منها، وتنهي حياتها...وراحت تُكرّر: "غدرت به، غدرت به...لا أطيق، لا أطيق!". ووجد تليغين صعوبةً كبيرة في تهدئتها وإرقادها. وأخرج الميّت الصّغير. قالت داشا لزوجها:

– جاءه الموت حين كنت نائمة. تصوّر أنّ شعره قد وقف على رأسه...تعذّب لوحده...وأنا كنت نائمة...

و لم يستطع شيءٌ أن يُبعد عن خيالها رؤيا مصارعة الطّفل وحده للموت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

– حسناً، يا إيفان. سأكفّ عن ذلك.

أجابت بذلك تخلّصاً من سماع صوت زوجها الرّصين، ورؤية وجهه المُعافى المورّد و«المستبشر» رغم كلّ حرمان.

كانت عافية تليغين الطافحة تُمكّنه من أن يضرب في المدينة بكالوش رثّ من الفجر إلى ساعة متأخّرة من اللّيل بحثاً عن عمل مُساعد، وعن طعام، وحطب، وغير ذلك. وكان يهرع عدّة مراتٍ إلى البيت، مظهراً قدراً غير اعتياديٍّ من العناية والاهتمام.

إلا أنّ هذه العناية الناعمة بالذات هي أبعد ما تحتاجها داشا في اللحظة الراهنة. كلّما أسرف إيفان إيليتش في إظهار فعاليّة عمليّة ازداد ابتعاد داشا عنه بشدّة. كانت تقضي النّهار بكامله جالسةً في الغرفة الباردة. وإذا ألّمت بها سنةٌ من نوم، فذلك شيءٌ رائع. عند ذاك ستغفو، وتمرّر يدها على عينيها، وتحسّ بشيءٍ من الارتياح. فتذهب إلى المطبخ مُتذكّرةً أنّ إيفان إيليتش طلب إليها أن تصنع شيئاً ما. إلا أنها لم تستطع أن تقوم حتى بأهون الأعمال. وكان مطر أواخر الخريف يدقّ زجاج النّوافذ، وتصخب الريح فوق بطرسبورغ. وفي هذا البرد يرقد جسد طفلها الميّت الذي لم يكن قادراً حتى على الشّكوى، يرقد في مقبرةٍ عند ساحل البحر...

أدرك إيفان إيليتش أنها مريضةٌ نفسياً. كان انطفاء الكهرباء كافياً لأن يجعلها تنزوي على كرسيٍّ في أحد الأركان، وتغطّي رأسها بلفاح، وتغيب في كآبة يائسة. بينما كان على الإنسان أن يعيش، أن يعيش... كَتبَ عنها إلىٍ أختها يكاترينا دميتريفنا في موسكو، إلا أنَّ الرسائل لم تصل. ولم تُجب كاتيا، أم لعلها هي الأخرى قد أصيبت بمكروه. لقد كانت الأوقات صعبة.

وقعت قدم إيفان إيليتش على علبة الكبريت بينما كان يُراوح وراء ظهر داشا. وعرف على الفور: حين كانت الكهرباء تنطفئ كانت داشا تُصارع الظّلام والوحشة مُكتفيةً بإشعال عود ثقاب من حينٍ إلى آخر. قال إيفان إيليتش لنفسه: "يا ويحي، وهي وحيدةٌ طوال النّهار".

رفع العلبة بحذر، ووجد فيها بضعة أعواد. جلب من المطبخ عيدان الحطب التي نشرها صباحاً بعناية من بقايا صوانٍ قديم. وقرفص في

غرفة المكتب، وأخذ يوقد النار في الموقد الحديديّ الصغير المرصوف بالآجر ذي المدخنة الحديديّة الـمُمتدّة بعاكس عبر الغرفة كلها. ونشر دخان الخشب الـمُشتعل رائحةً مريحة، وهبّت نفحة ريح في شقوق باب الموقد. وانعكست على سقف الغرفة دائرةٍ من الضوء الرجراج.

إنّ هذه المواقد المصنوعة بيتياً اشتهرت فيما بعد باسم "النّحلة". وأدّت خدمات كثيرة للبشريّة طوال فترة الشيوعيّة العسكريّة. وهي حديديّةٌ ذات أربع أرجلٍ، ومنها البسيطة ذات عين طبخ واحدة أو الـمُعقّدة ذات فرنٍ داخليّ يمكن أن تشوي فيه الـمُعجّنات من رواسب القهوة، بل وحتى الفطائر المحشوّة بالسّمك الـمُجفّف، أو الـمُترفة منها المرصوفة بالصفائح المنزوعة من المصطليات. فقد كانت تُستخدم للتدفئة والطّبخ والخبز وترنيم أغاني النّار العريقة مصحوبةً بعويل العاصفة الثلجيّة.

وكان الناس يجتمعون حول جمراتها مثلما كان القدامى يجتمعون حول كانون النار في الأزمنة الغابرة، يدفئون أيديهم الـمُتثلّجة منتظرين تراقص الغطاء على السخان مُتجاذبين أطراف أحاديث لم يُسجّلها أحدٌ مع الأسف. وكان الأساتذة بلحاهم الكثيفة والأحذية اللباديّة في أرجلهم، واللفاحات على أكتافهم يقرّبون كراسيهم الكسيحة منها، ويكتبون كتباً مُدهشة. وكان الشعراء الضاوون من الجوع ينظمون القصائد عن الحبّ والثورة. وكان المتآمرون المتحلقون المتقاربو الرؤوس يتهامسون بأخبارٍ يفوق أحدها سابقه بالإغراب في الخيال. وكان الكثير من الأثاث الـمُمتاز الأثريّ يُحرق مُتحوّلاً إلى دخانٍ يتطاير من خلال المداخن الحديديّة في تلك السّنوات.

كان إيفان إيليتش يُحبّ موقده كثيراً. وقد ملط شقوقه بالطين،

وعلّق علب التّنك تحت مدخنته لكيلا يتساقط السّخام على الأرض. حين غلى السّخّان أخرج كيس ورق، ونثر سكراً ناعماً في قدح وزاد منه ليحلو أكثر. وأخرج من الجيب الآخر ليمونةً وقعت في يديه اليوم بأعجوبة (بادلها بقفازين عنه أحد مشوّهي الحرب في جادّة نيفسكي) وأعدّ شاياً حلواً بالليمون، ووضعه أمام داشا.

– داشينكا[٣]، هذه بالليمون...والآن سأوقد المسرجة. كانت هذه المسرجيّة عبارة عن علبة حديديّة، معبّأة بزيت عبّاد الشّمس تطوف فيها فتيلة. جلب إيفان إيليتش المسرجة. وتنوّرت الغرفة بضوءٍ باهت.

كانت داشا تجلس الآن في كرسيّها في وضعٍ طبيعيّ تحتسي الشاي. جلس تليغين على مقربةٍ منها شديد الرضى.

– أتدرين بمن التقيت؟ بفاسيلي روبليف. هل تذكرين روبليف الأب وروبليف الابن؟ كانا يشتغلان في ورشتي. كانت بيننا صحبةٌ كبيرة. الأب ذو العين النافذة. قدمٌ في الريف، وقدمٌ في المصنع. رجلٌ مُدهش! أما فاسيلي الذي كان بلشفياً حتى في ذلك الحين فهو فتىً ذكيّ، مُحنقٌ كالشيطان نفسه، كان أوّل من أخرج عُمال مصنعنا إلى الشارع في شباط. وكان يتسلّق إلى عليات البيوت باحثاً عن رجال الشرطة. ويقولون إنّه قَتل لوحده خمسة أو ستّة رجالٍ منهم...وبعد انقلاب أكتوبر صار من ذوي النّفوذ. جرى حديثٌ بيني وبينه...هل تسمعينني يا داشا؟

قالت: أنا سامعة. ووضعت القدح الفارغ، وأسندت خدّها على يدها المضمومة النحيلة، وحدّقت في اللهب الـمُتطاير من المسرجة...

٣– صيغة تدليل من اسم داشا (الاسم الكامل داريا). (الـمُترجم).

كانت عيناها الرماديتان تنمّان عن عدم اكتراث لكلّ ما في العالم، وكان وجهها ناصلاً، وبشرتها الرقيقة شفافة، وأنفها الصّغير الذي كان من قبل أنوفاً بل ونزقاً يبدو مُدبّباً الآن.

قالت لتُبدي شكرها على الشاي بالليمون على الأرجح:

– إيفان. كنت أبحث عن علبة ثقاب فوجدت علبة سكائر وراء الكتب. إذا كنت تريد...

– سكائر! إنها من سكائري القديمة الـمُفضّلة، يا داشينكا.

وأظهر إيفان إيليتش فرحاً مُبالغاً به، رغم أنّ هذه العلبة قد خبّأها بنفسه لوقت الشّدّة. أشعل سيكارة، ونظر من طرف عينه إلى بروفيل داشا الخالي من الحياة. وحدّثته نفسه: «أبعدها عن هنا، إلى منطقةٍ دافئة، إلى الشّمس».

– لنعد إلى كلامنا، تحدّثتُ مع فاسيلي روبليف فساعدني كثيراً، يا داشا...لا أعتقد أنّ هؤلاء البلاشفة سيختفون فجأة. وجوهر الأمر كلّه في أمثال روبليف. هل تفهمين؟ حقاً إنّ أحداً لم ينتخب البلاشفة. وسلطتهم مُعلّقةٌ بشعرة، وهي مُنحصرةٌ في بتروغراد وموسكو وبعض مراكز الـمُحافظات...ولكنّ السرّ كلّه يكمن في نوعية السُّلطة...إنّ لهذه السُّلطة صلة الرحم بأمثال فاسيلي روبليف...وهم ليسوا كثيرين في بلادنا. إلا أنّ لهم إيماناً. قد تمزّقه السباع والنّمور، وقد يُحرق حياً، ولكنه سيظلّ ينشد النشيد الأمميّ مُتهلّلاً...

ظلّت داشا على صمتها. حرّك إيفان إيليتش الحطب في الموقد. وقال وهو مُقرفصٌ أمام بابه:

– أتفهمين ما أرمي إليه في كلامي؟...يجب أن أميل إلى هذا الجانب أو ذاك. ليس من اللائق أن أقعد وأنتظر حتى تستقرّ الأمور على حالٍ من الأحوال...ومن العار أن أجلس على قارعة الطريق أستجدي. أنا رجلٌ مُعافى، ولست مُخرباً...ويداي مشتاقتان إلى عمل شيءٍ ما، إذا أردت الحقيقة...

تنهّدت داشا، وانطبق جفناها، وتحدّرت قطراتٌ من الدّمع من تحت أهدابها. واستنشق إيفان إيليتش الهواء من منخريه.

– من الطّبيعيّ أنّ علينا أن نبتّ بأمرك قبل كلّ شيء، يا داشا... ينبغي أن تُلملمي شتات قوّتك وتنتعشي. فإنّ الطّريقة التي تعيشين بها هي الانطفاء بعينه.

ولم يضبط نفسه، فشدّد على كلمة «انطفاء» بغيظ. وعندئذٍ تكلّمت داشا بصوتٍ طفوليٍّ شاكّ:

– وهل أنا ملومةٌ لأني لم أمت آنذاك؟ والآن أعيقك عن الحياة... أنت الذي جلبت لي الليمونة...أنا لا أطلب منك...

راح إيفان إيليتش يذرع الغرفة مُحدّثاً نفسه: «تلك هي نتيجة الحديث معها!» ونقر بأظافره على زجاج النافذة الذي اكتست بطبقةٍ من البخار. كان الثّلج يدوم في الخارج، والزّوبعة الثّلجيّة تعول، والريح الضارية تنطلق بسرعةٍ شديدة، وكأنّها تستبق الزّمن نفسه، وتنفذ إلى الأزمان الـمُقبلة لتُعلن عن أحداثٍ غير اعتياديّة. وفكّر إيفان إيليتش مع نفسه: «هل أرسلها إلى خارجِ البلاد؟ أم إلى أبيها في سامارا؟ ما أصعب تنفيذ ذلك...ومع ذلك من الـمُستحيل الاستمرار على هذا النّمط من الحياة...»

أخذت يكاترينا دميترييفنا، أخت داشا. زوجها فاديم بتروفيتش روتشين إلى أبيها في سامارا، حيث كان من الـمُمكن أن يعيشا بهدوء، حتى الربيع، دون أن يتلفا أعصابهما على كلّ كسرة خبز. إنّ سلطة البلاشفة ستنتهي، لا محالة، مع إقبال الربيع. بل إنّ الدكتور دميتري ستيبانوفيتش بولافين حدّد مواعيد دقيقة وهي: ما بين ذوبان الثلج وبدء أوحال الربيع سيشنُّ الألمان هجوماً على طول الجبهة، حيث كانت فلول الجيوش الروسيّة مُنشغلة بالاجتماعات والخطابات، ولجان الجنود تُجاهد، وسط الفوضى والخيانة والهروب من الوحدات، لإيجاد أشكالٍ جديدة للانضباط الثّوريّ.

إنّ دميتري ستيبانوفيتش قد شاخ خلال الأعوام الأخيرة، وعاش حياةً محدودة، وازدادت أحاديثه عن السياسة. وقد انشرح للغاية بمجيء ابنته، وانخرط فوراً في تحويل تفكير روتشين السياسيّ. فكانا يجلسان ساعاتٍ طوالاً في غرفة الطعام حول السماور (الآلة الضخمة الـمُجعدة السطح الذي سكب من بطنه بحيرةً كاملة من الماء الفاتر وحنكته الشيخوخة، فما أن تُلقي فيه فحماً حتى ينشأ يُغني أغاني السماور الريفيّة مدّةً طويلة). كان دميتري ستيبانوفيتش الـمُهمل الهندام، المترهّل البدين بخصائل شعره الشائبة الجعداء غير المصفوفة يُدخّن سكائر كريهة الرائحة، وسعل مُحمراً، ويظلّ يتكلّم بلا انقطاع...

– بلادنا المسكينة وقعت في داهية...لقد خسرنا الحرب..فلا يغضبك قولي هذا، يا حضرة المقدّم. كان يجب أن يعقد الصلح في عام ١٩١٥...وأن نخضع للألمان ونتعلّم على أيديهم. في هذه الأحوال تعلّمنا منهم شيئاً ويمكن أن نكون بشراً. أما الآن فقد قُضي الأمر...

والطّبّ عاجزٌ في مثل هذه الحال، كما يقولون...لا حاجة إلى هذا الكلام، أرجوك!..بأيّ شيء سندافع؟ بالمذراة الثّلاثيّة الأسنان؟ في هذا الصيف سيحتلّ الألمان كلّ المنطقة الجنوبيّة والوسطى من روسيا، ويحتلّ اليابانيون سيبيريا، ويطردون فلاحينا إلى الدائرة القطبيّة، ويبدأ النظام والثقافة، ومرقف الاحترام من الفرد...وستكون عندما روسلاند...وذلك يرضيني كلّ الرضا...

كان دميتري ستيبانوفيتش ليبرالياً قديماً وهو الآن يسخر بتهكّم مرير على ما كان «مقدّساً» في الماضي. وحتى بيته انطبع بهذا الطابَع من الازدراء النفسيّ. فالغرف بنوافذها المُتربة لم تكن تُنظّف، وصورة منديلييف في غرفة المكتب مُبرقعةٌ بنسيج العنكبوت، والنباتات تذبل في أحواضها، والكتب والأبسطة واللوحات ما زالت في الصناديق تحت الأرائك منذ أن كانت داشا هنا، لآخر مرّة، في عام ١٩١٤.

وحين انتقلت السُّلطة في سامارا إلى سوفييت النواب، وامتنعت غالبيّة الأطباء عن العمل مع "نوّاب الكلاب وسراطين البحر" عُرض على دميتري ستيبانوفيتش منصب المُدير العام لمُستشفيات المدينة. وقد أقبل المنصب لتقديره بأنّ الألمان سيدخلون سامارا في الربيع على أيّة حال. كانت هناك أزمةٌ في الأدوية، فكان دميتري ستيبانوفيتش لا يستخدم غير الحقن الشّرجيّة، ويقول لمساعديه. وهو ينظر إليهم باستعلاء ساخرٍ من خلال نظارته الأنفيّة المصدوعة: "المعدة بيت الداء". والناسُ خلال الحرب لم ينظفوا معدهم. نقّبوا في العلل الأصليّة لفوضانا الكريمة تجدوها في المعدة المُمتلئة بالأوساخ. أجل، يا سادة...استخدموا الحقن الشّرجيّة مع كلّ واحدٍ بالتّأكيد..."

إلا أنّ الأحاديث حول مائدة الشاي كانت ترهق روتشين

وتضايقه. لم يبل بعد من الرّجة التي سبّبتها له قنبلةً انفجرت بالقرب منه أثناء معركة في أحد شوارع موسكو في أوّل تشرين الثاني، حين كان يقود سريّة من طلاب المدارس العسكريّة مُدافعاً عن مشارف بوابة نيكيتسكيه. وكان سابلين في صفّ البلاشفة يُهاجم من ناحية ساحن ستراستنايا. وكان روتشين يعرف سابلين منذ سنوات التلمذة في موسكو صبياً ملاكيّ الوجه ذا عينين زرقاوين تصطبغ وجنتاه بحمرة الخجل. وكان غريباً جداً أن يُقارن المرء ذلك الشاب الـمُنحدر من عائلة مثقّفين من سكان موسكو القديمة بهذا البلشفيّ الـمُتحمّس، أو الاشتراكيّ—الثّوريّ اليساريّ—أو سمّه ما شئت من الأسماء—بمعطفه الطّويل والبندقيّة يركض مُراوغاً وراء أشجار الزّيزفون في بولفار تفيرسكوي الذي تغنّى به بوشكين، وحيث كان سابلين إلى زمن غير بعيد، حين كان طالباً نجيباً، يتمشى فيه متأبطاً كتاب نحو: "يا سيّد سابلين أنت تحارب لتخون روسيا والجيش، وتفتح الطريق للألمان، وتُطلق الوحش الكاسر!..ربما من الـمُمكن أن تعذر المراتب الدّنيا، هذه البهائم الناخرة، ولكن أنت..." وأصبح روتشين نفسه مبطوحاً وراء رشاشة (في خندقٍ صغير في زاوية شارع مالايا نيكيتسكاريا، عند حانوت تشيتشكين للألبان) وعندما وثبت قامة سابلين الرشيقة بمعطفه الطويل مرّةً أخرى من وراء شجرة شقّها بالرصاص. انفلتت البندقيّة من يدي سابلين وقعد على الأرض مُمسكاً فخذه قرب أربيّته. وفي تلك اللحظة تقريباً قذفت شظيّةٌ القبّعة من على رأس روتشين. وفقد القدرة على الحركة.

في الليلة السابعة من القتال في موسكو خيّم ضبابٌ أصفر كثيف. وهدأت لعلعة الرصاص. وظلّت تُقاتل شراذم منفردة معزولة من

طلاب المدارس العسكريّة، والطلاب الآخرين والموظفين. إلا أنّ لجنة الأمن العام برئاسة الطبيب في مستشفى البلديّة يُدعى رودنيف قد اختفت عن الوجود. وسطرت على موسكو قوات اللجنة الثوريّة. وفي اليوم الثاني كان في وسع الـمُشاهد أن يرى في شوارع المدينة فإنّ أحداً لم يكن يعترضهم.

ولو لم يصب روتشين بتلك الصّدمة لرحل هو الآخر. ولكنّ شللاً خفيفاً قد ألمّ به، ثمّ عمي (مؤقتاً)، وبعده اعتلالاً في القلب. وكان ينتظر ظهور قوات القيادة العليا بين لحظةٍ وأخرى وبدء المدافع من عيار ست بوصات بقصف الكريملين من تلال فوربيوفو. إلا أنّ الثورة كانت قد بدأت من توّها بالتغلغل في أعماق الجماهير. وأقنعت كاتيا زوجها بالسفر، ونسيان البلاشفة والألمان لفترةٍ من الوقت.

وخضع فاديم بترفيتش. ونزل في سامارا لا يفارق شقّة الطّبيب. كان يأكل وينام. ولكن كيف له أن ينسى! كان يصكّ فكّيه وهو يتصفّح كلّ يوم "أنباء سوفييت سامارا" المطبوعة على ورق تغليف. فقد كان كلّ سطرٍ فيها يلذعه كالسّوط.

جماهير غفيرةٌ من الناس تسير خلف النقاب الكثيف الذي أثارته العاصفة الثلجيّة، تسير متلازمة الأيـدي، في جماعات، صارخةً ضاحكة. معاطف عسكريّة، فـروات، نساء، صبايا. إنّ روسيا الأصليّة، الرماديّة كانت تتدفّق... من أين جاء هذا العدد الضّخم؟

غار قفا روتشين الأشيب المتوتّر المرتاب بين كتفيه. مسّت كاتيا كتفه بخدّها. إنّ الحياة التي تمرّ وراء النافذة العالية لم تكن مفهومةً لها. قالت:

– فاديم، انظر أيّة وجوه مستبشرة...أمِنَ المعقول أنّ هذه نهاية الحرب؟ شيءٌ لا يُصدّق. إنها سعادةٌ عظيمة...

ابتعد روتشين عنها، وعصر يديه وراء ظهره، وكانت إضمامة شفتيه حادّة.

– فرحٌ مُبستر...

كان خمسة أشخاصٍ يجلسون في غرفةٍ صغيرةٍ معقودة السّقف، وهم في سترٍ مجعّدة، وقمصانٍ من القماش الخَشن من تلك التي يلبسها الجنود. كانت وجوههم مسودّةً من أثر السّهاد. وعلى منضدةٍ غطّيت بقماش من الصوف محروق كانت أقداح الشاي وأجهزة التلفون تقف بين الأوراق، وأعقاب السكائر، وكسر الخبز. وكان الباب يُفتح أحياناً على ممشىً مملوء بضجيج الناس، ويدخل عسكريٌّ عريض المنكبين يشدّ عليه أحزمةً كثيرة، جالباً معه أوراقاً للتوقيع.

وكان الرئيس، خامس الجالسين إلى المائدة، وهو رجلٌ ربع القمة في سترةٍ رماديّةٍ قصيرة يجلس في كرسيٍّ وثير لا يتناسب ارتفاعه مع قامته، فيبدو كالغافي. كانت يده اليسرى موضوعةً على جبينه حاجبةً عينيه وأنفه فلا يرى الناظر إليه غير فمه الـمُستقيم بشاربه الخشن، وخدّه غير الحليق بعضلته الـمُختلجة. والذين كانوا يعرفونه عن كثب كانوا من الـمُمكن أن يحسوا بأنّ عينيه الثاقبة الذكيّة تنظر من خلال فرجات الأصابع التي تُغطي وجهه بإعياءٍ إلى الـمُتكلّم، وتلحظ التغيّرات على وجوه الـمُجتمعين.

كانت التلفونات تدقّ بشكلٍ متواصل. فكان الرّجل ذو المنكبين العريضين والأحزمة الكثيرة يرفع السماعات، ويقول بصوتٍ منخفضٍ

حادّ النبرة: "مجلس مفوضّي الشعب، اجتماع، لا يجوز..." وبين الحين والآخر يصطدم شخصٌ بالباب من جهة الممشى، وتدوّر مقبض الباب النّحاسيّ. ووراء النوافذ كانت الريح تعصف من جهة البحر، وتضرب الزّجاج بحبّات الثّلج والمطر.

انتهى الـمُتكلّم، وأطرق بعض الجالسين برؤوسهم، وطوّقها البعض الآخر بيديه. وحرّك الرّئيس كفّه إلى الأعلى ووضعها على جُمجمته الصّلعاء، ودوّن ملاحظةً على قصاصة ورق، وخطّ تحت كلمة ثلاثة خطوط حتى نفذ سنّ القلم في الورق ونقل القصاصة إلى الشّخص الثالث على يساره، وهو رجلٌ نحيل ذو شاربين أسودين، وشعرٍ منصب.

قرأ الرجل الثالث قصاصة الورق، وابتسم تحت شاربين، وكتب جواباً على نفس القصاصة...

ألقى الرئيس نظرةً مُتمهّلةً على النافذة، حيث كانت الزوبعة الثلجيّة تزمجر وراءها، وقطع القصاصة إلى مزقٍ صغيرة. وتحدّث بصوتٍ أصمّ:

– الخطيب على حقّ. لا يوجد جيش، ولا أطعمة. نحن ندورُ في خواء. والألمان يُهاجمون، وسيهاجمون. إنّ الخطيب على حقّ...

فقاطعته أصوات:

– أهذه النهاية؟ ما المخرج؟ نستسلم؟ نلجأ إلى العمل السّريّ؟

– ما المخرج؟ (وقلّص عينيه). المخرج في القتال. القتال الشّديد. في تحطيم الألمان. إذا لم نحطّمهم الآن فسنتراجع إلى موسكو. وإذا

استولى الألمان على موسكو فسنلجأ إلى الأورال. ونؤسّس جمهوريّة أورال–كوزنيتسك. فهناك الفحم والحديد والبروليتاريا المكافحة. وسنجلي عُمال بتروغراد إلى هناك، إنه عملٌ جليل. وإذا اقتضت الضّرورة فسنتراجع حتى إلى كامتشاتكا. شيءٌ واحدٌ يجب ألا يغيب عن الأذهـان: الحفاظ على طليعة الطّبقة العاملة، وعدم السماح بتدميرها. سنحتلّ موسكو وبتروغراد من جديد... سيتغيّر الوضع في الغرب عشرين مرّة. ليس من شيخ البلاشفة أن يدلوا أنوفهم، وينكسوا رؤوسهم...

وقفز من كرسيّه العالي بحيويّةٍ غير اعتياديّة، وجرى–ويداه في جيبيه–إلى الباب البلوطيّ، وفتح نصفه. فاتّجهت نحوه وجوه عُمال بتروغراد النّحيلة الـمُتغضّنة المشوربة وعيونهم الـمُلتهبة مُتطلّعةً إليه من الممشى، من الأبخرة الكثيفة والضّوء الشاحب...

رفع يده الكبيرة، الـمُلطّخة بالحبر:

– أيها الرفاق، إنّ الوطن الاشتراكيّ في خطر!..

- ٢ -

في أوائل الشتاء كان سيلانٌ من الجموع البشريّة يلتقون في محطّات ملتقى الخطوط الحديديّة في جنوب روسيا. كان رجال المجتمع والعسكريون في ملابس مدنيّة، وأصحاب الأعمال، ورجال الشّرطة والملاكون من أصحاب الضّياع المحروقة، والمحتالون، والـمُمثّلون والكُتّاب وموظّفو الحكومة، والمراهقون الذين أحسوا بعودة زمن فنيمور كوبر، وبعبارةٍ مختصرة سُكان العاصمتين بألوانهم الـمُختلفة الذين كانوا غارقين في الصّخب والضّوضاء إلى حينٍ بعيد، كلّ هؤلاء الناس كانوا ينزلون من الشمال هاربين من الفظاعة الـمُريعة إلى المناطق الغنيّة في القمح في أحواض الدون وكوبان وتيريك.

ومن الجنوب، من الاتّجاه الـمُقابل كان جيشٌ ما وراء القفقاس ذو المليون رجل يزحف كالكتلة الـمُتماسكة بأسلحته ومدافعه وقذائفه، وعربات الملح والسكّر والأنسجة. وعند الملتقى كان يحدث زحامٌ ينشط فيه جواسيس الحرس الأبيض. وكان القوزاق يأتون من قراهم ليشتروا السّلاح، وكان الفلاحون الأغنياء يبادلون الحبوب وشحم الخنزير بالقماش. وانتشر اللصوص والنشالون الذين كانوا يجندلون ضحاياهم في المكان الذي يمسكونهم فيه، على الخطوط الحديديّة.

وكانت حواجز الحماية التي تقيمها الفصائل الحمراء قليلة المفعول، فقد كانت تخرق كنسيج العنكبوت. هنا كانت سهوب وحريّة، ومواطنٌ

للقوزاق الأحرار منذ أقدم العصور. كان كلّ شيءٍ هنا متزعزعاً زائلاً لا وضوح فيه. اليوم تجد الأغراب وفقراء الفلاحين يتغلبون، وينتخبون سوفييتا للنواب، وغداً ترى القوزاق يفرّقون الشيوعيين بالسّيوف، ويرسلون مبعوثاً–ورسالة المبايعة داخل قبّعته–إلى الأتمان كاليدين في نوفوتشيركاسك. أما السلطة السوفييتيّة فلا يعبأ لها أحدٌ هنا.

ولكنّ السّلطة السوفييتيّة أخذت في نهاية تشرين الثاني تظهر الجديّة في بسطها. أُنشئت الفصائل الثوريّة الأولى–من البحارة والعُمال وجنود الجبهة الذين بلا مأوى يتنقلون في قطاراتٍ شبه محطّمة. وكانوا لا يخضعون كثيراً للقيادة، ويعربدون، ويقاتلون بشراسة، إلا أنهم كانوا يتراجعون عند أقلّ إحباط، ويُهدّدون في اجتماعاتٍ حاشدة يعقدونها بعد المعركة بتقطيع أوصال رؤساء الوحدات.

كانت مناطق الدون وكوبان حسب الخطّة الموضوعة آنذاك مطوّقةً من الجهات الأساسيّة الثلاث؛ كان سابلين يتحرّك من الشمال الغربيّ فاصلاً الدون عن أوكرانيا، وسيفرس يزحف إلى روستوف ونوفوتشيركاسك بنصف دائرة، وفصائل بحّارة البحر الأسود تضغط من نوفوروسيسك. وفي الداخل يجري الإعداد لانتفاضةٍ في مناطق المصانع ومناجم الفحم.

في كانون الثاني اقتربت الفصائل الحمراء من تاغانروغ وروستوف ونوفوتشيركاسك وكان النّزاع بين القوزاق والأغراب (النازحين من المدن الأخرى) لم يصل بعد في قرى منطقة الدون إلى الحدّة التي تقتضي شهر السّلاح. فقد كانت منطقة الدون ما تزال ساكنة. وقد تخلّت قوات الأتمان كاليدين المتفرّقة عن الجبهة بدون قتالٍ تحت ضغط قوات الحمر.

وأصبح الخمر خطراً مُميتاً. وثار العُمال في تاغانروغ وطردوا من المدينة فوج المتطوّعين بإمرة كوتيبوف وحطّمت فصيلة الرقيب بودتيلكوف الحمراء آخر حاميةٍ للاتمان قرب نوفوتشيركاسك.

وعندئذ أرسل الأتمان كاليدين إلى رؤساء منطقة الدون بنداء آخر يائس يطلبُ فيه إرسال متطوّعين من القوزاق إلى التّشكيلة العسكريّة الـمُتماسكة الوحيدة–إلى جيش المتطوّعين الذي كان يشكّله الجنرال كورنيلوف والجنرال ألكسييف والجنرال دينكين في روستوف...إلا أنّ أحداً لم يستجب لنداء الأتمان.

في ٢٩ كانون الثاني شكّل كاليدين حكومةً أتمانيّة في قصر نوفوتشيركاسك. وفي الصالة البيضاء جلس حول منضدةٍ نصف دائريّة الرؤساء الأربعة عشر لدوائر قوات قوزاق منطقة الدون، وجنرالات مشهورون، وممثلو "مركز موسكو لمكافحة الفوضويّة والبلشفيّة". وقال الأتمان الجهم الفارع صاحب الشاربين المتدليين متحدثاً بسكينةٍ كئيبة:

– أيها السادة. ينبغي أن أبلغكم بأنّ وضعنا ميئوسٌ منه. فإنّ قوات البلاشفة تتعاظم من يومٍ لآخر. وكورنيلوف يسحب كلّ قواته من جبهتنا. وقراره لا يقبل النّقض. ولم يستجب غير مائة وسبعة وأربعين شخصاً على ندائي إلى الدفاع عن منطقة الدون. وأهالي مناطق الدون وكوبا ليسو فقط لا يؤيدوننا، بل ويعادوننا. فما سبب ذلك؟ كيف تسمّي هذه الفظاعة المشينة؟ أنّ الطّمع قد أدى بنا إلى التهلكة، ولم يعد هناك شعورٌ بالواجب، ولا بالشّرف. أقترح عليكم، أيها السادة، أن تتخلوا عن صلاحياتكم، وتسلموا السلطة إلى آخرين–وجلس،

ثمّ أضاف دون أن ينظر إلى أحد: -أيها السادة، تكلموا باختصار. فالوقت لا يسمح...

فزعق عليه ميتروفان بوغايفسكي مُساعد الأتمان «شقي الدون» مُغتاظاً:

- بعبارةٍ أخرى أنت تقترح تسليم السلطة إلى البلاشفة؟..

فردّ الأتمان على ذلك بأنّ الحكومة العسكريّة في حِلٍّ من أن تفعل ما تراه مُناسباً، وغادر الاجتماع في الحال، وخرج إلى مقرّه عبر بابٍ جانبيّ وهو يخطو خطواتٍ ثقيلة. نظر من خلال النافذة إلى أشجار الـمُنتزه الجرداء الـمُتمايلة، وإلى السحب الثلجيّة الـمُثيرة اليأس ونادى زوجته. لم ترد الزّوجة على ندائه. فتابع توغّله إلى غرفة النوم حين كان الموقد يتوهّج. خلع سترته، وصليب الرّقبة. وللمرة الأخيرة حدّق في الخارطة العسكريّة الـمُعلّقة فوق السرير، وكأنّه ما يزال غير مصدّق. كانت الأعلام الحمراء الصغيرة تحدّق كثيفة بمنطقة الدون وسهوب كوبان. والإبرة الوحيدة التي تحمل علماً ثلاثيّ الألوان كانت مغروزةً في نقطةٍ سوداء تُشير إلى روستوف. أخرج الأتمان مسدّس بروانينغ الدافئ الـمُفلطح من الجيب الخلفيّ في سرواله الأزرق ذي الشرائط، وسدّد رصاصةً إلى قلبه.

وفي التاسع من شباط خرج الجنرال كورنيلوف بجيشه الصغير المؤلّف من المتطوّعين، وجميعهم من الضباط وطلاب المدارس العسكريّة وعربات الجنرالات والمدنيين من ذوي المقامات الرفيعة، وغادر روستوف إلى السهوب وراء الدون.

سار هذا الجنرال القصير القامة الغضوب ذو الوجه الشبيه بوجوه

المغول ماشياً في مقدّمة قواته وعلى كتفيه جراب الجنود. بينما كان الجنرال دنيكين التعيس الـمُصاب بالتهاب القصبات يرقد متدثّراً في دثارٍ من جلد النّمر في أحد عربات الطّبور.

مرّت وراء عربة القطار السهوب البنّية العارية من الثلج. وكانت ريحٌ نديّة فواحة بتربة عند الذوبان تهبّ من فتحة النافذة الـمُحطّمة الزّجاج. وكانت كاتيا تحدّق في النافذة، وقد غطّت رأسها وصدرها بشال وبريّ، معقودٍ وراء ظهرها. وكان روتشين يهوم غافياً وقد ارتدى معطفاً من معاطف الجنود، وقبّعةًممزّقة مُدبّبة، ومدّ ساقيه. كان القطار بطيئاً في سيره. فكانت الأشجار الجرداء العالية تمرّ مضغوطة الأغصان مثقلةً بالأعشاش. وكانت غربان القيظ تحوم فوقها كالسحب، وتهتزّ على الأغصان. دنت كاتيا من النافذة. كانت غربان القيظ تنعب نعيباً مرتاعاً موحشاً كما يحدث لها في الربيع: نعيباً كذلك الذي كانت كاتيا تسمعه في طفولتها البعيدة على حلول الربيع، والضباب، والعواصف الرعديّة الأولى.

كانت كاتيا وروتشين مُسافرين إلى الجنوب ولكن إلى أين؟ إلى روستوف، إلى نوفوتشيركاسك، إلى القرى القوازاقيّة على الدون؟ إلى حيث تعقد عقدة الحرب الأهليّة. كان روتشين ينام متدلّي الرأس، ووجهه غير الحليق ننحل، والغضون العميقة تكشف فمه المضموم بازدراء. وشعرت كاتيا برهبة مباغتة، فقد خُيّل إليها أنّ هذا الوجه الذي تراه لم يكن وجهه، بل آخر غريباً مُدبّب الأنف... حملت الريح عبر النافذة نعيب غربان القيظ ودمدمت عجلات العربة على محوّلات السّكك، وقد أبطأ القطار في سيره. كان طابورٌ من العربات يمتدّ في طريقٍ موحلة يشقّ السهب في خطٍّ منحرف. أحصنةٌ هزيلةٌ شعثاء،

عرباتٌ ريفيّةٌ ملطّخةٌ بالوحل، وأناسٌ مُلتحون غرباء مخيفون. ندت من روتشين في نومه شهقةٌ مبحوحةٌ معذّبة ما بين النّخير والأنين. فمسّت كاتيا وجهه بيديها الـمُرتجفتين:

– فاديم، فاديم...

قطع شهيقه الـمُخيف فجأة. وفتح عينيه الخاويتين من كلّ تعبير.

– فو، اللعنة. حلمتُ حلماً مُزعجاً...

توقّف القطار، وانضمّت إلى نعيب غربان القيظ أصوات ناس. تراكضت نسوةٌ يرتدين أحذيةً رجاليّةً طويلة، ويحملن أكياساً وتدافعن كاشفاتٍ عن أردافٍ بيضاء، وهنَّ يحاولن الانسلال إلى عربة بضائع. اندسّ في نافذة المقصورة قرب كاتيا تماماً رأسٌ أشعث ذو طاقيّةٍ مُلطّخة ولحيةٍ ملتفّةٍ نامية حتى عينيه الصغيرتين.

– لعلّ لديكم رشاشةٌ للبيع؟

انبعثت آهة تعجّبٍ من الـرّف الأعلى، وانقلب شخصٌ بقوّة وأجاب بصوتٍ مرح:

– عندنا مدافعٌ فقط. الرشاشات بعناها كلّها.

قال فلاح فاغراً فمه الكبير بشكلٍ دفع لحيته إلى الجانبين كالمكنسة:

– لا حاجة بنا إلى المدافع.

ودسّ نصف جسمه في النافذة، وأجال بصره داخل المقصورة بمكر عسى أن يقع على شيءٍ يُمكن شراؤه. قفز من الرّف الأعلى جنديٌّ ضخم. وجهٌ عريض، وعينان زرقاوان مُتشبّثتان، ورأسٌ حليقٌ متناسق. شدّ حزامه على معطفه بحركةٍ قويّة.

– ما أنت والقتال يا والد! آن لك أن تستلقي على رفّ الوقد.

قال الفلاح:

– هذا صحيح. ولكن لا يُمكن أن تستلقي على رفّ الموقد في مثل هذه الأيام، أيها الجنديّ. لا أحد يسمح لك بذلك–لأنه عليك أن تُطعم نفسك والعائلة.

– بالنهب؟

– كلامٌ فارغ...

– ولكن ما حاجتك إلى رشاشة؟

– كيف أقول لك؟

وفرك الفلاح أنفه، وحكّ شعر لحيته بيدٍ معقّدة، وكلّ ذلك ليختفي لمعان عينيه، فقد كانتا تبتسمان بخبث.

– عاد ولدي من الجبهة. وقال لي: اذهب إلى محطّة القطار، واعرف سعر الرّشاشة. يمكن أن أشتريها بأربعة بوداتٍ[٤] من القمح. ها؟

– إنكم كولاك–قال الجنديّ وضحك–شياطين خبثاء! كم حصاناً عندك، يا أب؟

– وهبني الله ثمانية. أليس عندكم ما يُباع؟ أسلحةٌ أو أشياء أخرى؟ –ومرّر عينيه مرّةً أخرى على الجالسين في المقصورة. وفجأةً اختفت الابتسامة وانطفأ لمعان عينيه، وأشاح وجهه وكأنما لم يكن في المقصورة أناس بل روث، وسار في وحل الرصيف، هازاً سوطه.

٤– بود يساوي ١٦,٣٨ كيلوغراماً (المُترجم).

قال الجُنديّ مُتطلعاً إلى كاتيا بنظرةٍ صريحة:

– هل رأيته؟ ثمانية أحصنة! واثنا عشر ولداً ربما. يركبهم الخيول ويطلقهم في السّهب للنّهب والسّلب. أما هو فيستلقي على رفّ الموقد، ومؤخّرته على القمح، يجمع الأسلاب.

وأدار الجنديّ بصره إلى روتشين، وإذا بحاجبيه يرتفعان، ووجهه يتألّق:

– فاديم بتروفيتش، هذا أنت؟

ألقى روتشين على كاتيا نظرةً خاطفة، ولكن لم يجد مناصاً من أن يقول «مرحباً» ويمدّ يده. شدّ الجنديّ على يده بقوّة، وجلس إلى جانبه. رأت كاتيا أنّ روتشين يبدو مُحرجاً. سمعته يقول بلا حرارة:

– ها قد التقينا إذن. أنا مسرورٌ بأن أراك في صحّةٍ طيّبة، يا ألكسي إيفانوفيتش...أما أنا فمُتنكّر، كما تراني.

حدست كاتيا أنّ هذا الجنديّ هو ألكسي كراسيلنيكوف المُرافق السابق لروتشين. فقد حدّثها فاديم بتروفيتش عنه غير مرّة، وكان يعتبره طرازاً رائعاً للفلاح الروسيّ الذّكيّ الموهوب. كان غريباً أن يقابله روتشين الآن بهذا البرود. ولكن كراسيلنيكوف قد أدرك السّبب، على ما يبدو. فقد أشعل سيكارة، وهو يبتسم. سأل بصوتٍ خفيض، ولهجةٍ جديّة:

– عقيلتك؟

– نعم، فقد تزوّجت، تعارفا. كاتيا، هذا ملاكي الحارس الذي حدّثتك عنه...قاتلنا، يا ألكسي إيفانوفيتش...وما عليّ إلا أن أهنّئك

بالصّلح المُشين...صقور روسيا..ها–ها...وها أنا أنسلّ مع زوجتي إلى الجنوب...أقرب إلى الشّمس. (ورنّت الكلمة "الشّمس" رنيناً جارحاً في أذنيه، فغضن وجهه. ولم يبد كراسيلنيكوف أمارةً على عجب). لم يبق شيءٌ آخر...كافأنا الوطن الشكور بحربةٍ في البطن...(وارتعد وكأنّ قملةً سرت في جسمه كلّه). خارجون عن القانون، أعداء الشّعب...هكذا...

مكتبة
t.me/soramnqraa

– وضع سيادتك صعب!

وهزّ كراسيلنيكوف رأسه، ونظر في النافذة مقلّصاً عينيه. كان الناس يحتشدون في حديقةٍ أماميّة قرب المحطّة للسكّة الحديديّة ذات سياجٍ محطّم.

– وضعك كوضع رجلٍ أجنبيّ. أنا أفهمك، يا فاديم بتروفيتش. بينما الآخرون لا يفهمون. أنت لا تعرف شعبنا.

– ماذا تعني بأنني لا أعرف؟

– هكذا...ولم تعرفه قط. وقد خُدعت على الدوام.

– من خدعني؟

– خدعناك نحن، الجنود، الفلاحون...حين كنت تدير ظهرك تضحك، يا فاديم بتروفيتش! اخترع الأسياد هذه الكلمات: شجاعة، نكران الذات، وحبّ القيصر والوطن، فجعلنا نحشو بها أدمغتنا في الجيش...أنا فلاح. مُسافرٌ الآن إلى أخي الجريح قعيد الفراش في روستوف، فقد أصابه أحد الضباط برصاصةٍ في صدره. سآخذه وأعود به إلى القرية...ربما سنحرث أو ربما سنحارب...سنذهب

هناك ونرى...ولكن إذا حاربنا سنحارب برغبتنا، وبدون طبول المعركة، سنحارب بضراوة...لا، يا فاديم بتروفيتش، لا تسافر إلى الجنوب، فلن تجد هناك خيراً...

بلّل روتشين شفتيه الجافتين، وهو يُحدّق فيه بعينين لامعتين. كان كراسيلنيكوف يمعن النّظر أكثر فأكثر فيما كان يجري في الحديقة الأماميّة، حيث كان يتعالى هدير أصواتٍ حانق. تسلّق بعض الناس الأشجار ليشاهدوا من هناك.

– على العموم لن تستطيعوا مغالبة الشّعب. هذا ما أقوله لك. أنتم برجوازيون شأنكم شأن الأجانب وهذه الكلمة «البرجوازيون» خطيرةٌ الآن، ويمكن تغييره بكلمة لصوص خيول. إنّ محارباً له أبّهةٌ مثل أبهة الجنرال كورنيلوف، الذي علّق بنفسه صليب غيورغي على صدري، فكّر في أن يجعل القوزاق يحاربون في سبيل الجمعيّة التأسيسيّة، فلم يحصل على نتيجة. الشّعب لا يحتاج إلى كلماتٍ كهذه. أما كورنيلوف فيعرف الشّعب كما يبدو..يُشاع أنه ينطلق الآن مُعربداً في سهوب كوبان كالكلب في قطيعٍ من الذئاب... ويقول الفلاحون: «البرجوازيون مستشرون لأنّ العنان لم يطلق لهم في موسكو...» وقد نظفوا بنادقهم ودهنوها تحسباً لكلّ طارئ. لا، يا فاديم بتروفيتش عد مع عقيلتك إلى العاصمة...فهناك آمن لك من وجودك بين الفلاحين...انظر ماذا يفعلون...(وفجأةً رفع صوته متجهماً) سيقتلونه الآن...

يبدو أنّ الأمر قد اقترب من نهايته في الحديقة الأماميّة. كان جنديان قصيران ركينان لهما وجهان متوحشان يقبضان بقوّة على رجلٍ خائر يرتدي سترةً ممزّقةً عند الصّدر خيطت من بطانيّةٍ فانيلة.

كان وجه الرجل غير الحليق بأنفه المتورّم شاحباً شحوب الموت، وقد سال خطٌّ من الدم من طرف شفتيه المرتجفتين. وكانت عيناه اللامعتان المبيضتان تراقبان امرأةً شابّة مهتاجة كانت تارةً تخلع منديلها السميك من رأسها، وتارةً تجلس هازّةً تنورتها حولها، وتارةً تثب على الرجل الشاحب، وتقبض على شعره المنفوش، وتصرخ بشعورٍ شبيهٍ بالتّلذّذ:

– سرقها، نشلها من تحت التنورة، الوغد! أعد الفلوس.

وأمسكته من خدّيه، وجمدت. أفلت الرجل الشاحب من أصابعها فجأة. إلا أنّ الجنديين أمسكا به. زعقت المرأة. وفي تلك اللحظة ظهر في مكان الحادث رجلٌ له رأسٌ كبير شاقاً طريقه بين الناس، ونحّى المرأة بكتفه، ولطم الرجل الشاحب على أسنانه لطمةً قصيرةً محكمة توّجّع منها الرّجل، وبرك في الحال. انحنى الرّجل الجالس على أقرب شجرة، وكان له كُمّان طويلان، وصرخ: «قتل!» فاندفع الجمع في الحال. ثمّ صار الناس ينحنون على الجسد، ويرفعون قاماتهم هازّين قبضاتهم.

مرّت نافذة المقصورة بجمهور الناس. تحرّك القطار أخيراً! وأحسّت كاتيا بغصّة صيحة مكتومة تضغط على حلقومها. تجهّم روتشين بازدراء. وهزّ كراسيلنيكوف رأسه قائلاً:

– أي، أي، أي. يبدو أنهم قتلوه بلا سببٍ وجيه. إنّ هؤلاء النسوة يشعلن النار في صدر من تشاء. إنهنّ أشدُّ ضراوةً من الرجال. لا أحد يُصدّق بما حصل لهم خلال هذه السنوات الأربع. عدنا من الحرب فرأيناهنّ قد تغيّرن تماماً. الآن لا تكاد تمسّهنّ بسوطٍ حتى تودّ أن تنجو بنفسك. الفراخ انقلبن ديكة...

من الوهلة الأولى يبدو غير مفهوم السّبب الذي جعل القائد الأعلى ألكسييف والقائد الأعلى لافر كورنيلوف «منظمي خلاص روسيا» يقودان حفنةً من الضباط وطلاب المدارس العسكريّة—خمسة آلاف شخص—مع مدفعيّةٍ بائسة، وبلا قذائف ولا ذخيرة، ويسيران بهم جنوباً إلى يكاترنودار، في قلب القوات البلشفيّة التي طوّقت عاصمة قوزاق كوبان بنصف دائرة.

كان من المتعذّر أن يجد المرء في ذلك خطّةً استراتيجيّةً محكمة. فقد خرج جيش المتطوّعين من روستوف اضطراراً، إذ لم يستطع الدفاع عنها. واجتاحته عاصفة الثورة في سهوب كوبان. ولكن كان ثمّة خطّةٌ سياسيّة برهن عليها الشهران اللذان أعقباها. فقد كان لا بُدّ من أن يثور القوزاق الأغنياء على الأغراب الذين جاؤوا من المناطق الأخرى، أي على جميع السُّكان الجُدد الذين يعيشون عن طريق استئجار أراضي القوزاق ولا يتمتّعون بأيّ حقوقٍ أو امتيازات. وكان في كوبان مليون وستمائة ألف غريب مقابل مليونٍ وأربعمائة ألفٍ من القوزاق.

كان لا بدّ أن يسعى الغرباء إلى الاستحواذ على الأرض والسُّلطة، وأن يشهر القوزاق السلاح للمحافظة على امتيازاتهم. كان الأغراب تحت قيادة البلاشفة وكان القوزاق في بادئ الأمر غير راغبين في أن يخضعوا لأيّة سلطة. فما من شيءٍ أفضل من أن يكون أصحاب أطيانٍ في قراهم! ولكن حدث في شباط أن اقتحم الـمُغامر القوزاقيّ غولوبوف ومعه سبعة وعشرون قوزاقياً اجتماعاً لهيئة أركان الميدان التابعة للأتمان نازاروف في نوفوتشيركاسك، وصاح بالمجتمعين هازاً مسدّسه، بينما سدّد قوزاقه بنادقهم إليهم: "انهضوا، أيها الأوغاد،

فقد جاء الأتمان السوفييتي غولوبوف ليتولى السّلطة!". وبالفعل قام اليوم التالي بقتل نازاروف وهيئة أركانه رمياً بالرّصاص في حرش خارج المدينة، (ولكي يأخذ بيده صولجان الأتمان) قام أيضاً بقتل قرابة ألفي ضابط قوزاقيّ، واندفع في السّهب، وقبض على سيتروفان بوغايفسكي، وأخذ يتردّد به على الاجتماعات داعياً إلى أن تكون منطقة الدون حرّة. وإلى مبايعته على الأتمانيّة، وانتهى ذلك إلى أن يُقتل هو نفسه في اجتماع في قرية زابلافسكايا القوزاقيّة، وباختصار وجد القوزاق أنفسهم في شباط بلا رئيس، وفضلاً عن ذلك كانت روسيا الجزعة، الجائعة، الهائجة تضغط عليهم من الشمال.

كانت الخُطّة الأوليّة لقيادة جيش المتطوّعين الذي جرّد لـمّا سُمّيَ فيما بعد بـ«الحملة الجليديّة» تستهدف رئاسة القوزاق بعد الاستقرار في يكاترينودار، وتجنيد قواتٍ قوزاقيّةٍ نظاميّة، وقطع القفقاس وحقول النّفط في غروزني وباكو عن روسيا البلشفيّة، وتأكيد الولاء للحلفاء.

كان البَحّار سيميون كراسيلنيكوف (أخو ألكسي كراسيلنوكوف) يرقد مع آخرين في حقلٍ محروث عند حافّة منخفض غير بعيد عن سدّة السّكة الحديديّة. وعلى مقربة منه كان أحد الجنود يحفر الأرض بالرّفش عجولاً كالخلد. وحين تخندق في الحفرة ألقى بندقيّته أمامه، والتفت إلى سيميون قائلاً:

– تعمّق في الأرض أكثر، يا أخ.

حفر سيميون كتل الأرض اللزجة من تحته بصعوبة. وكان الرّصاص يئزّ فوقه. رنّ الرّفش عند ارتطامه بآجرة. شتم سيميون،

ونهض على ركبتيه، وإذا به يُفاجأ بصدمة حارّة تُصيب صدره. ويشهق بالدّم وانكفأ على وجهه في الحفرة التي حفرها.

كانت تلك إحدى المعارك القصيرة العديدة التي كانت تسدّ الطريق أمام جيش المتطوّعين. كانت القوات الحمراء كبيرة العدد، كما هي دائماً. ولكنها كانت قادرةً على القتال مثلما كانت قادرةً على التراجع دون فاجعة كبيرة، لأنّ النصر في الفترة الأولى من الحرب لم يكن إلزاماً لها. وكانوا رجال الفصائل الحمراء يفسّرون تراجعهم إما بعدم صلاحيّة الموقع، أو بالمقاومة العنيدة لجيش المتطوّعين. ولكنّ هذا لا يُهمّهُمْ كثيراً فإنّهم سيوقفون في المرّة القادمة. وهكذا جعلوا كورنيلوف يمرّ.

أما بالنّسبة لجيش المتطوّعين فقد كانت كلّ معركةٍ مُراهنةً على الموت أو الحياة. فقد كان عليه أن ينتصر، ويتحرّك مع طوابير عرباته وجرحاه في مسيرته ليوم واحد. ولم يكن ثمّة مجالٌ للتراجع. ولهذا كان رجال كورنيلوف يضعون في كلّ معركةٍ كلّ ما لهم من قوّةٍ مستميتة، وينتصرون، وهذا ما حصل في هذه المرّة أيضاً.

كان كورنيلوف يقف منفرج الساقين على كومة قشٍّ متبقّيةٍ من العام الماضي على بعد نصف فرسخ من صفوف القابعين تحت نيران الرشاشات. رفع مرفقيه، ونظر في منظار الميدان. كان كيس الجنفاص يهتزّ وراء ظهره. وقد فكّ أزرار معطفه الفرائيّ الأسود المؤطّر بالرماديّ من الداخل. كان يشعر بالحرّ. وكان حنكه المُغطى بشعرٍ أشيب يُبرز عنقوداً من تحت المنظار.

كان المُلازم الأوّل دولينسكي مرافق القائد يقف في الأسفل

مضغوطاً على كومة القشّ. كان شاباً واسع العينين أسود الحاجبين في معطفه من معاطف الضّباط، وطاقيّةٍ مدعوكة. كان يرنو من الأسفل إلى حنك القائد الأشيب على طريقة الفتوّة مبتلعاً الغصّة التي تعترض حنجرته من القلق، وكأنّما تجمع كلّ الأهل في النجاة في هذا الشعر الأشيب العزيز والإنسانيّ كلياً.

وكان دولينسكي يُردّد:

– انزل، يا صاحب السّيادة، أتضرّع إليك أن تنزل، فقد يقتلونك.

ورأى شفتي كورنيلوف الليلقيتين تتباعدان وفمه ينفرج عن تكشيرةٍ عصبيّة. معنى ذلك أنّ الأمور سيئة. كفّ دولينسكي عن النّظر إلى الجهة التي كان فيها البلاشفة بصفوفهم الكثيفة ينهضون فوق السّهب الأخضر البنيّ وينتقلون كالدّمى السّوداء. كانت قنابل الشرابنيل تفور هناك محدثةً أزيزاً ممطوطاً. ولكن كان يعرف جيداً أنّ القنابل قليلة، قليلةٌ للغاية... وكان مدفع الحمر من عيار ستّ بوصات يدوي وراء الجسر الـمُحطّم بدمدمةٍ حادّة... وتُلعلع رشاشةٌ عجلى، وكان الرصاص يئزّ كالنّحل من مكانٍ قريب فوق رأس القائد.

– يا صاحب السيادة، أخشى أن تُصاب...

أنزل كورنيلوف المنظار. وانكمش وجهه المغوليّ الأسمر ذا العينين السّوداوين الشبيهتين بعينيّ قنبرة، وظهرت عليه الغضون، ودار في مكانه على القشّ، واستدار إلى الخلف، وانحنى بجذعه على حرسه الخاصّ، وهم رهطٌ من التركمانيين المرتجلين النّحاف المعكوفي الأرجل كانوا يقفون وراء كومة القشّ بقبعاتهم الضّخمة الـمُستديرة المصنوعة من فراء الغنم، وسترهم القفقاسيّة الـمُخطّطة

بلون السّلمون، جامدين كالأصنام وهم يُمسكون بمقاود خيولٍ ضاوية.

أشار كورنيفوف بذراعه نحو الـمُنخفض، وأصدر أمره بصوتٍ حادٍّ نابح. وثب التّركمانيون إلى خيولهم كالقطط. زعق أحدهم بلغته مُخرجاً صوته من أقصى الحلق، فاستلّ الجميع سيوفهم المعكوفة وانطلقوا في خبب ثمّ في عدوٍ سريع عبر السّهب مُتّجهين إلى المنخفض، حيث كان يلوح حقل محروث يتراءى وراءه شريط سُدّة الخطّ الحديديّ.

والآن كان سيميون كراسيلنيكوف يرقد على جنبه، إذا كان ذلك أخفّ عليه، قبل ساعةٍ من الزّمن كان قوياً مُحتدماً، أما الآن فهو يئنّ أنيناً واهناً مُتواصلاً يبصق الدّم بعسر. كان رفاقه يطلقون النار عن يمينه وشماله كيفما اتّفق. وكانت أبصارهم مُتّجهةمثله إلى المنحدر البُنّي على ذلك الجانب من المنخفض، حيث كان نحو خمسين فارساً ينطلقون كالسّيل العرم. وكان ذلك هجوم احتياط الخيالة.

عدا شخصٌ من وراء كراسيلنيكوف، وسقط على ركبتيه بالقرب منه، وراح يصرخ بأعلى صوته ملوّحاً بمسدّسه. كان الرّجل يرتدي سترةً جلديّةً سوداء. انتشر الخيالة في الـمُنخفض. ومضى هو يصرخ بلهجةٍ غير عسكريّة، ولكنها على قدرٍ هائلٍ من الإصرار:

– إياكم أن تتراجعوا، إياكم أن تتراجعوا!

وها هي قد ظهرت على هذا الجانب ممن الـمُنخفض قُبّعاتٌ هائلة، وانبعث عويلٌ ممدود مثل عويل الريح، إنّهم التركمانيون ينقضّون. كانوا ينحنون على أعراف خيولهم بسترهم الـمُخطّطة، وينطلقون عبر الحقل المحروث اللزق، حيث الثّلج الـمُتّسخ ما يزال مُتبقياً في

الأخاديد. تطايرت كُتل الطين من تحت سنابك الخيول. وصدرت صيحاتٌ ممطوطة رهيبة من وجوه التّركمانيين الصغيرة الملوحة المكشّرة المشوربة تحت قبّعاتٍ فرائيّة عالية. وبان لمعان سيوفهم المعكوفة لمعان الماء. آه، لن يصمد فتياننا أمام هجوم الخيالة! ذوو المعاطف الرماديّة ينهضون من الحقل المحروث. ويطلقون النار، ويتراجعون. ثارت ثائرة الـمُفوّض ذو السّترة الجلديّة، فاقتحم وضرب شخصاً على ظهره:

– إلى الأمام، بالحراب!

ويشاهد كراسيلنيكوف رجلاً من ذوي السّتر الـمُخطّطة ينقلب من فوق جواده، كالمتظاهر، وينظر الجواد مذعوراً، وينطلق هارباً. ويصدر من الصفوف صوت ارتطام حديدٍ بحديد، وكراتٌ من دخان، نارٌ صفراء متولّدةٌ من انفجار قنبلة شرابنيل. تخبّط الجُنديّ فاسكا الفكه ذو المعطف الفضفاض، وألقى بُندقيّته، وغاض الدّم منه، وفغر فمه، وهو ينظر إلى الموت الـمُتقحم. ظلوا يقتربون، ويكبرون مع خيولهم. في مقدّمتهم رجلٌ يكاد حصانه يمسّ الأرض، وقد دلى بوزه كالكلب. رفع التّركمانيّ هامته، ووقف على ركابه، وقد تطايرت أذيال ردائه.

– وغد!

قال كراسيلنيكوف، ومدّ يده ليتناول بندقيّته وتمتم:

– آه، مُفوّضنا هالك.

إذا رأى التركمانيّ ينطلق بحصانه نحو ذي السّترة الجلديّة:

– أطلق النار، اللعنة!

ولم ير كراسيلنيكوف إلا السيف المعكوف ينفذ في السّترة الجلديّة...وما هي إلا لحظة حتى اقتحم سيل الخيالة على الصّف. وانتشرت رائحة عرق الخيول الحار.

قطع التّركمانيون الصّف، والتفوا على جناحيه، ومن المنخفض طلع إلى الحقل المحروث الضّباط بمعاطفهم السوداء والرماديّة الفاتحة اللون وهم يتعثّرون والكتافيات تلتمع على أكتافهم.

– هورررررا!

واقترب القتال من سُدّة الخطّ الحديديّ. وظلّ كراسيلنيكوف وقتاً طويلاً لا يسمع غير أنين المفوّض المطعون بالسّيف. وكانت طلقات النار تتضاءل. وصمتت المدافع. أغمض كراسيلنيكوف عينيه، وكان يحسّ طنيناً في رأسه، ووجعاً في صدره. عزت عليه نفسه، ولم يرد أن يموت. استرخى جسمه المُثقل على الأرض. تذكّر بإشفاق زوجته ماتريونا. إنّها ستضيع في الدّنيا وحيدة. كانت تنتظره بشوق، وتكتب إليه في تاغاتروغ بأن يعود. ودّ لو تراه ماتريونا الآن، وتضمّد له جرحه، وتجلب له ما يشربه. ولطيفٌ أن يكون ذلك ماءً...ولبناً خاثراً...

سمع كراسيلنيكوف سباباً مقذعاً، وأصواتاً ليست بأصوات جماعته، بل أصوات السادة فتح عينيه. فرأى أربعة قادمين. واحدٌ في سترةٍ جركسيّةٍ رماديّة، واثنان في معطفين من معاطف الضباط، والرابع في معطفِ طالبٍ عليه كتافيّتان من كتافيات ضباط الصّف. كانوا يتأبّطون بنادقهم كما يفعل الصيادون. قال أحدهم:

– انظر، هذا بحّار، اقض عليه، الوغد.

– إنه قد فطس...أما ذاك فهو حيّ.

وتوقّفوا ناظرين إلى فاسكا الفكه وهو راقدٌ على الأرض. وفجأةً زعق ذو السّترة الجركسيّة بصوتٍ ضارّ:

– انهض!

مكتبة
t.me/soramnqraa

ورفس فاسكا.

ورأى كراسيلنيكوف فاسكا ينهض، وقد غطى الدّم نصف وجهه. صاح ذو السّترة الجركسيّة موجّهاً ضربةً قصيرة إلى أسنانه:

– انهض، باستعداد!

وفي الحال أعدّ الأربعة بنادقهم. فصاح فاسكا بصوت باك:

ابقِ على حياتي، يا عم.

قفز ذو السّترة الجركسيّة مرتداً عنه، وطعنه بالحربة في بطنه مُستنشقاً الهواء بحدّة. ثمّ استدار ومضى في سبيله. وانحنى الآخرون على فاسكا ونزعوا عنه حذاءه الطّويل.

بعد أن قتل المتطوعون أسراهم، وأضرموا النار في إدارة القرية عظةً للآخرين، تابعوا سيرهم نحو الجنوب، التقط القوزاق سيميون كراسيلنيكوف من الحقل المحروث. وحين غيّب خطّ الأفق الـمُسطّح فوق السّهب البادي الاخضرار عربات المتطوّعين عادوا مع زوجاتهم وأطفالهم وماشيتهم إلى قريتهم.

كان سيميون يخاف أن يموت بين الغرباء. كانت لديه بعض

النّقود، فطلب من أحد الأشخاص أن يوصله في عربته إلى روسوف. ومن هذه المدينة كتب إلى أخيه ينبّئه بأنه مجروحٌ في صدره جرحاً بليغاً، وأنه يخاف أن تؤاتيه المنيّة بين الغرباء، كما أبلغه عن رغبته في أن يرى ماتريونا. وبعث رسالته هذه مع أحد أبناء قريته.

كان سيميون حتى عام ١٩١٨ يخدم في أسطول البحر الأسود بحاراً على ظهر المُدمّرة "كيرتش".

وكان هذا الأسطول تحت قيادة الأميرال كولتشاك. إنّ هذا الرّجل، رغم ذكائه وثقافته، وما ظنّه حباً نزيهاً لروسيا لم يفهم شيئاً مما كان يحدث، وما كان ينبغي أن يحدث. كان يعرف تكوينات وأسلحة جميع أساطيل العالم، ويستطيع دون خطأ أن يحدس هويّة أيّة سفينةً حربيّة من خلال ضباب البحر، وكان أحسن خبيرٍ في الألغام، وأحد المُبادرين في رفع قدرة الأسطول الروسيّ بعد كارثة تسوسيما. ولكن لو أنّ أحداً من الناس فتح معه حديثاً (حتى عام ١٩١٧) في السياسة أجاب بأنّ السياسة لا تهمّه، وأنّه لا يفهم شيئاً فيها، وأنه يعتقد بأنّ السياسة من شأن الطّلبة، وطالبات الصّفوف النسائيّة العليا من ذوات الهندام المُهمل واليهود.

كانت روسيا، كما يتصوّرها، بوارج تسحب وراءها شريطاً من الدّخان (منها ما هو موجود ومنها ما يُفترض أن يكون)، وعلم القديس أندري يُرفرف بعزّة على بارجة الأميرال حاملةً العلم باثّاً الذّعر في ألمانيا. وكان يحبّ مدخل وزارة الحربيّة الصارم الرّصين (على طراز الامبراطور العُظمى) بحاجبه المألوف له (الذي كان يقول كلّما ساعده لخلع معطفه: «الطّقس سيّئ، يا ألكسندر فاسيليفيتش»)، مثلما كان يُحبّ زملاءه الأنيقين المُهذّبين، والجوّ

الودّيّ الـمُغلق لنادي الضّباط. وكان الامبراطور رأس هذا النّظام، وهذه التّقاليد.

وكان كولتشاك دون شكّ يُحبّ روسيا أخرى، روسيا التي كانت تصطفّ على سطوح البواخر–البحارة بطاقياتهم ذات الأشرطة، روسيا العريضة الوجه، الملوحة البشرة، المفتولة العضل، روسيا التي كانت تُرتّل صلاة المساء بأصواتٍ رائعة، عند إنزال العلم في الغسق، روسيا التي كانت تموت "بنُكرانٍ ذات" حين تؤمر بذلك. والمر يمكن أن يفخر بها.

في عام ١٩١٧ أقسم كولتشاك يمين الولاء للحكومة المؤقّتة دون تردُّد، وصار يقود أسطول البحر الأسود. وقد تحمّل سقوط رأس الامبراطوريّة بمرارةٍ لاذعة، كشيءٍ لا محيص عنه، وقَبِلَ، على مضض، بلجان البحارة، والنظام الثّوري، كلّ ذلك لأنّ الأسطول وروسيا كانا في حالة حربٍ مع الألمان. إنّه سيمضي في الحرب حتى لو بقي له زورق ألغام واحد. وكان يحضر في سيباستوبول اجتماعات البحارة، ويقول في الرّدّ على الخُطب الـمُتحدّية التي كان يلقيها الخطباء العُمال من الوافدين والمحليون: إنّه شخصياً ليس بحاجة إلى مضيق الدّردنيل أو البوسفور لأنه لا يملك أرضاً ولا معامل، ولاً شيء له يصدره من روسيا، ولكنه يُطالب بالحرب ثمّ الحرب ليس كأجيرٍ للبرجوازيّة (وهنا كانت تكشيرة الازدراء تشوّه وجهه الحليق بحنكه القويّ، وفمه الـمُرتخي، وعينيه الغائرتين) –«ولكنني أقول ذلك كوطنيٍّ روسيّ».

وكان البحارة يضحكون. إنّه لشيءٌ مريع. إنّ هؤلاء الـمُخلصين الذين كانوا بالأمس فقط مُستعدّين لأن يتقحموا النار والماء في سبيل

الوطن وعلم القديس أندري كانوا يصرخون بأميرالهم: "ليسقط مأجورو الامبرياليّة!" وكان كولتشاك ينطق بكلمتي "وطنيّ روسيّ" بعنفوان وبإيماءةٍ صريحة مُستعداً بنفسه في تلك اللحظة لأن يموت بنكران ذات، بينما كان البحارة—وقد أغراهم الشيطان—يستمعون إلى الأميرال وكأنّهم يستمعون إلى عدوٍّ يحاول أن يخدعهم بخبث.

وسمع سيميون كراسيلنيكوف في الاجتماعات بأنَّ "الوطنيين" ليسوا هم الذين يريدون استمرار الحرب، بل أصحاب المصانع والملاحون الكبار الذين يبتزون من ورائها أموالاً طائلة، وأنّ الشعب ليس بحاجةٍ إلى هذه الحرب. وكان يُقال إنّ الألمان قبل برجوازيّتهم الـمُتعطّشة للدماء ومن قبل المناشفة. وكان البحّارة في الاجتماعات مُمتلئين بالكراهية الشّديدة. وارتفعت الأصوات: كانوا يخدعون الشّعب الروسيّ منذ ألف عام! ألف عام وهم يمتصّون دماءنا! هؤلاء الملاكون والبرجوازيون، الأوغاد!" وقد انفتحت العيون. بسبب ذلك عشنا أسوأ من عيشة السائمة...هذا هو العدو!...وبالرّغم من أنّ سيميون كان يحنّ إلى استثماراته الـمُهملة، وزوجته الشابة ماتريونا فقد كان يشدّ على قبضته، وهو يُصغي إلى الخطباء، ويسكر، كالجميع، بخمر الثّورة، وينسى في هذا السّكر حنينه إلى بيته، وإلى زوجته الحسناء ماتريونا...

وذات مرّة قَدِمَ من بتروغراد داعٍ بارز هو فاسيلي روبليف. وطرح هذا السؤال: "هل ستظلون أَيها الإخوان، حمقى إلى أبد الآبدين، تثرثرون في الاجتماعات؟ لقد باعكم كيرنسكي إلى الرأسماليين منذ زمنٍ طويل. سيمهلونكم فترةً أخرى تنبحون فيها، ومن بعدها يقطِّع أعداء الثّورة رؤوسكم كلّها. فالقوا عنكم

كولتشاك قبل أن يفوت الوقت، وخذوا الأسطول بأيديكم، أيدي العُمال والفلاحين...»

وفي اليوم التالي أرسلت برقيّةٌ لاسلكيّة من على ظهر بارجة: انزعوا أسلحة جميع الضّباط. أطلق بعض الضّباط النار على أنفسهم وسلّم الآخرون أسلحتهم. وأمر كولتشاك من على بارجة الأميرال "القديس غيورغي القاهر" بأن يخرج الطاقم كلّه إلى ظهر البارجة. ذهب البحارة إلى فسحة الاصطفاف مُتضاحكين، وقف أمير البحر كولتشاك على جسر القيادة بكامل بزّته الاستعراضيّة، وصاح بصوتٍ حادّ عالي النّبرة:

– أيها البحارة. وقع بلاءٌ لا يمكن دفعه: إنّ أعداء الشّعب، عملاء الألمان السريين نزعوا أسلحة الضّباط. وأيّ أحمقٍ يُمكن أن يتحدّث جاداً عن مؤامرة للضباط مُعاديةٍ للثورة! وعلى العموم يجب القول إنه لا توجد مُعاداةٌ للثورة، وليس لها وجودٌ أصلاً. وهنا أخذ الأميرال يذرع الجسر مُقعقعاً بسيفه وأخذ يُنفّس عما في صدره:

– إنّ كلّ ما حدث أعتبره إهانةً لشخصي بالدّرجة الأولى، باعتباري كبير الضُّباط. وبالطّبع لا يمكنني بعد هذا ولا أرغب في قيادة الأسطول، والرحيل. يكفي هذا!..

ورأى سيميون الأميرال يُمسك سيفه الذّهبيّ، ويضغط عليه بكلتا يديه، وأخذ يفكّهُ من حزامه، تعصّى السّيف عليه فراح يجذبه، بل إنَّ شفتيه ازرقّتا.

– إنّ كلّ ضابطٍ شريف يجب أن يتصرّف تصرّفي هذا لو كان في مكاني!..

ورفع السّيف، وألقاه في البحر. ولكن حتى هذه الإشارة التاريخيّة لم تترك أيّ أثرٍ في البحّارة.

ومنذ ذلك الحين حدثت في الأسطول أحداثٌ عنيفة. أشار البارومتر إلى قرب هبوب عاصفة. وكان البحارة الذين تربطهم حياة البحر برباط قويّ، الرّجال الأشداء الجسورون الخفاف الحركة، الذين رأوا الـمُحيطات وأراضٍ غريبة، والذين هم أكثر تطوّراً من الجنود الاعتياديين، وأكثر إحساساً بالحاجز الذي لا يُمكن اجتيازه القائم بين مقصورة الضّباط، وعنابر البحارة، لقد كان هؤلاء البحارة مادّةً سريعة الاشتعال. وقد أسرعت الثّورة في الاستفادة منهم منذ البداية. ودخل البحارة معمعان النضال بكلّ ما لهم من حماسٍ لا ينضب وأضرموا بأنفسهم قوى العدوّ الذي كان مُتردّداً لم يستقرّ بعد على قرار، مُترقباً، مُحتشداً، ليستجمع قواه.

ولم يعد لسيميون الوقت ليُفكّر في البيت، وفي الزّوجة. في أكتوبر انتهت الكلمات الجميلة، وبدأت البندقيّة تقول كلمتها. وكان العدوّ في كلّ خطوة، والموت يكمن مُترصّداً في كلّ نظرةٍ خائفة وحاقدة ومتكتّمة. وكانت روسيا من بحر البلطيق حتى الـمُحيط الهادي، ومن البحر الأبيض حتى البحر الأسود في غليانٍ كدرٍ حانق. ألقى سيميون بندقيّته على كتفه، وخرج ليُحارب "أفعوانَ الثّورة الـمُضادّة".

شقّ روتشين وكاتيا طريقهما في محطّة القطار من خلال الزّحام يحملان صرّةً وإبريق شاي، واجتازا مع السيل البشريّ نقاط الحراسة الشاهرة الحراب، وصعدا في الشارع الرّئيسيّ في روستوف.

قبل شهرٍ ونصف فقط كانت صفوة الـمُجتمع البطرسبورغي تتجوّل هنا مُتنقّلةً من مخزنٍ إلى مخزن. وكانت الأرصفة تزدهي بألوان

طاقيات الحرس، والمهمازات تُصلصل، واللغة الفرنسيّة تسمع هنا وهناك، والسيّدات الأنيقات يخفين تمضية الشّتاء هنا فقط ليعدن في مستهلّ الصيف إلى شققهنّ وداراتهنّ في بطرسبورغ، حيث الحُجّاب الرّصينون والصالات ذوات العمد، والأبسطة والمواقد الـمُلتهبة. آه، بطرسبورغ! لا بُدّ أن يمرّ كلّ شيءٍ بسلام في آخر المطاف. والسيّدات الأنيقات لسن ملوماتٍ في شيءٍ على الإطلاق.

وإذا بكلّ شيءٍ قد اختفى، وكأنّ مخرج مسرح الكبير صفّق بيديه ليُدير المنظر في مسرح دائريّ. وتغيّر الديكور. أقفرت شوارع روستوف، وسُمِّرتْ أبوابُ الحوانيت بالألواح، هشّم الرّصاص زُجاج واجهاتها. وأخفت السّيّدات فراءهنّ، وشددن رؤوسهنّ بالمناديل. هرب جزءٌ صغير من الضباط مع كورنيلوف، وتحوَّل الآخرون بسرعةٍ مسرحيّةً إلى برجوازيين صغار وادعين، وإلى ممثّلين، ومغنّين في المقاصف، ومعلمي رقص، إلى غير ذلك. كانت ريح شباط تدفع دواماتٍ من القاذورات على الأرصفة...

قال روتشين:

– نعم، تأخّرنا.

كان يسير مُطرق الرّأس. كان يُخيّل إليه أنَّ جسد روسيا يتحطّم إلى آلاف القطع. فإنّ العقد الوحيد الذي كان يُغطي الامبراطوريّة قد انهار مزقاً. ويصبح الشّعب كالقطيع. ويختفي التاريخ، والماضي المجيد، مثل الأغشية الضّبابيّة الموضوعة على ديكور، ويتكشّف خواءٌ أجرد محروق..قبور، وقبور...تلك نهاية روسيا. كان يحسّ بأنَّ شيئاً في داخله كان يعتبره راسخاً ومحوراً لحياته، قد تهشّم إلى كسر واخزة... كان يسير مُتأخراً خطوةً واحدة وراء كاتيا، مُتعثراً أثناء

سيره. «روستوف سقطت، وسيُقضى على جيش كورنيلوف آخر قطعةٍ متجوّلةٍ من روسيا، إنْ لم يكن اليوم فغداً..وعندئذٍ لم تبق إلا أنَّ أوجهً رصاصةٍ إلى صدغي».

سار الزوجان على غير هُدىً. تذكّر روتشين عناوين بعض رفاقه في الفرقة. ولكن لعلّهم هربوا أو قُتلوا رمياً بالرّصاص؟ عندئذ لا مفرّ من الموت على قارعة الطّريق. نظر إلى كاتيا. كانت تسير هادئةً متواضعةً في سترتها القصيرة من الصوف السّميك، ولفاحها الوبر. كان وجهها الحلو ذا العينين الرماديتين الواسعتين يتلفت بنقاء سريرةٍ متحولاً من اللافتات المخلوعة إلى الواجهات المسدودة. وعلى طرفي ثغرها شبح ابتسامة. "ألا تفهم كلّ هذه الفظاعة؟ ما هذه السّماحة والغفران؟".

كان رهطٌ من الجنود العُزّل يقفون في ركن الشارع. كان أحدهم، وهو رجلٌ مجدّر الوجه عينٍ منتفخة من تجمّع الدّم حولها، يتأبّط رغيف خبزٍ رماديّ اللون كان بين الحين والآخر يقتطع منه قطعةً بحركةٍ وانية، ويمضغها ببطء. قال له أحد الجنود:

– لا يستطيع أحدٌ أن يفهم الوضع هنا. لمن السُّلطة؟ للسوفييتات أم لغيرها؟

وكان مع الجنديّ الـمُتكلّم صندوقٌ خشبيّ رُبط إليه حذاءٌ لباديٍّ مُستهلك. فأجابه ماضغ الخبز:

– السُّلطة بيد الرفيق بروينيتسكي. فاذهب للبحث عنه. سيعطينا قطاراً نرحل عليه. وإلا فسنقضي العُمر كلّه مُتعفّنين في روستوف.

– من هو هذا؟ ما هي رتبته؟

– مفوّضٌ عسكريّ، على ما يبدو...

اقترب روتشين من الجنود، وسأل عن أحد العناوين. أجابه أحدهم في غير ما ودّ:

– لسنا من أهالي المدينة.

وقال آخر:

– لم تصل إلى الدون في الوقت الـمُناسب، أيها الضابط.

أسرعت كاتيا في جذب زوجها من كمّه، فعبرا الشارع إلى الرصيف الـمُقابل. كان شيخٌ في معطف مهلهل وقبّعة قشّيّة يجلس هناك على مسطبة تحت شجرةٍ جرداء. وكان الشّيخ يرتعش وهو يضع ذقنه غير الحليق على عجرة عصاه، وكانت قطراتٌ من الدّمع تسيل من عينيه الـمُغمضتين على خديه الغائرتين.

سرت رجفةٌ في وجه كاتيا، عندئذٍ جذب روتشين كمّها قائلاً:

– لنذهب، لنذهب. لن تستطيعي أن ترثي لكلّ الناس...

وظلا يضربان طويلاً في المدينة القذرة الرّثة حتى عثرا على رقم البيت الذي ينشدانه. دخلا فرأيا رجلاً قصير القامة متين الرّجلين له رأسٌ أجرد كالبيضة. كان يرتدي صداراً مُبطناً بلا كمّين من صدارات الجنود قد غطاه القذر كلياً. وكان يحمل قدراً أدار عنه وجهه لنتانته. كان ذلك هو تيتكين الـمُقدّم في الفوج الذي كان يخدم فيه روتشين. وضع القدر على الأرض، وتعانق مع فاديم بتروفيتش، وصفق كعبيه، وصافح كاتيا.

– أرى، أرى، ولا حاجة للكلام. سأجد لكما مكاناً. فقط أن

تسكنا في غرفةٍ واحدةٍ صغيرة. ولكن مقابل ذلك هناك مرآةٌ ذات ثلاثة أوجه، ودريقة. وزوجتي من هذه المنطقة...في البداية عشنا هناك (وأشار إلى بيتٍ آجريٍّ من طابقين) ثم انتقلنا إلى هنا (وأشار إلى ملحقٍ خشبيٍّ مُتداعٍ) لنعيش حياةً بروليتاريّة. وأنا، كما ترى، أغلي صبغ الأحذية. وقدْ سجّلتُ اسمي في بورصة العمل كعاطل.. وإذا لم يشِ الجيران بنا فسنتحمّل على نحوما...نحن روس، ونستطيع التّعوّد.

وضحك كاشفاً عن أسنانٍ رائعة في فمه الكبير، ثمّ قال بتفكير: «أجل، تلك حالة الأمور» ومسح صلعته براحة كفّه مُلطّخاً إياها بصبغ الأحذية.

ورحّبت زوجته بالضيفين بصوتٍ رخيم، وكانت قصيرة مثله ركينة البنيان، إلا أنّ عينيها العسليتين نمّتا عن شيءٍ من عدم الارتياح. أنزل روتشين وكاتيا في حجرةٍ صغيرةٍ واطئة تسلخ ورق حيطانها. وكان فيها، بالفعل، مرآةٌ ذات ثلاثة أوجه في حالةٍ سيّئة أدير وجهها إلى الحائط عند أحد الأركان، ودريقة، وسريرٍ حديديّ.

قال تيتكين:

– أدرنا وجه المرآة إلى الحائط مُحافظةً عليها. فإنّها شيءٌ ثمين. فقد يأتون للتفتيش فتتحوّل إل حُطام. فإنّهم لا يتحمّلون النّظر إلى وجوههم–وضحك ثانية، ومسح على صلعته–وعلى أيّة حال أنا أفهمهم بعض الشيء: التحطيم يجري على نطاق البلاد كلها، فإذا وجدوا أمامهم مرآة، حطموها...

وأعدّت زوجته المائدة بنظافة، إلا أنّ الشوكات كانت صدئة،

والصحون غير سليمة. والظاهر أنهما قد أخفيا ما لهما من متاع عزيز. أكل روتشين وكاتيا بلذّة شديدة السّمك المُدخّن والخبزَ الأبيض والبيض المقلي مع شرائح دهن الخنزير. وانشغل تيتكين واضعاً الطعام في صحنيهما. بينما طوت زوجته ذراعيها السّميكتين تحت نهديها، وراحت تشكو من الحياة:

– البشاعة في كلّ مكان، والقمع. إنه باختصار تعذيب.

أنا منذ أكثر من شهر لا أخرج من الفناء...ليتهم يطردون هؤلاء البلاشفة في أقرب وقت...ماذا يقولون عن الوضع عندكم في العاصمة؟ هل سيبيدونهم قريباً؟

قال تيتكين مُرتبكاً:

– أمسكي لسانك. إنّك على مثل هذه الكلمات تفقدين رأسك في مثل هذه الأيام يا صوفيا إيفانوفنا.

– لن أسكت، فليقتلوني!

وتدوّرت عينا صوفيا إيفانوفنا، وشدّت ذراعيها من تحت نهديها بقوّة. وقالت:

– سيعود القيصر إلينا (وهزّت نهديها لزوجها) أنت وحدك لا تُبصر شيئاً...

تعبّس تيتكين باعتذار، وحين خرجت زوجته من الحجرة مُتضايقة تحدّث همساً:

– لا تُلقيا بالاً إليها. إنها إنسانةٌ طيّبة القلب، وربّة بيتٍ فاخرة، إلا أنّ الأحداث أفقدتها توازنها...(ونظر في وجه كاتيا الذي احمرّ من

الشاي، وإلى روتشين الذي كان يلفّ سيكارة) آه، يا فاديم بتروفيتش، ليس ذلك بالأمر الهيّن...لا يجوز النّظر في الأحداث دون تمحيص ولا دراية...يُصادف أن ألتقي بأناس، وأرى الكثير...اذهب غالباً إلى بتايسك، على الضّفّة الأخرى من الدون. وغالبيّة السكان هناك من فقراء الفلاحين والعمال...

فأيّ قطاع طرقٍ هم، يا فاديم بتروفيتش؟ لا، بل هم أناسٌ مُذلّون ومُهانون...وما أشدَّ انتظارهم للسّلطة السوفييتيّة! فقط ألا تعتبرني بلشفياً، بحقّ الرّبّ (ووضع على صدره يدين قصيرتين مُشعرتين مُتضرعاً، وكأنه يعتذر اعتذاراً شديداً) إنّ الحكام الـمُتكبّرين القصار العُقول هم الذين أعطوا روستوف للسلطة السوفييتيّة...ليتك تعرف ماذا حدث عندنا أيام الأتمان كاليدين...كان ضباط الجرس الفاجرون الـمُتغطرسون يذرعون شارع سادوفايا بصفوفٍ زاهية قائلين: «سنعيد أولئك الأوغاد إلى السراديب». وأولئك الأوغاد هم كلّ الشّعب الروسيّ...إنه يُقاوم ولا يريد أن يعيش في السرداب. في كانون الأوّل كنت في نوفوتشيركاسك، أنت تذكر أنَّ المحبس يقع في الشارع الرّئيسيّ، وقد بناه الأتمان بلاتوف، على ما يُقال، في عهد ألكسندر الـمُبارك، وهو مبنىً صغير على النّمط الامبراطوريّ. والآن حين أغمض عيني، يا فاديم بتروفيتش أتخيّل درجات ذلك الرّواق الـمُخضّبة بالدّم...عندما مررت به سمعت صراخاً رهيباً، كالصّراخ الذي يُطلقه إنسانٌ يُعذّب...وذلك في وضح النهار، وفي وسط عاصمة منطقة الدون...وأقترب فأرى بالقرب من المحبس جمهوراً وقوزاقاً مترجّلين. والجميع صامتون ينظرون إلى جلدٍ يجري عند الأعمدة لتخويف الناس. كانوا يخرجون العُمّال الـمُتعاطفين

مع البلاشفة من المخفر اثنين اثنين ويجلدونهم. تصوّر، لـمُجرّد التعاطف. يُثبّتون أذرعهم على الأعمدة في الحال، ويبدأ أربعةٌ من القوزاق الأقوياء بإلهاب ظهورهم وأعجازهم بالسّياط. فكان لا يُسمع غير صفير السّياط، والقمصان والبناطيل تتطاير مزقاً، واللحم قطعاً، الدّم يسح على الدرجات، وكأنّه دماء حيوانات ذبيحة...أنا من الصّعب أن أصدم، ولكنني صُدمت آنذاك: ترامت صيحةٌ رهيبةٌ جداً...لا يصرخ الناس مثلها لمجرّد ألمٍ جسمانيّ...

– وبالنّتيجة فارق الأتمان الحياة، وصفوة القوزاق الأعيان مدفونون في الـمُنخفض خارج المدينة: الدّم المسفوح على الدّرجات طلب الثّأر. سلطة الفقراء...أنا شخصياً لا يُهمّني أن أغلي صبغ أحذية أو أفعل شيئاً آخر...لقد خرجتُ حياً من الحرب العالميّة، ولا أثمن غير شيءٍ واحدٍ هو نفس الحياة، واعذرني على هذا التّشبيه. لقد قرأت الكثير من الكتب وأنا في الخنادق، وتشابيهي أدبيّة. إذن...(وهنا نظر في الباب، وخفض صوته) سأقتنع بكلّ نظام للحياة إذا رأيت أناساً سُعداء...أرجو أن تفهمني، يا فاديم بتروفيتش، أنا لست بلشفياً... (ووضع يديه على صدره مرّةً أخرى). أنا لا أحتاج لنفسي الشّيء الكثير: قطعة خبز، قبضة تبغ، وصحبةٌ صميميّة حقاً...(وضحك بارتباك). لكنّ المسألة أنَّ العُمال مُتذمرون، ودع عنك عامّة الناس... هل سمعت بالمفوّض العسكريّ الرّفيق بروينيتسكي؟ نصيحتي أن تختفي حين ترى سيارته مُنطلقة. صعد بعد الاستيلاء على روستوف مُباشرة. ما إن يسمع كلمة اعتراض واحدة حتى يصيح: «الرفيق لينين يُقدّرني تقديراً عالياً، وأنا أبرقُ للرفيق لينين شخصياً...» وقد أحاط نفسه بعناصر إجراميّة. في كلّ مكان تجري الـمُصادرة والرّمي

بالرّصاص. وفي الليالي يسلبون في الشّوارع أيّاً كان. إنّه يتصرّف كقاطع طريق...فما هذا؟ وأين تذهب الأموال الـمُصادرة؟..إنَّ اللجنة الثوريّة لا تستطيع أن تفعل شيئاً معه. تخاف...لا أعتقد أنّه رجلٌ مبدئيّ...إنه يلحق الضّرر بالقضيّة البروليتاريّة أكثر...(إلا أنّ تيتكين أدار ظهره شاعراً بأنه قد تمادى في الأمر ونخر، وأخذ يضع يديه على صدره بلا كلمات هذه المرّة).

قال روتشين ببرود:

– أنا لا أفهمك، أيها السيّد الـمُقدّم. إنَّ بروينيتسكي وأمثاله هم السُّلطة السوفييتيّة الصرف...ولا يُمكن تبرير أعمالهم، بل مكافحتهم غير باخلين بالحياة...

أسرع تيتكين يسأل:

– لأجل من؟

– لأجل روسيا العظيمة، أيها السيد المقدّم.

– وما هي هذه؟ اعذرني على طرح السّؤال بهذه الصورة الحمقاء. روسيا العظيمة بأيّ مفهوم؟ أريد تعبيراً أدقّ. بمفهوم الطّبقة العُليا في بتروغراد؟ هذا واحد...أم بمفهوم فوج الـمُشاة الذي خدمنا، أنا وأنا فيه، والذي هلك ببطولة على الأسلاك الشائكة؟ أم بمفهوم مؤتمر التُّجار في موسكو؟ هل تذكر كيف بكى ريابوشينسكي[٥] على روسيا العظيمة في مسرح البلشوي؟ وهذا ثالث مفهوم. أم بمفهوم العامل الذي يتفهّم

٥– من كبار أصحاب البُنوك والمعامل الروس ومن زعماء الثورة الـمُضادّة البرجوازيين (المترجم).

عظمة روسيا في الأعياد حين يحون في خمّارةٍ قذرة؟ أم بمفهوم مائة مليون فلاح...

– اللعنة...(أسرعت كاتيا بالضّغط على يد روتشين تحت المائدة). اعذرني، يا مُقدَّم، حتى الآن كنت أعرف أنّ روسيا هي ما تسمّى بسُدس الكرة الأرضيّة، ويسكنها شعبٌ عاش تاريخاً عظيماً...أم لعلّ الأمر ليس كذلك حسب رأي البلاشفة...أرجو المعذرة...(وابتسم ابتسامةً مريرة من خلال الضّيق المكبوت في صدره بصعوبة).

– إنه كذلك بالضّبط...وأنا فخور...أنا شخصياً أحسّ بالرّضا حين أقرأ تاريخ الدّولة الرّوسيّة. إلا أنّ المائة مليون فلاح لم يقرأوا هذه الكتب، ولا يحسون بالفخر. وهم يريدون أن يكون لهم تاريخهم الخاص الـمُتّجه إلى الأزمـان المقبلة لا الأزمـان الغابرة...تاريخ الرّخاء...ولا مفرّ من ذلك. ثمّ إنّ لهم قادة هم البروليتاريا، وهؤلاء يتقدّمون أكثر من ذلك، إنهم يتجرّأون على خلق ما يُسمى بالتاريخ العالميّ...ولا مفرّ من ذلك أيضاً...أنت تتّهمني بالبلشفيّة، يا فاديم بتروفيتش...وأنا أتّهم نفسي بالتّفرّج، وتلك خطيئةٌ باهظة، ولكنّ عذري هو في التّعب الشّديد من حياة الخنادق، وآمل أن أكون بمرور الوقت أكثر نشاطاً، عندئذٍ لا أظنني سأعترض على تهمتك هذه...

وباختصار انتفش تيتكين، وقد تغطّت صلعته الـمُحمرّة بقطرات العرق. كان روتشين يلبس معطفه بسرعة ولكنّه لم يفلح في وضع أزراره في مواضعها الصّحيحة. وتقلّص وجه كاتيا من الحزن الشديد، وهي لا تفتأ تنقل بصرها بين زوجها وتيتكين. وقال روتشين بعد صمتٍ متوتّر:

– متأسّفٌ لفقدي رفيقاً. شكراً جزيلاً على حُسن الضّيافة...

وخرج من الغُرفة دون أن يمدّ يده للمصافحة. وفجأةً قالت كاتيا التي كانت تَلزم الصّمت دائماً، قالت بصوتٍ عالٍ كالصراخ وهي شدّت يديها:

– فاديم، أرجو أن تنتظر...(التفت رافعاً حاجبيه) فاديم، لست الآن على حقّ...(وتوجّهت وجنتاها). لا يُمكن أن يعيش الإنسان بمثل هذا المزاج، بمثل هذه الأفكار...

قال روتشين مُهدّداً:

– هكذا، إذن! تهانيّ...

– فاديم، أنت لم تسألني عن رأيي قط، وأنا لم أطالبك، و لم أتدخّل في شؤونك...لقد وثقت بك...ولكن يجب أن تفهم، يا عزيزي فاديم، إنّ تفكيرك خاطئ. أردت أن أقول ذلك منذ زمانٍ بعيد... يجب القيام بشيءٍ آخر مُختلف كلياً...ليس الأمر الذي جئتَ من أجله إلى هنا...يجب أن تفهم أولاً...وعندئذٍ فقط، إذا كنت واثقاً من أنَّ ضميرك يسمح لك، في هذه الحال اقتل...

– كاتيا، –صرخ بها صرخةً حانقة وكأنّها من ضربةٍ وجّهت إليه– أرجو أن تصمتي!

– لا!...أنا أقول ذلك لأنني أحبّك حباً جنونياً...يجب ألا تتحوّل إلى قاتل..يجب، يجب...

ظلّ تيتكين يهمس وهو لا يجرؤ على أن يندفع إليها أو إليه:

– أصدقائي، أصدقائي..دعونا نتكلّم، نتّفق.

ولكنَّ الاتّفاق كان مُستحيلاً. فإنّ كلّ ما تجمَّع في نفس روتشين خلال الأشهر الأخيرة قد انفجر بكره عارم. كان واقفاً عند الباب مادًّا عنقه ونظر إلى كاتيا، مُكشراً عن أسنانه، وفحّ:

– أمقتك، إلى الشيطان!..مع حبّك...ستجدين لنفسك سافلاً... بلشفياً...إلى الشّيطان!..

وأرسل من حنجرته نفس الصّوت الـمُؤلم الذي أرسله وهو في عربة القطار، وبدا وكأنّه موشكٌ على إتيان أشياء فظيعة، وأنّ الجوّ مشحونٌ بمصيبة...(حتى تحرّك تيتكين ليحمي كاتيا). إلا أنّ روتشين قلّص عينيه ببطء، وخرج.

كان سيميون كراسيلنيكوف جالساً على سرير الـمُستشفى يستمع بتجهّم إلى أخيه ألكسي. وكانت المؤونة التي أرسلتها له ماتريونا–دهن الخنزير، ولحم دجاج، وفطائر–مستقرّةً عند مؤخّرة السرير. و لم يكن سيميون ينظر إليها. كان نحيفاً، ووجهه سقيماً غير حليق، وشعره مُلتفاً من طول الرّقاد، وساقاه نحيلتين وهُما في السّروال الداخليّ من القماش الأصفر الرخيص. كان ينقل بيضةً حمراء من يدٍ إلى يد. وكان أخوه ألكسي الملوح البشرة الأشقر اللحية يجلس على مقعدٍ بلا مسند، فارجاً ساقيه اللابستين حذاءين جيّدين، وكان يقول بعذوبةٍ ورقّة، ولكنّ قلب سيميون يستوحش لكلّ كلمةٍ يقولها:

– الفلاحون لهم خطّهم الخاص، وللعمال خطّهم الآخر...

دخل العُمال في المنجم «غلوبوكويه» عندنا فامتلأ بالماء، وتعطّلت الآلات، وتشتّت الـمُهندسون. بينما لا بُدّ أن يأكل الإنسان، صحيح أم لا؟ دخل العُمال جميعاً إلى الحرس الأحمر. يعني أنّ مصالحهم

تقتضي تعميق الثّورة. صحيحٌ أم لا؟ بينما الثّورة بالنّسبة لنا نحن الفلاحين هي حرث مقدار عشر بوصاتٍ عميقاً في التُّربة، وتعميقنا لها يعني الحرث والبذر والحصد. هل قولي صحيحٌ أم لا؟ إذا كنا نذهب جميعاً لنحارب فمن سيعمل إذن؟ النّسوان؟ نحمد الله إذا استطعن رعاية المواشي. بينما الأرض تتطلّب العناية والرعاية. ذلك هو الأمر، يا أخي. فلنسافر إلى ديارنا، فإنّك ستتشافى أسهل على غذائنا. أصبحت لنا أرضٌ الآن. بينما لا يوجد من يعمل فيها. لا أحد يحرث، ويبتذر، ويحصد. وكيف نستطيع، ماترونا وأنا، وحدنا أن نفعل ذلك كلّه؟ عندنا الآن ثمانية عشر خنوصاً، وقد وضعتُ عيني على بقرةٍ ثانية. وكلّ ذلك يحتاج إلى أيدٍ عاملة.

أخرجَ ألكسي كيس التّبغ من جيب معطفه العسكريّ. فهزّ سيميون رأسه ممتنعاً عن التّدخين: "ما يزال الصّدر موجعاً". أخذ ألكسي يقلب المؤونة، وهو ماضٍ في إقناع أخيه بالذهاب للعيش في القرية، وتناول فطيرةً رقاقيّةً مُنتفخة، وتلمسها.

– كلّ هذه، صرفت ماتريونا رطلاً كاملاً من السّمنة.

قال سيميون:

– اسمع، يا ألكسي إيفانوفيتش. أنا لا أعرف بما أجيبك. سأذهب معك إلى القرية بسرور ريثما يندمل الجرح. ولكن لن أعمل في الأرض، فلا تأمل في ذلك.

– طيب، أيمكن أن أسأل لماذا؟

– لا أقدر، يا أليوشا[٦] (وتشنّج فمه، إلا أنه تغلّب على ذلك بجهد). افهمني، لا أقدر، لن أستطيع أن أنسى جرحي...لن أستطيع أن أنسى جَلْدهم لرفقائي...(وأشاح بوجهه نحو النافذة بمثل ذلك التّشنّج ونظر بعينين ضاريتين). يجب أن تضع نفسك في موضعي... لا أستطيع أن أفكّر إلا بهؤلاء الأوغاد...(وهمس بشيءٍ ما، ثمّ رفع صوته ضاغطاً البيضة الحمراء في قبضته). لن أهدأ...ما دام هؤلاء الأوغاد يمتصّون دماءنا...لن أهدأ!..

هزّ ألكسي إيفانوفيتش رأسه، وبصق على عقب السيكارة بين إصبعيه ليطفئها، وتلفّت ليضعها في مكانٍ ما، ثمّ ألقاها تحت السّرير.

– حسناً، يا سيميون، قضيّتك نبيلة...لنسافر إلى ديارنا لتتشافى. ولن ألزمك البيت بالقوّة.

ما كاد ألكسي كراسيلنيكوف يخرج من الـمُستشفى حتى التقى بإبن قريته إيغنات، من جنود الجبهة. توقّف الإثنان، وتبادلا التّحيّة، واستفسر كلّ واحدٍ عن أحوال صاحبه. فقال إيغنات: إنّه يعمل سائقاً لدى اللجنة التّنفيذيّة التّنفيذيّة. ثمّ مضى يقول:

– لنذهب إلى سينما «سوليل»، ومنها إلى بيتي لتبيت عندي. القتال دائرٌ هناك اليوم. هل سمعت عن المفوّض بروينيتسكي؟ لا أعرف كيف يجد منفذاً من الورطة اليوم. رجاله مستشرسون، والمدينة كلّها تعول من جراء تصرّفاتهم. يوم أمس نهاراً قتلوا صبيّين من تلامذة المدرسة في ذلك الرّكن لغير ما سبب. هجموا عليها بالسّيوف. وكنت واقفاً هنا، عند العمود، فتقيّأت...

٦– صيغة تدليل من ألكسي (الـمُترجم).

ووصلا إلى سينما «سوليل» وهما يتحدّثان. كان الناس كثيرين. فشقا طريقهما، ووقفا قرب موقع الأوركسترا. كان رجلٌ نحيلٌ شاحبٌ جداً محدودب الظّهر له شعرٌ طويلٌ كثيف أسود يسير بخطىً قصيرة أمام منضدة هيئة الرئاسة على المسرح الصّغير، وكأنّه يسير في قفص، وكانت هيئة الرّئاسة تتألّف من امرأةٍ مدوّرة الوجه في معطف للجنود، وجندي كئيب السّحنة ذي رأسٍ مضمّد بشاشٍ قذر، وعاملٌ عجوز نحيل العود يرتدي نظارة وشابين في قميصين من القمصان العسكريّة. وكان الرّجل الشاحب يتحدّث ملوحاً بقبضةٍ واهنة وبحركةٍ رتيبة، بينما كانت يده الأخرى تقبض على قصاصاتٍ من الصّحف.

همس إيغنات لكراسيلنيكوف:

– إنه مُعلّمٌ وهو من أعضاء السوفييت عندنا...

– لا نستطيع أن نصمت، ولا يجب أن نصمت...أمِن المعقول أنّ ما لدينا في المدينة هي السُّلطة السوفييتيّة التي حاربتم في سبيلها؟.. عندنا تعسّف...استبدادٌ أسوأ من الاستبداد القيصريّ...إنّهم يقتحمون البيوت على السّكان الآمنين...وعند هبوط الظلام يتعذّر الخروج إلى الشارع بسبب السّلب والنّهب...والأطفال يُقتلون في الشّوارع يتستّر على كلّ هذه الجرائم بسلطته الـمُطلقة...أيها الرفاق...(وضرب على صدره ضربةً عصبيّة بحزمة القصاصات). لماذا يقتلون الأطفال؟ لتقتلونا...ولكن لماذا تقتلون الأطفال؟..

وغطى على كلماته الأخيرة هديرٌ منفعل شمل القاعة كلّها. كان الجميع يتبادلون النّظرات في رعبٍ واضطراب. وجلس الخطيب إلى

منضدة الرّئاسة، وغطى وجهه المتغضّن بأوراق الجرائد. تلفّت رئيس الجلسة، وهو الجنديّ الـمُضمّد، نحو الكواليس، وقال:

– الكلام الآن للرفيق تريفونوف آمر الحرس الأحمر...

صفّقت القاعة كلّها. صفّقوا وأذرعهم مرفوعة. وصاحت عدّة أصواتٍ نسائيّة من أعماق القاعة: «ترجوك أيها الرّفيق تريفونوف». وصعق صوتٌ عميق النّبرة: «مرحى للرفيق تريفونوف!». عند ذاك أبصر ألكسي كراسيلنيكوف رجلاً ممشوق القامة فارعاً في سترة جلديّة أنيقة وحزامين مُتصالبين مما يلبسه الضّباط يقف عند موقع أوركسترا بالذات مديراً ظهره للجمهور، ثم استدار فجأةً كالنابض ليواجه الصياحين والمصفّقين. مرّر عينيه الجاحظتين الرّماديتين الفاتحتين بلون الفولاذ على الوجوه بسخرية وبرود، وأخذت أذرعهم تنزل في الحال، وتنكمش رؤوسهم بين الأكتاف، وصار الناس يكفّون عن التّصفيق. وسار بعضهم مُسرعين نحو الـمُخرج وهم مُنحنون.

ابتسم ذو العينين الفولاذيتين ابتسامةً مزدرية. وعدّل قراب مسدّسه بحركة قصيرة. كان له وجه ممثّلٍ طويلٍ حليق حلاقةً جيّدة. استدار نحو المسرح ثانيةً ووضع مرفقيه على حاجز موقع الأوركسترا. لكن إيغنات جنب كراسيلنيكوف.

– إنه بروينيتسكي. نظرته وحدها تكفي لكي تفزع.

خرج تريفونوف آمر الحرس الأحمر من وراء الكواليس يضرب الأرض بحذاءيه الثّقيلين. كان كُمّ سترته من قماش الفنيلة مربوطاً بربطة حمراء. كان يُمسك بين يديه عُمرةً مربوطةً أيضاً بربطة حمراء في طرفها الأعلى. كان ركين البنيان، بادي الرّصانة. اقترب من حافة

المسرح ببطء. وتحرّكت جلدة رأسه الرّماديّة على جمجمته الحليقة. كان الظّلّ المرتمي من جبينه يُغطي عينيه، رفع ذراعه فساد الصّمت. أشار بكفّ نصفٍ مضمومة إلى برو ينيتسكي الواقف إلى الأسفل.

– أيها الرّفاق، ها هو برو ينيتسكي، المفوّض الحربيّ موجودٌ هنا. وذلك شيءٌ جيّدٌ جداً، فليجب هو على السؤال، وإذا لم يرد أن يجيب سنجبره على ذلك.

قال برو ينيتسكي من الأسفل بتهديد.

– هكذا!

– نعم، سنجبره. نحن سلطة العمال والفلاحين، وهو مُلزمٌ على الخضوع لها. إنّ الوقت حرجٌ الآن ولذا يصعب فهم كلّ الأمور دفعةً واحدة...إنّه لزمنٌ مضطرب. والوسخ، كما هو معروف، يطوف دائماً على السّطح...ومن هنا نستدلّ أنّ محتالين يلتصقون بالثّورة...

صاح برو ينيتسكي بلكنةٍ بولونيّةٍ واضحة:

– ماذا يعني؟..سمّ...سمِّ اسماً.

– لا تستعجل، سنصل إلى الاسم أيضاً..لقد نظّفنا مدينة روستوف من عصابات الحرس الأبيض بدماء العُمال والفلاحين، أيها الرّفاق...وتقف السُّلطة السوفييتيّة في منطقة الدون بقدمين راسختين. لماذا ترامت الاحتجاجات من كلّ جانب؟ العُمال قلقون، ورجال الحرس الأحمر مستاؤون...والجنود في القطارات هائجون قائلين لماذا يتركوننا في سكك الحديد خلال وقتٍ طويل دون حركة؟..وقبل دقائق سمعنا هنا صوت ممثّل المثقّفين (وأشار بكفّه

إلى الخطيب السابق). فما هي المسألة؟ يبدو كلّ إنسانٍ غير راضٍ عن السُّلطة السوفييتيّة؟ يقولون: لماذا تنهبون، لماذا تسكرون، لماذا تقتلون الأطفال؟ بل إنّ الخطيب السابق طلب بنفسه أن يُقتل...(ضحكٌ وتصفيقٌ هنا وهناك). أيها الرّفاق، إنّ السُّلطة السوفييتيّة لا تنهب ولا تقتل الأطفال بل الأوغاد الذين لصقوا بالسّلطة السوفييتيّة هم الذين ينهبون ويقتلون...وبذلك يُقوّضون إيمان الناس بالسّلطة السوفييتيّة، وبذلك يضعون في أيدي أعدائنا سلاحاً لا يرحم...(توقّف. صمتٌ لا تسمح فيه أنفاس مئاتٍ من الناس). ولهذا السّبب أريد أن أسأل على الرفيق برونيتسكي...هل يعلم هو بمقتل صبيين يوم أمس؟

صوتٌ باردٌ من الأسفل:

– نعم، أعلم.

– جيّدٌ جداً. وهل يعلم بالسّطوات الليلية، والسّكر والعربدة في فندق "بالاس"؟ هل يعلم أين تذهب الأموال الـمُصادرة؟ أتّسكت، يا رفيق برونيتسكي؟ ليس عندك ما تردّ به. الأموال الـمُصادرة تنفقها عصابة اللصوص على الخمرة...(هديرٌ في القاعة، تريفونوف يرفع ذراعه). وهناك شيءٌ آخر قد اتّضح لنا... لم يعطك أحدٌ السّلطة في روستوف. إنّ أوراق تفويضك مُزيّفة، واستشهاداتك بموسكو، ولا سيما بالرّفيق لينين كذبٌ وقح...

كان برونيتسكي يقف الآن منتصب القامة. وقد سرت رجفاتٌ في وجهه الوسيم الشاحب. وفجأةً قفز جانباً إلى حيث يقف جنديٌّ شاب أشقر الشّعر فاغر الفم، وأمسكته من معطفه، وصاح بصوتٍ رهيب مُشيراً إلى تريفونوف:

– ارمِ هذا الوغد!

تلوّى وجه الشاب بشكلٍ وحشيّ، وجذب البندقيّة من ظهره. كان تريفونوف يقف بلا حراك مُباعداً ساقيه، إلا أنّ رأسه انحنى بحركةٍ كحركة الثور. خرج عاملٌ من وراء الكواليس، ووقف بالقرب منه، وحرّك ترباس البندقيّة على عجل. وفي الحال تبعه آخر، وثالث حتى امتلأ المسرح كلّه بسواد السّتر والمعاطف، وصلصلت الحراب المُتصادمة. عندئذٍ صعد رئيس اللجنة فوق المنضدة، وعدّل الضمادة التي تهدّلت على عينيه، وصرخ بصوتٍ مزكوم:

– أيها الرّفاق، أرجو ألا تثيروا الذّعر، لم يحدث شيءٌ غير متوقّع. اغلقوا الباب، يا من في الخلف. الرّفيق تريفونوف في أمانٍ تام. الكلام للرفيق بروينيتسكي للرّد.

إلا أنّ بروينيتسكي اختفى، وكان الجنديّ الأشقر وحده ما يزال في وقته بالقرب من مكان الأوركسترا فاغراً فمه بدهشة.

-٣-

لقي جيش المتطوّعين مقاومةً جديّةً جداً بالقرب من قرية كورينيفسكايا. ومع ذلك فقد استولى على القرية بخسائر كبيرة، وهنا صار مؤكّداً ما كان يُخفي عن الجيش، ويخشى منه أكثر من أيّ شيءٍ آخر على الإطلاق: قبل عدّة أيام استسلمت يكاترينودار عاصمة منطقة كوبان للبلاشفة بلا قتال، وهي التي كانت هدف الحملة، والأمل في الراحة، وقاعدة للاستمرار في النضال، وهرب المتطوّعون من كوبان تحت إمرة بوكروفسكي واتمان كوبان والحكومة المحليّة نفسها إلى جهةٍ مجهولة. وهكذا وجد الجيش نفسه فجأةً في حيص بيص، وهو على بُعد مسيرة ثلاثة أيامٍ من الهدف.

كما أنّ الأمل في أن تلقاه كوبان باستبشار كان خادعاً أيضاً. والظاهر أنّ القوزاق قرروا معرفة ما يحدث دون معونة جيش المتطوّعين. كانت الضّياع على طريق الجيش مهجورة، في كلّ قرية كمينٌ بالانتظار، وفوق كلّ قمّةٍ تلّ رشاشةٌ في الحراسة. فعلام يُمكن أن يعول جيش المتطوّعين؟ على قوزاق أكوبان المنحدرين من أوكرانيا، أم على الجركس الذين شبوا على العداوة القديمة نحو الروس، أم على فصائل جيش القفقاس التي لزقت بأراضي كوبان الغنيّة وقد راح كلّهم يغنون فجأةً في جوقةٍ واحدة مع الضّباط ذوي الكتافيات الـمُذهّبة وطُلاب المدارس العسكريّة اليافعين: "مرحى لكورنيلوف، مرحى للوطن، مرحى للإيمان!" ولكن هذه الصيغة الـمُستهلكة العديمة

النّفع والمطموسة كالعملة القيصريّة هي كلّ ما كان جيش المتطوّعين يستطيع تقديمه للقرى القوزاقيّة الغنيّة وقد تيقّظت لتتساءل: "ألم يحن الوقت لنعلن جمهوريتنا القوزاقيّة الـمُستقلّة؟" وللأغراب الذين لجأوا من المناطق الأخرى الملتفّين حول الرايات الحمراء ليناضلوا من أجل الـمُساواة في الحقوق في أراضي كوبان والدون، وصيد الأسماك، وفي سبيل السُّلطة السوفييتيّة...

حقاً إنّ جيش المتطوّعين كان يأخذ معه في طابوره الداعية الشّهير البحّار فيودور باتكين الأعوج القدم، الداكن البشرة بروبه من القماش الـمُشمّع، وطاقيّته المزيّنة بأشرطة القديس غيورغي. وقد حاول الضّباط أكثر من مرّةٍ أن يقتلوه أثناء المسيرة كيهوديٍّ حقير وابن كلبٍ أحمر. إلا أنَّ كورنيلوف نفسه كان يحميه وهو يظنّ أنّ البحّار المشهور باتكين يسدُّ كلياً نواقص الجيش في حقل الأيديولوجيّة. وفي الحالات التي كان قائد الجيش يضطرّ فيها للكلام أمام الناس (في القرى القوزاقيّة) كان يترك باتكين يتحدّث قبله، فكان هذا يُثبت للأهالي بمكرٍ وذكاء أنَّ كورنيلوف يُدافع عن الثّورة، وأنَّ البلاشفة، على العكس من ذلك، أعداءٌ للثّورة مُباعون للألمان.

وما كان من الـمُمكن أن يستسلم الجيش لأنّ الأسرى لم يكونوا يأخذون هناك خطّةً لاجتياز سهوب استراخان إلى نهر الفولغا، والخروج إلى سيبيريا. إلا أنّ كورنيلوف أصرّ على المضيّ في الزّحف على يكاترينودار للاستيلاء على هذه المدينة عنوة. تحوّل الجيش من قرية كورينيفسكايا جنوباً، وبعد معارك باهظة عبر نهر كوبان عند قرية أوست–لابينسكايا، وكان النّهر في ذلك الفصل من العام فياضاً وهائجاً. وسار الجيش دون توقّفٍ مجرجراً معه طابوراً من العربات

عليها عددٌ كبير من الجرحى. إلا أنه كان مثير الرّهب وشديد الضّراوة حتى أنَّ طوق القوات الحمراء كان ينفكّ في كلّ مرّةٍ تاركاً إياه يمرّ.

سار الجيش باتجاه مايكوب مُخادعاً العدوّ، إلا أنه حين وصل إلى قرية فيليوفسكايا عبر نهر بيلايا، وتحوّل في زاويةٍ حادّة نحو الغرب في مؤخّرة يكاترينودار. وهنا، وراء نهر بيلايا، وفي فجٍّ ضيّق أحاطت به قواتٌ كبيرة من قوات الحمر. وكان الوضع يبدو ميئوساً. وزعقت البنادق على الجرحى جراحاً خفيفة، المحمولين على العربات... استمرّ القتال النهار بطوله. كان الحُمر يُطلقون من المدافع من المُرتفعات، ويرشقون بالرّشاشات المعابر والعربات ولا يدَعون الصّفوف تنهض. ولكن حين هبط الظّلام، وتحوّل جيش المتطوّعين المُمزّق إلى الهجوم المُضادّ بجهدٍ أخير مُستميت تراجع الحُمر من المُرتفعات، وجعلوا قوات كورنيلوف تمرّ نحو الغرب. ووقع ما وقع من قبلٍ أيضاً، انتصرت الخبرة العسكريّة، والإدراك بأنّ الحياة تتوقّف على نتيجة هذه المعركة.

كانت القُرى تشتعل في كلّ مكانٍ في الليل. وقد ساء الطّقس، وهبّت ريح الشّمال، وتلبّدت السّماء بسحبٍ ثقيلة داكنة. وبدأ المطر يسقط، وظلّ يهطل طوال الليل غزيراً مدراراً. وفي الخامس عشر من آذار وجد الجيش أمامه، وهو يزحف باتّجاه قرية نوفو—دميتروفسكايا مسافات واسعة من المياه والوحل السائل. وكانت التلال القليلة المخطّطةً بالدروب تغيب في الضباب الذي يفترش الأرض. خاض الرجال في الماء إلى الرّكب، وغطست العربات وعجلات المدافع حتى محاورها. وسقط ثلجٌ رطب، وهبّت عاصفةٌ جامحة لا مثيل لها.

خرج روتشين من عربة البضائع، وعدّل البندقيّة وكيس متاعه.

وتلفّت فيما حوله. كانت جماعاتٌ من جنود فوج فارنافسكي تضجّ على السّكك الحديديّة... بعضهم في معاطف عسكريّة والبعض الآخر في فروات، وآخرون في معاطف مدنيّة محزّمةٍ بحبال. والكثيرون منهم يحملون أحزمةً من عتاد الرّشاشات وقنابل يدويّة ومسدّسات. بعضهم يضع على رأسه عمراتٍ لها رؤوسٌ مستدقّة، والبعض الآخر طراطير مخروطيّة، وفريقٌ ثالث قبّعاتٌ عالية مصادرةٌ من المضاربين. وكانت الأحذية الطّويلة الـمُمزّقة، والأحذية اللباديّة، والأرجل الملفوفة بالخرق تعجن الطين اللزج. كان الجنود يصرخون، وحرابهم تتصادم: "إلى الاجتماع الحاشد، يا أولاد! سنحلّل الأمر بأنفسنا! كفاهم سوقنا إلى المجزرة!"

كان الاضطراب بسبب الشائعات الـمُبالغ فيها، كما هو الأمر دائماً في مثل هذه الأحوال، عن اندحار الوحدات الحمراء قرب قرية فيليبوفسكايا: "عند كورنيلوف خمسون ألفاً من الضّباط، ويحرّضون ضدّه فوجنا وحده لكي يبيده... خيانة، يا أولاد! أمسكوا بالآمر!"

وتراكض الجنود إلى فناء المحطّة الـمُنتهي وراءها تماماً بالسّهب المغطّى بنقابٍ داكن من المطر. كانت أبواب عربات البضائع تقرقع قرقعةً شديدةً، حين كان رجالٌ متوحّشون يقفزون منها وبنادقهم على ظهورهم، ويتراكضون إلى حيث كانت الريح تصفر فوق جموع الناس في أشجار الحور المخروطيّة التي ما تزال جرداء، وكانت غربان الغيظ تحوم فوق قممها ناعبة. صعد الخطباء على السّطح العُشبيّ لأحد مخازن الثّلج، ورفعوا قبضاتهم أمامهم، وصاحوا: "يا رفاق، لماذا يتغلّب علينا قُطاع الطُّرق الكورنيلوفيون؟ لماذا سمحوا لجيش المتطوّعين بالوصول إلى يكاترينودار؟.. ما هي خطّة جيشنا؟.. دعوا الآمر يُجيب".

وهدر حشدٌ من ألف رجل "ليجب!" بقوّة جعلت غربان الغيظ تُحدّق عالياً تحت السُّحب. ورأى روتشين، وهو واقفٌ عند مدخل المحطّة، الآمر يتحرّك بقبّعته المدعوكة وسط الرؤوس المضطربة متّجهاً نحو خزان الثّلج. كان وجهه العظميّ الحليق ببصره الجامد شاحباً حازماً. فعرف روتشين أنّ الآمر هو صاحبه القديم سيرغي سيرغييفيتش سابوجكوف.

في فترة ما قبل الحرب كان سابوجكوف يتكلّم بإسم جماعة "أناس المستقبل" مُحطّماً الأخلاقيّة القديمة. وظهر في المجتمع البرجوازيّ راسماً على خدّيه رسوماً غاوية، وسترته من الفانيلا الخضراء الزاهية. وأثناء الحرب تطوّع في سلاح الفرسان، واشتهر كمستطلع ومبارزٍ جريء، وحصل على رتبة ملازم. وبعد ذلك، وفي بداية عامً ١٩١٧ اعتُقل فجأةً، وأُرسل إلى بتروغراد، وحُكم عليه بالإعدام رمياً بالرّصاص لانضمامه إلى منظّمة سريّة. ثمّ أطلقت ثورة شباط سراحه فكان لفترةٍ مُعينة يتكلّم عن كتلة الفوضويين في سوفييت نواب الجنود. ثمّ اختفى ليظهر ثانيةً في تشرين الثاني مُشاركاً في الاستيلاء على قصر الشّتاء. وكان من أوائل الضّباط النظاميين الذين انخرطوا في الحرس الأحمر.

ها هو الآن قد صعد إلى السّطح العُشبيّ مُنزلقاً، ولما استقرّ هناك حشر إبهاميْ يديه تحت حزامه، وجعّد جلدة رقبته ونظر إلى الرّؤوس العديدة الـمُتطلّعة إليه. وابتدر قائلاً بسخرية وبصوتٍ لم يرفعه كثيراً بل جعله مسموعاً في كلّ مكان:

– أتريدون أن تعرفوا، يا شياطين الصّراخ، لماذا يتغلّب علينا الأوغاد ذوو الكتافيات المذهبيّة؟ بسبب هذا الصّراخ والفوضى.

بالإضافة إلى أنكم لا تطيعون أوامر القيادة العليا، وترفعون عقيراتكم بالصياح بكلّ ذريعة...بل وهناك من بينكم من يُثير الرُّعب!..من قال لكم إننا اندحرنا عند قرية فيليبوفسكايا؟ من قال لكم إنّهم مرّروا كورنيلوف إلى يكاترينودار بخيانة؟ أنت الذي قلت: (ودفع ذراعه الحاملة بالـمُسدّس مُشيراً بها إلى شخصٍ من الواقفين في الأسفل). تعال إليّ، لنتحدّث...إذن، لم تقل أنتً...(ودسّ مسدّسه في جيب بلا رغبة). تحسبونني أحمق وطفلاً غريراً، ولا أفهم لماذا تزعقون... أتريدون أن أقول لكم لماذا؟ أنَّ فيدكا إيفولغين أوّلاً، وبافلينكوف ثانياً، وتيرنتي دوليا ثالثاً قد تلقّوا بالاتّصال الـمُباشر نبأً يقول إنّ في محطّة آفيسكايا صهاريج الكحول...

(ضحك. وقام روتشين قد تلوّى بابتسامة هازئة: «تخلّص المحتال»). من الواضح أنّ هؤلاء الفتيان مُتلهّفونَ للقتال. وواضحٌ أنّ القائد العام خائن لأنّ صهاريج الكحول قد يستولي عليها ضباط كورنيلوف فجأة...وتلك مُصيبةٌ ستحلّ بالجمهوريّة...(عاصفةٌ من الضّحك جعلت غربان القيظ تصعد عالياً في السّماء). أنا أعتبر الحادث قد انتهى، أيها الرفاق...وها أنا أقرأ آخر بلاغٍ حربيّ.

أخرج سابوجكوف أوراقاً، وشرع يقرؤها بصوتٍ عالٍ. استدار روتشين، وخرج خلال المحطّة إلى الرصيف، وجلس على مسطبةٍ مكسورة، وأخذ يلفّ له سيكارةً من التّبغ البيتيّ. قبل أسبوع سجّل (بهويّةٍ مزيّفة) في وحدةٍ من الحرس الأحمر ذاهبةً إلى الجبهة. وقد ساءت علاقته مع كاتيا. بعد الحديث العصيب الذي جرى حول مائدة الشاي عند تيتكين قضى روتشين بقيّة النهار يجوب المدينة، وفي الليل عاد إلى كاتيا، و لم ينظر في وجهها مخافاً أن يظهر تأثّراً، وقال بصرامة:

– امكثي هنا شهراً أو شهرين، لا أدري...آمل أن تكوني معه على اتّفاقٍ تامّ في الآراء...وفي أوّل فرصة سأدفع له على إقامتك. ولكن ألحّ عليك بأن تخبريه فوراً أنَّ إقامتك عنده لن تكون بلا مُقابل، لن تكون إحساناً منه...سأغيب لفترةٍ من الوقت.

سألت كاتيا محرّكةً شفتيها حركةً ضعيفة:

– إلى الجبهة؟

– هذا ما يخصّني وحدي تماماً...

أصبحت علاقته مع كاتيا رديئة للغاية. في يومٍ من أيام تموز من السنة الماضية، وعلى رصيف نهر النيفا الذي كانت تعكس صفحته الصّقيلة معالم الجسور وأعمدة جزيرة فاسيليفسكي–في ذلك اليوم الـمُشمس البعيد–قال روتشين لكاتيا التي كانت جالسةً على مصطبةٍ غرانيتيّة قرب الماء: «ستنتهي الحروب، وتمرّ الثّورات، وتزول ممالك، ويبقى قلبك وحده خالداً...» وها هما بقيا عدوّين في فناء قذر...ولم تكن كاتيا تستحقّ هذه النهاية... «ولكن، اللعنة، حين تكون روسيا كلّها منتهية...»

كانت خطّة روتشين بسيطة: الوصول في وحدةٍ للحرس الأحمر إلى منطقة المعارك ضدّ جيش المتطوّعين، والتسلّل إليه في أوّل فرصةٍ سانحة. فقد كان الجنرال ماركوف والعقيد نيجينتسيف من ضباط ذلك الجيش يعرفانه شخصياً. وكان في إمكانه أن يخبرهم بمعلومات قيّمة عن مواقع وأوضاع الوحدات الحمراء. ولكنّ الأهمّ من ذلك أن يشعر بأنّه بين جماعته، وأنْ يلقي عن وجهه قناعه اللعين، ويتنفّس

أخيراً بملء رئتيه، وبيصق مع جمع الرّصاص نفثة كرهه الدامية في وجه أولئك "الحمقى المخدوعين، والمتوحّشين المستهترين"...

- أحسَنَ الآمر التّعبير بشأن الكحول. إننا نصخب كثيراً. وقد قمنا بضجّةٍ هائلة، وحين نفكّر في الأمر نجد أنفسنا في ورطةٍ من التّفكير.

قال شخصٌ زريّ الهيئة في فروة خروف برز صوفها من تحت إبطه وعلى ظهره، وجلس على المصطبة قرب روتشين. وطلب منه تبغاً قائلاً:

- أنا أدخّن الغليون كالعجائز، يا صاحبي. (وأدار وجهه الماكر المخشوشن بلحيته الناصلة وعينيه المتقلّصتين). كنت أشتغل في مخازن الحبوب عند تجارٍ في نيجني نوفغورود، فتعوّدت عند ذاك على تدخين الغليون. أنا أحارب منذ عام ١٩١٤، ولا أستطيع أن أتوقّف. تلك هي مشكلتي، يا أخ، مُحاربٌ مزمن، والله العظيم.

قال روتشين في غير ما رغبة:

- آن لك أن تستريح.

- أستريح؟ وأين هذه الراحة؟ أنت، يا فتى، من الأغنياء كما أرى. لا، لن أترك القتال. لقد شبعت مصائب من البرجوازيين! أنا أشتغل عند الأغنياء منذ أن كان عمري ستّة عشر عاماً، وطوال ذلك الوقت وأنا حارس. ترقّيت إلى سائق عربةٍ عند تجار آل فاسينكوف- ربما سمعت بهم-ولكن أضررت بزوجٍ رماديّ من خيولهم، من الخيول الأصليّة، بأن تركتهما خطأً يعبأن ماء كثيراً. نعم، ارتكبت خطأً، فطردوني بالطّبع. ولديّ قتل، وزوجتي توفّيت منذ زمان. والآن حدّثني في سبيل من أحارب: في سبيل السوفييتات أم في سبيل

البرجوازيين؟ أنا رجلٌ ذو معدة مملوءة، وحذائي هذا قد أخذته من أحد الموتى في الأسبوع الماضي، حذاءٌ لا تنفذ الرّطوبة. شيءٌ ممتاز. وكلّ شغلي أن أطلق النار، وبعد المعركة أجلس قرب المرجل. إننا نعمل منذ الآن من أجل قضيتنا نحن، يا فتى. والفقراء، المساكين، والذين من حظّهم البؤس والشّقاء هم الذين يؤلفون جيشنا. أما الجمعيّة التّأسيسيّة فقد رأيت من انتخبوا إليها في نيجني نوفغورود–المثقّفين والشيوخ القساة.

– تعلّمت تدوير لسانك بمهارة.

قال روتشين، وقد اختلس نظرةً إلى مُحدّثه. وكان يُدعى كفاشين. وكان قد قضى معه أسبوعاً كاملاً في عربة قطارٍ واحدة ينام إلى جانبه على الرّفّ العلوي. وكان ركاب العربة يدعون كفاشين بـ«الجد». وكان يجلس ومعه جريدة أينما أمكنه ذلك. يضع على أنفه الناحل نظارةً أنفيّةً ذهبيّة، ويقرأ بصوتٍ خفيض.

قال يروي حكايتها: "حصلت على هذه النظارة الأنفيّة في سامارا بموجب قرار تمليك. وكان المليونير باشكيروف قد أوصى بها لنفسه. ولكن أنا الذي استخدمتها".

وردّ على روتشين:

– صحيحٌ ما قلته. إنني تعلّمت تدوير لساني. لم أفوّت اجتماعاً واحداً. وكلّما دخلت محطّة قطار قرأت كلّ المراسيم والقرارات وكلّ شيء. فالكلام هو قوّتنا البروليتاريّة. فماذا كنا نُساوي لو كنا صامتين وبلا وعي؟ مجرّد سمكةٍ صغيرة!

وأخرج الجريدة، ونشرها بعناية، ووضع نظارته الأنفيّة برزانة،

وأخذ يقرأ المقال الافتتاحيّ ناطقاً بالكلمات وكأنها كُتبت بلغةٍ غير روسيّة.

«...تـذكّـروا أنكم تُقاتلون في سبيل سعادة جميع الشّغيلة والمستثمرين، أنتم تُقاتلون في سبيل الحقّ في بناء حياةٍ عادلة، حياةٍ أفضل...»

استدار روتشين و لم يلحظ أنّ كفاشين كان ينطق بهذه الكلمات، وهو يتفرّس فيه من فوق نظارته الأنفيّة. قال كفاشين بصوتٍ مختلفٍ تماماً:

– والظاهر أنّك، أيها الفتى، من الأغنياء. لم تعجبك قراءتي، ألعلّك جاسوس؟

من محطّة آفيبسكايا سار طابور فوج فارنافسكي ماشياً إلى قرية نوفو–دميتروفسكايا. وفي ظلام منتصف الليل كانت الريح تصفر بين الحراب، وتعبث في الثياب، وتقذف الوجوه بخرز الجليد. كانت الأقدام تغطس خلال طبقةٍ صلبة من الثّلج، وتصل إلى الوحل اللزج. ومن خلال ضجيج الريح تردّدت صيحات: «قف! قف! أخفّ! لا تضغط، شياطين!»

كان البرد القارس ينفذ من خلال المعاطف الخفيفة، ويصل حتى العظام. فكّر روتشين مع نفسه: "فقط ألا أقع، وإلا فستكون نهايتي. ستدوسني الأقدام..." وكانت أكثر الأشياء تعذيباً له هي هذه الوقفات والصّرخات في المقدّمة. والظاهر أنهم ضلّوا طريقهم، وراحوا يتجوّلون على حافّة شيءٍ يشبه مُنخفضاً أو نهيراً. تردّد صوتٌ متقطّع وكأنه يودّع: "يا إخوان لا أستطيع أن أقاوم أكثر". وفكّر روتشين:

"أهذا صوت كفاشين؟ كان طوال الوقت يسير إلى جانبي. حزرني، لم يصدّق بكلمة واحدةٍ من كلماتي". (وقد تنصّل روتشين منه بجهد يوم أمس). توقّفً الذين في المقدّمة مرّةً أخرى. ارتطم أنف روتشين بظهر شخصٍ بمعطفه المتجمّد. وفكّر مع نفسه واقفاً ويداه المتثلجتان محشورتان داًخل كُميه ورأسه مطرق "أربع سنوات وأنا أغالب التّعب، وقد قطعت آلاف الفراسخ من أجل أن أقتل. إنّ ذلك مهمٌّ جداً وذو شأنٍ كبير. أما أنْ أسيئ إلى كاتيا وأتركها فذلك أقلّ شأناً. غداً أو بعد غدٍ سأنتقل إلى الجانب الآخر، وفي مثل هذه العاصفة الثّلجيّة سأتحوّل إلى قتل الروس. غريب، كاتيا تقول إنني رجلٌ شريف وطيّب. ذلك غريب، غريبٌ جداً".

وانتبه بفضول إلى دوران هذه الأفكار في رأسه. ثمّ انقطعت. فكّر: "شيءٌ سيّئ يعني أنني أتجمّد. تمرّ في ذهني الأفكار الرئيسيّة الأخيرة. إذن، سأستلقي الآن على الثّلج".

إلا أنّ الظّهر المتجمّد أمامه قد ترنّح، وسار. فترنّح روتشين مثله وسار وراءه. الآن صارت رجلاه تغوصان إلى الرّكب، وكان الحذاء الثقيل يخرج من الطين بجهد. حملت الريح جزءاً من صيحة: "نهر، أولاد..." وتردّد سباب... والريح ما زالت تصفر بين الحراب مثيرةً الأفكار الغريبة. مرّت به شخوصٌ غامضةٌ محدوْدبة. استجمع روتشين قواه، وسحب قدمه بأنين، ومضى في سيره بصعوبة.

كان سيلٌ بنّيّ يبرز خطاً أسود على الثّلج، وإلى أبعد من ذلك كان كلّ شيءٍ محجوباً بالثّلج المتطاير. كانت الأقدام تنزلق على الـمُنحدر، والماء الداكن ينطلق مُزمجراً، وصيحات:

– انغمر الجسر بالماء...

– يعني نرجِع؟

– من قال نرجع؟ أنت؟ أنت الذي قلت؟

– اتركني، يا رفيق، اتركني.

– اضربه بالأخمص...

– أوي...أوي...أوي...

وفي الأسفل وراء حافّة الشاطئ شبّ مخروطٌ ضوئيّ من فانوس كهربائيّ. وبان قوس الجسر مغموراً بماءٍ رماديٍّ مُنطلقٍ بشدّة، وقطعةٌ مكسورة من الدّرابزين. وارتفع الفانوس إلى الأعلى، ورسم مُنحنياتٍ ضوئيّة، وانطفأ. وقال صوتٌ مبحوحٌ رهيب:

– فصيلة...عبروا!..البنادق والعتاد على الرّؤوس. لا تتدافعوا... اثنين اثنين...هيا!

رفع روتشين البندقيّة ودخل الماء حتى خصره، ولم يكن الماء بارداً برودة الريح. كان يضرب جنبه الأيمن بقوّة، ويدفعه، مُحاولاً أن يجرفه في هذا الظّلام الرّماديّ الـمُبيضّ، في الدوامة. كانت قدماه تنزلقان وهما لا تكادان تتحسّسان ألواح الجسر الـمُحطّم.

كان فوج فارنافسكي قد أرسل إلى قرية نوفو–دميتروفسكايا لتعزيز القوات المحليّة. وقد خرج أهل القرية جميعهم لحفر الخنادق وحُصّن مقرّ إدارة القرية وبعض البيوت، ونُصبت الرشاشات. وكانت المدفعيّة الثقيلة قد وضعت جنوباً في قرية غريغوريفسكايا.وفي تلك المنطقة نفسها كان يرابط الفوج الثاني لشمال القفقاس تحت إمرة دميتري

شيليست الذي ظلّ يُلاحق جيش المتطوّعين ابتداءً من روستوف. وفي محطّة آفيبسكايا غرباً توجد حامية ومدفعيّة وقطاراتٌ مدرّعة. وكانت قوات الحُمر مُوزّعةً على رِقعةٍ واسعة وهو أمرٌ لا يجوز في مثل هذه الأرض الموحلة وانعدام الطُرق.

عند المساء عَبَرَ الساحة إلى مقرّ إدارة القرية فارسٌ قوزاقيّ ملطّخٌ بالثّلج الرّطب والوحل. وتوقّف عند مُقدّمة البيت. كان البُخار ينبعث من جنبيْ حصانه الـمُنتفخين.

– أين الرّفيق الآمر؟

خَرج عدّةُ أشخاص إلى مقدّمة البيت يُـزَرّرونَ معاطفهم على عَجل. وظهر سابوجكوف في فروة الفرسان شاقاً طريقه بينهم:

– أنا الآمر.

التقط القوزاقيّ أنفاسه، وانحنى على القربوس، وقال:

– رجال نقطة الحراسة قُتلوا جميعاً. تخلّصتُ أنا وحدي.

– وماذا بعد؟

– بَعَدْ؟ توقّع مجيء كورنيلوف ليلاً بكلّ قوّته...

وتبودلت النّظرات في مُقدّمة البيت. كان بين الواقفين فيها شيوعيون وهم مُنظّمو الدّفاع عن القرية. نَشَقَ سابوجكوف من منخريه، غضن لغده وقال: «أنا مُستعدّ، فكيف أنتم، يا رفاق؟..» أخذ القوزاقيّ الذي ترجّل عن فرسه يقصّ كيف قتل الجركس من لواء الجنرال أرديلي جميع أفراد نُقطة الحراسة. تجمّع عند مُقدّمة البيت حشدٌ من الجنود والقوزاقيات والصّبيان يُصغون إلى الراوي صامتين.

وتقدّم روتشين أيضاً، وقد غطّى رأسه وعُنقه بقلنسوةٍ صوفيّة. لقد استطاع في الليل أن ينال قسطاً من النّوم ويُجفّف ملابسه في بيت حارٍّ منتن حيث كان زهاء خمسين من الجنود الحُمر يرقُدون على الأرض بين الطماقات والثياب المُبتلّة. وفي الفجر خبزت ربّة البيت خبزاً، وقطّعته بنفسها، ووزّعته قطعاً على الجنود:

«ابذلوا يا جنود جهودكم لتمنعوا الضّباط من دخول قريتنا».

فردّ الجنود على ربّة البيت الشابة:

«لا تخافي شيئاً...خافي من شيءٍ واحد...»

ونطقوا بكلمة جعلتها تلوح عليهم برغيفٍ من الخبز. "يا لكم من ثيران...حتى وأنتم أمام الموت لا يغرب ذلك عن بالكم..."

كانت مسيرة الليلة البارحة قد خلفت في روتشين انحلالاً وألماً مُمضاً يعتور جسمه كلّه. إلا أنَّ قراره كان قاطعاً. منذ الصباح كان يحفر الأرض المُتجمّدة في حدائق الخضروات. ثمّ كان يحمل صناديق الذخيرة من العربات إلى مقرّ إدارة القرية. وفي الغداء وزّع على كلّ فرد قدح من الكحول فأزال هذا السائل اللاهب شعور الانحلال من جسمه، وأدفأ عظامه، فقرّر أن يقضي أمره اليوم دون تأجيل.

وها قد وقف الآن قرب مُقدّمة إدارة القرية باحثاً عن فرصة يسأل فيها الخروج إلى نقطة الحراسة الأماميّة. وكان قد حسب لكلّ شيءٍ حسابه إلى حدّ كتافيّتي النّقيب التي خاطها داخل قميصه على صدره. وحصل ما توقّع. نزل البحّار الركين الذي كان واقفاً مع سابوجكوف من مُقدّمة البيت، وأخذ يدعو الراغبين إلى تأدية أمرٍ خطر، قائلاً بصوتٍ حديديّ:

– يا إخوان، من لا يبخل بحياته...

وبعد ساعة كان روتشين قد غادر القرية مع فريقٍ مؤلَّف من خمسين مُقاتلاً مُتجهاً إلى وادٍ ملفعٍ بضبابٍ كثيف. هبط ظلامٌ رطب، وكفّ عن النّزول، كانت الريح الدّافعة تصفع الوجوه بقطاراتٍ كبيرةٍ من المطر. سار الجنود بلا طريق مخوّضين في ماءٍ شامل، وكأنّهم يعبرون بحيرة، متّجهين نحو التّلال، حيث كان يجب أن يحفروا خنادق.

لمعت ومضة ضوءٍ في الغبش الصباحيّ الرّطب. ثمّ دمدمةٌ، وعويل، وتلاشى... وأعقب ذلك في الحال أزيز رصاصٍ غير نظاميّ على التلال وشاطئ النّهر. ثمّ ومضة ضوءٍ أخرى، وإطلاقة مدفع، ولعلع رشاشٌ في الأمام، في غمامة الضّباب.

إنّ كورنيلوف يتقدّم. كانت وحداته الأماميّة قد وصلت إلى ذلك الشاطئ من النّهر. وخُيّل لروتشين أنّه لمح شخصين أو ثلاثة يركضون منحنيّ الظّهور عند الماء تماماً مُتّجهين إلى أجمة. وخفق قلبه، أخرج جسمه من الخندق الصّغير الذي حفر على منحدر الشاطئ.

كان النّهر الكدر ذا اللون الأصفر المخضوضر ينطلق في دوامات عالية بين الشاطئين. وإلى اليسار، في وسطه كان الجسر يُرى مغموراً في الماء إلى النّصف. وقد طلع عليه من النّهر زُهاء عشرين شخصاً من تلك الشّخوص الغامضة الـمُنحنية الظّهور، وعبروا عليه، كانت النار تُطلق على النهر والجسر من التلال بلا نظام، وبتتابعٍ مُتزايد. وعلى مقربةٍ دانية على الضّفّة الـمُقابلة من النّهر اندلع لسانٌ طويل من اللهبِ مُنبعثٌ من مدفع. انفجرت قنبلة شرابنيل فوق الخندق الذي يقبع فيه روتشين. ونهضت شخوصٌ رماديّة وسوداء من وراء قوس

الجسر ونزلت إلى معبر النّهر وتناثرت متراكضةً زاحفة على عجيزاتها، متدحرجة، هاوية. كانت جميعها تحمل كتافياتٍ بارزةٍ كالخطوط.

ضربة مدفع مرّةً أخرى، وهديرٌ متقطّع فوق الخندق. وإنّ صوت: "أوي، أوي، يا إخوان..." لهج شخصٌ من خلال أزيز الرّصاص:

– إنهم يطوّقوننا!..يا أولاد، تراجعوا!

وشعر روتشين بدنوّ الدقيقة المرتقبة. انطرح بسرعة، وظلّ بلا حراك. وتردّد في رأسه: «لا يوجد منديلٌ أبيض، يجب ربط قطعة قميصٍ على حربة، وتصيح، بالفرنسيّة حتماً...» سقط شخص ثقيلاً على ظهره، وانطرح عليه، وطوّقه من رقبته، وأنشب أصابعه في حنجرته ناخراً. قفز روتشين مُحاولاً النّهوض، ورأى من وراء كتفه وجهاً مُدمّىً وعيناً جاحظةً صهباء، وفماً فاغراً لا أسنان فيه. كان كفاشين هذه المرّة أيضاً. كان يُردّد وكأنّه في نوبةٍ من الغيبوبة:

– إنّك تصلّي لله، لأنّك رأيت جماعتك...

دفعه روتشين عن ظهره، ونهض بكلّ قامته، وترنّح. تشبّت كفاشين بكتفيه كالعلقة. كافح روتشين ليُحرّر نفسه، وانقذف على متراس الخندق، وأنشب أسنانه في الفروة النّتنة بجنون. وأحسّ بأنّ كوعيه وركبتيه أخذت تنزلق على الطين السائل. كانت حافّة الـمُنحدر على بُعد خطوةٍ ونصف.

– اتركني!

زمجر روتشين أخيراً. انهارت الأرض تحت قدميه فتدحرج مع كفاشين على الـمُنحدر نحو النّهر.

كان دويّ المدافع يملأ الأرجاء كلّها، وتهتزّ الأرض من الانفجارات. كانت قوات الجيش الرئيسيّة عبر النّهر. وكانت المدافع من قرية غريغوريفسكايا تضرب المعابر. وكانت القنابل تسقط في أرجاء الحقل الثّلجيّ. وحين كانت تقع في النّهر كانت تثير نوافير من الماء.

كان مُشاة البيض يعبرون النّهر وكلّ اثنين مع حصانٍ واحد. وكانت الخيول تتراجع وهي تنزل إلى النّهر السّريع الجريان، فكانوا ينخسونها بالحراب. انحدرت عربة مدفع من على الشاطئ الزّلق الشّديد الانحدار مندفعةً بقوّة. وغطس المِدفع تحت الماء مترنّحاً من جانبٍ إلى جانب. وكان الحوذيّة يضربون الخيول الهزيلة بالسّياط حتى استطاعت أن تجرّه على نحوٍ ما على قوس الجسر الغريق جزئياً في طرفيه. وكانت القذائف تتساقط وتنفجر، ويفور الماء. شبّت الخيول على قوائمها الخلفيّة، وتشربكت بسيورها.

كركبت عجلات المدافع الرّشاشة منحدرة مارّةً بالجسر إلى النّهر، وطافت، ودارت. وانقلبت إحداها، وحملها التيّار مع خيولها ورجالها، فتعلّق الرّجال بالعجلات. وهبطت قنبلةٌ من السّماء على هذا الخليط مرسلةً في عمودٍ عالٍ من الماء شظايا من الخشب، وقطعاً من الأبدان الـمُمزّقة.

وعلى الشاطئ كان شخصٌ صغير الجرم قصير اللحية في سترةٍ من قماش الفانيلة البنّيّ، وقبّعةٍ فرائيّة بيضاء غاطسةٍ في رأسه يدور على حصانه الهزيل القذر. كان يصرخ بصوتٍ عالٍ عصفوريّ ملوّحاً بسوطه مهدّداً. إنّه الجنرال ماركوف الـمُشرف على عُبور النّهر. وقد حيكت حول شجاعته حكاياتٌ خياليّة.

كان ماركوف من أولئك الذين قاتلوا في الحرب العالميّة الأولى، وقد سمّمتهم إلى الأبد أنفاسها المنحوسة. وكان يبدو أنّه يجد متعةً لا تُعادلها متعةٌ أخرى حين يمتطي صهوة جواده ومنظاره على عينيه، أو يكون شاهراً سيفه في الصفّ الـمُهاجم وهو يقود لعبة القتال الرّهيبة. وفي آخر الأمر صار في مُستطاعه أن يُحارب أياً كان، ولأيّ غايةٍ كانت. تعبّأ ذهنه ببعض الصّيغ الجاهزة عن الرّب والقيصر والوطن. وكانت له حقائق مُطلقة لا حاجة معها إلى مزيد. وكان كلاعب الشّطرنج إذا لعب لا يرى من رحاب العالم، غير حركات البيادق على الرّقعة.

كان طموحاً مُتعاظماً شديداً وغليظاً على مرؤوسيه. كان يُثير الرُّعب من بين رجال جيشه، والكثيرون يشعرون بالحزازة إزاء هذا الرّجل الذي لا يرى في الناس غير بيادق شطرنج. إلا أنه كان شُجاعاً، وحسن المعرفة بتلك اللحظات الحرجة من المعركة حيث كان من الضّروريّ للقائد أن يُداعب الموت لانتصار المعركة طالعاً بصفوف عساكره إلى الأمام تحت وابل الرّصاص والسّوط في يده.

استمرّ عُبور النّهر عدّة ساعات. ولفّت العاصفة الثّلجيّة النّهر والشّواطئ من جديد. واشتدّ عصف الريح مُتّجهةً نحو الشّمال، وبرد الجوّ بسرعة. كان روتشين يرقد مخلوع الكتف تحت مُنحدر الشاطئ قرب الماء، وقد فقد الأمل منذ وقتٍ طويل في أن يلحظه أحد. ورغم الألم الذي يلذع كتفه أخرج كتافيّتيه من وراء قميصه، واستطاع أن يثبّتهما على نحو ما على قميصه بدبابيس، وخلع النّجمة الخُماسيّة من طاقيّته. وكان النّهر قد جرف جثّة كفاشين منذ وقتٍ بعيد، والجرحى يتناثرون في كلّ مكان، ولا يلتفت إليهم.

لم يتوقّف الجيش بعد عبوره النّهر، وزحف في معركة باتّجاه قرية نوفو–دميتروفسكايا. جمدت ثيات العساكر عليهم، وتغطّت بطبقة من الجمد. وتصلّبت الأرض تجمّداً، ورنّت عليها سنابك الخيول والعجلات، وتمزّقت الأحذية على الرّكام والحفر، وتجرّحت الأقدام. رفع بعض الجرحى أجسامهم، وزحفوا على الشاطئ الحادّ الانحدار مُعرّجين بجهد، ومنزلقين. شعر روتشين بأنّ رجليه تتجمّدان مُلتصقتين بالأرض. كزّ على أسنانه (كان الألم يسري في كتفه وركبته الـمُحطّمة) ورفع جسمه أيضاً، وسار في أثر الجرحى. لم يلتفت أحدٌ إليه. اقتضاه الصّعود إلى أعلى منحدر النّهر جُهداً كبيراً. وهناك، في الأعلى كانت العاصفة الثّلجيّة تعول، والرّصاص يئزّ. كان رجل محدوْدبٌ في معطف ضباط متجمّد وقلنسوة يُجرجر نفسه أمامه، فإذا به يندفع إلى جانبٍ ويسقط. فلم يكن من روتشين إلا أن زاد من انحناءة قامته مُتغلّباً على عصف الريح، ومضى في سبيله.

جثّة حصانٍ ميّت مدفونٌ في الثّلج، وقد تصلّبت إلى الأعلى رجله الخلفيّة. وعند مدفع مهجور وقف حصانان بائسان هزيلان وقد أنزلا بوزيهما إلى الأرض، وقد جمد جنباهما، وتكوّنت كومتان من الثّلج على ظهريهما. بينما كانت الرّشاشات تُلعلع إلى الأمام بمزيدٍ من الإصرار والوعيد. لقد قاتل جيش المتطوّعين ليقضي ليلته هذه في بيوتٍ دافئة لا أن يموت في حقلٍ تعصف به الزّوبعة الثّلجيّة.

كانت المدفعيّة في قرية غريغوريفسكايا تضرب الـمُهاجمين. إلا أنّ الوحدات الحمراء الأخرى والاحتياطات من محطّة آفيبسكايا لم يلقوا في المعركة. ولم يتلقّ الفوج القفقاسيّ الثاني أمراً بالهجوم إلا بعد طوف فوج فارنافسكي في قرية نوفو–دميتروفسكايا، وكان يُقتل في

اشتباكاتٍ بالسّلاح الأبيض في الشوارع. سار الفوج القفقاسيّ الثاني عشرة فراسخ عبر مُستنقعات وأراضٍ مغمورة بمياه الفيضان، وخسر فصيلةً كاملة غرقاً وتجمّداً، وضربٌ مؤخّرة البيض مُمكّناً بقايا فوج فارنافسكي من خرق الحصار.

وحدث عند البيض أيضاً مثل هذا الاضطراب والبلبلة. تصلبت فصيلة بوكروفسكي الكوبانيّة، ولم تسر خلال المستنقع. وكان قد أوكل إليها مُهاجمة القرية من الجنوب. كما أنّ بوكرفسكي الذي تسلّم رتبة الجنراليّة من حكومة كوبان لا من القيصر قد تلقى إهانةً قاسية من الجنرال ألكسييف أثناء الاجتماع الحربيّ، حين قال له بازدراءٍ أرستقراطيّ: "كفى، يا عقيد، اعذرني، لا أعرف الآن كيف أدعوك...؟" وبسبب "العقيد" هذا لم يرد بوكروفسكي أن يسير خلال الـمُستنقع. كما أنّ فصيلة الخيّالة بقيادة الجنرال أرديلي التي أرسلت لتطويق القرية من الشمال لم تستطع عبور منخفضٍ مغمورٍ بالماء. فعادت ليلاً لتعبر من المعبر العام.

كان فوج الضّباط أوّل من وصل إلى قرية نوفو–دميتروفسكايا. وشمّ الضّباط الـمُتجمّدون الـمُهتاجون، الـمُقاتلون القُدامى، الرائحة البيتيّة للروث الـمُجفّف المحروق والخُبز الطازج، ورأوا الضّوء الدافئ في النوافذ، فزحفوا عبر خليط الثّلج والوحل، دون انتظار التّعزيزات، عبر الماء الغامر الـمُغلّف بطبقةٍ رقيقةٍ من الجمد. ولوحظوا وهم على مشارف القرية، فأطلقت عليهم النيران من رشاشات. هجم الضّباط بالحراب. وكان كلّ واحدٍ منهم يعرف كيف وماذا يجب أن يفعل في كلّ ثانية. وكانت معركة ضباطٍ نظاميين مع جمهرةٍ من الجنود الـمُقادين قيادةً ضعيفة، والمنظّفين بانضباطٍ سيّئ.

واندفع الضّباط إلى القرية واشتبكوا في مناوشات بالسّلاح الأبيض في الشوارع مع جنود فوج فارنافسكي والأنصار. وفي الظّلام والخلط طُعن جنود الرشاشات أو نسفوا بالقنابل اليدويّة، وهم وراء رشاشاتهم. وتلقّى البيض تعزيزاتٍ مستمرّة، فاستطاعوا تطويق الحمر، فتراجع هؤلاء إلى ساحة القرية، حيث كانت اللجنة الثّوريّة تُقيم في مقرّ إدارة القرية.

كان الرّصاص ينطلق من كلّ مخبأ، والقتال يدور في كلّ مفرق. وجاءت عربة المدفع مُنطلقةً في نافورةٍ من الوحل، واستدارت عند حافّة الساحة، ووجّهت ماسورتها نحو واجهة مقرّ الإدارة. وتفجّرت القذيفة بقرقعة مرنة. وأخذ الناس يقفزون من نوافذ البيت، وانتشر دخانٌ أصفر، وأصابت نيران المدفع صناديق الذّخيرة فأخذت تتفجّر.

وفي تلك اللحظات بالذات كان الفوج القفقاسيّ الثاني يطلق النار من الشّرق على الـمُهاجمين. وسمع جنود فوج فارنافسكي بالقتال في مؤخّرة العدوّ فشدّ ذلك من عزيمتهم. اختطف سابوجكوف راية الفوج من حامل الراية وقد بحّ صوته من الصّراخ والسّباب، وكانت ملفوفةً بقطعةٍ من الـمُشمّع، ولوّح بها ليفكّها، وعبر الساحة إلى أشجار الحور العاليةِ الـمُتمايلة، حيث كان البيض أكثر تجمّعاً. أخذ رجال فوج فارنافسكي يخرجون من وراء البوابة والاسيجة، وينهضون من الأرض، ويتقاطرون من كلّ جهة، مُهيّئين حرابهم إلى الأمام، وخرقوا الحصار، وخرجوا من القرية صوب الغرب.

قضى روتشين تلك الليلة في عربةٍ مُهملة بعد أن أنزل منها جثّتين مُتجمّدتين، وغطى جسمه بالتّبن. كانت المدافع تقصف طوال الليل، وقنابل الشرابنيل تتفجّر فوق قرية نوفو—دميتروفسكايا. ومنذ الصّباح

أخذت عربات جيش الـمُتطوّعين تتّجه إلى هناك، بعد قضاء ليلةٍ في قرية كالوجسكايا. خرج روتشين من العربة، وسار وراء العربات. وكان من شدّة الانفعال لا يشعر بالألم.

كانت الريح ما تزال تهبّ شديدة، ولكن من الشّرق هذه المرّة مُبدّدةً السّحب الثلجيّة والـمُمطرة. وفي نحو الساعة الثامنة صباحاً ظهرت السماء المجلوّة الزرقاء من خلال قِطع الغيوم الـمُتحرّكة إلى الأعلى بسرعة. وسقط ضوء الشّمس بأشعّة حارّة مُستقيمة كالسّيوف. وأخذ الثّلج يذوب، والسّهب يعتّم سريعاً، مخطّطاً بأشرطةٍ زمرّديّةٍ للنباتات البارضة وأشرطةٍ صفراء لجذامات الحصاد. والتمعت المياه، وترقرقت الجداول مُسرعةً في الأخاديد التي خلّفتها العربات على الطُرق. وجفّت الجُثث على الأكمات، ناظرةً بعيونها الميتة إلى السّماء اللازورديّة.

– انظر، إنه روتشين. وحقّ الرّب! روتشين كيف جئت إلى هنا؟

هتفوا بذلك من عربةٍ مارّة. التفت روتشين، كان ثلاثة أشخاص رؤوسهم ملفوفة، وأذرعهم مرفوعةٌ على شيّالات يجلسون في عربةٍ ملطّخة محطّمة يسوقها قوزاقيّ مدلّهم السّحنة يلقي على كتفيه فروة خروفٍ رثّة. حيّا أحد هؤلاء روتشين بهزّات عديدة من رأسه، وانفرجت شفتاه الـمُتشقّقتان عن ابتسامة. إنّ رجلاً طويلاً هزيلاً تبدو رقبته مُشرئبّةً من تحت ياقته. لم يكد روتشين يتعرّف عليه زميلاً له في الفوج يُدعى فاسكا[٧] تيبلوف كان آنذاك مورّد الوجنتين مرحاً يهوى النّساء والخمرة. سار صامتاً إلى العربة وتعانق معه وقبّله قائلاً:

٧– صيغةٌ لاسم فاسيلي (الـمُترجم).

– قُل لي، تيبلوف، إلى مَنْ يجب أن أتوجّه؟ من هو رئيس هيئة الأركان عندكم؟ انظر إلى كتافيّتيّ، قد شددتهما بدبابيس. هربت إلى جانبكم يوم أمسٍ فقط.

– اصعد، قف يا سافل!

صاح تيبلوف على السائق، دمدم القوزاقيّ، إلا أنه أوقف العربة. صعد روتشين في ركن العربة، ودلى ساقيه فوق عجلتها. كانت رحمةً إلهيّةً أن يركب في عربة تحت شمسٍ حارّة. وروى مُغامراته منذ خروجه من موسكو بلهجةٍ جافّة كلهجة تقرير. سعل تيبلوف قليلاً وقال:

– سأذهب بنفسي معك إلى الجنرال رومانوفسكي...نصل إلى القرية، ونتناول طعاماً، وأقضي شغلك في لمح البصر...يا عجيب! تريد أن تظهر أمام الرّئاسة رأساً فتقول: قد هربت من عصابة الحمر، ولي الشّرف في الحضور...أنت لا تعرف جماعتنا. لن يدعوك تصل إلى هيئة الأركان..يطعنونك...انظر، انظر—وأشار إلى جثّة طويلة في معطف ضابط—إنّه ميشكا[٨]، البارون كورف...واتته المنيّة...لعلّك تذكره...كان فتىً رائعاً...اسمع، هل معك سكائر؟ أوه، ما أجمل الصّباح! بعد غد، يا عزيزي، سنصل إلى يكاترينودار. وننام على أسرّة، ثمّ نخرج إلى البولفار! موسيقى، وأوانس، وجعة!

وضحك ضحكةً عاليةً بهيجة. وتجعّد وجهه السّقيم المسحوب حتى العظم، وتوجّهت على وجنتيه بقع الحُمى.

– وهكذا ستكون في روسيا كلّها موسيقى ونساءٌ وجعة. سنستريح

٨– صيغة لاسم ميخائيل (المُترجم).

شهراً في يكاترينودار، وننظّف أنفسنا، ثمّ إلى التّنكيل...ها—ها! لسنا حمقى الآن، يا عزيزي. كسبنا بالدّم أمر التّصرّف بالامبراطوريّة الروسيّة. سنريهم ما هو النّظام...السّفلة! انظر إليه ميتاً—وأشار إلى منحدر ساقية حيث كان يرقد رجلٌ في سترةٍ من فراء الغنم مُمدّداً بشكلٍ غير طبيعيّ—لا بُدّ أنه واحدٌ من أمثال دانتون[٩] عندهم...

لحقت العربة عجلةً مخلخلة من الأغصان المضفورة. كان فيها رجلان ملطّخان بالوحل، وقد ألقيا ياقتي معطفيها إلى الوراء، وكانت قبّعتاهما الفرائيّتان مُبلّلتين. كان أحد الرّجلين ضخماً ذا وجهٍ داكنٍ مرتخ، والثاني ذا لحيةٍ رماديّةٍ مرسلة، وعينين منتفختين، وقد وضع مُمسك سيكارةٍ طويل في زوبعة فمه الرّخو.

قال تيبلوف، وهو يومئ برأسه عليهما:

– حماة الوطن، ولكن سنتحمّل من قلّة الخيل..ينفعون.

– السّمين هو غوتشوف على ما يبدو. صحيح؟

– نعم، هو، وسيُعدم رمياً في وقته، يُمكن أن تطمئن...

أما الذي يضع مُمسك السيكارة في فمه فهو بوريس سوفورين، وهو أيضاً من قلّة الخيل..يبدو أنّه من أنصار القيصر. ولكن ليس بالمعنى الدّقيق لهذه الكلمة: إنّه مُراوغ، ولكنه صحفيٌّ قدير...لن نعدمه...

دخلت العربة القرية، بدأت البيوت وراء الحدائق الصّغيرة مُقفرة.

٩– دانتون جورج جاك، شخصيّةٌ بارزة في الثّورة الفرنسيّة البرجوازيّة في أواخر القرن الثامن عشر. (المُترجم).

وما تزال بقايا الحرائق تُرسل دُخاناً. وقد تناثرت بعض الجُثث التي غطست في الوحل إلى النّصف. كانت طلقاتٌ منفردةٌ تتردّد هنا وهناك. إنّهم يقضون على الأغراب الذين لجأو إلى كوبان من المناطق الأخرى والذين أخرجوا من السّراديب والشونات. كانت العربات تقف في الساحة بلا نظام. وكان الجرحى يصيحون من عربات نقلهم. وكانت الـمُمرّضات يتنقّلن بين العربات مُعّذباتٍ مذهولات بسبب التّعب في معاطف جنودٍ قذرة. ومن الفناء ارتفع صياحٌ يشبه صياح حيوان وضربات سياط. وكان الخيّالة يعدون على خيولهم. وعند أحد الأسيجة جماعةٌ من طلاب المدارس العسكريّة يشربون الحليب من جردل صفيح.

كانت الشّمس تشعّ بمزيدٍ من السّطوع والحرارة في أعماق السّماء الزّرقاء المكشوفة للريح. ومن خشبةٍ بين شجرةٍ وعمود تلغراف تدلّت مُترنّحةً مع الريح جُثثٌ ملويّة الرّقاب أقدامها العارية مدلاةٌ بمقدّماتها نحو الأرض. إنّها جثث سبعةٍ من الشّيوعيين أعضاءٌ في اللجنة الثوريّة والمحكمة العسكريّة. وجاء آخر يوم من حملة كورنيلوف. ظلّل الـمُستطلعون الفرسان عيونهم بأكفّهم اتّقاء الشّمس، ورأوا في الضّباب الصباحيّ قباب يكاترينودار الـمُذهّبة وراء نهر كوبان الكدر.

كانت مهمّة وحدة الخيالة الصداميّة أن تنتزع من الحُمر المعدّية الوحيدة الموجودة في تلك الأماكن لعبور نهر كوبان بالقرب من قرية يلزافيتينسكايا. وكان ذلك خديعةً جديدةً لكورنيلوف، فقد كان من الـمُمكن أن يتوقّعوه من الجنوب، من ناحية قرية نوفو–دميتروفسكايا، ومن الجنوب الغربيّ على خطّ نوفورسييسك–

يكاترينودار الحديديّ. أما أن يختار أخطر التفافة غرب المدينة، في مكانٍ لا جسور فيه، بل معدّيةٌ واحدة يعبر عليها جيشٌ كامل عبر مياه كوبان السّريعة الجريان، قاطعاً بذلك كلّ إمكانيّةٌ للتراجع، فإنّه تكتيكٌ لاجتياح المدينة لم يكن من الـمُمكن أن يتنبّأ به أفتونوموف رئيس هيئة أركان القوات الحمراء. ولكنّ كورنيلوف الماكر مثل ثعلبٍ عجوز اختار هذا الطريق بالذات، لأنه أقلّ حماية، ويتيح راحةً من القتال ليومين أو ثلاثة أيام، ويخرج بالجيش إلى بساتين وحدائق يكاترينودار مُباشرة.

سُدّ النّقص في الذّخيرة عند احتلال محطّة آفيبسكايا على الخطّ الحديديّ، حيث نسف جيش الـمُتطوّعين سكّة الحديد ليأمنوا أنفسهم من نيران القطارات الـمُصفّحة. ومع ذلك فإنّ رشاشات أحد قطارات الحمر أصابت جناح الـمُهاجمين الذين كانوا يخوضون في ماءٍ موحلٍ كثيف بعد ذوبان الثّلج. وعندما كان شريط الرّصاص، وهو يرفع نوافير الماء يصطدم بهم كانوا يسقطون على الماء كالبطّ غاطسين برؤوسهم، ثمّ يخرجون رؤوسهم ويتراكضون. دافعت حامية محطّة آفيبسكايا دفاع الـمُستميت. إلا أنّ الحمر كانوا في حالةٍ ميئوسة، لأنّهم كانوا في موضع دفاعٍ فقط، وكان العدوّ يُهاجم.

وكانت وحدات جيش الـمُتطوّعين تطوّق المحطّة وتحيطها ببطء وبصفوفٍ ملتوية. كانت الشّمس تغمر الوادي الأزرق، وقد طلعت من سطح الماء الأشجار وأكوام القشّ وسطوح الضّياع، بينما كانت ظلال غيوم الرّبيع يُطارد بعضها بعضاً عبر مياه الفيضان. كان كورنيلوف بسُترته الفرائيّة، وكتافتيّ الجنرال الناعمتين، وبالمنظار والخرطة يتقدّم بجواده هيئة أركانه في ذلك الـمُنبسط الصّقيل. كان

يُعطي الأوامر لـمُرافقيه الذين كانوا يعدّون ممتطين أفراسهم الهزيلة في طرطشة من الماء. وذات مرّةٍ وقع تحت النار، وجرح الجنرال رومانوفسكي الذي كان يسير إلى جانبه جرحاً خفيفاً.

حين تمّ التفافٌ حول المحطّة من الغرب، وبدأ الهجوم العام، وساط كورنيلوف حصانه بمقرعته، وتوجّه خبباً باتّجاه المحطّة الحديديّة، والقطارات المهجورة وبنايات السّكك والعنابر والمخازن كانت القوات المقتحمة تفتك بالحُمر. وكان ذلك آخر نصرٍ لجيش المتطوّعين وأدماه.

هرع العقيد نيجنتسيف المورّد الخدّين الفتوي إلى كورنيلوف مُنفعلاً قافزاً بين الجُثث، وأبلغه ونظارته الأنفيّة تلمع فوق عينيه:

– يا صاحب السّيادة، احتلّت محطّة آفيسكايا.

فأسرع كورنيلوف يُقاطعه بنفاد صبر:

– وهل استوليتم على القذائف؟

– نعم، يا صاحب السّيادة، سبعمائة قذيفة، وأربع عرباتٍ من الخراطيش.

– حمداً لله! حمداً لله...

ورسم كورنيلوف علامة صليبٍ عريضة، فخدش ظفر خنصره معطفه المتصلّب.

عندئذ أشار نيجنتسيف له بعينيه إلى حشدٍ من الصّداميين واقفين عند المحطّة. إنهم فوجٌ خاصّ من السفاكين الـمُغامرين يشدّون على

أكمامهم مُثلّثاً من ثلاثة ألوان. كانوا يقفون معتمدين على بنادقهم، وكأنّهم بعد صعودهم في جبالٍ حادّة الانحدار. تجمّدت وجوههم في تكشيرة الجنون المتعبة، وكانت أيدي ووجوه الكثيرين منهم مُدمّاة، وعيونهم هائمة.

– أنقذوا الوضع مرّتين، وكانوا أوّل الـمُهاجمين، يا صاحب السّيادة.

– طيّب!

ضرب كورنيلوف حصانه، وعدا عليه بكامل سرعته، رغم أنّ المسافة لم تكن كبيرة، ووصل إلى الصّداميين (اضطرب هؤلاء على الفور، وأسرعوا يصطفّون باستقامة) جذب كورنيلوف عنان فرسه بتلك الحركة القويّة التي تصوّر عادةً في التّماثيل التّذكاريّة، ودفع رأسه إلى الوراء، وصح بصوتٍ حادّ:

– شكراً، يا نسوري! أشكركم على العمل الرائعِ، ومرّةً أخرى على أنّكم استوليتم على القذائف..أنحني لكم إجلالاً...

بعد أن حصل الجيش على احتياطيٍّ من الذّخيرة بدأ يعبر نهر كوبان على الـمُعدّية الخشبيّة التي استولت عليها فصيلة الخيالة الصّداميّة. وكان عدد الجيش في ذلك الوقت تسعة آلاف رجل، وأربعة آلاف فرس. واستمرّ العبور ثلاثة أيام، وامتدّت وحداته العسكريّة والعربات والناقلات والمعدّات الحربيّة على جانبيّ النّهر مثل معسكرٍ هائل. خفقت ريح الربيع بالبياضات المغسولة المدعوكة المنشورة على أعمدة العربات. وتصاعد الدُّخان من نيران الـمُعسكر. وكانت الخيول المربوطة ترعى في المروج، وصعد الضّباط الـمُبتهجون إلى العربات

وسعوا، والمناظير على عيونهم، أن ينفذوا عبر الغبش المزرورق ليروا حدائق وقباب المدينة الموعودة.

– بالشّرف، نحن كالصّليبيين وقد اقتربوا من القُدس.

– هناك كانت يهوديّات، أما في هذه المدينة فبروليتاريّات...

– سنُعلن النّساء ملكيّةً مُشتركة...ها–ها...

– إلى الحمّام، ثمّ البولفار، وبعدها الجعة!

لم تجرِ من جانب يكاترينودار محاولةٌ لعرقلة العبور. ولكنّ رجال الاستطلاع كانوا يُطلقون بعض الطّلقات بين الحين والآخر. عزم الحُمر على الدّفاع. أسرع أهل المدينة جميعاً بمن فيهم النّساء والأطفال في حفر الخنادق، ومدّ الأسلاك الشائكة، ونصب المدافع. وقدِمتْ من نوفوروسييسك فصائل من بحارة البحر الأسود، وجلبوا معهم مدافع وقذائف. وخطب المفوّضون في الوحدات العسكريّة عن الجوهر الطّبقيّ لجيش المتطوّعين بقيادة كورنيلوف، وأنّ وراءه «البرجوازيّة العالميّة التي لا تعرف الرّحمة، والتي سنخوض ضدّها معركةً حاسمة، أيها الرفاق» وأقسموا على أن يموتوا ولا يُسلّموا يكاترينودار.

وفي اليوم الرابع خرج جيش المتطوّعين لـمُهاجمة نار حاميةٍ من البطاريات المنصوبة في محطّة البحر الأسود، ومن الأرصفة على نهر كوبان. إلا أنّ وعورة المكان والبساتين والسواقي والأسيجة ومجاري الجداول مكّنتهم من الاقتراب من المدينة دون خسائر كبيرة.

وهنا نَشبت المعركة بالقرب مما يُسمى "المزرعة" عند بيتٍ أبيض يقع على مشارف أجمةٍ من أشجار الحور ما زالت عارية الأوراق على

ضفّة كوبان العالية، حيث أبدى الحُمر مقاومةً صلدة واكتسحوا. إلا أنهم عادوا فهجموا بحشودٍ كثيفة على نيران الرشاشات، واستولوا على المزرعة، وبعد ساعة أجبرهم على التراجع قوزاق كوبان وهم مشاة الصّدام والاستطلاعيون بقيادة العقيد أولاغاي.

وفي الحال اتّخذ كورنيلوف مقراً لهيئة أركانه بيتاً من طابقٍ واحد في المزرعة. ومن هناك كانت تُشاهد بوضوح شوارع يكاترينودار المُستقيمة، وبيوتها البيضاء العالية، والحدائق الأماميّة والمقبرة، ومحطّة البحر الأسود، وأمام كلّ هذا المنظر صفوف الخنادق الطّويلة. كان نهاراً ربيعياً ساطعاً خفّاق الريح. وكانت أدخنة الطّلقات تتطاير في كلّ مكان، وهدير المدافع المُستمرّ يهزّ المُنبسط المُزرقّ اهتزازاً ثقيلاً يجفل له القلب. ولم يضن الحمر ولا البيض بالأنفس في ذلك اليوم.

خصّصت للقائد كورنيلوف حجرةٌ في ركنٍ من البيت الأبيض، ونُصبت تلفونات الميدان ووضعت منضدةٌ ومقعدٌ وثير. وقد دخل إليها حالاً، وجلس إلى المنضدة، وبسط الخارطة، وغرق في تأمّل حركات اللعبة التي قد بدأها. وكان مُرافقاه—المُلازم دولينسكي والخان خاجييف—يقفان أحدهما عند الباب، والثاني عند التلفونات.

كان وجه القائد المغوليّ القسمات المُتغضّن النّحيل مُتجهّماً كما لم يتجهّم من قبل. كان الشيب قد غزا نصف شعره المُنتصب ويده الصّغيرة الجافّة بخاتمها الذّهبيّ تستلقي على الخارطة بلا حياة. إنّه وحده، خلافاً لنصائح ألكسييف ودنيكين والجنرالات الآخرين، قرّر أن يقوم بهذا الهجوم، والآن في نهاية اليوم الأوّل تزعزعت ثقته بنفسه، ولكن ما كان ليعترف بذلك حتى مع نفسه.

لقد وقع خطآن: الأوّل أنّ ثلث القوات مع الجنرال ماركوف قد أبقى على المعبر لحفظ العربات، ولهذا لم تكن الضّربة الأولى ضدّ يكاترينودار مركّزةً بشكلٍ كافٍ، ولم تجلب ما كان متوقّعاً منها. فقد صمد الحمر، وتشبّثوا بالخنادق، وثبتوا فيها على ما يبدو برسوخ. والخطأ الثاني هو في تطبيق نفس تكتيك الحملة التّنكيليّة على يكاترينودار، مثلما طبّق على القرى التي احتلّت في الطّريق، فقد طُوّقت المدينة من كلّ الجوانب (على الجناح الأيمن بفرقة مشاةٍ واستطلاعيين على طول النّهر حتى مصانع الجلود، وعلى الجناح الأيسر بتغلغل الخيالة بقيادة أرديلي) لغرض سدّ جميع المنافذ والمخارج والتّنكيل بالـمُدافعين عن المدينة وبأهاليها رمياً بالرّصاص وشنقاً وضرباً باعتبارهم "قُطاع طُرق" و"رعاعاً مُتمرّدين". فإنّ هذا التّكتيك قد أدى إلى أن يُقرّر الـمُقاومون أنّ الموت في ساحات المعارك أفضل من الموت على أعواد المشانق. فقد كان الناس يصيحون في طول المدينة وعرضها أنّ "كورنيلوف قد عزم على الفتك بالجميع!" فإذا بالنساء والفتيات والأطفال والشّيوخ يندفعون تحت وابل الرّصاص إلى الخنادق ومعهم جرار الحليب والفطائر يُطعمون الـمُدافعين قائلين: "كلوا، يا بحارة! كلوا، يا جنود! يا رفاقنا الأعزّاء، اصمدوا من أجلنا..." ومضوا يُزوّدون الـمُدافعين بالطعام، ويحملون لهم صناديق العتاد، رغم أنّ الخيالة كانوا يعدون على أفراسهم في كلّ مكان، ولا سيما عند المساء صائحين:

«ابتعدوا عن الشّوارع! إلى البيوت! أطفئوا الأنوار!..»

وهكذا كان التّفوّق للحمر في اليوم الأوّل. فَقَدَ البيض في ذلك

اليوم ثلاثةً من أفضل القادة عندهم، وحوالي ألف ضابط وجنديّ. وأنفقوا، دون هدفٍ ملموس، أكثر من ثلث ذخيرتهم.

ووصلت من نوفوروسييسك قطاراتٌ نصف مُحطّمة مُتتالية مُخترقةً أغطية النيران محمّلةً بالبحّارة والقذائف والمدافع. وتراكضَ الـمُقاتلون من العربات إلى الخنادق مُباشرة. وكانت الخسائر فادحةً بسبب كثافتهم وانعدام القيادة.

ظلّ كورنيلوف جالساً إلى الخارطة لا يُبارح غرفته في المزرعة. وقد أدرك أنّ هناك أمرين لا ثالث لهما: إما الاستيلاء على المدينة أو الهلاك للجميع. وبلغ تفكيره إلى حدّ الانتحار...إنّ الجيش الذي كان قائده الأوحد يذوب مثل جنودٍ من القصدير ألقوا في موقد. ولكنّ ذلك الرّجل غير الهيّاب وقليل الذّكاء كان عنيداً كالثّور. كان حوالي عشرين من الضّباط الجرحى جالسين في الشمس المتوقّدة على مدرج الكنيسة في قرية يلزافيتينسكايا. ومن الشّرق كان هدير المدافع يترامى قوياً تارةً خافتاً أخرى. بينما هنا، في السّماء الصافية فوق برج الجرس الذي أصيب بقذيفة فقد كان الحمامات تصعد باستمرار. كانت الساحة أمام الكنيسة مقفرة، والبيوت بشبابيكها الـمُحطّمة مهجورة. وإلى جانب سياج من الأغصان المضفورة حيث كانت البراعم تتنَفّخ في أجمة لليلكٍ كانت ثمّة جُثّةٌ نصف مدفونة منكفئة على وجهها يكثر عليها الذّباب.

كان الضباط على مدرّج الكنيسة يتحدّثون بأصواتٍ خفيضة:

– كانت لي خطيبةٌ جميلة، فتاةٌ رائعة ما أزال أتذكّرها في فستانٍ ورديٍّ مكشكش. أين هي الآن؟ لا أدري.

– نعم، الحب...شيءٌ لا يصـدّق...إنّ الحياة الماضية تجذب كثيراً...نساءٌ نظيفات، وأنت حسن الهندام تجلس هادئاً في مطعم... آه، ما أجمل ذلك، يا سادة...

– إنّ هذا البلشفيّ مقزّز الرائحة...لطيفٌ لو يُدفن...

– سيأكله الذّباب.

– سكوتاً...على مهلكم يا سادة...مرّةً أخرى اشتدّ القصف...

– صدّقوني إنّها خاتمة المطاف. جيشنا الآن في المدينة.

صمت، والتفت الجميع ينظرون صوب الشّرق حيث كان الدّخان والغبار يخيّم على يكاترينودار مثل سحابةٍ رماديّةٍ صفراء. ويتقدّم ضابطٌ نحيل كالهيكل العظميّ أصهب الشّعر وهو يعرج، ويقول:

– فالكا[١٠] مات الآن...كان يصرخ: "ماما، ماما..هل تسمعينني؟.."

بينما كان صوتٌ حادّ يقول من أعلى المدرّج:

– الحب! وآنسةٌ في فستانٍ مكشكش...هراء. أحاديث لا قيمة لها. زوجتي أحلى من خطيبته ذات الفستان الـمُكشكش...ومع ذلك أرسلتها إلى...(ونخر من أنفه غاضباً). ثمّ إنك تكذب على أيّة حال. لم تكن لك خطيبة...مجرّد مسدّسٍ في جيبك، وسيف إلى جنبك–تلك هي كلّ عائلتك وما إليها...

توقّف روتشين الذي كان يقوم بدوريّةٍ عند الكنيسة ومعه بُندقيّة،

١٠– صيغة لاسم فالنتين (الـمُترجم).

ونظر إلى الـمُتحدّث بإمعان. كان وجهه صبوياً أشقر الشّعر ذا أنفٍ أفطس، وفم محاط بغضنين عميقين، والعينين شائختين ثقيلتين بلونٍ أزرق كدرٍ، مسهدتين شبيهتين بعيني قاتل. اعتمد روتشين على بندقيّته (كانت قدمه ما تزال توجعه) وطافت في ذهنه أفكارٌ ملحاحة. عادت إليه ذكرياته عن كاتيا المهجورة إشفاقاً حاداً. وضع جبينه على حديد الحربة البارد، وردّد مع نفسه: «كفى، إنّ هذا ضعف، لا حاجة لكلّ ذلك...» ونفض الأفكار عن رأسه، وسار على العُشب الطريّ. «لا وقت للإشفاق، لا وقت للحبّ...»

وقف رجلٌ ركينٌ متجهّم إلى جانب حائط آجريّ أصيب بقذيفة، وراح يُحدّق من خلال منظاره. كانت لطخاتٌ من الطين الجاف تلطّخ سترته الجلديّة الجميلة، وبنطاله الجلديّ وكذلك الحذاء القوزاقيّ. وبين حينٍ وآخر كانت رصاصةٌ تُصيب الحائط الآجريّ بالقرب منه. وعلى بُعد مائة خطوةٍ إلى الأسفل منه وضعت بطاريّةٌ وصناديق القذائف الخضراء. وكانت الخيول قد جلبت إلى السّياج من توّها، فكانت واقفةً متدلّية الرؤوس تخرج روثاً يتصاعد البخار منه. كان طاقم البطاريّة يُقرفص ضاحكاً مُدخناً على مسندات المدافع يتلطّع نحو الآمر ذي المنظار. كان الجميع بحّارة ما عدا ثلاثةٍ من رجال المدفعيّة مُهلهلي الثّياب مُلتحين.

كان الدّخان والغبار يحجب الأفق، وخطوط الخنادق وتعرّجات الأرض والبساتين. وكان ما لمحه الآمر قد ظهر بغير وضوح، واختفى من مجال الرّؤية. ظهر بحّارٌ نحاسيّ البشرة في قميص بحّارٍ داخليٍّ فقط من وراء البيت الذي يقف الآمر عنده، وتسلّل كالقطّ على طول الجدار، وجلس عند قدمي الرّجل الرّكين، وطوّق ركبتيه بذراعيه

القويّتين الموشومتين، وقلّص قليلاً عينيه الصّهباوين كعيني الباشق. وقال بصوتٍ خفيض:

– عند الشاطئ تماماً شجرتان، هل تراهما؟

– إذن؟

– وراءهما بيتٌ صغير، أترى جدرانه البيضاء؟

– إذن؟

– إنّه المزرعة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

– أعرف.

– انظر إلى اليمين تجد حرشاً. وهناك الطّريق.

– أرى.

– في الساعة الرابعة جرى بعض الخيّالة هناك يعدون على أفراسهم، وأخذ بعض الناس يدبّون. وفي المساء جاءت عربتان. هناك يقبع الشّيطان لا في أيّ مكانٍ آخر.

– انزل إلى الأسفل.

قال الرّجل الرّكين بلهجة آمرة، ودعا آمر البطّاريّة. صعد إلى المرتفع رجلٌ ملتحٍ يرتدي سترةً من فراء الغنم. قدّم له الرّجل الرّكين منظاره، فراح هذا ينظر وقتاً طويلاً. وقال بصوتٍ مزكوم:

– ضيعة سلوساريف، المزرعة. المسافة أربعة فراسخ وربع. يمكن توجيه النار على ضيعة سلوساريف.

وأعاد المنظار، ونزل إلى الأسفل بحركةٍ غير موزونة وصاح بملء حنجرته:

– بطاريّة، استعداد! المسافة... القذيفة الأولى... نار...

ودوّت المدافع بهدير الرّعد، وتراجعت المواسير على المكابس مرسلةً لهباً، وانطلقت القنابل الثقيلة حاملة الموت إلى شاطئ كوبان المرتفع، إلى شجرتي الحور، حيث كان كورنيلوف الجهم يجلس إلى الخارطة في البيت الأبيض.

في اليوم الثاني من الهجوم استدعى الجنرال ماركوف مع فوج الضّباط الذي كان يحمي معبر عربات الجيش. وكان روتشين جندياً في هذا الطابور. وبساعة واحدة قُطعت الفراسخ السّبعة إلى يكاترينودار في جوٍّ أكثر تلفّفاً بالغبار من جو يوم أمس بسبب قصف المدفعيّة. كان ماركوف يسير في المقدّمة في قبّعته القوزاقيّة المدفوعة إلى قفاه، وسترته الـمُبطّنة بالقطن المفكوكة الأزرار. كان يُخاطب عقيد هيئة الأركان الذي كان يسير وراءه ولا يكاد يلحق به لاعناً شاتماً القيادة العُليا:

– اللعنة! قطعوا اللواء إلى أجزاء، وتركوني مع طابور العربات وجعلوني أقبع هناك... فلو أطلقوني مع اللواء لكنت في يكاترينودار منذ زمان...

وقفز عبر ساقية، ورفع سوطه، واستدار نحو الطابور الـمُمتدّ عبر حقلٍ أخضر، ورفع صوته بالإيعاز حتى انتفخت عروق رقبته...

أخذ الضباط اللاهثون بوجوههم المهمومة العرقة يتراكضون، واستدار الطابور، وكأنّه على محور، وامتدّ في الحقل بأربعة خطوطٍ

متذبذبة مواجهاً المدينة. وكان روتشين غير بعيد عن ماركوف. وقفوا عدّة دقائق، وجرّبوا ترابيس البنادق، وعدّلوا وعاينوا أكياس الخراطيش. وأصدر ماركوف أمره الثاني ماطّاً حروف العلّة. فانفصلت جماعة الحرس وهرولت متقدّمةً إلى الأمام. وسارت الصفوف وراءها.

التقوا إلى اليسار بعرباتٍ بائسة تحملِ الجرحى في الدّرب المطروق. وكان بعضهم يمشون على الأقدام منكسي الرّؤوس. وكان جرحىً كثيرون جالسين على حوافي السّواقي وعلى العربات النكفئة. وبدت العربات والجرحى بعددٍ لا يُحصى، الجيش كلّه.

لحق بالفوج على فرسٍ فاحم رجلٌ ضخمٌ ممتلئ ذو شاربين. كان يشدّ شريطاً أحمر على قبّعته، ويرتدي سترةً مفصّلة على قدّه عليها شرائط كتفيّة لإدارة مؤنة الجيش. هتف للجنرال ماركوف بشيءٍ ما مرحاً، إلا أنّ هذا استدار، ولم يجب. إنّه رودزيانكو الذي غادر طابور عربات الجيش ليشاهد عمليّة الاستيلاء على يكاترينودار.

توقّف الفوج مرّةً أخرى. جاء الإيعاز من بعيد. فراح الكثيرون يُدخّنون. صمتوا جميعاً ينظرون إلى حيث راحت جماعة الحرس تختفي بين السّواقي والأكمات. لوّح الجنرال ماركوف بسوطه، وسار باتّجاه حرش أشجار الحور العالي. كان عمودٌ أشعث من الدّخان يتصاعد على فتراتٍ قصيرة من أعماق الأشجار البادئة الاخضرار، وتتطاير نوافيرٌ من كُتل التّراب والأغصان.

وقفوا طويلاً، وتجاوزت الساعة الرابعة. ظهر فارسٌ من وراء الحرش، وجاء يعدو منكباً على عنق حصانه. ورأى روتشين حصانه

المزبد الشّدقين يدور عند ساقية، خائفاً أن يقفزها، ثمّ هزّ الحصان ذيله وقفز. وطارت الطاقيّة من رأس الفارس. وحين وصل إلى الفوج هتف:

– الهجو...ثكنات رجال المدفعيّة...الجنرال في الـمُقدّمة... هناك...

وأشار بيده إلى حيث لاح عدّة أشخاص على أكمةٍ لمعت بينها قبّعةً فرائيّة بيضاء. وصدر الأمر:

– الصّف، إلى الأمام!

تقلّصت حنجرة روتشين، وجفّت عيناه. شعر لحظةً من الرّعب والنّشوة اختفى فيها الإحساس بالجسد، وبزغت الرّغبة في الجري، في الصياح، في إطلاق النار، في الطّعن، في أن يمتلئ القلب بالدّم في لحظة النّشوة هذه، كتضحية...

تحرّك الصّف الأوّل، وسار روتشين على جناحه الأيسر. ها هي الأكمة حيث وقف الجنرال ماركوف فارجاً ساقيه، ووجّهه إلى الفوج الـمُهاجم.

كان يُكرّر: "أيها الأصدقاء، أيها الأصدقاء، إلى الأمام!" وبدت عيناه المتقلّصتان دائماً متّسعتين رهيبتين في تلك اللحظة. ثمّ رأى روتشين أنصال العُشب الجافّة النّاتئة. وفي كلّ مكانٍ فيها كان يرقد أناسٌ مرتمين كالرّكائب–على وجوههم أو على جنوبهم–بلا حراك، في قمصان الجنود، في ستر البحارة، في معاطف الضباط. ورأى أمامه سياجاً واطئاً من الأغصان المضفورة، وأحراشاً شائكةً بلا أوراق. كان رجلٌ طويل الوجه في صدار جنديٍّ مبطّن يجلس ظهره إلى السياج يفتح فمه ويسدّه.

قفز روتشين السّياج ورأى طريقاً عريضاً. كانت نوافير الغبار تتقدّم عليه بسرعة. إنّهم البلاشفة يطلقون نيران رشاشاتهم على الـمُهاجمين. توقّف وتراجع، وضاق تنفّسه، ونظر وراءه. كان الذين قفزوا السّياج من الـمُهاجمين راقدين. ورقد روتشين أيضاً، وضغط خدّه على الأرض الشائكة. وجاهد مُجبراً نفسه فرفع رأسه. كان الصّفّ مُستلقياً على الأرض، وفي الحقل، على بُعد حوالي خمسين خطوةٍ إلى الأمام كانت تمتدّ حدبة ساقية. نهض روتشين قافزاً، وركض هذه الخطوات الخمسين وثباً حانياً جذعه. وخفق قلبه بجنون. وقع في طينٍ لزج في الساقية، وجرى الصّف كلّه وراءه واحداً وراء الآخر. وسقط واحدٌ أو اثنان ولم يصلا إلى الساقية. رقد الجميع في الساقية لاهثي الأنفاس. كان الرصاص ينهمر مارقاً فوق رؤوسهم، في أعلى الساقية.

إلا أنّ شيئاً قد تغيّر إلى الأمام فجأة. بدأت القذائف تنصبّ نحو الثكنات من ناحيةٍ غير مُحدّدة. وضُعفت نار الرّشاشات. نهض الصفّ بجهد، واندفع إلى الأمام. ورأى روتشين ظلّه الطّويل الداكن الحُمرة الـمُنزلق على الحقل الوعر. كان يلتوي، ويقصر تارة ويطول إلى ما لا نهاية. وفكّر مع نفسه: "يا للغرابة، ما زلت حياً، بل وألقى ظلاً على الأرض".

اشتدّ إطلاق النار مرّةً أخرى من ناحية الثكنات، إلا أنّ الصّفّ الناحل الآن استلقى على بعد مائة خطوةٍ منها في الوهدة العميقة. وهناك في قاع الوهدة الصّلصاليّ الرماديّ كان ماركوف يروح ويجيء بعينين رهيبتين، وكان لا يفتأ يُردّد:

– يا سادة، يا سادة...مهلةٌ قصيرة...دخنوا، اللعنة...وتكون الضّربة الأخيرة...الأمر هيّن..مجرّد مائة خطوة...

وكان إلى جانب روتشين ضابطٌ قصير القامة أصلع كان يُكرّر بصوت خفيض نفس الشّتائم البذيئة وهو ينظر إلى حافّة الوهدة الـمُرسَلة غباراً من ارتطام الرّصاص عليها. وكان بعض الرجال قد استلقوا وغطوا وجوههم بأذرعهم. وقرفص رجلٌ وأمسك بجبينه وهو يتقيّأ دماً. والكثيرون كانوا يروحون ويجيئون في قاع الوهدة كالضّباع في قفص. وصدر أمر: «إلى الأمام، إلى الأمام!» وبدا وكأنّ أحداً لم يسمعه. شدّ روتشين حزامه بحركة مرعوصة، وأمسك بأغصان أجمة، وزحف إلى الأعلى. انزلق، فكزّ على أسنانه، وأعاد الكرّة. وفي أعلى الوهدة رأى ماركوف جالساً القرفصاء. وهو يصيح:

– هجوم! إلى الأمام!

ورأى روتشين على بعد بضع خطوات إلى الأمام نعليّ ماركوف المثقوبين، وسبقه بعض الأشخاص. كانت الشّمس الغاربة تغمر بضوئها جدار الثّكنات الآجريّ، وتسطع بتوهّجها على شظايا زجاج النّوافذ الـمُهشّم. خرج بضعة أشخاص من الثّكنات، وركضوا في الحقل إلى البيوت البعيدة ذات الحدائق الأماميّة...

كان رهطٌ من المدنيين والجنود يقفون على مقربة من آلة جمبازٍ محطّمة ملقاة في الفناء الرّمليّ لثكنات رجال المدفعيّة. كانت الوجوه شاحبةً ممدودةً منهمكة، والعيون مسبّلة، والأيدي مدلاةٌ بلا حياة. وأمامهم وقف عددٌ أقلّ من الضّباط معتمدين على البنادق، كانوا ينظرون إلى الأسرى ببغض شديد. وكان هؤلاء وأولئك صامتين ينتظرون. وإذا بالنّقيب فون ميكه قد دخل الفناء مُسرعاً متوثُباً–وقد عرفه روتشين–نفس الرّجل صاحب العينين الثقيلتين المسهدتين الشّبيهتين بعيني قاتل. صاح مرحاً:

– الجميع... الأمر لجميعهم... يا سادة، ليتقدّم عشرةٌ منكم...

وقبل أن يتقدّم عشرةٌ من الضّباط مقرقعين بترابيس بنادقهم حدثت حركةٌ بين الأسرى. خلع أحدهم–وهو رجلٌ عريض الصّدر ضخم– قميصه من فوق رأسه. وصرخ آخرٌ بصوتٍ متهدّج، وكان مدنياً عليلاً بلا أسنان ذا شاربين سوداوين مستقيمين:

– اشربوا، أيها الطفيليون، دم العُمال!

وتعانق اثنانٌ بقوّة. وأنشد صوتٌ مبحوح نشيد «الأمميّة» بنغمة مختلّة: «هب يا عالم العُمال...» أسند الضباط العشرة بنادقهم على أكتافهم. وفي تلك اللحظة أحسّ روتشين بنظرةٍ ثاقبة. فرفع بصره (كان جالساً على صندوق يخلع حذاءه). كانت عينان (إذ لم ير الوجه) تُحدّقان فيه بتعنيف لحظة الموت، وبرفعةٍ شامخة...«عينان رماديتان أليفتان حبيبتان، يا إلهي!»

– نار!

وانطلقت الطّلقات مُتفرّقةً عجلى. وارتفع أنينٌ وصياح. أحنى روتشين رأسه إلى الأسفل، وراح يشدّ قدمه التي خدشتها رصاصةٌ بخرقةٍ قذرة.

وكاليوم الأوّل لم يجلب اليوم الثاني نصراً لجيش المتطوّعين. صحيحٌ أنّ ثكنات رجال المدفعيّة قد احتلّت على الجناح الأيمن، إلا أنه لم يتقدّم في الوسط خطوةً واحدة، وفقد الفوج الذي كان يُقاتل هناك آمره المقدّم نيجنتسيف محبوب كورنيلوف. وعلى الجناح الأيسر تراجع فوج الخيالة بقيادة أرديلي. وأبدى الحُمر مقاومةً لم يبدوا مثلها من قبل، رغم أنّ الجرحى كانوا في كلّ بيتٍ تقريباً في يكاترينودار.

وقُتل الكثيرون من النّساء والأطفال قرب الخنادق وفي الشوارع. ولو كان هناك قائدٌ مقتدرٌ مكافح يوجّه الهجوم العامّ للحمر بدلاً من أفتونوموف لدحر جيش الـمُتطوّعين حتماً وأبيد، وقد تهلهل وشاعت الفوضى في وحداته.

وفي اليوم الثالث، وبعد أن سُدّت الشّواغر في أفواج الـمُتطوّعين على نحو ما أُرسلت للهجوم مرّةً أخرى، وصدّت مرّةً أخرى إلى نقاط انطلاقها. والكثيرون ألقوا بنادقهم، ولاذوا في المؤخّرة، في طوابير العربات، ويئس الجنرالات. وزار الجنرال ألكسييف المواقع، وهزّ رأسه الأشيب، وانصرف. ولكنّ أحداً لم يجرؤ على أن يذهب إلى القائد العام ويقول له إنّ اللعبة قد خُسرت، وأنه حتى وإنْ شقوا طريقهم إلى يكاترينودار بمعجزة فإنّ من الـمُستحيل الاحتفاظ بالمدينة منذ الآن.

بعد أن قبّل كورنيلوف جبين المقدّم المحبوب الميت نيجنتسيف الذي جُلب على عربةٍ إلى المزرعة تحت نافذة غرفته أطبق فمه ولم يتحدّث إلى إنسانٍ بكلمةٍ واحدة، إلا مرّةً واحدة حين انفجرت قنبلة شرابنيل قرب بيته، وخرقت رصاصةٌ واحدةٌ منها النافذة وأصابت السّقف، عندئذٍ أشار إلى تلك الرّصاصة بإصبعٍ جافّة، وقال للـمُرافق خاجييف لسببٍ ما:

– احتفظ بها، يا خان.

في ليلة اليوم الرابع أرسل أمر القائد العامّ على كلّ تلفونات الميدات: «واصلوا الهجوم».

ولكن في اليوم الرابع أصبح واضحاً لكلّ إنسان أنّ زخم

الهجوم قد ضعف كثيراً. و لم يستطع الجنرال كوتيبوف الذي خلف نيجنتسيف القتيل أن يُنهض للقتال فوج كورنيلوف (وهو أحسن فوج في الجيش) وكان منطرحاً في حدائق الخضروات. وكانت الوحداتُ تُقاتل بوني. واستمرّ فوج أرديلي للخيالة في تراجعه. وظلّ ماركوف يُغالب النّعاس أثناء السير، وقد بُحّ صوته من الصياح والسباب، و لم يستطع ضباطه أن يخرجوا أنوفهم أبعد من الثّكنات. في مُنتصف النهار اجتمع مجلسٌ حربيّ في غرفة كورنيلوف مؤلّفٌ من الجنرالات ألكسييف وروما نوفسكي وماركوف وباغايفسكي وفيليمونوف ودنيكين. استمع كورنيلوف إلى تقرير رومانوفسكي ضاماً رأسه الأشيب الصّغير في كتفيه:

«لا توجد قذائف، ولا توجد خراطيش. والمتطوّعون من القوزاق يُغادرون إلى قراهم. والأفواج كلّها مُهلهلة. والحالة النّفسيّة مُكتئبة. والكثيرون من غير الجرحى يتركون خطوط القتال إلى طوابير العربات...» وما إلى ذلك...

كان الجنرالات يُصغون مُطرقي الأبصار. اتّكأ ماركوف على كتف أحد الجنرالات وغفا. وفي الضّوء الشاحب (حيث كانت الستارة مسدلةً على النافذة) كان وجه كورنيلوف البارز الوجنتين مثل وجه مومياء جافّة، تكلّم بصوتٍ كامد:

– وهكذا فإنّ الوضع، يا سادة، حرجٌ بالفعل. وأنا لا أجد مخرجاً غير الاستيلاء على يكاترينودار. قرّرت الهجوم في فجر الغد على المدينة على طور الجبهة، وقد بقي فوج كازاوفيتش في الاحتياط. سأقوده بنفسي في الهجوم.

ونَخَرَ من أنفه فجأة. ظلّ الجنرالات في جلستهم المطرقة، وبعفويّة هتف الجنرال دينيكين الرّكين ذو اللحية التي خطّها الشيب، الشبيه بموظّفٍ دؤوب، والـمُصاب بالتهاب القصبات: «أوه، يا إلهي، يا إلهي!» وسعل، وسار نحو الباب. ألقى كورنيلوف على ظهره نظرةً خاطفةً من عينيه السوداوين اللامعتين. واستمع إلى الاعتراضات، ونهض، وفضّ المجلس الحربيّ. وحدّد الأوّل من نيسان موعداً للهجوم الحاسم.

بعد نصف الساعة عاد دنيكين إلى الغرفة، وما يزال صدره يصفر. وجلس، وقال برفق:

– يا صاحب الفخامة، اسمح لي أن أطرح عليه سؤالاً من رجلٍ لرجل:

– أنا سامعٌ لك، يا أنتون إيفانوفيتش.

– يا لافر غيورغييفيتش، لماذا أنت متصلّب إلى هذه الدّرجة؟

ردّ كورنيلوف على الفور، وكأنّما حضّر هذا الرّد منذ زمان:

– لا يوجد مخرجٌ آخر. إذا لا نحتلّ يكاترينودار سأطلق رصاصةً على جبيني، (وأشار إلى صدغه المقضوم ظفره حتى الجلد).

– لا يحقّ لك أن تفعل ذلك! –ورفع دنيكين يديه الـمُمتلئتين البيضاوين جداً إلى صدره. –أمام الله، أمام الوطن...من سيقود الجيش، يا لافرغيورغييفيتش؟

– أنت، يا صاحب المعالي...

وبإشارةٍ من نفاد الصّبر جعل مفهوماً أنّ الحديث قد انتهى. كان

صباح الحادي والثلاثين من آذار حاراً صاحياً، راحت موجات التّبخّر تتصاعد من الأرض التي أخذت تخضوضر. كانت مياه كوبان الصّفراء الكدرة تجري بكسلٍ بين الضفاف العالية لا يعكّر هدوءها غير قفزات السّمك. كان الهدوء يُخيّم. وبين آونةٍ وأخرى فقط كانت تنطلق رصاصة، ويهدر مدفعٌ من بعيد، وتصفر قُنبلة كان الناس يستريحون ليبدأوا معركةً دمويّةً جديدةً في الغدّ. كان الـمُلازم دولينسكي يُدخّن على مُقدّمة البيت ويُفكّر مع نفسه: «أودّ لو أغسل ثوبي وملابسي الدّاخليّة، وجواربي... ولطيفٌ لو أغسل». بل كان ثمّة طائرٌ طائش يُغرّد مرحاً في الحرش. رفع دولينسكي رأسه وإذا به يسمع صوت قنبلة تنفذ فجأةً في الحرش الأخضر، وتنفجر بقرقعةٍ حديديّة. كفّ الطائر عن التّغريد.

ألقى دولينسكي عقب السيكارة على دجاجةٍ حمقاء لا يُعرف كيف لم يصنع منها حساء. وزفرن وعاد إلى البيت، وجلس قرب الباب، إلا أنه وقف على قدميه فجأة، ودخل إلى الحُجرة الخافتة الضّوء. كان كورنيلوف يقف عند الطاولة يُعدّل بنطاله. سأل بخفوت:

– ألم يُهيّأ الشاي بعد؟

– سيكون جاهزاً بعد دقيقة، يا صاحب الفخامة. لقد دبّرت الأمر.

جلس كورنيلوف إلى الطاولة، وحطّ عليها كوعيه، ووضع كفّه الجافّة على جبينه، وفرك غضونه.

– أردت أن أقول شيئاً، يا مُلازم... أوه، نسيت. مُصيبة...

انحنى دولينسكي على الطاولة مُنتظراً سماع أي شيء. إنّ كلّ

ذلك غريب على القائد العامّ—الصوت الخافت، والارتباك—حتى أنّ ذلك أفزعه.

كرّر كورنيلوف:

– مُصيبة... سأتذكّر، بالطّبع، لا تخرج... قبل لحظةٍ كنت أنظر من النافذة... صباحٌ رائع... نعم، الأمر كالآتي...

صمت ورفع رأسه مُتسمعاً. والآن حتى دولينسكي سمع هدير قنبلة مقتربٍ مثير، بدا وكأنّه في النافذة الـمُسدلة الستار. تراجع دولِنسكي، حدث انفجارٌ رهيب في الأعلى. وتفجّر الهواء، واندلع اللهب. وانقذف جسم القائد العامّ إلى الأعلى مُنفرج الأعضاء...

ووجد دولينسكي نفسه مقذوفاً من النافذة. وقعد على العُشب، وقد تغطى بالكلس الأبيض، وشفتاه ترتجفان. وتراكض الناس إليه...

كان أحد الأطبّاء يُقرفص مشغولاً عندَ جسرِ كورنيلوف المطروح على نقّالة ومغطى إلى النّصف بسترةٍ قوقازيّة. وعلى مسافة وقف رهطٌ من ضباط الأركان، وكان دينيكين أقربهم إلى النقالة، يضع على رأسه طاقيّةً عريضةً خرقاء.

قبل دقيقة كان كورنيلوف يتنفّس، ولم تكن على جسده إصاباتٌ ظاهرة، مجرّد خدش صغير عند الصّدغ. كان الطّبيب لا يُثير انتباه أحد، ولكنّه أدرك في تلك اللحظة أنّ كلّ الأنظار متّجهةٌ إليه، وبالرّغم من أنه كان واضحاً له أنّ النهاية قد حلّت، إلا أنه ظلّ يُعاين الجسد بهيئة اهتمام. نهض بتؤدة، وعدّل نظارته، وهزّ رأسه، وكأنّه يقول: "مع الأسف، الطّبّ في هذه الحال عاجز".

تقدّم منه دنيكين وتكلّم معه بصوتٍ مكبوت:

– قل لنا شيئاً يسري عنا.

بسط الطّبيب ذراعه، وقال:

– بلا أمل! انتهى.

أخرج دنيكين المنديل بحركةٍ راعصة، وضمّه إلى عينيه، وفركهما، واهتزّ جسمه الرّكين واسترخى. اقتربت منه جماعةٌ من ضباط الأركان، ولم تعد تنظر إلى الجُثّة، بل إلى دنيكين. ركع على ركبتيه، ورسم علامة الصّليب على وجه كورنيلوف الشّمعي الأصفر، وقبّله من جبينه. رفعه ضابطان، وتحدّث ثالثٌ بانفعال:

– يا سادة، من يتسلّم القيادة؟

– أنا بالطّبع، أنا أتسلّمها–هتف دنيكين بصوت عالٍ منتحب– هناك أمرٌ بذلك من لافر غيورغييفيتش من قبل، وقد تحدّثً إليّ بذلك يوم أمس...

في تلك الليلة غادرت جميع وحدات جيش المتطوّعين مواقعها بسكون. واتّجه الـمُشاة والخيالة وطوابير العربات ومستشفيات الميدان والعربات الـمُحمّلة بالشّخصيات السياسيّة شمالاً صوب ضياع غناتشباو حاملةً معها جُثمان كورنيلوف وجثمان نيجنتسيف.

وفشلت حملة كورنيلوف، وقُتل القادة الكبار ونصف المشتركين فيها. وبدا وكأنّ مؤرخي المستقبل لا يحتاجون إلا لبضع كلماتٍ لذكرها.

ولكن في الواقع كانت "الحملة الجليديّة" لكورنيلوف ذات أهميّةٍ

كبيرة. فإنّ البيض وجدوا فيها لأوّل مرّةٍ لسانهم، وأسطورتهم، ومصطلحاتهم القتاليّة صعوداً حتى وسام البيض الجديد والذي يصوّر على شريط غيورغي القدّيس سيفاً وتاجاً من شوك.

وبعد ذلك، وخلال حملات التجنيد والتّعبئة، وفي الجدالات المُزعجة مع الأجانب، وخلال ظهور سوء التفاهم مع السّكان طلعوا بتاج الاستشهاد العظيم كأوّل وأرفع محاججة لهم، ولم تكن هناك مُعارضة. فلا بأس لو أنّ أحد الجنرالات، مثلاً، ضرب سكان قضاء كامل بأخامص البنادق. فإنّ الذين فعلوا ذلك هم شهداء عظام وخلفاء الشهداء العظام، ولا يُمكن أن يطبّق العقاب عليهم.

لقد كانت حملة كورنيلوف استهلالاً يرفع بعده السّتار عن تراجيديا، تتابع فيها المشاهد أمام الأنظار بكثرةٍ موجعة، وكلّ مشهدٍ أفظع وأشدّ فتكاً من سابقه.

-٤-

قفز ألكسي كراسيلنيكوف من مرقاة العربة، وحمل أخاه على يديه كالطّفل، ووضعه على الرّصيف. كانت ماتريونا تقف عند الجرس قرب باب المحطّة. لم يعرفها سيميون رأساً، فقد كانت ترتدي ثوباً من صُنع المدينة، وشعرها الأسود اللامع مشدود بمنديلٍ أبيض نظيف على موضةٍ سوفييتيّةٍ جديدة. وكان الخوف مُرتسماً على محيّاها الفتيّ الـمُستديرِ الجميل، وشفتاها مُطبّقتان.

وحين اقترب سيميون مُستنداً على أخيه لا يكاد يُحرّك رجليه رمشت عينا ماتريونا البُنيّتان، وارتعش وجهها. وقالت بخفوت:

– يا عزيزي.. بهذه الحال صرت!

زفر سيميون في ألم، ووضع يده على كتف زوجته ولثم بشفتيه خدّها النّظيف البارد. أخذ ألكسي السّوط من يدها، ووقف الثّلاثة صامتين برهة. قال بعدها ألكسي:

– ذلك هو زوجك، كانوا يُحاولون قتله. ولكن لم ينجحوا في ذلك، لا بأس. سنحصد سويّة، فلنذهب يا عزيزي.

طوّقت ماتريونا ظهر سيميون بحنانٍ وقوّة، وأوصلته إلى عربةٍ وضعت فيها مخدّاتٍ مطرّزة على بساطٍ من حياكةٍ بيتيّة. وأجلسته هناك. وجلست هي إلى جانبه مادّةً إلى الأمام ساقيها اللابستين

حذاءً جديداً من طرازٍ مدنيّ. قال ألكسي مرحاً وهو يُعدّل طوق الـمُؤخّرة:

– في شباط تخلف أحد الخيالة عن القطار العسكريّ. وخلال يومين ملأته بالخمرة البيتيّة، وفضلاً عن ذلك أعطيته خمسمائة روبل من عملة كيرينسكي. فانظر أيّ حصانٍ أخذت منه. – وضرب الحصان الأصهب القويّ على كفله برقّة. ووثب إلى مقدّمة العربة، وعدّل وضع قبّعته من فراء الغنم، وسحب الأعنّة. ثمّ ساروا في الطّريق الريفيّ خلال حقولٍ في بداية خضرتها غرّدت فوقها بحماس قبرةٌ صغيرة تصفق جناحيها في ضوء الشّمس. أطلّت ابتسامةٌ على وجه سيميون الـمُعتلّ غير الحليق. شدّته ماتريونا إليها وسألته ببصرها فأجاب:

– نعم، أنتم هنا تتمتّعون...

أحسّ سيميون ببهجة وهو يدخل البيت الريفيّ الرّحب الـمُبيض جيداً. صفاقاتٌ خضر على النوافذ الصغيرة، ومقدّمة البيت جديدةٌ من الخشب. وها هو الباب الوطيء الأليف قد عبر عتبته فإذا به يرى الموقد المدفأ المبيضّ بالطّباشير تبييضاً جيداً، والمنضدة الركينة الـمُغطاة بمفرشٍ مطرّز، وعلى الرّف أوانٍ ليست ريفيّة أبداً بل من النيكل والصينيّ، وإلى اليسار مخدع ماتريونا بسريره المعدنيّ العريض الـمُغطى بدثارٍ مدنتل، والكثيرُ من الوسائد العالية، وإلى اليمين غرفة ألكسي (حيث كان الأب المتوفى يعيش من قبل)، وعلى الحائط لجام وسرج وعدّة عربةٍ وسيفٌ وبندقيّة وصورةٌ فوتوغرافيّة، وفي الغرف الثلاث كلّها وضعت زهورٌ في مزهرياتٍ بعناية، الدّريقة والصّبار...وكلّ هذا اليسار والنّظافة أدهشا سيميون الذي ظلّ

غائباً عن البيت عاماً ونصف العام، وإذا به يجد الدّريقة والصبار أمامه وسريراً كسرير الأميرة، وثوباً من خيّاطة المدينة على ماتريونا. قال وهو يجلس على السطبة:

– أنتم تعيشون كأصحاب الأطيان. –وراح يفكّ لفاحه بصعوبة. وضعت ماتريونا ثوبها الحضريّ في الصّندوق، وشدّت مئزراً، وقلبت مفرش المائدة على وجهه الآخر، وراحت تُعدّ المائدة بسرعة. مدّت شوكة الموقد داخله، وانحنت إلى الأرض تحت ثقل جعل يديها العاريتين حتى الكوع، حمراوين، وأخرجت القدر الحديديّ لحساء الكرنب. وكان قد وضع على المائدة شحم الخنزير المُقدّد، وبطّة مدخّنة، وسمكاً مجفّفاً. وألقت على ألكسي نظرةً سريعة، فغمز لها. عندئذٍ جلبت جرّةً من الفخار مترعة بالخمرة المقطّرة بيتياً.

ثمّ جلس الأخوان إلى المائدة. ناول ألكسي أخاه القدح الأوّل. أحنت ماتريونا رأسها تشجيعاً، عند ذاك شرب سيميون الكحول المُلتهب في جرعة واحدةٍ تقريباً. مسح كلّ من ألكسي وماتريونا عينيه. ومعنى ذلك أنّهما سعيدان جداً بأنّ سيميون حيّ يجلس معهما إلى المائدة.

عندما انتهوا من احتساء حساء الكرنب قال ألكسي:

– نحن لا نعيش حياةً مدهشة، ولكن حياةً لا بأس بها، مُقتدرة.

رفعت ماتريونا الصّحون التي جمعت فيها العظام وجلست بالقرب من زوجها. فاستطرد ألكسي في القول:

– هل تذكر الحقل قرب الحرش عند بيت الأمير، الحقل المُسمى بالقاع الذّهبيّ؟ عملت ضجيجاً كبيراً في القرية. قطرت للفلاحين

ستّة جرادل من الخمرة فخصّصوا هذه الأرض لي. وقد حرثناها أنا وماتريونا هذه السّنة. وحصلنا في الصّيف الماضي على غلّة لا بأس بها من شريط الأرض عند النّهر، وكلّ ما تراه: السّرير، والمرآة، ودلّات القهوة، والملاعق والشّوكات، وغير ذلك من الأشياء والحاجات حصلنا عليها في هذا الشّتاء. إنّ زوجتك ماتريونا ربّة بيت ماهرة، لا تفوّت موعداً واحداً للأسواق الريفيّة. أنا ما أزال على الطّريقة القديمة أبيع كلّ شيء بالنّقود. أما هي فلا، تذبح خنزيرةً أو دجاجة وتأخذها على عربةٍ مع الطّحين والبطاطس، وتنزل إلى المدينة...ولا تذهب إلى السوق، بل تذهب إلى السادة السابقين في شققهم، وتقلب عينيها وتقول: «السرير ببودين من الطحين وستّة أرطالٍ من شحم الخنزير...وهذا الدّثار أشتريه ببطاطس...» ستنفجر ضاحكاً حين ترانا من السّوق...كالغجر... عربتنا مُحمّلة بحاجاتٍ كثيرة.

قالت ماتريونا وهي تعصر يد زوجها:

– هل تذكر ابنة خالتي أفدوتيا؟ أكبر منّي بعامٍ واحد، مخطوبةٌ لألكسي.

ضحك ألكسي، وراح يقلب في جيبه.

– النّسوان قرّرن ذلك قبلي...أما أنا يا أخي فقد مللت حياة الترمّل حقاً. سكر وعُهر، وفي النّتيجة تلحق المرء قذارة لا يستطيع أن يتخلّص منها فيما بعد...

أخرج كيس التّبغ وغليوناً محروقاً مزيّناً بحليات نحاسيّة تتدلى منه، وحشاه بالتّبغ المصنوع بيتياً، وتصاعد الدّخان في جوّ البيت. أحسّ سيميون بالدّوار من الكلام ومن الخمرة. فلبث جالساً يستمع ويتعجّب.

في الغسق أخذته ماتريونا إلى الحمام، وصوبنت له بعناية، وغلّفته بالبخار، ودلّكته بالليف، ولفّته بفروة خروف. وعادوا ثانيةً إلى المائدة، وتعشّوا، وأفرغوا ما في الجرّة الفخاريّة إلى آخر قطرة. ورغم أنّ سيميون ما زال ضعيفاً إلا أنه استلقى مع زوجته في الفراش وغفا وذراعها الحارّة حول رقبته. وعندما فتح عينيه في الصباح رأى البيت نظيفاً مدفأً. كانت ماتريونا تعجن العجين وفي عينيها لمعان، وعلى شفتيها ابتسامةٌ تكشف عن أسنانها البيضاء. وبعد قليل سيحين موعد عودة ألكسي من الحقل لتناول فطوره. كان ضوء الرّبيع يتدفّق من النوافذ النّظيفة، ويتحرّك لمعاناً على أوراق الدّريقة. قعد سيميون في السرير وتمطّى. وكأنّ حالته تحسّنت ضعفين خلال اليوم الفائت والليلة التي قضاها مع ماتريونا. ارتدى ملابسه واغتسل، وطلب عدّة حلاقة أخيه، وحلق في غرفته أمام شظيّة المرآة على النافذة. وخرج إلى الشارع، ووقف عند البوابة، وحيّا شيخاً مُسناً جالساً في الحديقة الأماميّة الـمُجاورة عاش في عهود سيطرة أربعة أباطرة. خلع العجوز قبّعته، وانحنى رأسه باعتبار، واستمرّ على جلسته مادّاً ساقيه الميّتتين في اللباديّ باستقامة، واضعاً يديه المعروقتين على عجرة عصاه.

كان الشارع الأليف مُقفراً في تلك الساعة من النّهار. وكانت أشرطة خضرة الحبوب تلوحُ بين البيوت على امتداد البصر. وعلى الأكمات عند خطّ الأفق كانت العربات تلوح هنا وهناك غير مربوطةٍ بخيول. نظر سيميون يساراً فرأى طاحونتين فوق رأس مُنحدرٍ طباشيريّ تدور دواليبها بوني. وعلى الـمُنحدر إلى الأسفل لاح برج جرسٍ أبيض بين البساتين والسُّقوف القشيّة. ووراء حوش ما زال غير مورقٍ كانت الشّمس تنعكس مُلتهبة على نوافذ دار الأمير السابقة.

وكانت غربان القيظ تنعب فوق أعشاشها. وكان الحرش ومقدّمة البيت الجميلة مُنعكسين في بركة فيضان. وهناك كانت الأبقار تبرك، والأطفال يتراكضون.

وقف سيميون ينظر من تحت حاجبيه، وقد حشر يديه في جيبيه الواسعين لسترة أخيه. نظر وأحسّ بلوعةٍ في صدره. وبالتّدريج، ومن خلال موجات الحرّ الشفافة الـمُتدفّقة على القرية، وفوق الحدائق الليلكيّة، والأرض المحروثة كان لا يلوح في عين خياله هذا العالم وهذا السّكون. جاء ألكسي على عربة، وناداه مرحاً وهو ما يزال بعيداً. فتح البوابة، وأمعن البصر في سيميون. فكّ عدّة الحصان، وأخذ يغسل يديه تحت المغسلة الـمُعلّقة في الفناء. وقال بحنان:

– لا بأس، يا أخي، ستتعوّد، أنا أيضاً عندما عدت من الجبهة الألمانيّة كنت أعاف كلّ شيء لأنّ أمام عيني دماً...وضجراً...آه، لعنة الله على هذه الحرب...تعال نتناول فطورنا.

صمت سيميون، ولكنّ ماتريونا أيضاً لاحظت أنّ زوجها حزين. بعد الفطور عاد ألكسي إلى الحقل، وخرجت ماتريونا حافية رافعة أذيال ثوبها، لتحمل الرّوث على الحصان الثاني. استلقى سيميون على فراش أخيه، وتقلّب ولم يستطع أن ينام. أثقل الحزن على قلبه، فكّر وهو يكزّ على أسنانه: «إنّهما لن يفهماني، ولذا ليس من الضّروريّ أن أتحدّث معهما في هذا الموضوع». ولكن في المساء حين خرج الثلاثة وجلسوا على قرمةٍ عند البوابة، لم يصطبر سيميون فقال:

– على أيّة حال يجب أن تنظّف البندقيّة، يا ألكسي.

– لتذهب البندقيّة إلى الجحيم...منذ الآن وإلى مائة عام لن نُحارب.

– فرحك مبكّر، مثل اهتمامك باليسار والراحة.

امتصّ ألكسي من غليونه، وبصق بين رجليه قائلاً:

– وأنت أيضاً لا تُدمدم مغموماً قبل الأوان. تعال نتحدّث كفلاحين. فلسنا في اجتماع عام. فأنا أعرف كلّ ما يقولونه في الاجتماعات العامّة. وقد صرخت نفسي بها. فقط أن تكون قادراً على الاستماع لما هو ضروريٌّ لك أما غير الضروريّ فأطرحه جانباً. إذا قلت إنّ الأرض للشغيلة، فهذا حقٌّ تماماً. أما لجان فقراء الفلاحين فنحن في القرية ضيقنا تصرّفات أعضائها. وفي قرية سوسنوفكا تفعل اللجنة ما تشاء. والمصادرة وسوء الأدب قد بلغنا الهامة. وقد تحوّلت ضيعة الكونت بوبرينسكي إلى السوفخور، ولم يقتطعوا للفلاحين شبراً واحداً من الأرض. وممن تتألّف اللجنة؟ من اثنين من مُعدمي المنطقة. أما البقيّة فالشّيطان يعرفهم. منهم غرباء ومحكومون سابقون...هل فهمت أم لا؟..

استدار سيميون قائلاً:

– ليس هذا ما عنيت...

– إذا كان ذلك لم تعنه فأنا الذي أعنيه. في عام ١٩١٧ صرخت في الجبهة عن البرجوازيّة. وأصبت برصاصةٍ في رجلي، عسى الله يعطي العافية لمن أصابني بها، فقد سُرّحت إلى البيت رأساً، ورأيت مهما أكلت فإنّك ستجوع غداً لا محالة، وتطلب طعاماً. اكدح...

ضرب سيميون القرمة بأظافره:

– الأرض تلتهب تحتكم، وأنتم نائمون.

قال ألكسي بإصرار:

– ربّما عندكم في الأسطول أو في المدن لم تنته الثّورة بعد. أما عندنا فقد انتهت حالماً قسموا الأرض. والآن هذا ما سيحدث: سنجمع الغلال أولاً ثم نلتفت إلى لجان الفقراء. وحتى عيد القديس بطرس لن نترك لجنةً واحدة. سندفن أعضاءها أحياء في الأرض. نحن لا نخاف الشّيوعيّين، ولا أيّ شياطين. فتذكّر ذلك...

قالت ماتريونا بخفوت:

– كفى، يا ألكسي إيفانوفيتش. انظر إليه يرتعش بكلّ كيانه. أمعقولٌ أن تُجري تحقيقاً مع مريض؟

صاح سيميون:

– لست مريضاً... بل أنا غريبٌ هنا!

ونهض وسار نحو سياج الحديقة، وانتهى الحديث عند هذا الحدّ.

كان خفاشان مثل عفريتين يطيران في شريط الغروب الـمُنطفئ. وكانت بعض النوافذ مُضاءة ذلك لأنّ الناس كانوا ينهون عشاءهم. وحملت الريح أغنيةً من بعيد بأصوات فتيات. ثم انقطعت الأغنية، وحلّت مكانها كركبة حوافر منطلقةٍ في الشارع العريض في غبش المساء. توقّف الفارس وهتف بشيءٍ ما، ثمّ أطلق العنان لحصانه من جديد. أخرج ألكسي غليونه من فمه، وتسمّع. ونهض من على القرمة.

وقالت ماتريونا بصوتٍ مُرتجف:

– أهي بليّة؟

وأخيراً ظهر الفارس وهو فتىً حاسر الرّأس، حافي القدمين... وصاح:

– الألمان قادمون!..قد قتلوا أربعة أشخاص في قرية سوسنوفكا!..

في مُنتصف آذار، حسب التّقويم الجديد، وبعد أنّ عقد الصّلح، بدأت القوات الألمانيّة هجوماً على أوكرانيا والدّنباس على طول الجبهة من ريغا حتى البحر الأسود.

بموجب بنود الصّلح كان يجب أن يحصل الألمان من الحكومة المركزيّة الأوكرانيّة على ٧٥ مليون بود من الحبوب، و١١ مليون بود من الماشية الحيّة، ومليوني دجاجة وبطّة، ومليونين ونصف مليون بود من السّكّر، و٢٠ مليون ليتر من الكحول، وألفين وخمسمائة عربة قطار محمّلة بالبيض، و٤ آلاف بود من الشّحم إلى جانب الزّبدة والجلود والصوفٌ والأخشاب وغيرها...

هاجم الألمان أوكرانيا وفق كلّ قواعد الحرب: بطوابير من ذوي البزّات الخاكية والخوذ الفولاذيّة. واكتسحت المدفعيّة الألمانيّة الثّقيلة حواجز القوات الحمراء الضّعيفة.

سارت القوات وطوابير السيارات ومجاميع هائلة من المدفعيّة الثّقيلة عليها خطوطٌ مبرقشة الألوان للتمويه، وقرقعت الدّبابات والسيارات الـمُصفّحة، وجلبت عوامات وجسور كاملة للعبور. وأزّت أسراب الطائرات في السماء.

لقد كانت تلك مسيرة التّكنيك على شعبٍ أعزلٍ تقريباً. فكانت الفصائل الحمراء المؤلّفة من قدامى الـمُحاربين والفلاحين وعُمال

المناجم وعمال المدن السيّئة التّنظيم والأقلّ عدداً بعدّة مرات من القوات الألمانيّة تتراجع مقاتلةً إلى الشمال وإلى الشرق.

وفي كييف حُلّت الحكومة المركزيّة الأوكرانيّة التي قدّمت أوكرانيا للألمان، ونُصّب في محلّها الجنرال سكوروبادسكي من حاشية القيصر السابق. كان يرتدي المعطف الأزرق على التّقليد الأوكرانيّ، ويضع يده على خصره، ويمسك بصولجان الهيتمان:

«عاشت أوكرانيا الحقّة! منذ الآن وإلى الأبد سيستتبّ السلام والنظام والرّخاء. العُمال إلى آلاتهم، والفلاحون إلى محاريثهم! والحُمر إلى جهنّم!»

بعد أسبوع من مجيء الفارس بالخبر الرّهيب في الشارع العريض في قرية فلاديميرسكويه ظهرت كوكبةٌ من الخيالة فوق المنحدر الطباشيريّ بالقرب من الطاحونتين في الصباح الباكر مؤلّفةً من عشرين خيالاً تمتطي خيولاً سوداء ضخمة–رجالٌ ضخام في هيئة غير روسيّة يرتدون ستراً قصيرةً خضراء رماديّة وقبّعاتٍ عالية ذات أشرطة. أطلّوا على القرية من علّ، وترجّلوا.

كان ما يزال في القرية أناس، فإنّ الكثيرين منهم لم يخرجوا بعد إلى الحقول. تراكض الأولاد من بوابةٍ إلى أخرى، وتنادت النّساء عبر أسيجة حدائقهنّ وسرعان ما تجمهر جمهورٌ في ساحة الكنيسة. واتّجهت الأعين إلى الأعلى، حيث نُصب رشاشان بالقرب من الطاحونتين، وكانا يبدوان بوضوح.

وبعد ذلك بقليل قرقعت عجلات مصفّحةٍ بالحديد في شارع القرية من الجانب الآخر، وطقطق سوط، ودخل الساحة حصانان

بُنيان مزبدان في عدوٍ سريع يجران عربةً عسكريّة. كان على مقعد الحوذي جنديٌّ أخرقٌ ذو عينين وضّاءتين وفكٍّ طويل يرتدي سترةً ضيّقة وطاقيّةً مسطّحة. وقد جلس وراءه ضابطٌ ألمانيٌّ متخوصر وهو سيدٌ في هيئةٍ غريبةٍ صارمة يضع زجاجةً على عينه، وقبّعةً جديدةً أنيقة مثل قبعاتٍ الدّمى. وإلى يساره رجلٌ تعرفه القرية هو مدير أعمال الأمير الذي كان قد هرب من الضيعة في الخريف الماضي في ملابسه الدّاخليّة.

أما الآن فقد كان غريغوري كارلوفيتش ميل هذا يجلس مقطّب الحاجبين مُستدير الوجه الحليق يضع نظارةً مذهّبة الإطار ويلبس معطفاً جيداً وقبّعةً مدفئة. أحسّ الفلاحون بحكّةٍ في جلودهم حين وقعت أبصارهم عليه.

صاح الضابط الغريب الهيئة باللغة الروسيّة فجأة: "اخلعوا القبعات!" خلع بعض الذين كانوا على مقربةٍ منه قبعاتهم على مضض. وساد السكون الساحة. ظلّ الضابط علًى جلسته مخوصراً والتمعت الزّجاجة على عينه، وبدأ يتحدّث مُخرجاً الكلمات بعسر، ولكن بنطقٍ سليم:

– يا فلاحي قرية فلاديميرسكويه، ها قد رأيتم على الرابية، هناك، رشاشتين ألمانيّتين، وهما تعملان بشكلٍ ممتاز...وأنتم، بالطّبع، فلاحون ذوو تفكيرٍ سليم، وأنا لا أريد أنً أُلحق بكم أذىً. ويجب القول أنّ قوات الامبراطور غليوم الألمانيّة جاءت إليكم لتُعيد حياة الناس الشرفاء. نحن الألمـان، لا نحبّ أن تُسرق ملكيّة الآخرين، وسنعاقب على ذلك عقاباً لا رحمة فيه. وقد علّمكم البلاشفة بشكلٍ آخر، أليس كذلك؟ ومن أجل هذا طردنا البلاشفة، ولن يعودوا إليكم

أبداً. أنصحكم بأن تفكّروا جيداً بأعمالكم السّيّئة، وبأن تعيدوا في الحال إلى صاحب هذه الضّيعة ما سرقتموه منه...

أثارت هذه الكلمات نحنحةً عصبيّةً في الجمع. كان غريغوري كارلوفيتش طوال الوقت جالساً وقد نزلت شرابة قُبّعته على عينيه، وراح يُمعن النّظر في الفلاحين. وفي مرّةٍ واحدة لاحت على وجهه الـمُمتلئ ابتسامة الظّفر، والظاهر أنه تعرّف على واحدٍ في الجمع. أنهى الضّابط خطابه، وصمت الفلاحون. قال الضّابط مُخاطباً غريغوري كارلوفيتش:

– أدّيت واجبي، والآن تحدّث أنت، يا سيّد ميل.

رفض غريغوري كارلوفيتش هذا الاقتراح بأدبٍ جمّ:

– ليس لديّ ما أقوله لهم، أيها السّيّد الـمُلازم. إنهم فهموا بدون كلامي.

قال الضابط الذي لم يكن يعنيه الأمر:

– حسناً، سر، يا أوغست!

ضرب الجنديّ ذو الطاقيّة الـمُسطّحة بسوطه، وتدحرجت العربة العسكريّة بين الحشد الـمُتراجع متّجهةً إلى بيت الأمير حيث كانت لجنة القضاء التّنفيذيّة تتّخذه مقراً لها قبل ثلاثة أيام. وراح الفلاحون يتطلّعون في أثر العربة.

قال صوتٌ في الجمع:

– جلس الألمانيّ مخوصراً.

– وغريغوري كارلوفيتش التزم الصّمت، يا أصحاب.

– انتظروا، وسيأتيكم كلامه.

– مصيبة، وماذا فعلنا لنستحقّها؟..

– عن قريب سيحضر ضابط البوليس.

– قد جاء في قرية سوسنوفكا. دعا إلى اجتماع، وأمطر الـمُجتمعين سُباباً. وقال لهم: يا نهّابين ولصوص هل نسيتم عام ١٩٠٥؟ وثرثر ثلاث ساعات، شاتماً إياهم طوال الوقت. وشرح النظام كلّه.

– ماذا سيكون الآن؟

– الجلد.

– انتظر، وماذا عن الأرض المزروعة؟ لمن تكون الآن؟

– بالمناصفة. سيتركوننا نجمع الغلّة، والنّصف للأمير.

– أوه، يا للشيطان، أنا راحل.

– إلى أين راحل، يا أحمق؟...

وبعد أن تحدّث الفلاحون تفرّقوا. وفي المساء (أعادوا إلى بيت الأمير الأرائك والمقاعد والأسرّة والسّتائر والإطارات الـمُذهّبة للمرايا واللوحات).

تعشّوا في بيت كراسيلنيكوف دون أن يوقدوا الضّوء. كان ألكسي يضع ملعقته غير مرّة وينظر من النافذة، ويزفر. وكانت ماتريونا تسير بهدوء كالفأرة ما بين الموقد والمائدة. بينما جلس سيميون محدودباً، وشعره الداكن الـمُتجعّد ينزل على جبينه. كانت ماتريونا تمسّه من

الحين إلى آخر بيدها أو صدرها كلّما نظّفت المائدة من الكسر أو وضعت إناء بطعامٍ جديد. إلا أنّه كان لا يرفع رأسه، وظلّ صامتاً متجهماً.

وفجأةً اندفع ألكسي إلى النافذة، ونقر زجاجها بأظافره، وأطلّ منها. الآن، وفي سكون المساء كان يسمع بوضوح صياحٍ وحشيٍّ طويل آتٍ من بعيد. قعدت ماتريونا على المصطبة في الحال، وحشرت يديها بين ركبتيها.

قال ألكسي بصوتٍ خافت:

– إنّهم يجلدون فاسكا دمينتييف. قبل مدّةٍ أخذوه إلى بيت الأمير.

همست ماتريونا:

– هذا الثالث.

وصمتوا، وتسمّعوا. وكان الصراخ ما يزال يُخيّم على مساء القرية بنفس النّبرة من القُنوط والرُّعب.

نهض سيميون فجأةً. وشدّ الحزام على بنطاله بحركةٍ مقتضبة، وذهب إلى أخيه في الغرفة. تبعته ماتريونا صامتة. انزل البندقيّة من الحائط. طوّقته ماتريونا من رقبته، وتعلّقت بها، دافعةً رأسها إلى الخلف، صاكّةً أسنانها البيضاء، وجمدت. أراد سيميون أن يدفعها عنه إلا أنه لم يستطع. سقطت البندقيّة على الأرض التّرابيّة. عندئذٍ استلقى على السرير منكفئاً بوجهه على الوسادة. جلست ماتريونا على مقربة، ممسّدةً بحركاتٍ سريعة شعره الخشن.

رجا غريغوري كارلوفيتش ميل مدير أعمال الأمير أن ترسل حاميةً

إلى قرية فلاديميرسكويه غير معتمد على قوّة الحراس والغايداماك- قوات الهيتمان الجديدة. وكان الألمان يوافقون في مثل هذه الأحوال عن رضى. دخلت إلى القرية فصيلتان ومعهما رشاشات.

وسكن الجنود في بيوت الفلاحين. وشاع بين الناس أنّ غريغوري كارلوفيتش نفسه عين البيوت التي ستسكن. وعلى أيّة حال فقد عيّن لكلٍّ من الفلاحين الذين اشتركوا في الاستباحة التي حدثت في العام الفائت لضيعة الأمير، أو كلّ عضوٍ من أعضاء اللجنة التنفيذيّة للقضاء من غير الحزبين (وكان قد اختفى حوالي عشرة شُبان من القرية قبل مجيء الألمان) جندياً واحداً مع حصانه ليطعمهما.

وهكذا طرق بيت ألكسي كراسيلنيكوف جنديٌ ألمانيٌّ شهم بكلّ لباسه العسكريّ يحمل بندقيّة ويرتدي خوذةً وغيرها. وأظهر لألكسي الأمر الصادر وهو يتفوّه بكلماتٍ غير مفهومة، ثمّ ربّت على كتفه قائلاً:

- تمام، صديق...

وخصّصت للجنديّ غرفة ألكسي، ولم يأخذوا منها سوى عدّة العربة والسّلاح وهيّأ الجنديّ مكانه في الحال. فرش بطّانيّةً جيّدة، وعلّق صورة غليوم على الحائط، وطلب أن تنظّف الأرض على نحوٍ أحسن.

وبينما كانت ماتريونا تنظّف الأرض جمع ملابسه الداخليّة وطلب أن تغسل متفوهاً مزيجاً من الكلمات الألمانيّة والروسيّة الـمُشوّهة. ولما رضي عن كلّ شيء انهدّ بحذائه على السّرير، وراح يُدخّن سيكارة.

كان الجنديّ بديناً له شاربان مسطّحان مرفوعان إلى الأعلى.

والثياب التي يرتديها جيّدةٌ ومريحة. وكان يأكل كثيراً كالخنزير المخصيّ. أكل كلّ ما جلبته ماتريونا في الغرفة. وقد أعجبه بشكلٍ خاصّ شحمُ الخنزير المُملّح. وكانت ماتريونا تأسف أشدّ الأسف على تقديم شحم الخنزير للألمانيّ، إلا أنّ ألكسي قال: "لا عليك! دعيه يعلف وينام، شرط ألا يحشر أنفه في أيّ مكان".

وفي أوقات فراغه كان الجنديّ يترنّم بأناشيد عسكريّة أو يكتب رسائل إلى وطنه على بطاقاتٍ بريديّة تحمل مناظر كييف. لم يُشاكس، ولكنّه كان يسير بخطىً ثقيلةٍ عالية، ويضرب الأرض بحذائه وكأنه سيّد البيت.

وخيّم على بيت كراسلنيكوف سكونٌ وكأنما قد فجعوا بفقيد. كانوا يجلسون إلى المائدة وينهضون صامتين، وألكسي حزين تلوح التجاعيد على جبينه، وماتريونا شاحبة الوجه، تتنهّد وتمسح الدموع خلسةً بمئزرها. وكانت أكثر ما تخاف أن يفقد سيميون السّيطرة على نفسه. إلا أنه في تلك الأيام يبدو وكأنّه قد هدأ وانطوى على نفسه.

والآن صارت تُلصق في كلّ يومٍ على دار إدارة القضاء وعلى بوابات البيوت أوامر الهيتمان حولَ إعادة الأرض والماشية إلى أصحاب الأطيان، وحول المصادرة والضرائب، وحول بيع الحبوب الإجباريّ وحول العقوبات الصارمة لكلّ محاولةٍ للتمرّد وإخفاء الشيوعيين وغير ذلك.

كان الفلاحون يقرأون الأوامر ويلوذون بالصّمت. ثمّ شاعت شائعاتٌ خبيثة تقول: إنّ التجار دخلوا إحدى القُرى تحت حراسة الخيالة الألمانيّة، وأخذوا معهم حتى الحبوب غير المدروسة، ودفعوا

أوراقاً نقديّة غير روسيّة حتى أنّ النساء لم يردن أخذها، وأنهم في قريةٍ أخرى ساقوا نصف الماشية بل وفي قريةٍ ثالثةٍ لم يبقوا على شيءٍ حتى ما تتلقّطه العصافير.

وبدأ الفلاحون يجتمعون جماعاتٍ صغيرة ليلاً في أماكن سريّة، وأخذوا يسمعون الحكايات ويتذمّرون. ما العمل؟ وبم العون؟ إنّ قوةً جبارة تجثم على القرية لا تستطيع معها إلا أن تتنفّس ولا تبدي صوتاً.

أخذ سيميون يتردّد على هذه الاجتماعات خلف البيوت، عند الجدول، تحت شجرة الصّفصاف. كان يجلس على الأرض، وسترته مُلقاةٌ على كتفيه، ويُدخّن، ويستمع. وأحياناً كان يهمّ أن ينهض، ويلقي عنه سترته، ويبسط كتفيه ليخطب: "أيها الرفاق!.." ولكنّ ذلك لا يأتي بنتيجة سوى إخافتهم، فترتعش سراويلهم رعباً، ويتفرّقون.

ذات مرّة، في غبش المساء، التقى في المرعى العام برجلٍ كان واقفاً مبتسماً. مرّ سيميون به فناداه الرّجل بصوتٍ خفيض:

– أخي!

جفل سيميون، أهو من جماعته حقاً؟ سأل وهو ينظر إليه من طرف عينه:

– ما حاجتك؟

– هل أنت أخو ألكسي؟

– لنفرض.

– أنت لا تعرف أصحابك...هل تذكر بحّارة "كيرتش"؟

– كوجين! أنت؟

وصافحه سيميون بقوّة.

وقفا وأحدهما ينظر إلى الآخر. قال كوجين وهو يُلقي نظرةً سريعةً إلى الخلف:

– هل قطعتم نهايات بنادقكم؟

– لا، إنّ كلّ شيء ما يزال هادئاً عندنا!

– وهل عندكم رجالٌ مكافحون؟

– من يدري؟ لم أر بعد. نحن ننتظر ماذا سيحدث؟

– ماذا تفعلون، أيها الأصحاب؟ –قال كوجين، وعيناه تتقلّبان طوال الوقت تُحملقان في معالم الأشياء المُحيطة به في الغسق– ماذا تنتظرون؟ سينتفونكم كما تُنتف الوزّة، وأنتم قد أعطيتم لهم رؤوسكم. أتعرفون أنّهم قد أحرقوا كلّ شيءٍ في قريتنا أوسبينسكويه بنار المدفعيّة. وهربت النساء والأطفال، ولاذ الرّجال في الغابة... وأهالي قرى نوفوسباسكويه، وفيدوروفكا، وغولاي–بوله يتوافدون إلينا جميعاً...

– ماذا تعني بـ"إلينا"؟

– هل تعرف غابة ديبريف؟ إنهم يجتمعون هناك... حسناً، اهمس للرجال: على قرية فلاديميرسكويه أن تزوّد أربعين بندقيّة مقطوعة النهايات، وحوالي عشر بنادق اعتياديّة مع خراطيشها، وما يُمكن جمعه من القنابل اليدويّة، واخفوا ذلك في التّبن في الحقل... هل فهمت؟ في قرية سوسنوفكا يُخفون ذلك تحت تلال القشّ. والفلاحون ينتظرون

الإشارة متى فقط..وفي قرية غونديايفكا ثلاثون فلاحاً على خيولهم ينتظرون...يجب أن نخرج.

– إلى أين؟ إلى من؟

– إلى الأتمان...إنه يُدعى شوس. الآن نحن نجمع الفصائل في كلّ منطقة يكاترينوسلاف...في الأسبوع الماضي دحرنا الغايدماك، وأحرقنا مزرعة...طرافةٌ ومتعة، يا أخي، نُلقي الكحول والسُّكّر على الفلاحين هبةً وعطاءً...تذكّر، سآتي بعد أسبوع...

وغمز لسيميون، وقفز فوق السياج، وركض منحنياً إلى القصب، حيث كانت الضفادع تُنقنق بصوتٍ عالٍ.

كانت الشائعات حول الأتمانات والغارات قد وصلت إلى قرية فلاديميرسكويه، إلا أنّ أهل القرية لم يُصدّقوا. وها هو شاهدٌ حيّ قد ظهر بالخبر اليقين. في ذلك المساء قصّ سيميون ذلك على أخيه. أصغى ألكسي بجدّ:

– ما اسم هذا الأتمان؟

– يقولون: شوس.

– لم أسمع به. تدور الشائعات حول نستور إيفانوفيتش ماخنو، يقولون إنّ لديه زهاء خمسة وعشرين من قُطاع الطريق، وهم يغيرون على الضياع. أما شوس فلم أسمع عنه...كلّ شيءٍ ممكن. فالفلاح الآن مقتدر على كلّ شيء. سواءً أكان شوساً أو غيره فإنّ في القضيّة خيراً...أوصيك فقط ألا تتحدّث إلى الفلاحين. وحين تقتضي الضرورة سأخبرهم بنفسي.

ضحك سيميون ضحكةً هازئة، وهزّ كتفيه.

– انتظروا حتى يُسلخوا جلدكم.

يبدو أنّ كوجين لم يظهر لسيميون وحده في ذلك المساء. فقد تهامس الناس في القرية حول البنادق المقطوعة والقنابل اليدويّة وفصائل الأئمان. وكان من المُمكن أن تسمع الأذن، إذا أزهقت، حزيز المناشير على الحديد في هذا الفناء أو ذاك في الليالي. إلا أنّ كلّ شيءٍ كان هادئاً بعد، بل إنّ الألمان أقاموا النّظام، وأصدروا أمراً بأن يكنس الشارع في عشيّة السّبت على الأحد. فلم يجد الأهالي بُداً من كنس الشارع.

ثمّ وقعت بليّة. في ساعةٍ مبكّرة، وقبل أن تخرج البهائم للشرب سار في الشارع المكنوس رجال شرطةٍ وجنود يضعون الشارات على صدورهم، وطرقوا زجاج النوافذ قائلين:

– اخرجوا!

أخذ الفلاحون يخرجون من بيوتهم حفاةً يُزرّرون ثيابهم، فأعطي لهم أمرٌ رسميّ يفرض على هذا البيت أو ذاك مقداراً من الحبوب والصوف وشحم الخنزير والبيض ليقدّم إلى إدارة مؤنة الجيش الألمانيّ بسعرٍ معيّن في الماركات الألمانيّة. وكان طابورٌ من العربات العسكريّة يقف في الساحة عند الكنيسة. وكان الجنود الألمان المقيمين في البيوت يقفون عند بواباتها مرتدين خوذهم وحاملين بنادقهم.

حكّ الفلاحون رؤوسهم. بعضهم راح يحلف بالرّبّ بأنه مُعدم، وبعضهم رمى قبّعته على الأرض قائلاً:

– لم يعد عندنا قمح، والله. إذا قطعتموني لن تجدوا عندي شيئاً!..

وفي تلك اللحظة رأوا مدير الأعمال يسير في الشارع في عربة ركوب. فكان فزع الفلاحين بنظارته الذهبيّة أشدّ من فزعهم من رجال الشرطة والجنود، لأنّ غريغوري كارلوفيتش كان يعرف كلّ شيء ويرى كلّ شيء.

أوقف حصانٌ عربته. تقدّم ضابط الشرطة من العربة. وتحدّث الاثنان. وصاح على رجال الشّرطة، فدخل هؤلاء إلى أوّل بيت، وعثروا على حبوبٍ في الحال مخفيّةٍ تحت السماد. وحين سمع غريغوري كارلوفيتش صياح صاحب الحُبوب لم يبدر منه شيءٌ سوى أنّ نظارته قد لمعت.

في ذلك الوقت كان ألكسي يذرع فناء بيته شديد الذّهول، ومرآه يُثير الأسى. أنزلت ماتريونا منديلها على عينيها، وبكت في مُقدّمة البيت.

وكان ألكسي يسأل وهو يرفع قطعة خشب أو عجلةٍ مكسورة ويلقيها في نبات القرّاص عند السياج:

– ما نفع هذه النّقود الألمانيّة لي، ما نفع الماركات؟ –وحين لمح ديكا ضرب قدمه على الأرض وشتمه: «حقير!» ومسك بالقفل على حجرة المؤنة:

– ماذا سنأكل إذن؟ هذه الماركات؟ إذن يريدوننا أن ننقلب إلى متسوّلين؟ أن يدمّرونا كلياً؟ مرّةً أخرى في ربقة الظّلم؟

قال سيميون وهو جالسٌ قرب ماتريونا:

– سيأتي أسوأ من ذلك... سيأخذون حصانك.

– لن يكون ذلك أبداً. سأقتلهم بالفأس!

– فات الوقت.

وانتحبت ماتريونا:

– أوي، يا عزيزتي... سأقطع حناجرهم بأسناني...

طرق الباب بأخمص بندقيته. ودخل الجنديّ البدين الذي كان يقيم عندهم هادئاً مرحاً وكأنها يدخل بيته. ووراءه دخل ستّةٌ من رجال الشّرطة ومدنيّ على قبّعته عقدة شريط ثلاثيّة الأسنان، رمز الهيتمان ودفته التّسجيل في يديه. قال له الألمانيّ، وهو يشير إلى غرفة المؤنة.

– هنا الكثير من القمح وشحم الخنزير.

حدجه ألكسي بنظرةٍ ضارية، وتراجع، وألقى بكلّ قوّته فصاح هذا:

– احذر، أيها الوقح. هل يحكّك جلدك، يا بن الكلبة؟

دفع سيميون ماتريونا بكوعه، ووثب من مقدّمة البيت، إلا أنّ حربةً عريضة النّصل صدّته من صدره. وصاح الألمانيّ بعنفٍ وسلطان:

– توقّف، روسيّ في مكانك!

ظلّت العربات العسكريّة طول النهار تُحمل بالمؤن. وتحرّك طابورها في ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل. نهبت القرية نهباً تاماً. و لم يشتعل ضوءٌ في البيوت، و لم يجلس الناس إلى مائدة. كانت النّساء ينتحبن في البيوت الـمُظلمة، داعكاتٍ بأيديهنّ الماركات الورقيّة...

لا جدوى من أن ينزل فلاحٌ وزوجته مع هذه الماركات إلى المدينة لأنهما لن يحصلا من الحوانيت على شيء، لا على مسمار، ولا على ذراع قماش، ولا قطعة جلد. فإنّ المعامل لا تعمل والحبوب والسّكّر والصابون والخامات تنقل بالقطارات إلى ألمانيا. ولا حاجة لفلاح وامرأته إلى أن يجلبا إلى البيت بيانو، ولا لوحة هولنديّة قديمةً، ولا إبريق شاي صينياً. وعيونهما لا تقع إلا على الغايداماك ذوي الخصلات المتهدّلة والشوارب النازلة في معاطفهم الزّرق، والقبعات الاسترخانيّة المتوّجة بأعاليلها القرمزيّة، كانا يتسكّعان في الشارع الرئيسيّ بين التجار الزّرق الوجوه من الحلاقة ذوي القبعات العالية وهم المحتالون المشتغلون بعمليات بيع وشراء العملة الأجنبيّة. ويتحسّران بألم، ويعودان إلى بيتهما دون أيّة مشتريات. وفي الطريق، وبعد عشرين فرسخاً يتوقّف القطار لأنّ محاور العربات قد حميت، ولا يوجد دهنٌ لتشحيمها، لأنّ الألمان قد أخذوه. فرشوا الرّمل على المحاور، ويتحرّك القطار قليلاً ثمّ يتوقّف ثانية.

ولهذا كلّه كانت النّسوة ينتحبن، ويضممن الماركات الألمانيّة المدعكة بين أصابعهن، ويخفي الرجال الماشية في وهدات الغابة بعيداً عن المصيبة، فمن يدري أيّ أمرٍ ألمانيّ سيصدر في الغد!

كانت الأضواء لا توقد في القرية، وكلّ البيوت مظلمة ما عدا بيت الأمير وراء الحرش عند البحيرة، فقد كانت الأنوار تتلألأ فيه تلألؤاً زاهياً. إذ كان مدير الأعمال يقيم هناك حفلةً تكريميّة للضباط الألمان. وتعزف الموسيقى العسكريّة. وتحوم أنغام موسيقى الفالس الألمانيّة كالأرواح الشريرة فوق القرية المُظلمة. ثمّ يحلّق صاروخٌ كالشهاب الناريّ عالياً في السماء لتسلية الجنود الألمان الواقفين في فناء بيت

الأمير حيث دُحرج برميلٌ من الجعة. وكان الصاروخ ينفجر، وتُضاء السّقوف القشيّة والحدائق وأشجار الصّفصاف وبرج الجرس الأبيض والأسيجة بنجوم تتساقط ببطء. وقد ارتفعت وجوهٌ كثيرة خالية من الفرح نحو هذه الأنوار. وكان الضوء يسطع سطوعاً يجعل كلّ غضنٍ في الوجوه يبرز بوضوح. ومن المؤسف أنَّ أحداً لم يصوّرها وهي في هذه الحال بآلة تصويرٍ غير منظورة. فإنّ مثل هذه الصور ستكون موضوعاً لتفكّر فيه هيئة الأركان الألمانيّة.

وتنوّرت حتى العقول على بُعد فرسخٍ من القرية وكأنّما أهلّ عليها نهار. وكان بعض الرّجال الذين كانوا يتسلّلون نحو كدسٍ من التّبن منفرد، فلمّا رأوا النور استلقوا على الأرض بسرعة إلّا واحداً كان واقفاً عند أكداس التّبن رفع رأسه إلى الأنوار المُتساقطة من السماء، وقال بابتسامةٍ هازئة:

– عظيم!

انطفأت الأنوار قبل أن تصل إلى الأرض، وعاد الظلام. اجتمع الرجال عند أكداس التّبن، وطقطقت البنادق، وهي تقذف على الأرض.

– كم مجموعها؟

– عشر بنادق مقطوعة، يا رفيق كوجين، وأربع بنادق اعتياديّة.

– قليل...

– لم يكن لدينا وقتٌ كافٍ، غداً ليلاً سنجلب عدداً آخر..

– وأين الخراطيش؟

– خُذ، إنها في الجيوب... عددٌ كبير.

– اخفوها تحت أكداس التّبن، يا رجال... نحتاج إلى قنابل يدويّة، اجلبوا قنابل يدويّة... البندقيّة المقطوعة سلاح الشيوخ الذين يختفون في ساقيةٍ وراء أجمة. طلقةٌ واحدة ويتهافتون، وتنتهي المعركة. أما المُحارب الشاب فبحاجةٍ إلى بُندقيّة، والشيء الأوّل قنبلةٌ يدويّة. أفهمتم؟ وسيفٌ لمن يستطيع استعماله. إنّه خير الأسلحة.

– لطيفٌ أن نبدأ في الأمر هذه الليلة، يا رفيق كوجين.

– نُثير القرية كلّها، والله العظيم... تجمّع في قلوبنا الكثير من الإحنّ. أخذوا كلّ ما نملك كما انتزعوا منّا جزءاً من الجسم... سنخرج إليهم بالمذرات والمناجل، أو إذا أمكّن القول، بكلّ أدوات الشّغل... وسنقضي عليهم وهم نائمون بأسهل من السّهولة...

– وهل أنت الآمر هنا؟

صاح كوجين بصوتٍ حادّ، وصمت برهةً، ثمّ أخذ يتحدّث بصوتٍ مداهن، ثم راح يرفع صوته شيئاً فشيئاً:

– من الآمر هنا؟ أريد أن أعرف... أم أنا أتحدّث مع حمقى؟ أم أنصرف وأدع الألمان والغايداماك يضربونكم وينهبونكم... (وهمس بشتيمة). ألا تعرفون الانضباط؟ أم أنّ عدد الرؤوس التي قطعتها لهذا السّبب بسيفي قليل؟ إذا كنت تريد أن تدخل إلى الفصيلة يجب أن تقسم أشدّ القسم على الطاعة التامة للأتمان... وإلا فلا تدخل. لك عندنا أن تفعل ما تريد: اشرب الخمر وتمتّع بالحياة، ولكن حالما يصيح الأتمان: «إلى الخيول» لن تكون ملك نفسك. مفهوم؟ (صمت، ثم قال بتراضٍ ولكن

بصرامة). لا يجوز مسّ الألمان لا اليوم ولا غداً. إنّ الأمر يحتاج إلى قوّةٍ عظيمة.

– يا رفيق كوجين، على الأقلّ اسمح لنا بأن ننتقم من غريغوري كارلوفيتش. إنه لا يدعنا نعيش على أيّة حال.

– أما ما يخصّ مدير الأعمال ففي الأسبوع القادم على أقلّ تقدير، وإلا فلن أنتهي من شؤوني. قبل أيام اغتصب ألمانيٌّ امرأةً في قرية أوسيبوفكا. هكذا، فوضعت إبراً في الفطائر التي يأكلها. وعندما أكلها قفز من المائدة، وركض إلى الفناء، وسقط، وبعد قليل مات. فما كان من الألمان إلا أن قتلوا تلك المرأة في مكانها. فخرج الفلاّحون بفؤوسهم... وأنا لا أريد أن أتذكّر ماذا فعل الألمان... والآن لن تجدوا أثراً في المكان الذي كانت فيه قرية أوسيبوفكا... تلك هي نتيجة العمل الاعتباطيّ! هل أنتم فاهمون؟

تنهّدت ماتريونا، وتقلّبت على السّرير. بدأت الدّنيا تتنوّر، وصاحت ديكة الفجر. كانت قطرات النّدى تتناثر على إفريز النافذة المفتوحة. وطنّ البعوض، واستيقظت القطّة على سطح الموقد، وقفزت برفق، وصارت تتشمّم الفضلات في الرّكن.

كان الأخوان جالسين إلى المائدة العارية يتحدّثان بصوت خفيض، كان سيميون يضع رأسه بين يديه، وألكسي مُنحنياً نحوه يتمعّن في وجهه:

– لا أستطيع يا سيميون. أرجو أن تفهمني، يا عزيزي. لن تستطيع ماتريونا أن تقوم بأمور الاستثمارة وحدها. هنا ما جمعناه خلال سنوات. فكيف أتركه؟ سيأتون على آخر شيء. وعندما أعود لا أجد غير الخواء.

قال سيميون:

– كيف نتركه؟ لنفرض أنّه سيضيع، فأيّة أهميّة لذلك؟ سننتصر وستبني بيتاً من آجر. (وضحك بتهكّم). من الضّروريّ القيام بحرب الأنصار، بينما أنت مهتمٌّ باستثماراتك.

– مرّةً أخرى أقول لك: من سيطعمكم؟

– أنت لا تطعمنا على أية حال، بل تطعم الألمان، والهيتمان، وكلّ سافلٍ حقير...أنت عبد...

– انتظر لحظة. ألم أحارب في سبيل الثّورة عام ١٩١٧؟ ألم ينتخبوني إلى لجنة الجنود؟ ألم أقوّض جبهة الإمبرياليين؟ هكذا...فعلّ مهلك لا تعيرني، يا سيميون...والآن إذا جاء الجيش الأحمر فسأكون أوّل من يُمسك بالبندقيّة. فإلى أين تريدني أن أذهب إلى الأتمانات في الغابة؟

– الآن حتى لهؤلاء نفع.

– ليكن ذلك.

قال سيميون ومدّ يديه على المائدة:

– الجرح اللعين يشدّ وثاقي. تلك هي مُصيبتي...والكثيرون من زملائنا في أسطول البحر الأسود قد دخلوا هذه الفصائل...سنشعل النار في أوكرانيا من الجهات الأربع. أمهلنا...

– هل رأيت كوجين مرّةً أخرى؟

– رأيته.

– ماذا يقول؟

– اتّفقنا على أن نشعل حريقاً كبيراً في قريتكم قريباً.

نظر ألكسي إلى أخيه وشحب، وأطرق برأسه.

– هذا ما يجب أن يكون بالطّبع...إنّ بيت الضيعة ذاك يقف مثل قذىً في العين...ما دام غريغوري كارلوفيتش حياً، فإنّه لن يتركنا نتنفّس...

نزلت ماتريونا من السرير بقميص النوم فقط–سوى أنّها ألقت عليها لفاحاً مورّداً–وتقدّمت وضربت المائدة ببراجم قبضتها عدّة مراتٍ قائلة:

– لن أتحمّل، إنهم ينتزعون ما عندي! نحن النساء نُصفّي حسابنا مع هؤلاء الشياطين قبلكم، يا رجال.

نظر إليها سيميون بمرحٍ فجأةً:

– هكذا؟ كيف ستحاربين يا نساء؟ حدّثينا.

– سنحارب على طريقتنا، نحن النساء. سنضع زرنيخاً في طعامهم...وسنحصل على هذا الزّرنيخ. استدرجه إلى المتبن أو إلى الحمام. ألست أملك إبرة حياكةٍ أو غيرها؟ سأغرزها به فلا تندّ عنه صرخة. سنبدأ نحن فلا تجبنوا...وإذا اقتضى الأمر حملنا البنادق، فلسنا أسوأ منكم...

ضرب سيميون الأرض بقدمه، وضحك ملء فمه.

– لست امرأة! أنت شيطان!

– اتركني.

وارتدت حذاءها على قدميها العاريتين عند عتبة الباب، وهي تحرّك لفاحها، وطبطبت به، وخرجت، لترى الماشية على ما يبدو. ظلّ سيميون وألكسي يهزّان رأسيهما طويلاً ويضحكان «امرأةٌ كالأثمان، ما هي امرأة». هبّت من النافذة المفتوحة نسمةٌ قُبيل الفجر، وداعبت أوراق الذُّريقة، وحملت همهمةً ونتفاً من أغنيةٍ غير روسيّة. كان الجنديّ الـمُقيم يعود سكران من بيت الضيعة مُثيراً الغُبار بحذائه.

شدّ ألكسي النافذة بغيظ.

– خيرٌ أن تأوي إلى غرفتك، يا سيميون، وتستلقي.

– تخاف؟

– ويستطيع هذا الشيطان السكران أن يتشبّث بك...إنه يتذكّر كيف هجمت عليه.

– سأهجم مرّةً أخرى. –ونهض سيميون وذهب إلى غرفته–آه، يا ألكسي، الثّورة بسبب ذلك تموت، بسبب صعوبة إنهاضكم... ألم يكفكم ما فعل كورنيلوف؟ وما يفعل الغايدماك والألمان؟ ماذا تريدون بعد؟ (وفجأةً قطع كلامه). انتظر...

رأمت دمدمةٌ من الفناء، وطبطبة حذاءٍ ثقيلٍ غير واثقة. وتعالى صوتٌ نسائيٌّ حانق: «اتركني!..» ثم ضجيج مقاومةٍ، وتنفّسٌ ثقيل، ثمّ صاحت ماتريونا ثانيةً بصوتٍ أشدّ، وكأنه من ألم: «سيميون، سيميون!..»

اندفع سيميون من البيت مُستفزاً على ساقين معوجتين. وأمسك

ألكسي بالمصطبة وبقي على جلسته. وليكن فقد كان يعرف ماذا يحصل حين يندفع المرء على هذه الصورة..وفكّر مع نفسه: "في المساء تركت الفأس في الرواق. سيستخدمها إذن..." صاح سيميون في الفناء بصوتٍ وحشيّ. وصدرت ضربةٌ ساحقة، ونشّ شيءٌ في الفناء وغرغر، وسقط ثقيلاً.

دخلت ماتريونا مبيّضة الوجه كقطعة بياض تجرّ وراءها لفاحها وانحنت نحو الموقد، متنفّسةً بصدرها العاليً. وفجأةً هزّت يديها على ألكسي، على عينيه...

ظهر سيميون في الباب هادئاً شاحباً.

– ساعدني، يا أخي. لنحمله إلى مكانٍ ما وندفئه...

- ٥ -

بلغت القوات الألمانيّة حدود الدون وبحر آزوف وتوقّفت. لقد استولى الألمان على منطقة غنيّة للغاية أكبر حجماً من ألمانيا كلّها. وفي الدون، مثلما في أوكرانيا، أسرعت القيادة الألمانيّة إلى التّدخّل في السياسة، وساعدت أصحاب الأراضي الكبيرة، والقوزاق الأغنياء الذين كانوا قبل أربع سنوات فقط يتبجّحون باحتلال برلين بلا صعوبات. إنّ هؤلاء القوزاق الرّكينين العراض الوجوه ذوي الشرائط الحمراء على سراويلهم، الأقوياء وكأنهم صبّوا من فولاذٍ انقلبوا الآن إلى حملانٍ وديعة.

قبل أن يصل الألمان إلى روستوف هجم جيشٌ قوزاقيّ مؤلّفٌ من عشرة آلاف رجلٍ بقيادة الأتمان بوبوف على نوفوتشيركاسك عاصمة الدون. كانت الغلبة تميل إلى جانب القوزاق الحُمر الذين يؤلّفون حامية هذه المدينة والبلاشفة الذين أسرعوا إليهم من روستوف في معركة دامية على الهضبة العالية فوق الدون. إلا أنّ حادثةً خياليّةً حسمت الأمر. جاءت جماعة متطوّعين بقيادة العقيد دروزدوفسكي من رومانيا مشياً على الأقدام. وفي ٢٢ نيسان فجأةً استولت على روستوف، واحتفظت بها حتى المساء حين أخرجت منها. وسار رجال دروزدوفسكي في السّهب باحثين عن جيش كورنيلوف. وبينما هم في الطريق في الخامس والعشرين من نيسان سمعوا ضجيج معركةٍ قرب نوفوتشيركاسك، فانعطفوا نحو المدينة دون أن يسألوا

عن الـمُتحاربين ولماذا يُحاربون. وشقوا طريقهم بمدرّعة إلى احتياط الحُمر، وأثاروا فوضى مُريعة. ولـمّا رأى قوزاقيٌّ الدون أنّ عوناً قد هبط عليهم من السماء تحولّوا إلى الهجوم الـمُضادّ، ودحروا الحُمر، وأبعدوهم. واحتلّت نوفوتشيركاسك. وتحوّلت السُّلطة من اللجنة الثّوريّة إلى "لجنة إنقاذ الدون". وبعد ذلك جاء الألمان.

وتحت حمايتهم سلّمت هذه اللجنة في نوفوتشيركاسك-التي لم يترك الألمان حاميةً فيها عن تعقّل-صولجان الأتمان إلى الجنرال كراستوف "الصديق الشخصيّ للامبراطور غليون" على حدّ تعبيره هو. ودقّت أجراس الكاتدرائيّة برتين ريفيق تاهم. وتجمهر القوزاق في الساحة الكبيرة المرصوفة أمام الكاتدرائيّة هاتفين "هورا!" وتمنى قوزاق القرية الخير للحكم الجديد.

لم يتوغّل الألمـان في أعماق الـدون وكوبان بعد روستوف، وحاولوا إخضاع قرية باتايسك الواقعة على الضّفّة اليسرى مُقابل روستوف، والتي يقطنها عمالٌ يعملون في ورش ومعامل روستوف وفقراء الضواحي. ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على القرية رُغم النار الحامية والهجمات الدامية. فقد قاومت باتايسك الـمُحاطة كلياً تقريباً بمياه الفيضان مُقاومةً مستميتة، وبقيت مُستقلّة. وظلّ الألمان عند هذا الحدّ، وقصروا جهودهم على تعزيز سلطة الأتمان، وتزويده بالأسلحة المأخوذة من مخازن الأسلحة الروسيّة في أوكرانيا. وعلى هذه الصورة من الحذر حلّت صألةٌ حرجة هي الموقف إزاء الجماعتين من المتطوّعين على وصيّتين: القضاء على البلاشفة، وتجديد الحرب ضدّ الألمان، أي الولاء إلى الحُلفاء حتى النهاية. وكانت الوصيّة الأولى تبدو للألمان معقولةً وجيّدة، بينما اعتبروا الثانية حماقةً ليس خطرةً

إلى حدّ كبير. ولهذا تظاهروا بأنهم لا يعرفون بوجود المتطوّعين. كما تظاهر رجال دنيكين بأنهم لا يعرفون بوجود المتطوّعين. كما تظاهر رجال دنيكين ودروزدوفسكي بأنهم لا يلاحظون وجود الألمان على الأرض الروسيّة.

وهكذا اضطرّت جماعة دروزدوفسكي ذات مرّةٍ لدى مسيرتها من كيشينيف إلى روستوف إلى عبور نهر. كان الألمان يقفون على إحدى ضفّتيه، في بوريسلافل، والبلاشفة على الضفة الثانية، في كاخوفكا.

وكان الألمان قد فشلوا في الاستيلاء على جسرٍ على النهر. وعند ذاك استطاع رجال دروزدوفسكي الاستيلاء على الجسر وأخرجوا جماعة الحمر من كاخوفكا، وواصلوا السير دون أن ينتظروا شكر الألمان لهم.

ووقع رجال دنيكين بنفس التناقض، ولكن على نطاقٍ أوسع. في نهاية نيسان استطاعت بقايا جيش المتطوّعين التي تمزّقت عند يكاترينودار أن تصل إلى منطقة قريتي يغورليتسكايا وميتشيشينسكايا على بُعد حوالي خمسين فرسخاً من نوفوتشيركاسك. وهنا هبط عليها خلاصٌ مفاجئ، وهو نبأ استيلاء الألمان على روستوف، وقوزاق الدون على نوفوتشيركاسك. فترك الحُمر المُتطوعين بسلام، وفتحوا جبهةً ضدّ العدوّ الجديد—الألمان.

وتمكّن المُتطوّعون من أن ينالوا قسطاً من الراحة، ويعالجوا الجرحى، ويستجمعوا قواهم، وكانوا، قبل كلّ شيء، بحاجةٍ إلى سدّ النّواقص في عتاد وذخيرة جيشهم.

كانت جميع المحطات من تيخوريتسكايا حتى باتايسك مملوءةً باحتياطات هائلة من الأعتدة الحربيّة للهجوم الـمُضادّ الذي يعدّه الحُمر باتّجاه روستوف. عندئذ هاجم الجنرالات ماركوف وبوغايفسكي وأرديل بثلاثة طوابير أقرب مؤخّرة للحمر. في محطات كويلوفسكايا، وسوسيكا، ونوفوليوشكوفسكايا ودمّروا القطارات، ونسفوا القطارات الـمُصفّحة، وعادوا إلى السّهب بغنيمةٍ هائلة، وأحبط هجوم الجيش الأحمر على الألمان.

شُفي الكتف المفصوم، واندملت الخدوش الصغيرة التي حدثت في المعارك، وقوي روتشين، واسمرّ من تلويح الشّمس، ونال شبعه خلال الأيام الأخيرة في القرية الهادئة.

نفّذ الـمُهمّة التي كانت تعذّبه كمرضٍ نفسيّ منذ خروجه من موسكو: انتقامه من البلاشفة على الإساءة. كان ينتقم، وكان، على أيّة حال، يتذكّر لحظةً واحدة... لحظة عدوّه نحو سدّة الخطّ الحديديّ... كان الانتصار... كانت ركبتاه ترتجفان، والدّم ينبض في صدغيه... خلع طاقيّته الليّنة، مسح بها حربته. وقد فعل ذلك لا شعورياً. مثل جنديٍّ قديم حريص على نظافة سلاحه. لم يكن يحسّ بالكراهية الجنونيّة السابقة. بأطواق الرّصاص تشدّ على جمجمته والدّم الـمُتدفّق إلى عينيه. إنّه قد لحق بعدوٍّ غرز الحربة فيه، ونظّفها. إذن، فقد كان على حقّ؟ ويُجاهد عقله الآخذ بالصفاء ليفهم: هل هو على حقّ؟ نعم؟ على حق؟ ولكن لماذا يسأل هو نفسه عن ذلك؟

كان يوم أحد، وكانت صلاة القُداس تُقام في كنيسة القرية. كان روتشين متأخّراً فمكث بعض الوقت على مدرج الكنيسة بين الأقفية المحلوقة حديثاً، وخرج ليتجوّل في المقبرة القديمة وراء الكنيسة. سار

على عشبٍ نمت عليه هندباء بريّة، وخلع خصلة عُشب، وقضمها، وجلس على أكمة صغيرة. كان فاديم بتروفيتش إنساناً نزيهاً، وكما قالت كاتيا، إنساناً طيباً.

ترامت من نافذة نصف مفتوحة مُغشاة بنسيج عنكبوت أصوات أطفال، وكانت نبرات الشّماس بصوته الكثيف غاضبةً خالية من الرّأفة، حتى لكأنّ أصوات الأطفال على وشك أن تفزع، وتتطاير في ذُعر. ووجد فاديم بتروفيتش فكره يطوف في الماضي، وكأنما يبحث عن شيءٍ وضّاء وأحفل بالطّهر...

إنه يصحو من الفرح. وراء النافذة النّظيفة العالية سماءٌ ربيعيّةٌ داكنة الزّرقة لم ير مثلها منذ ذلك الحين. وكان في وسعه أن يسمع حفيف الأشجار في الحديقة، وعلى الكُرسيّ إلى جانب السّرير الخشبيّ قميصٌ جديد من الساتان أزرق مرقّط فواح بيوم الأحد. ويفكّر ماذا سيفعل طيلة النهار الطويل، وبمن يلتقي، وكان لذلك من الإغراء والبهجة ما يجعله يُطيل استلقاءه على السّرير...

ويتطلّع إلى ورق الحائط، حيث رسمت بتكرار بيوت صينيّة لها سقوفٌ معكوفة، وقنطرة شديدة الانحدار، وصينيان تحت مظلّتين، وصينيّ آخر في قبّعة تُشبه ظليلة المصباح يصطاد السّمك من على القنطرة. صينيون طيبون مضحكون، ما أطيب عيشهم في البيت عند الجدول...ويترامى إليه من الرواق صوت أمّه: «فاديم، هل أنت جاهز؟ أنا تهيّأت...» وهذا الصوت الهادئ الحبيب يرنّ في حياته كلّها باليُمن والسعادة...ويقف بالقرب من أمّه والقميص المُرقّط على جسده، وهي في ثوبٍ حريريٍّ أنيق. وتقبّله وتخرج مشطاً من شعرها، وتُمشّط له: «الآن أحسن، لنذهب...»

وتفتح مظلّتها، وهي تهبط السّلّم العريض. وكانت خيول عربة «الترويكا»[11] الصهباء لا تكاد تستقرّ في مكانها في البسطة المكنوسة الـمُعلّمة بآثار المكنسة. الحصان الأيسر يُشاكس، والثاني الأساسيّ، الرّصين قد حفر الأرض بحافره. ويقول الحوذيّ الـمُشبع الـمُغتبط ذو الكمّين الأحمرين البادين من تحت سترة مخمليّة بلا أكمام رافعاً لحيته الشّعثاء إلى فوق: "كلّ عامٍ وأنتم بخيرٍ". وتجلس الأم بوضعٍ مريحٍ في العربة التي دفّأتها الشّمس. وينضغط فاديم على أمّه سعادةً وتلهّفاً لسماع صفير الريح في أذنيه، ورؤية الأشجار الـمُتطايرة الآتية من الجهة الـمُقابلة. وتنطلق "الترويكا" مُلتفّةً حول بيت الضّيعة. وهذا هو شارع القرية العريض، والفلاحون الـمُنحنون واحداً إثر الآخر، والدجاجات الـمُقأقئة الـمُتراكضة من تحت العجلات. سياج الكنيسة الأبيض، والمرجة الخضراء، وأشجار البتولا الـمُتفتّحة البراعم من توّها، وتحتها صلبانٌ معوجّة، والقبور...ومدرّج الكنيسة الحافل بالمتسوّلين...ورائحة البخور الأليفة...

ما تزال الكنيسة وأشجار البتولا قائمةً هناك حتى الآن. وفاديم بتروفيتش يرى بعين خياله خضرتها الـمُطرّزة على خلفيّة السماء الزّرقاء...وتحت واحدة منها—الخامسة من ركن الكنيسة—ترقد الأمّ منذ زمان رقدتها الأبديّة، وقد أحيط قبرها بسياج. وقبل ثلاثة أعوام كتب القَنْدلَفْت العجوز إلى فاديم بتروفيتش أنّ السياج قد كُسر، وأنّ الصليب الخشبيّ قد نُخر...والآن فقط تذكّر بندمٍ شديد أنه لم يردّ على رسالته حتى الآن.

الوجه الحبيب، واليدان العطوفتان، والصوت الذي كان يوقظه

١١– عربةٌ تجرّها ثلاثة خيول (الـمُترجم).

صباحاً ويترعه بالسعادة طوال اليوم...حبّ كلّ شعرةٍ من شعره، كلّ خدشٍ في جسده...يا إلهي كان حبّها يُزيل عنه كلّ حزن، مهما يكن ذلكَ الحُزن. والآن كان كلّ ذلك قد دُفن بالوجه الأبكم تحت الأكمة الصّغيرة في ظلّ البتولا مُندمجاً مع الأرض...

وضع فاديم بتروفيتش كوعيه على ركبتيه، وغطى وجهه بيديه.

مرّت أعـوامٌ طويلة. وكان يبدو دائماً وكأنّه لم يبق إلا مُغالبةً واحدة، ويصحو مُمتلئاً بالسّعادة في صباحٍ أزرق كما في الماضي سيقوده الصّينيان ذوا المظلّتين عبر القنطرةِ المحدودبة إلى البيت ذي السقف المعكوف...وهناك تكون في انتظاره حبيبةٌ قريبةٌ إلى القلب بشكلٍ لا يوصف...

وفكّر فاديم بتروفيتش مع نفسه "وطني!" وتذكّر ثانية "الترويكا" الـمُنطلقة في القرية "إنها روسيا...ما كان روسيّاً...وقد اختفى، ولن يكون بعد الآن...لقد صار الصّبيّ صاحب قميص من الساتان قاتلاً".

ونهض سريعاً، وبدأ سيره على العُشب واضعاً يديه وراء ظهره، مُفرقعاً بأصابعه. وقادته أفكاره نفسها إلى حيث كان يظنّ أنّه قد صفق باب الماضي بقوّة وحدة. فقد كان متيقناً من أنه ذاهبٌ إلى الموت... وها هو، لم يمت...وما أسهل أن يرقد الإنسان الآن في حفرةٍ في السّهب مُغطىً بالذّباب...

وفكّر مع نفسه: "الموت سهل، والعيش صعب...وفي ذلك يكمن واجب كلّ واحد منا: أن يُقدّم للوطن الـمُحتضر لا زكيبة حيّة من اللّحم والعظم، بل كلّ الأعوام الخمسة والثلاثين التي عاشها، العواطف، والآمال، والبيت الصينيّ، وكلّ نقاوته..."

توجع، وتلفت فيما حوله ليعرف هل يسمعه أحد. ولكنّ أصوات الأطفال ما تزال تنشد. والحمامات تهدل على إفريز صدئ...وتذكّر بعجالة كالخلسة، لحظةً أخرى، لحظة الحنيّة التي لا تُحتمل. (ولم يذكّر كاتيا بذلك قط). كان ذلك في موسكو، قبل عام. وكان روتشين قد علم، وهو في المحطّة، إنّ زوج يكاترينا دميتربيفنا دفن نفس اليوم، وإنها الآن وحيدة. وقد جاء إليها عند هبوط المساء، فقالت له الخادمة إنها نائمة، فبقي ينتظر جالساً في غرفة الجُلوس. وقالت الخادمة همساً: إنّ يكاترينا دميتربيفنا تبكي طوال الوقت: "تدير وجهها إلى الحائط في سريرها، وتبكي كالطّفل، حتى أننا نُغلق باب المطبخ..." فقرّر أن ينتظر، حتى لو انتظر الليل كلّه، وظلّ جالساً على الأريكة، يسمع تكتكة الساعة في مكانٍ ما مودعةً الوقت، مُنتزعةً لحظات العمر، واضعةً الغضون على الوجه الحبيب، ناشرةً الشيب الغضيّ في الشعر، بلا رأفة ولا هوادة...وفكّر روتشين في أنّ كاتيا، إذا لم تكن نائمة، فهي لا بُدّ أن تفكّر في ذلك، وهي تسمع تكتكة الساعة. ثمّ سمع خطواتها الواهنة غير الواثقة، وكأنّ كعب أحد نعليها قد التوى. كانت تسير في المخدع، وبدا وكأنّها تهمس بشيء ما. توقّفت، وبقيت بلا حراك فترةً طويلة. وأخذ روتشين يقلق، وكأنّما فَهِمَ أفكار كاتيا من خلال الجدار. وصرّ الباب، ودخلت كاتيا إلى غرفة الطعام، وراحت تُحرّك أشياءً بلّوريّةً في صوان السّفرة فتُرسل رنيناً. وتصلّب روتشين مُتحفّزاً للاندفاع. فتحت الباب قليلاً: "يا ليزا، هذه أنت؟" كانت ترتدي روباً من وبر الجمال، وإحدى يديها تُمسك بقدح، والأخرى بقارورةٍ صغيرةٍ تافهة...كانت تنوي أن تتخلّص بهذه الوسيلة من الأسى، من الوحدة، من الزمن الذي لا يعرف رأفة، من كلّ شيء...كان وجهها الناحل ذا العينين الرماديتين مثل وجه طفلٍ

أهمله الجميع...جميلٌ لو وجدت نفسها في البيت الصّينيّ ذاك. قال فاديم بتروفيتش لها عندئذ: "أنا تحت تصرّفك، وكلّ حياتي تحت تصرّفك..." وصدّقت هي بأنّ وحدتها كلّها، كلّ الأعوام الـمُتبقّية من عبرها يُمكن أن تغرق في حنيّته، في حبّه...

أوه، يا للشيطان! كان بالطّبع يعرف دائماً أنّ كاتيا لم تتخلّ عنه لحظةً واحدة، حتى حين كانت الكراهية تضاغط على رأسه مثل أطواقٍ من رصاص، وفي هذا الشّهر الرّهيب للمعارك أيضاً. كانت تسدّ عليه طريقه بظل غير مرئيّ، باسطةً يديها، ومُتوسّلةً بلا صوت، وهو، الذي بحّ صوته من الصّياح الجنونيّ غرز حربته في معطف جنديٍّ أحمر، غرزها عبر ذلك الظّل الـمُلازم له، وخلع طاقيته، ومسح النّصل بها...

انتهى القُداس، وخرج من الكنيسة جمهورٌ من الضّباط وطلاب المدارس العسكريّة ملوّحي الوجوه. وسار الجنرالات الـمُشهورون متماهلين وعيونهم صارمة، وقمصانهم نظيفة، وصدورهم مزيّنةٌ بالنياشين والصّلبان: أرديلي الطّويل الوسيم الممشوق القوام كالصورة المرسومة بلحيته الـمُنفرجة وطاقيّته الـمُمالة، وماركوف اللاذع بقبّعته الفرائيّة الـمُلطّخة، وكوتيبوف القصير الرّبع المتين الأفطس الأنـف ذا العينين الشبيهتين بعيني دب، والقوزاقيّ بوغايفسكي بشاربيه المفتولين. ثم خرج دنيكين ورومانوفسكي البارد "العويص" كما يُسمى في الجيش بوجهه الجميل الذّكيّ، وكان الاثنان يتحادثان. وانتصب الجميع لدى رؤية القائد العام، والذين كانوا يُدخّنون تحت أشجار البتولا رموا سكائرهم.

لم يعد دنيكين ذلك البائس بحذائه البالي وملابسه المدنيّة،

"العجوز" المُصاب بالتهاب القصبات، الذي تعلّق بعربات الجيش دون متاع. فقد انتصبت قامته، وحسنت قيافته، وكانت لحيته الشائبة توحي لكلّ إنسانٍ بالاحترام الأبويّ، وقد تدوّرت عيناه، وامتلأتا بفيض الصرامة مثل عيني الصّقر. وطبيعيٌّ أنه ليس كورنيلوف إلا أنه كان أكثر الجنرالات تجربةً وتعقّلاً. رفع إصبعين إلى طاقيّته العسكريّة، ومرّ ببوابة الكنيسة في أبّهة، وجلس في العربة مع رومانوفسكي.

أقبل تيبلوف الطويل القامة على روتشين. كانت يده اليُسرى في رافعة، ومعطف الخيالة المدعوك مُلقىً على كتفيه. وقد حلّق بمناسبة العيد، وكان في مزاجٍ مُمتاز.

– هل سمعت الأخبار، يا روتشين؟ سيحتلّ الألمان والفنلنديون بطرسبورغ إن لم يكن اليوم فغداً. وهم تحت قيادة مانيرهايم، هل تذكره؟ الجنرال من حاشية القيصر، فتىً شاطر، مقاتلٌ ممتاز...وفي فنلنده نحروا جميع الاشتراكيين. والبلاشفة ينسلّون من موسكو، ومعهم حقائبهم، عبر أرخانغلسك. إنّها حقيقة، كلمة شرف...وصل المُلازم سيديلنيكوف من نوفوتشيركاسك، وهو يروي ذلك...أما في نوفوتشيركاسك فيقول: إنّ النساء والفتيات رائعات كأغصان البان، لكلّ رجلٍ عشرٌ منهن...(وأفرج رجليه النحيلتين المطويّتين عند الركبتين، وضحك ضحكةً جعلت تفاحة آدم ترتفع من وراء ياقة قميصه).

لم يُشجّع روتشين الحديث عن النساء والفتيات فعاد تيبلوف إلى الأخبار السياسيّة التي كان يحياها الجيش، وهو في أعماق السّهب.

– تبيّن أنَّ موسكو كلّها ملغّمة. الكريملين والكنائس والمسارح،

وأحسن المباني جميعاً، وأحياءٌ كاملة. وقد مدّت أسلاكٌ كهربائيّةٌ إلى سوكولنيكي، فإنّ هناك بيتاً سرياً يحرسه أعضاء اللجنة الاستثنائيّة ليل نهار...تصوّر سنقترب وإذا بكلّ شيءٍ يُنسف! وتتطاير موسكو في الهواء...(وانحنى، وخفض صوته). إنها حقيقة، كلمة شرف... وقد اتّخذ القائد العام تدابير مُناسبة. أرسلت إلى موسكو استطلاعات خاصّة للعثور على هذه الأسلاك. عندئذ سنقترب من موسكو، ولا ندعهم ينسفونها...وبالمقابل سنشنقهم! في الساحة الحمراء! جميل! على ملأٍ من الناس وعلى قرع الطبول.

تعبّس روتشين، ونهض:

– من الخير أن تظلّ على حديثك عن الفتيات، يا تيبلوف.

– يعني، لا يعجبك؟

– نعم، لا يعجبني.

ونظر روتشين بتصميمٍ في عيني تيبلوف القمحيّتين البليدتين. فأمال هذا فمه إلى جانب.

– يبدو أنّك لم تنس جراية الحمر.

رفع روتشين حاجبيه، وتقدّم منه:

مكتبة
t.me/soramnqraa

– ماذا؟ ماذا قلت؟

– قلت ما يقوله فوجُنا كلّه...حان الوقت لأن تُبلغ عن عملك في الجيش الأحمر، يا روتشين...

– حقير!

و لم يُنقذ تيبلوف من صفعة إلا كون يده على رافعة، وما يزال يُعتبر جريحاً. لم يضربه روتشين، واستدار إلى الوراء بحدّةٍ واضعاً يده وراء ظهره، وسار بين القبور مُتخشباً مرفوع المنكبين.

عدّل تيبلوف معطفه الـمُنسرح، ابتسم ابتسامةً متكدّرة، ونظر إلى ظهر روتشين الـمُستقيم. في تلك اللحظة وصل الـمُلازم فون ميكه، ومعه ظلّه الـمُلازم فاليريان أونولي، وهو شابٌ ذو وجهٍ منمّش وعينين وضّاءتين حالمتين واسعتين، إبن صاحب معمل التّبغ من سمفيروبول يرتدي معطف طالب مستهلكاً ملطّخاً بلطخاتٍ بنّية، عليه كتافيّتا ضابط صفّ.

– ماذا حدث بينكما؟ تشاتمتما؟ –سأل فون ميكه بصوتٍ حادّ كصوت الصُّم في العادة.

جذب تيبلوف شاربه، وهو ما يزال مُندهشاً، وروى كلّ الـمُحادثة بينه وبين الـمُقدّم روتشين.

قال أونولي ذو العينين الحالمتين بسآمة:

– عجيبٌ أنك ما تزال مُندهشاً، أيها السيد النقيب.

كان واضحاً لي منذ اليوم الأوّل أنّ الـمُقدّم روتشين جاسوس.

– اسكت، يا فالكا، –قال فون ميكه وهو يغمز بالنّصف الأيسر من وجهه الذي أُصيب بصدمة قُنبلة. –والشيء الـمُهمّ أنّ الجنرال ماركوف يعرفه شخصياً...ولذا يجب أن تكون حذراً...أما أنا فأُراهن بمسدّسي على أنّ روتشين بلشفيّ، ووغد، وقذر...

حتى نهاية شهر أيار كان الهدوء النسبيّ يسود شمال القفقاس.

فقد كان كلا الطّرفين يستعدّ للمعركة الحاسمة. المتطوّعون يتهيّأون للاستيلاء على نقاط الالتقاء الرئيسيّة على الخطوط الحديديّة، وقطع القفقاس، وتطهير المنطقة من الحُمر بمعونة القوزاق البيض. واللجنة التنفيذيّة المركزيّة لجمهوريّة كوبان–البحر الأسود تتهيّأ للقتال على ثلاث جبهات: ضدّ الألمان، وضدّ القوزاق البيض، وضدّ «عصابات دنيكين» التي انتعشت من جديد.

وكان جيش القفقاس الأحمر المؤلّف في معظمه من الجيش القيصريّ السابق لما وراء القفقاس، والأغراب من المناطق الأُخرى وشبيبة القوزاق المالكة لقطع صغيرةٍ من الأرض يصل في عدده إلى مائة ألف مُقاتل. وكان أعضاء اللجنة التّنفيذيّة المركزيّة يشكون في أنّ لقائده العام–أفوتونوموف–ميولاً دكتاتوريّة. كان في حالة شجارٍ دائم مع الحكومة. وقد وصف أعضاء اللجنة التّنفيذيّة المركزيّة في أحد الاجتماعات الحاشدة الكبيرة بجواسيس ألمان واستفزازيين. ورداً على ذلك "وَصَمَتْهُ" اللجنة مع سوسوكين الـمُقرّب إليه بأنهما قاطعا طريق، وعدوّان من أعداء الشّعب، ودمغتهما باللعنة والعار الأبديّ.

وكلّ هذا الشجار شلّ الجيش. وبدلاً من الشروع بهجوم مركّز بثلاث مجموعاتٍ على جيش المتطوّعين الذي كان في وسطه هذه المجموعات، شاع الاضطراب في الجيش الأحمر، وصار يعقد اجتماعات حاشدة، ويسقط أمراء الوحدات، وكان في أحسن الأحوال عُرضةً لهلاكٍ مأساويّ.

وأخيراً تغلّبت المراسيم الصادرة من موسكو على عناد المناطق في الأطراف، وعين أفتونوموف مفتّشاً في الجبهة، وانتقلت قيادة

المجموعة الشّماليّة إلى المقدّم كالنين وهو لاتفيٌّ جهم المظهر، بينما بقي سوروكين قائداً للمجموعة الغربيّة.

وفي ذلك الوقت بالذات انضمّ إلى جيش المتطوّعين العقيد دروزدوفسكي بجماعته المؤلّفة من ثلاثة آلاف ضابط ضارّ من نخبة ضابط يُعادل كلٌّ منهم في القتال عشرةً من الجنود الأنفار، وتدفّق قوزاق القرى على أفراسهم، وبدأ الضباط يصلون من بتروغراد وموسكو ومن كلّ أرجاء روسيا وحداناً وجماعات، وقد بلغت أسماعهم معجزة "الحملة الجليديّة". وأرسل الأتمان كراسنوف السلاح والمال رغم شحّه. فكان جيش المتطوّعين يقوى كلّ يوم، وقد رفعت عزيمته الدّعاية المُقتدرة للجنلالات ورجال المُجتمع، والعمليات غير البارعة للسلطة السوفييتيّة المحليّة، وأقوال شهود العيان القادمين من الشمال. وفي نهاية أيار لم تكن قوات الحُمر المحليّة بقادرةٍ على سحق جيش المتطوعين. فتحوّل إلى الهجوم، ووجّه ضربةً رهيبة إلى المجموعة الشماليّة للجيش الأحمر بقيادة كالنين في محطّة تورغوفايا.

– لماذا كففتم عن الغناء، يا رجال؟

– بحّت أصواتنا.

– دعوني آخذ جمرة.

وقرفص إيفان إيليتش عند النار التي ألقيت فيها من الأعلى لوحة الخطّ الحديديّ الخشبيّة الواقية من الثلج، ولمّا أشعل الغليون بقي ليتسمّع.

كان الوقت متأخّراً. وقد انطفأت كلّ النيران تقريباً على طول خطّ السّكة الحديديّة. وفي الليل الطّريّ لمعت نجومٌ كثيرة. كانت النار تُضيء

إلى الأعلى على سُدّة الخطّ قطارات البضاعة وهي عربات الحمولة الحمراء بلون الآجر، المُحطّمة والمُمزّقة. لقد جاء بعضها من سواحل المُحيط الهادي، والبعض الآخر من المُستنقعات القطبيّة، ومن رمال توركستان، ون الفولغا وبوليسيه. وكانت كلّ عربةٍ تحمل ملاحظة "تُرجع على الفور". ولكنّ المواعيد كلّها قد فاتت منذ زمان. وها هي هذه العربات المُعدّة للعمل السّلميّ المُصطبرة على المحن طويلاً بمحاورها التي لم تُدهن، وجوانبها المُحطّمة كانت مهيّأة– وهي تستريح الآن تحت النجوم–إلى عملٍ خياليٍّ كليّاً. إنها ستُلقي بقطاراتها الكاملة وحمولتها عن الخط. بعضها سيُحشى بالأسرى من الجنود الحُمر كالسّردين في العُلب، وبرشمت نوافذه وأبوابه بالألواح، ليسير آلاف الأميال وقد عُلّم بالطّباشير: "حمولةٌ غير قابلة للفساد. سرعةٌ بطيئة". وبعضها يُصبح مقابر للمُصابين بالتيفوس، وثلاجاتٌ لنقل الجُثث المُجمّدة. وبعضها يُنسف ويتطاير شظايا في السماء.. وفي مناطق سيبيريا النائية ستستخدم أبوابها وجدرانها لصنع أسيجةٍ وزرائب للماشية. وستنقضي شهورٌ عديدة قبل أن يعود السّليم منها نصف محروق. مُضعضعاً إلى المكان الذي طالب بعودته الفوريّة، ويقف عن القُضبان الصّدئة للتصليح.

– ماذا يكتبون من موسكو، يا رفيق تليغين. هل ستنتهي الحرب الأهليّة قريباً؟

– عندما ننتصر.

– يعني...إنّهم يؤملون علينا...

كان بعض الذين عند النار يستقبلون بارتخاءٍ مُلتحين ملوحي

البشرة سود... لم تكن لهم رغبةٌ في النوم، ولا في حديثٍ طويل. طلب أحدهم تبغاً عند تليغين.

– يا رفيق تليغين، من هم هولاء التشيكوسلوفاكيون ومن أين جاؤوا إلينا؟ إنهم حسب ما أذكر لم يكونوا في الوجود قبل هذا...

أوضح إيفان إيليتش أنّ التشيكوسلوفاكيين هم أسرى الحرب النّمساويين، وقد بدأت الحكومة القيصريّة تُشكّل منهم فيلقاً لترسله إلى فرنسا، ولكنّ الوقت لم يتسنّ لها لتفعل ذلك...

– أما الآن فإنّ السّلطة السوفييتيّة لا تستطيع أن تسرّحهم ما داموا يُريدون أن يُحاربوا في الجبهة الإمبرياليّة...وقد طالبنا بتجريدهم من السلاح، ولهذا تمرّدوا...

– أمعقولٌ أننا سنحاربهم أيضاً، يا رفيق تليغين؟

– لا أحد يعرف شيئاً الآن...المعلومات غير محدّدةٍ تماماً..أنا أشكّ في ذلك...عددهم حوالي أربعين ألفاً. لا غير...

– إذن، من السّهل أن نقضي على هذا العدد...

وعاد الصّمت يلفّ الـمُجتمعين عند النار. قال الذي طلب تبغاً من تليغين ناظراً من مؤخّر عينيه، والظاهر لمجرّد الاشتراك في الحديث:

– في عهد القيصر أرسلونا إلى سارا كاميش. ولم يوضحوا لنا شيئاً: لماذا يجب أن نُحارب التّرك، وفي سبيل من نُضحي بحياتنا. والجبال في تلك البُقعة فظيعة. وتنظر وتُفكّر بأنّ أمّك ولدتك في ساعة نحس...أما الآن فالأمر مُختلف. إنها حربٌ في سبيلنا، حربُ استماتة. كلّ شيءٍ مفهوم: من ولأيّ شيء.

– خذني على سبيل المثال. يدعونني تشيرتوغونوف.

قال جنديٌّ آخر بصوتٍ كثيف رافعاً جسمه على كوعه، وجلس في مكانٍ أقرب إلى النار حتى لكان من الـمُدهش أنّ النار لم تخطف لحيته. كان ذا شكلٍ مُخيف، وشعره الأسود نازلٌ على جبينه، وعيناه الـمُستديرتان تلتهبان في وجهه الملوّح. ثمّ استطرد يقول:

– كنت في الشرق الأقصى مرّتين، وقضيت في السّجن مدداً متفاوتةً على التّشرّد...طيّب. ومع ذلك وضعوني في الثّكنة، وأعطوني بطاقتي العسكريّة، وأرسلوني لأحارب...جرحت ستّة جروح...هذه هي، انظروا–ووضع إصبعه في فمه، وجذبه إلى طرف، وكشف عن أسنان مكسورة–ودبّرت أمري، ووصلت إلى موسكو، إلى مستشفىً عسكريّ. وهناك وجدت البلاشفة...وانتهت كلّ متاعبي. سألوني: وضعك الاجتماعيّ؟ أجبتهم: لا تبحثوا بعيداً. أنا سليل عاملٍ زراعيٍّ مُحترم، لا أعرف أقارب لي. فضحكوا كثيراً وأعطوني بُندقيّة، وترشيحاً. وصرنا في ذلك الوقت نجوب المدينة باحثين عن البرجوازيين...إذا دخلنا إلى شقّة فاخرة نجد أهلها خائفين، بالطّبع...نبحث فنجد أنّهم قد أخفوا الطّحين والسُّكر...الأوغاد! إنّهم خائفون يرتجفون، ولكن لا تندّ عنهم كلمةً واحدة. وأحياناً يغمرني الغيظ وأخرج عن أطواري الإنسانيّة. تحدّث يا وغد، واشتم وتوسّل بي...أسبّه أقبح السّباب، ولكن لن أجده يتحدّث...فأقول لنفسي: ما هي القضيّة؟..وأحسن بالإهانة. صمتُ طوال عُمرين وعملتُ لهؤلاء الأبالسة، وأرقت من أجلهم دمي...وهم لا يعتبرونني إنساناً. وأفكّر: هؤلاء هم، البرجوازيون: منذ ذلك الحين صار يحرقني الحقد الطّبقيّ. حسناً... ذات مرّةٍ كانت تجب مُصادرة بيت التاجر ريابينكين. كنا أربعةً ومعنا

رشاشة لإثارة الخوف. ونطرق الباب الخارجيّ. وبعد قليل تفتح لنا الباب خادمةً أنيقة، وقد شحبت واضطربت متلجلجة: آه، آه... وسارت على أطراف أصابعها... نحيناها جانباً، ودخلنا صالة. غرفةٌ كبيرة مزيّنةً بأعمدة، وفي الوسط مائدة كان يجلس إليها ريابينكين وضيوف يأكلون الفطائر. حدث ذلك في أسبوع المرفع وكان الجميع سكارى بالطّبع... كان ذلك في وقت يموت فيه البروليتاريون جوعاً!.. ولذا ضربت الأرض بالبندقيّة بشدّة، وصرخت بهم بصوت عالٍ! بينما هم جالسون يتسمون... ويهرع ريابينكين للقائنا متورّداً مرحاً، وعيناه جاحظتان ويقول: «أيها الرّفاق الأعزاء، أنا أعرف منذ زمان أنكم ستصادرون بيتي بكلّ محتوياته! أمهلوني لأنتهي من الفطائر. بالـمُناسبة، اجلسوا معنا... ولا عيب في ذلك لأنّ هذا كلّه ملكٌ للشّعب» ويشير إلى المائدة... أخذنا نتردّد، ولكننا جلسنا إلى المائدة، ونحن نُمسك البنادق والـمُشهّيات... ويتحدّث ويضحك... لم يترك شيئاً لم يتحدّث فيه، مُقلّداً أشخاصاً متفوّهاً بلاذع الكلام... والضيوف يُقهقهون... وأخذنا نحن نضحك... وقيلت نكاتٌ مختلفة عن سلوك البرجوازيين، وبدأ جدال. ولكن كلما تعبّس أحدنا قليلاً أغرق صاحب البيت عبوسه بالفودكا: شربنا بأكوابٍ للشاي، ولم نشرب بغيرها... وبدأوا يفضون زجاجات الشمبانيا، فوضعنا بنادقنا في ركن... وأقول لنفسي: «يا تشيرتوغونوف، أهذا أنت تسير في الصالة، وتتعلّق بالأعمدة؟» وبدأنا نُغني الأغاني جماعياً. وعند المساء تركنا الرشاشة على مُقدّمة البيت، كيلا يدخل شخصٌ غريبٌ علينا، وبقينا نشرب ستاً وثلاثين ساعة. استرجعت فيها ما خسرته خلال حياتي البكماء. ومع ذلك فإنّ ريابينكين قد خدعنا، ذلك التاجر الخبيث!.. بينما كنا نمرح ونشرب استطاع–وساعدته الخادمة في

ذلك–أن يخفي كلّ الـمُجوهرات والذّهب والعُملة الأجنبيّة، ومختلف الأشياء الثمينة في مكانٍ مأمون...فلم نُصادر غير الجُدران والأثاث... وعند الانصراف قال ريابينكين مودّعاً، وهو سكران بالطّبع: «أيها الرفاق الأعزّاء، خذوا، خذوا كلّ شيء، أنا لا أتأسّف على شيء. لقد خرجت من الشّعب، وأعود إلى الشّعب...» وفي ذلك اليوم رحل خارج القطر. أما أنا فاستدعيت إلى اللجنة الاستثنائيّة. قلت لهم: «مذنبٌ أنا. ارموني بالرّصاص». إلا أنهم لم يرموني إلا لكوني غير واعٍ. وأنا حتى الآن سعيد لأنني قد تمتّعت...هناك شيءٌ يستحقّ أن أتذكّره...

قال أحد الجالسين وراء الدّخان:

– هناك الكثير من الخُبثاء بين البرجوازيين، ولكنّهم ليسوا قلّةً بيننا.

توجّهت الأنظار إليه. وقال الذي طلب تبغاً من تليغين:

– لا أحد يوقف الشّعب الآن، ما دام قد خاض الدّم في عام ١٩١٤...

قال صوتٌ من وراء الدّخان:

– ليس هذا ما أعنيه. العدوّ عدوّ، والدّم دم...ولكن عنيت الخُبثاء.

– وأنت من؟

أجاب الصّوت خافتاً:

– أنا؟ أنا خبيث.

عندئذ صمتَ الجميع، وراحوا ينظرون في الجمر الهامد. سرَتْ برودةٌ في ظهر تليغين. كان الليل طرياً. انقلب شخصٌ عند النار، واستلقى موسداً خده على قبّعته.

نهض تليغين، وتمطّى، وعدّل من هندامه. وحين انزاح الدّخان الآن صار من الـمُمكن رؤية "الخبيث" جالساً طاوياً رجليه في الجانب الآخر من النار. كان يقضم نصل الافسنتين وكان الجمر يُضيء وجهه الطّويل الناحل بشعره الـمُزغب الفاتح قليلاً، ونعومته الشّبيهة بنعومة وجه نسائيّ. وقد سرّح على قفاه طاقيّةً مُستهلكة، ووضع على كتفيه الضّيّقين معطف جنديّ. كان عارياً حتى الحزام. كان القميص، الذي كان يبحث فيه عن قملٍ كما يبدو، مرمياً بالقرب منه. لاحظ أنّ العين مُتّجهةٌ إليه فرفع رأسه ببطءٍ وابتسم ابتسامةً طفوليّةً بطيئة.

عرفه تليغين، كان أحد الـمُقاتلين في سريّته. واسمه ميشكا سولومين من الفلاحين القاطنين بالقرب من مدينة يليتس، وقد تطوّع في الحرس الأحمر، وجاء إلى شمال القفقاس من جيش سيفرس.

ما أن التقت عيناه بعيني تليغين حتى خفضهما، وكأنه قد ارتبك. عندئذ فقط تذكّر إيفان إيليتش أنّ ميشكا سولومين معروفٌ ف السريّة كناظمِ أشعار، وسكّيرٍ مُعربد، رغم أنّهم لم يروه سكران إلا نادراً. ألقى المعطف عن كتفيه بحركة كسول، وأخذ يلبس قميصه. ارتقى إيفان إيليتش السُّدّة إلى عربة الرُّكاب، حيث رأى مصباح الكيروسين يشتعل ساهراً في النافذة الوحيدة في مقصورة آمر الفوج سيرغي سيرغييفيتش سابوجكوف. ومن السّدّة كانت النّجوم ونقاط النار الموشكة على الهمود على الأرض في الأسفل تبدو أكثر وضوحاً.

مدّ سابوجكوف رأسه من النافذة، وفي فمه غليونه المعكوف وقال:

– تعال، يا تليغين. عندي ماءٌ مغليّ.

كان مصباح الكيروسين الـمُثبّت على الجدار الجانبيّ يُرسل ضوءاً شاحباً في المقصورة الـمُهلهلة في الدرجة الثانية، فيضيء السلاح الـمُعلّق من خطافات، والكُتب الـمُبعثرة في كلّ مكان، والخرائط العسكريّة. كان سيرغي سيرغييفيتش سابوجكوف في قميصٍ قذرٍ من الجيت، وقد التفت إلى تليغين لدى دخوله، وسأله:

– هل تريد كحولاً؟

جلس إيفان إيليتش على التّخت. ترامى سجع سمّان من النافذة المفتوحة مع طراوة الليل. خرج أحد الجنود من عربةٍ مجاورة، وهو بين النوم واليقظة، يسير بخطواتٍ متعثّرة لقضاء حاجته. واهتزّت أوتار «بالالايكا» خافتة الرّنين. وارتفع صياح ديكٍ من مسافةٍ قريبة. وكان الليل قد جاوز نصفه.

سأل سابوجكوف، وقد فرغ من تهيئة السّخان:

– ديكٌ يصيح؟

كانت عيناه حمراوين، ووجهه النحيل مبقعاً ببقع حمر... تلمّس التّخت وراءه، وعثر على النظارة الأنفيّة، ووضعها على أنفه، وأخذ ينظر إلى تليغين:

– إذن، فإنّ الفوج يملك ديكاً حياً؟

– جاء نازحون جدد، وقد أخبرت المفوّض بذلك. عشرون عربة بنساء وأطفال... أيّة لعنةٍ هذه. –قال تليغين مقلّباً الشاي في القدح.

– من أين جاؤوا؟

– من قرية بريفولنايا. طابورٌ كبير. وقد هاجمهم القوزاق في

الطريق. كلّهم أغراب، فقراء. شكّل ضابطان قوزاقيان في قريتهم جماعة. وأغاروا في الليل، وشتتوا السوفييت، وشنقوا عدداً من رجال القرية.

قال سابوجكوف ناطقاً كلّ حرفٍ بوضوح:

وباختصار، حادثةٌ اعتياديّة.

– وبدا في سُكر شديد، دعا تليغين إلى أن يُرفّه عن نفسه... كان جسم تليغين يئنّ كلّه من التّعب. ولكنه أحسّ بأنّ الجلوس في مكانٍ وثير واحتساء الشاي سيريحانه حتى أنه لم ينصرف رُغم أنّ الحديث مع سيرغي سيرغييفيتش لن يأتيه بجدوى.

– أين زوجتك، يا تليغين؟

– في بتروغراد.

– أنت رجلٌ غريب. في زمن السلام يُمكن أن تكون مواطناً سعيداً كلّ السعادة. زوجةٌ طيّبة، وطفلان صالحان، وغرامفون... ولكن أيّ شيطانٍ جعلك تدخل الجيش الأحمر؟ سيقتلونك...

– لقد أوضحت لك الأمر من قبل.

– تناور لتدخل الحزب؟

– إذا كان الأمر يقتضي فسأدخل الحزب.

قال سابوجكوف، وقلّص عينيه من وراء زجاج النظارة الأنفيّة العكر:

– أمّا أنا فحتى لو سلقتني في ثلاثة مراجل لما جعلتني شيوعياً...

– إذن، لو كان هناك رجلٌ غريب من بيننا فهو أنت، يا سيرغي سيرغييفيتش...

– لا، أبداً. لي عقلٌ غير ديالكتيكي...طبيعةٌ وحشيّة، عيني دائماً على الغاب. هكذا! تقول إنني غريب؟ (وضحك باستهزاء، وبارتياح على ما يبدو). منذ تشرين الأوّل وأنا أحارب في سبير السّلطةً السوفييتية. هكذا! هل قرأت شيئاً لكروبوتكين؟[١٢]

– لا، لم أقرأ.

– ذلك واضح...سأم، يا أخ...العالم البرجوازيّ سافلٌ ومُضجر بشكلٍ جهنّميّ...وإذا انتصرنا فسيكون العالم الشّيوعيّ أيضاً مُضجراً واعتياديّاً، فاضلاً ومُضجراً...وكروبوتكين شيخٌ طيّب...عنده شعرٌ وأحلام، ومجتمعٌ بلا طبقات. إنّه شيخٌ رفيع التّربية: «أعطوا للناس حريّةً فوضويّة، وحطّموا مواطن الشّرّ في العالم، أي المُدن الكبيرة، وستقيم الإنسانيّة اللاطبقيّة جنّةً ريفيّةً على الأرض، لأنّ المحرّك الأساسيّ في الإنسان هو حبّ القريب...» ها–ها...

وضحك سابوجكوف ضحكةً مُجلجلة، وكأنه يُريد أن يهين شخصاً، ونطّت نظارته الأنفيّة على أنفه العظميّ. واندسّ تحت التّخت، وهو يضحك، وأخرج علبةً قصديريّة فيها كحول، وصبّ في قدح، وشرب، وقضم قطعة سكّر مهشّماً إياها تحت أسنانه.

– إنّ مأساتنا، يا عزيزي، هو أننا، نحن المُثقّفين الروس، قد نشأنا في الحضن الوادع لنظام القنانة، وأخافتنا الثّورة لا إلى حدّ الموت،

١٢– كروبوتكين (١٨٤٢–١٩٢١) أحد كبار رجال الفوضويّة ونظرائها في روسيا. (المترجم).

بل إلى حدّ التّقيّؤ الذّهنيّ...لا يجوز إخافة ناسٍ وادعين إلى هذه الدّرجة! ها؟ كنا نجلس في عشّنا الريفيّ، نفكّر مُستمعين إلى صداح الطّيور: «لطيفٌ لو نظّمت الحياة بشكلٍ يجعل كلّ الناس سعداء...» من هذه البيئة خرجنا...والمثقّفون في الغرب عقولٌ كبيرة، زبدة البرجوازيّة يُنفّذون مهمّةً ملحّة: تطوير العلم والصناعة، ونشر سراب المثاليّة المواسي على العالم...الـمُثقّفون هناك يعرفون لماذا يعيشون... أما عندنا، فالعياذ بالله!..مَنْ نخدم؟ وما هي مهماتنا؟ من جهة نحن جزءٌ لا يتجزّأ من النّزعة السلافيّة، ونحن ورثتها في الفكرة. وما هي النّزعة السلافيّة، لو تعرف؟ إنها مثالية أصحاب الأراضي الروس. ومن جهةٍ أخرى إنّ برجوازيّة وطننا تدفع لنا المال، ونحن نعيش على حسابها...بينما نحن نخدم الشّعب وحده...يا للغرابة، الشّعب!..تراجيديا كوميديّة! وقد بكينا على مصائب الشّعب كثيراً حتى شحّت دموعنا...وعندما حرمونا من إمكانيّة ذرف الدّموع لم نجد ما نعيش به...وصرنا نحلم بأنّ فلاحينا سيصلون قريباً إلى القسطنطينيّة ويصعدون إلى القبّة، ويركّزون صليب الأرثوذكسيّة فوق كاتدرائيّة القديسة صوفيا...حلمنا بأن نُهدي الكُرة الأرضيّة للفلاحين فقابلونا بالمذاري، نحن الـمُتحمّسين الحالمين الباكين... فضيحةٌ فريدةٌ من نوعها! رعبٌ مريع!..ويبدأ التّخريب، يا عزيزي... ويحاول المثقّفون التراجع، وتخليص رؤوسهم من الرّبقة: «لا أريد، حاولوا أن تدبّروا الأمر بدوني...» كان ذلك وروسيا على شفا هاوية مُميتة...خطأٌ فادح غير قابلٍ للتصحيح. وسبب ذلك في أننا جميعاً قد تربّينا تربيةً أرستقراطيّة، رقيقون جداً: غير قادرين على فهم الثورة خارج الكُتب...والكتب تتحدّث عن الثّورة وكأنها السّحر الحلال...وهنا يهرب الجنود من الجبهة الألمانيّة، ويغرقون الضباط،

ويمزّقون القائد العام، ويحرقون الضياع، ويتصيّدون زوجات التجار على الخطوط الحديديّة، وينتزعون من الأماكن المصونة فيهنّ أقراط الماس...لا، لن نلعب مع مثل هذا الشّعب وكُتُبنا خاليةٌ من أيّ وصفٍ له...فما العمل؟ أن نذرف دموعاً غزيرةً في بيوتنا، ولكنّ المُصيبة أننا نسينا كيف نذرف الدّموع!..تحطّمت أحلامنا تماماً ونفقد ما نعيش به...وهكذا نحن من الرّعب والقرف ندفن رؤوسنا تحت الوسائد، ويهرب بعضنا إلى خارج الوطن، أما الذين أكثر حنقاً فيشهرون السلاح. وتحصل فضيحةٌ في عائلةٍ كريمة...أما الشّعب، وسبعون بالمائة منه أمّيون، فلا يعرف ماذا يفعل بما تراكم فيه من كراهية، ويخوض في الدّم والرّعب...فيقول: «خانونا، شربوا بثمننا! حطّموا المرايا إذن، واقلعوا كلّ شيءٍ من الجذر!» زمرةٌ واحدةٌ بين المُثقّفين احتفظت باتّزانها. إنهم الشّيوعيون. ماذا يفعل الناس حين تأخذ سفينةٌ بالغرق؟ يقذفون خارجها بكلّ ما هو زائد...وأوّل ما فعله الشيوعيون هو أن قذفوا ببراميل المثاليّة الروسيّة القديمة خارج سفينتنا...وكلّ ذلك عمل زعيمهم، إنسانٌ روسيّ... وأحسّ الشّعب رأساً، وبحاسّة غريزيّة أنّ هؤلاء هم من جماعته، وليسوا سادة. إنّهم لن يتباكوا، وإنهم سيسوّون الأمر بسرعة... ولهذا السّبب، أنا معهم، يا عزيزي، رغم أنني قد تربّيت في دفيئة كروبوتكين الزّجاجيّة، في الأحلام...وما أكثر الذين من أمثالي! لا تُكشّر، يا تليغين. أنت على العموم جنين، بدائيٌّ وفرح...بعضنا، إذا أردت أن تعلم، يحتاج إلى أن يقلب، عن وعي، ظهراً على بطن، عندئذٍ سنشعر بكلّ لمسة، مؤكّدين في أنفسنا القُوّة الإراديّة الواحدة: الحقد...ولا يجوز أن نحارب بدون ذلك...إننا نفعل كلّ ما في الطاقة الإنسانيّة واضعين أمامنا غايةً يسعى الشعب نحوها...ولكننا

زمرة...والأعداء في كلّ مكان...هل سمعت بالتشيكوسلوفاكيين؟ سيأتي المفوّض ويحدّثك عنهم...هل تدري، ماذا أخاف؟ أخاف أن يكون ذلك انتحاراً لنا. لا أثق بانتصارنا. سنصمد شهراً أو شهرين أو ستّة أشهر، ولا نصمد أكثر...نحن هالكون، يا أخ...سينتهي كلّ شيءٍ بالعودة إلى الجنرالات...وأنا أقول لك إنَّ اللوم في كلّ ذلك يقع على أنصار السّلافيّة...عندما بدأ تحرير الفلاحين كان يجب أن نصرخ: «النّجدة، سنهلك. نحن بحاجةٍ إلى الزراعة المكثّفة، إلى تطويرٍ مُشدّدٍ للصناعة، إلى تعليمٍ عام...وليخرج من بين الفلاحين بوغاتثيف جديد، وستينكا رازينٌ جديد. لا يهمّ من هو الذي يحطّم صلب القنانة تحطيماً كلياً...» هذه هي الأخلاق التي كان يجب أن نلقيها بين الجماهير، بهذه الأخلاق نُربّي الـمُثقفين...ولكننا أسرفنا في ذرف سيولٍ من دموع الفرح. «يا ربي، ما أرحب روسيا وما أشدّ أصالتها! الفلاح حرٌّ الآن كالهواء، وضياع ملاكي الأرض بالآنسات الموصوفات في قصص تورجينيف سليمة، والروح مُلغّزةٌ في شعبنا ليس كما هي الحال في الغرب الشّحيح...» وها أنا الآن أطأ بنعلي كلّ حُلم!

ولم يستطع سابوجكوف أن يقول أكثر من ذلك. فقد توهّج وجهه ولكنه لم يقل الشيء الأهمّ على ما يبدو. جلس تليغين فاغر الفم مغموراً بفيض كلماته. وقد وضع قدح الشاي البارد على ركبتيه. تردّد وقع أقدامٍ في ممرّ العربة تبدو لإنسانٍ ثقيلٍ جداً. وفتح باب المقصورة، وظهر رجلٌ ربع القامة عريض المنكبين التصق شعره القاتم على جبينه الواسع. جلس صامتاً قرب المصباح واضعاً يديه الكبيرتين على ركبتيه. كانت الغضون القليلة تبدو كالندوب على

وجهه الملوح بالريح. وكانت عيناه لا تظهران، وهما في ظلّ وقبيهما والحاجبين المتدليين. إنه رئيس الشّعبة الخاصة للفوج، الرّفيق غيمزا.

سأل بصوتٍ خفيض وبلهجةٍ جادّة:

– الكحول مرّةً أخرى. حذار أيها الرفيق...

قال سابوجكوف:

– أيّ كحول؟ أوه، اذهب إلى جهنّم. ها أنت ترانا نشرب شاياً.

فهدر غيمزا دون أن يتحرّك:

– وأسوأ من ذلك أن تكذب. رائحة الكحول تفوح من نافذتك. بدأ اضطرابٌ في العربات، فإنّ الجنود يتشمّمون...وهل متاعبنا قليلة؟ والشيء الثاني أنك بدأت تتحدّث في الفلسفة حديثاً لا نهائياً أحمق، ومن هنا أستنتج أنّك سكران.

– حسناً، سكران. ارمني.

– لا أحتاج إلى وقتٍ طويل لكيّ أرميك، وأنت تعرف ذلك جيّداً. أما اصطباري عليك فراجعٌ إلى أخذي بعين الاعتبار صفاتك القتاليّة...

قال سابوجكوف:

– اعطني تبغاً.

أخرج غيمزا من جيبه كيس قماشٍ بوقار، ثم تابع كلامه مُخاطباً تليغين بصوتٍ بطيء، وكأنه يطحن بالرّحى.

– المرّة بعد الأخرى نفس المنظر غير المقبول: في الأسبوع الماضي

رمينا بالرّصاص ثلاثة أوغاد، وقد استجوبتهم بنفسي. متعفّنون. اعترفوا بكلّ شيء. وفي الحال حصل على كحول... واليوم رمينا وغداً خبيثاً، من استخبارات دنيكين. قبض عليه بنفسه بين نبات الاسل...أما الآن فهو أمامكم سكران يتفلسف. خليطٌ عجيبٌ في ذهنه. كنت واقفاً عند النافذة أنصت. أوشكت على التقيؤ، وكأنما من رائحة شيءٍ عفن...لو كان أيّ واحدٍ غيري لأرسله من زمانٍ إلى الشّعبة الخاصّة على هذه الفلسفة، لأنّه يتحلّل خلقياً...وبعد ذلك سيمرض يومين، ولا يستطيع قيادة الفوج...

– ولكن ما العمل إذا قد رميت زميلي في الجامعة؟

وقلّص سابوجكوف عينيه، واختلج منخراه. لم يرد غيمزا بشيء، وكأنّه لم يسمع قول سابوجكوف. خفّض تليغين رأسه...وتكلّم سابوجكوف دافعاً أنفه العرق نحو غيمزا: مكتبة سُر مَن قرأ

– صحيحٌ أنه من استخبارات دنيكين. بينما كنا، أنا وهو، نتردّد على «الأمسيات الفلسفيّة». لا أدري كيف صار في الجيش الأبيض... ربما عن يأس...أنا الذي جلبته إليك...ألم يكفك أنني أدّيت واجبي؟ أم تريدني أن أرقص، حين رأيتهم يسوقونه إلى الـمُنخفض؟..سرت في الخلف ورأيت. –وتفرّس في عيني غيمزا الـمُظلمتين الغائرتين. –هل من حقّي أن تكون لي مشاعر إنسانيّة، أم يجب أن أحرق كلّ شيءٍ في نفسي؟

أجاب غيمزا على مهل:

– لا، ليس من حقّك...أما بالنّسبة لغيرك فأنا لا أعرف...ولكن بالنّسبة إليك فيجب أن تُحرق في نفسك كلّ شيء...فإنّ هذه البؤرة نفسها الموجودة في نفسك ستولّد العداء للثورة.

صمتوا طويلاً. كان الجوّ ثقيلاً، وهدأت كلّ الأصوات خارج النافذة. صبّ غيمزا لنفسه شاياً، وقطع قطعةً كبيرة من الخبز الرماديّ، وأخذ يأكله ببطء، مثل رجلٍ شديد الجوع. ثمّ بدأ يتحدّث بصوت كامد عن التشيكوسلوفاكيين. كانت الأنباء مُقلقة. فقد تمرّد التشيكوسلوفاكيون في جميع القطارات، الـمُمتدّة من بينزا إلى فلاديفوستوك. قبل أن تعي السُّلطة السوفييتية الأمر كانت الطّرق الحديديّة والـمُدن تحت ضربات التشيكيين. استولت الوحدات الغربيّة على بينزا، واتّجهت نحو سيزران، واحتلّتها، واستمرّت زحفها نحو سامارا. كانت هذه القوات مُلتزمةً بالانضباط التزاماً جيداً حسنة التّسليح تُحارب باقتدارٍ واستماتة. وكان من الصّعب الآن معرفة ما إذا كان ذلك مجرّد عصيانٍ عسكريّ، أم توجّه قوىً معيّنة من خارج البلاد. والظاهر أنه هذا وذاك. وعلى أية حال، إنّ جبهةً جديدةً تمتدّ من المحيط الهادئ حتى الفولغا قد تفجّرت كخطٍّ من البارود منطويةً على فواجع فادحة.

في الخـارج تقدّم شخصٌ من النافذة. صمت غيمزا، وتعبّس والتفت. ناداه صوت:

– يا رفيق غيمزا، تعال...

– ماذا تريد؟ تكلّم.

– سريّ.

أنزل غيمزا حاجبيه على محجريه، وأسند يده على التّخت، وجلس بهذه الصورة بُرهة، ثمّ أنهض نفسه قسراً، وخرج ضارباً بكتفيه جانبيّ الباب. وفي فسحة العربة جلس على الدّرجات، وانحنى

بجذعه. طلع من الظلام شخصٌ طويل في معطف خيالة، وتقدّم نحوه مُصلصلاً بمهمازيه وهمس في أذنه بشيءٍ على عجل...

أما سابوجكوف فما أن خرج غيمزا حتى أخذ يمصّ غليونه مصات سريعة، وبصق في النافذة عدّة مراتٍ بضراوة، ورمى نظارته الأنفيّة، وراح يضحك فجأة.

– كلّ السّر في الأمر هو أن تُجيب على السؤال المطروح إجابةً مُباشرة...هل يُمكن قتل الإنسان؟ يُمكن. ما هو الهدف الأقرب؟ الثورة العالميّة...لا دخل لعواطف الـمُثقّفين هنا، يا أخ...

وفجأةً قطع كلامه، وانتصب، وراح يتسمّع. كانت العربة كلّها تهتزّ. فقد كان غيمزا يضرب جدارها بقبضته. وارتفع صوته الحاد المبحوح:

– وماذا لو كذبت عليّ، يا بن الكلبة...

أمسك سيرغي سيرغييفيتش يد تليغين...

– هل سمعت؟ أتعرف ما الأمر؟ هناك شائعاتٌ كريهةٌ حول قائدنا العام سوروكين..وهذا رفيقٌ من الشّعبة الخاصة قد عاد من هناك. هل فهمت السّبب في عُبوس غيمزا الجهنّميّ؟..

شحب ضوء النجوم قُبيل الفجر. وصاح ديكٌ مرّةً أخرى بين العربات. ونزل النّدى على الـمُعسكر الهاجع. ذهب تليغين إلى مقصورته، وخلع حذاءه، واستلقى على التخت مُتنهداً، وصرّت النوابض من تحته.

كان تليغين يتخيّل أحياناً أنّ سعادة الحياة القصيرة فكأنّه قد رآها في

نومه في السّهب الأخضر، تحت قرقعة عجلات القطار... كانت حياته موفّقةً وادعة: عهد الطّلبة، وبطرسبورغ الهائلة اللانهائيّة، والوظيفة، والصّحبة الرّخيّة لذوي الأطوار الغريبة الذين كانوا يعيشون في شقّته في جزيرة فاسيليفسكي. آنذاك كان الـمُستقبل يبدو واضحاً وكأنه قد جمع في راحة يد. فلم يطل التّفكير في الـمُستقبل. كان مُرور الأعوام فوق سطح بيته مُتمهلاً غير مُرهق. كان إيفان إيليتش يعرف بأنّه سيؤدي ما يجب عليه عمله بنزاهة، وحين يشتعل رأسه شيباً، ينظر إلى الخلف ليرى ما صنع ويجد أنّه قد قطع طريقاً طويلةً دون أن ينحرف في مزالق خطرةٍ مثل آلاف من أمثاله. وقد دخلت داشا إلى حياته اليوميّة البسيطة، دخلتها بسلطان، وتألّقت عيناها الرماديتان بسعادة صارمة. حقاً لقد كان يُراود نفسه شكٌّ قصير الأجل وفي الأغوارٍ العميقة منها، في أنّ هذه السعادة لم تكن مكتوبةً له! إلا أنّه كان يطرد شكّه ويعقد النّية على أن يقيم–حين تنتهي الحربان–بيتاً سعيداً لداشا. وحتّى حين انهارت الجُدران الصّلبة للامبراطوريّة، واختلط كلّ شيء، وجار من الحنق والألم شعبٌ تعداده مائة وخمسون مليون إنسان بقي إيفان إيليتش موقناً بأنّ العاصفة ستمرّ، وأنّ المرجة عند بيت داشا ستُزهر عامرةً بالسّلام بعد المطر.

وها هو مرّةً أخرى على التّخت في قطارٍ عسكريّ. بالأمس معركة، وفي الغد معركة. وواضحٌ الآن أنّ الماضي لا عودة له. وكان يشعر بالخجل حين يتذكّر أنّه قبل عام كان يشغل نفسه في تأثيث شقّةٍ في جادة كامينواوستروفسكي، فيشتّري سريراً من الخشب النّفيس لتلد داشا عليه طفلاً ميتاً.

كانت داشا أوّلهامن اصطدمت بقعر الدّوامة. كانت الثّورة بالنّسبة

لها "القفازان" اللذان قفزا عليها في الحديقة "ليتني"، والوليد الميّت بشعره الـمُنتصب، والمجاعة، والظلام، والمراسيم الـمُفعمة كلماتها بالحقد والكراهية. وكانت الثورة في الليالي تصفر بأصواتٍ معوّلة: "غريبة!". وفي ربيع بطرسبورغ الرماديّ هبّت ريحٌ رطبة، ونزلت قطرات الماء من السطوح، وسقطت قطع الجليد بضجيج من أنابيب التّصريف المثقوبة. وقالت داشا لإيفان إيليتش (وكان قد عاد إلى البيت دافقاً بالحيويّة، في معطفٍ غير مُزرّر، وعيناه اللامعتان بشكلٍ خاص ترمقان داشا التي كانت مُنكمشة ملفوفةً في المنديل حتى حنكِها):

– أودُّ لو أحطّم رأسي، يا إيفان، وأنسى كلّ شيءٍ إلى الأبد... عندئذٍ يُمكن أن أكون لك صديقة...وفي هذه الحال، لا أقدر أن أمضي في مُلازمة الفراش الفظيع، ومواجهة النّهار اللعين من جديد. افهمني، أرجوك. لا أقدر على العيش. لا تتصوّر أنني بحاجة إلى رفاه، لا شيء، لا شيء أحتاج إليه...فقط أن أعيش حياةً بكل أنفاسي... لست بحاجةٍ إلى توافه...فقدت حبّي...اعذرني...

قالت ذلك، واستدارت.

كانت داشا صارمةً في عواطفها دائماً. أما الآن فقد أضحت قاسية. سألها إيفان إيليتش:

– لعلّ من الأفضل أن ننفصل لبعض الوقت يا داشا؟..

وعندئذٍ ولأوّل مرّةٍ خلال الشتاء كلّه رأى حاجبيها يرتفعان بفرح، وتتألّق عيناها بأملٍ غريب، ويختلج وجهها النّحيل شكاية...

– أظنّ من الأفضل أن نفترق، يا إيفان.

عندئذ بدأ يسعى بحزم وعن طريق روبليف ليدخل الجيش الأحمر، وفي نهاية آذار رحل في قطارٍ عسكريٍّ إلى الجنوب. وقد ودّعته داشا على رصيف محطّة أكتيابرسكي، وحين مرّت نافذة العربة بكت بكاءً مراً، ملقيةً الشال الصوفيّ على وجهها.

ومنذ ذلك الحين قطع إيفان إيليتش مئات الفراسخ، ولكن ما من معركة ولا تعب ولا حرمان استطاع أن يُنسيه الوجه الحبيب الباكي في زحام النساء عند حائط المحطّة المسودّ. كانت داشا تودّعه، وكأنّما إلى الأبد. وأجهد إيفان إيليتش نفسه ليعرف لماذا لم يرق لها؟ إنّه في نهاية المطاف هو المسؤول عن برودها طبعاً. إنّها ليست أول امرأة تلد طفلاً ميتاً. وليست الثّورة هي التي انتزعت منها القلب...إنّ ذاكرته حافلةٌ بـالأزواج الذين زادهم الزّمن العصيب الـمُضطرب قُرباً إلى قرب...فعلى أيّ شيءٍ تلومه؟ وأحياناً كان يتولّد في نفسه حنق: حسناً، يا عزيزتي، ابحثي واعثُري على رجلٍ آخر يُدلّلك مثل هذا التّدليل... العالم لم ينهار، ومُعاناتها تبقى أغلى لها من كلّ شيء...مجرّد انفلات، تعوّد على الطّعام الناعم واستنكاف عن الخبز الناشف.

كلّ ذلك صحيح، ولكنّ الاستدلال الذي يتولّد منه أنّ إيفان إيليتش مثالٌ للفضيلة، وأنّ عدم الوقوع في حبّه جريمة. وفي كلّ مرّة كان يصطدم بهذا...فيقول لنفسه: "حقاً، أيُّ شيءٍ فريد فيّ؟ أنا مُعافىً جسمياً. هذا أولاً، فهل أنا ذكيٌّ وجذاب بشكلٍ خارقٍ؟ لا. أنا اعتياديٌّ مثل أيّ رجلٍ عاديّ...وهي أنا بطل، إنسانٌ كبير؟ ذكرٌ فاتن؟ لا، أبداً...أنا رجلٌ عاميٌّ بسيطٌ نزيه، مثل ملايين الناس...وقد ربحت ورقة يانصيبٍ مصادفة، إذ أحبّتني فتاةٌ ساحرة أرهف إحساساً منّي بألف مرّة، وأذكى، وأرقى، وكفّت عن حُبي بنفس الطريقة غير المفهومة..."

وعندما كان ينظر إلى نفسه بهذا المنظار كان يُفكّر: ألعلّ السّبب في أنّه ليس في مستوى الزّمن الذي يعيشه، بل ويقاتلا قتالاً عامياً، وكأنّه يخدم في مصلحة؟ كان قد التقى بأناسٍ أشداء في الشّر والخير، يسيرون بظلٍّ عملاق في المعارك الدّمويّة...ويقول لنفسه: "أما أنت، يا إيفان إيليتش، فليتك كرهت العدوّ كلّ الكراهية وخشيت الموت بقوّة..."

واغتمّ إيفان إيليتش لذلك كثيراً. ودون أن يُلاحظ ذلك بنفسه أصبح واحداً من أكثر العاملين في الفوج وُثوقاً وتعقلاً وشجاعة. عهدت إليه بعمليّاتٍ خطيرة فنفّذها بشكلٍ باهر.

جعله الحديث مع سيرغي سيرغييفيتش شديد التّفكير. إنّ الأمر المرح كان أيضاً فريسة حزن...فريسة حزنٍ شديد...وميشكا سولومين؟ وتشيرتوفونوف؟ وآلافٌ ممّن تمرّ بهم دون مُلاحظة؟ إنّهم جميعاً يُصارعون زمنهم. ضخام، شعثٌ تشوّههم العذابات. وليس لديهم الكلمات ليقولوها، لا شيء غير البندقيّة في اليد، وعند آخرين عنفٌ وحشيّ يتبعه ندم...تلك هي روسيا، تلك هي الثّورة...

– أيها الرّفيق آمر السّريّة...استيقظ...

جلس تليغين على التّخت. كان قرص الشّمس الذّهبيّ يُطلّ من النافذة مُعلقاً فوق حافّة السّهب الأصفر. وهزّ الجُنديّ إيفان إيليتش مرّةً أخرى، وكان عريض الوجه أصهب اللحية أحمر كالشّمس الصّباحيّة.

آمر الفوج يطلبك بسرعة...

كان المصباح ما يزال يُضيء في مقصورة سابوجكوف مُرسلاً رائحةً كريهة. وقد اجتمع فيها غيمزا ومفوّض الفوج سولزلوفسكي السّقيم

الأسود الشّعر ذو العينين السّوداوين الـمُلتهبتين من الأرق، وآخران من أمراء الكتائب وبعض أمراء السرايا، ومُمثّل لجنة الجنود الذي كان يرتسم على وجهه تعبيرٌ عن الاستقلاليّة بل والتّأذّي...وكان الجميع يُدخّنون. كان سيرغي سيرغييفيتش الذي كان قد ارتدى سترته وعلّق مسدّسه يُمسك الشريط البرقيّ بيدٍ مُرتجفة. وقد قرأ بصوتٍ مبحوح حين توقّف إيفان إيليتش عند الباب:

– «...وهكذا قطع احتلال العدوّ الـمُفاجئ للمحطّة قوّاتنا وجعلها تحت ضربةٍ مُزدوجة. نُنشدكم بإسم الثّورة وباسم السّكان التّعساء الذين ينتظرهم حتماً الموت والشّنق والتّعذيب، إذا تركناهم لتحكّم عصابات البيض، أن ترسلوا التّعزيزات دون أن تضيّعوا دقيقةً واحدة».

صاح سوكولوفسكي:

– ماذا نفعل بدون أمر القائد العام؟ سأذهب مرّةً أخرى لأحاول الاتّصال به بالخطّ الـمُباشر...

قال غيمزا حانقاً:

– اذهب، وحاول (ونظر الجميع إليه). أما أنا فأقول لك: اذهب أنت، خذ أربعةً من الـمُقاتلين وتليغين، واذهبوا إلى مقرّ القيادة في عربة ترولّي. ولا تعد دون أن تحصل على الأمر...سابوجكوف، اكتب ورقةً إلى القائد العام سوروكين...

كان أحد الخيالة واقفاً في الرابية الـمُعشبة، وقد وضع كفّه فوق عينيه، وراح يُمعن النّظر في شريط الخطّ الحديديّ، فقد كانت عليها سحابةٌ من الغبار تقترب بسرعة.

وحين اختفت السّحابة في تجويفٍ من الأرض مسّ الخيّال فرسه بساقه ثمّ بالمهماز. هزّ الفرس الأصهبُ النّحيل رأسه مُغتاظاً، واستدار، ونزل من الرابية التي كانت تختبئ على منحدريها فصيلةٌ من الضّباط المتطوّعين أمام كتل الطين التي جمعت من توّها.

قال فون ميكه: "عربة ترولّلي" وقفز من السّرج وأخذ يضرب ركبتيّ الفرس الأماميّتين بمقرعته ليجعله يبرك. ضمّ الفرس الحرن رجليه، وحرّك أذنيه، ولكنّه أطاع، ونزل إلى الأرض زافراً زفراةً عميقة. ومسّ التّراب ببوزه، وبرك. وكان جنبه الـمُخدّد بالأضلاع يرتفع ويهبط.

قرفص فون ميكه على الرابية وإلى جانبه روتشين. وفي تلك اللحظة خرجت عربة التّرولّلي من التّجويف كان من الـمُمكن الآن تمييز ستّة رجالٍ بمعاطف عسكريّة.

– نعم، حُمر! –وأدار فون ميكه رأسه إلى اليسار–رهط!–ثمّ أدره إلى اليمين–استعداد! نارٌ سريعة نحو الهدف الـمُتحرّك...اضرب!

تمزّق الهواء فوق الرابية كالقُماش المنشيّ. ومن خلال غمامة الغُبار كان من الـمُمكن أن يرى الرائي رجلاً يسقط من عربة التّرولّلي، وينقلب عدّة مرات، ويتدحرج على الـمُنحدر مُجتثاً العُشب بيديه. أطلقت النار من عربة التّرولّلي من ثلاث بنادق ومُسدّسين. وبعد لحظة كان يجب أن تختفي في التّجويف الثاني وراء كشك التّحويل. مزّق فون ميكه الهواء بصفير سوطه، واستشاط غضباً:

– سيغيبون، يغيبون! كان الأحرى بكم أن تصطادوا غرباناً! عار!

كان روتشين يُعتبر جيّد الرّماية. وجّه بُندقيّته على بُعد قدمٍ أمام

العربة، وصوّب على رجلٍ عريض المنكبين ضخم حليق الوجه يبدو أنه الآمر...وفكّر مع نفسه «إنّه كثير الشّبه بتليغين! نعم...سيكون ذلك فظيعاً...»

وأطلق روتشين. طارت طاقيّته من على رأسه، وفي تلك البُرهة غاصت عربة التّروللي في التجويف الثاني. قذف فون ميكه بسوطه.

– قذارة، كلّ الرّهط قذارة. لستم رماة، يا حضرات الضّباط، بل قذارة.

وراح يشتم جاحظ العينين مثل قاتلٍ مؤرق حتى نهض الضُّباط من على الأرض نافضين ركبهم، وأخذوا يتذمّرون:

يا آمر السّريّة..الأحرى بك أن تُمسك لسانك، عندنا من هو أعلى منك رُتبة.

وضع روتشين مشطاً جديداً، وأحسّ بأنّ يديه ما تزالان ترتجفان. فمن أيّ شيء؟ أمن المعقول من مجرّد التّفكير بأنّ ذلك الرّجل كان يُشبه إيفان تليغين؟ هراء. إنّه في بتروغراد.

صعد المفوّض سوكولوفسكي وتليغين برأس مضمّدٍ إلى مقدّمة بيت آجريٍّ من طابقين هو مقرّ إدارة القرية يقع مُقابل الكنيسة كالعادة مُطلاً على ساحة غير مرصوفة كان الأسواق الريفيّة تُقام فيها سابقاً. كانت الدّكاكين الآن مغلقةً بالألواح، والنّوافذ مُحطّمة، والأسيجة مخلوعة. وقد أقيم في الكنيسة مُستشفىً عسكريّ. كانت أسمال الجُنود تُرفرف على الحبال في فناء الكنيسة.

كانت أعقاب السّكائر وقصاصات الورقة مُبعثرةً في رواق إدارة

القرية، حيث كانت تقيم هيئة أركان القائد العام سوروكين وكان جنديٌّ أحمر يجلس إلى جانب السُّلّم المؤدي إلى الأعلى على مقعدٍ من الخشب المعوجّ واضعاً بندقيّته بين رجليه. وكان يهوم بشيءٍ سهبي وعيناه مُغمضتان. كان فتىً عريض الوجنتين ذا خصلة متهدّلة–أمارة مألوفة على الغلطة العسكريّة–تبرزُ من تحت طاقيّته الـمُسرّحة على قفاه بشريطها الأحمر. سأل سوكولوفسكي بعُجالة:

– نريد مُقابلة الرفيق سوروكين... كيف نذهب؟

فتح الجُنديّ عينيه الكدرتين من ضجرٍ ناعس. كان أنفه ناعماً لا ينمّ عن جديّة. نظر إلى سوكولوفسكي–إلى وجهه وملابسه وحذائه، ثمّ نظر بهذه الطريقة إلى تليغين. تقدّم منه الآمر بنفاد صبر.

– أنا أسألك، يا رفيق... نحن نُريد مُقابلة القائد في أمرٍ استثنائيّ.

قال ذو الخُصلة الـمُتهدّلة:

– ولكنّ الحديث مع الحارس لا يجوز.

صاح سوكولوفسكي:

– اللعنة، دائماً تجد مثل هؤلاء الأوغاد في مقرّ الأركان. شكليّون! أطالبك يا رفيق بأن تُجيب: هل سوروكين موجودٌ هنا أم لا؟

– غير معلوم...

– وأين رئيس الأركان؟ في الدائرة؟

– في الدائرة.

جذب سوكولوفسكي تليغين من كمّه، واندفع يصعد السّلّم. عند

ذاك قام الحارس بحركة تحفّزٍ ولكن دون أن يترك مقعده، فقد أخرج البندقيّة من بين رجليه:

– إلى أين أنتما ذاهبان؟

– كيف إلى أين؟ إلى رئيس الأركان.

– هل لديكما ترخيص؟

بدأ المفوّض يشرح للحارس السّبب الذي حملهم إلى المجيء على عربة ترووللي، وقد تميّز غيظاً حتى طفح الزّبد على شفتيه. فأصغى هذا وهو ينظر إلى الرشاشة الرابضة أمام المدخل، وإلى المراسيم والأوامر والإعلامات التي كانت تملأ حيطان الرّواق. وهزّ رأسه، وقال بكآبة:

– يجب أن تفهم، يا رفيق، وأنت الواعي. إذا كان معك ترخيصٌ أتركك تذهب، وإلا أطلقت النار بلا رحمة.

وكان لا بُدّ من الخُضوع، رغم أنّ التّرخيصات كانت تُعطى في مكانٍ ما في الطّرف الآخر من الساحة. والمكتب في أغلب الظّنّ مقفول. سيقولون لهما إنّ القومندان قد خرج ولن يحضر إلا في الغد. وظهر الإعياء على سوكولوفسكي فوراً... وفي تلك اللحظة اندفع من الساحة إلى الباب شخصٌ قصير القامة في قميصٍ ممشوقٍ حتى وسطه يضرب الأرض بحذائه الطّويل.

– يا ميتكا[١٣]..يوزّعون الصابون...

وكأنّ ريحاً قذفت بالحارس من الكُرسيّ. وثب خارجاً إلى مقدّمة البيت. صعد سوكولوفسكي وتليغين إلى الطابق الثاني دون

١٣– صيغة لاسم دميتري. (المُترجم).

أن يعترضهما عارض وبعد استرشاد بحسناوات مُنتفخات العُيون في بلوزاتٍ حريريّة بعثن بهما يميناً وشمالاً عثرا أخيراً على غرفة رئيس الأركان.

دخلاهما فرأيا عسكرياً أنيق الملبس ينظر في أظافره، وهو مُستلقٍ على أريكةٍ مُهلهلة مُمدّداً رجليه. استوضحهما حقيقة الأمر بأدب جمّ، واستقبالٍ بروليتاري مُعتنٍ به شافعاً كلّ كلمةٍ بـ"يا رفيق" (رغم أنّ هذه الكلمة كانت تخرج من فمه وكأنّها "يا كونت سوكولوفسكي" و"يا أمير تليغين") ثمّ استأذن وخرج يصرف بحذائه الأصفر الطّويل ذي الأربطة حتى ركبتيه. وبدأ همسٌ وراء الحائط، وصفق بابٌ من بعيد، ثمّ هدأ كلّ شيء.

نظر سوكولوفسكي إلى تليغين بعينين مُلتهبتين:

– هل تفهم شيئاً؟ إلى أين جئنا؟ ربّما هذه قيادة البيض؟

رفع كتفيه النّحيلتين، وبقي مصعوقاً في غاية الدّهشة. عاد الهمس مُجدّداً من وراء الحائط. وانفتح الباب على سعته، ودخل رئيس الأركان، وهو رجلٌ في أواسط العُمر ركينٌ ذو جبهةٍ عريضةٍ صلعاء وسحنةٍ متجهّمة يرتدي قميصاً عسكرياً خشناً مشدوداً بحزامٍ قوزاقيّ على بطنٍ كبيرز وتفرّس في تليغين خطفاً، وهزّ رأسه تحيّةً لسوكولوفسكي، وجلس وراء المنضدة، واضعاً يديه الـمُشعرتين أمامه بحركةٍ مُعتادة. كانت جبهته رطبةً مثل جبهة رجلٍ قد فرغ لتوّه من الأكل والخمرة. وحين أحسّ بالنّظرات مصوّبةً إليه زاد من جهامة وجهه الأحمر الـمُنتفخ. قال باعتبارٍ وبُرود:

– أبلغني النّوبجي أنّكما، أيها الرّفيقان، قدمتما في أمرٍ مُستعجل.

يُدهشني لماذا لم يستخدم آمر الفوج، أو أنت، أيها الرّفيق الـمُفوّض، خطّ الاتّصال الـمُباشر...

قال سوكولوفسكي:

– حاولت الاتّصال ثلاث مرات. –وقفز على قدميه وأخرج من جيبه شريطاً برقياً، وقدّمه إلى رئيس الأركان قائلاً:

– كيف يُمكن أن ننتظر بهدوءٍ ورفاقنا يهلكون...ولا أوامر من قيادة الجيش...والناس يتوسّلون إلينا لإغاثتهم...وفوج "الحريّة البروليتاريّة" يهلك ومعه طابورٌ من العربات وفيها ألفان من اللاجئين...

ألقى رئيس الأركان نظرةً خاطفةً على الشريط، وقذفه فتلوّى حول محبرةٍ كبيرة:

– نحن، أيها الرفاق، على علم في المعارك الجارية الآن في منطقة فوج «الحريّة البروليتاريّة»...وأنا أُقدّر حماسكم، وسورتكم الثّوريّة (كان يبدو وكأنّه يبحث عن الكلمات بجهد). ولكنني أطبل منكم في الـمُستقبل ألا تثيروا الرّعب...لا سيما وأنّ عمليات العدوّ عارضة...وباختصار إنّ كلّ التدابير قد اتّخذت، ويمكنكما أن تعودا إلى واجباتكما مطمئنّين.

ورفع رأسه. كانت نظرته صارمةً وصافية. نهض تليغين حين عرف بأنّ الـمُحادثة قد انتهت. وظلّ سوكولوفسكي جالساً كأنما قد صُعق. قال:

– لا أستطيع العودة إلى الفوج بمثل هذا الجواب. سيعقد الجنود

اجتماعاً عاماً هذا اليوم وسيهبّ الفوج اليوم لإغاثة «البروليتاريين» بمحض إرادته...وأُنبّهك، يا رفيق، بأنّني سأخطب في الاجتماع مؤيّداً الهجوم...

أخذ وجه رئيس الأركان يحمرّ، وجبهته الضّخمة الصّلعاء تلمع. دفع كرسيّه بحركةٍ صاخبة، ونهض، فارتخى عليه بنطاله العسكريّ حشر يديه وراء حزامه قائلاً:

– ستكون مسؤولاً أمام المحكمة العسكريّة الثوريّة، يا رفيق! لا تنسى أننا لسنا في عام ١٩١٧!

– لا تُحاول أن تخيفني، يا رفيق!

– اسكت!

في تلك اللحظة انفتح الباب بسرعة، ودخل رجلٌ طويل رشيق القامة بشكلٍ غير اعتياديّ يرتدي سترةً جركسيّة من القماش الرّقيق. كان وجهه الجميل الكئيب بشعره الأسود الساقط على الجبهة، وشاربيه المتدليين مُصطبغاً بذلك اللون الورديّ الفاتح الذي يكون عادةً لدى الـمُسرفين في السُّكر أو القُساة. كانت شفتاه مُبلّلتين حمراوين، وعيناه السّوداوان مُتّسعتين. اقترب تماماً من سوكوفوفسكي وتليغين ملوحاً بكمّ سترته الأيسر، وحدّق فيهما بنظرةٍ وحشيّة. والتفت إلى رئيس الأركان، وقد ارتعش منخراه بحنق:

– ما هذا السّلوك على النّمط القيصريّ مرّةً أخرى! ما هذه «أسكت»؟ إذا كانا مُذنبين يرميان بالرصاص...ولكن دون إهانةٍ من قبل جنرال...

سمع رئيس الأركان هذه الـمُلاحظة صامتاً، وقد أطرق برأسه. وما كان من سبيلٍ لأيّ اعتراض، فقد كان هذا هو القائد العام سوروكين نفسه. قال بهدوء:

– اجلسا، أيها الرّفيقان. أنا مُصغٍ إليكما.

وجلس على إفريز النافذة. عاد سوكولوفسكي يشرح الغرض من مجيئهما: الحصول على إذنٍ لفوج فارنافسكي في الهجوم فوراً لمساعدة جاره فوج «الحُريّة البروليتاريّة». إنّ ذلك إلى جانب كونه واجباً ثورياً يُمليه حسابٌ بسيط: فلئن دمّر «البروليتاريون»، فإنّ فوج فارنافسكي سيجد نفسه مقطوعاً عن القاعدة.

لم يجلس سوروكين على إفريز النافذة غير ثانية واحدة. طفق بعدها يذرع الغرفة من الباب إلى الباب مُلقياً أسئلةً قصيرة. وكلّما كان يستدير بحركةٍ حادّة كان شعره المصفوف يتطاير. كان الجنود يُحبّونه على حماسته وشجاعته. وكان يجيد الكلام في الاجتماعات العامّة. وكانت هذه الصفات غالباً ما تحتلّ مكان العلم العسكريّ في تلك الأيام. كان ضابطاً قوزاقياً برتبة نقيب، وقد حارب في جيش يودينيتش في ما وارء القفقاس. وبعد انقلاب أكتوبر عاد إلى قريته بتروبافلوفسكايا في كوبان، وشكّل فصيلة أنصارٍ من أبناء قريته. حارب معها في حصار يكاترينودار، وحالفه التّوفيق. وطلع نجمه بسرعة. وأدار المجد رأسه. وكانت قواه طافحة، وكان يجد الوقت الكافي للقتال واللهو. وفضلاً عن ذلك فإنّ رئيس الأركان أحاطه عن قصدٍ بنساء مليحات، وكلّ الجوّ الـمُلائم للفُجور.

سأل حين فرغ سوكولوفسكي من الحديث، ومسح جبهته عصبياً بمنديلٍ مدعوك قذر:

– وماذا أجابوكما في هيئة أركاني؟

أسرع رئيس الأركان ليقول:

– أجبتهما بأننا قد اتّخذنا جميع الإجراءات لإنقاذ فوج «الحريّة البروليتاريّة». وقلت إنّ قيادة فوج فارنافسكي تتدخّل في أوامر قيادة الجيش، وهذا أمرٌ غير مسموحٍ به كلياً، وفضلاً عن ذلك فإنّه يثير ذعراً لا يقوم على أساس.

قال سوروكين بلهجةٍ تصالحيّةٍ مفاجئة:

– لا يجوز أن يُعالج الموضوع بهذا الشّكل، يا رفيق. الانضباط ضروريٌّ بالطّبع...ولكن هناك أشياءٌ أهمّ بألف مرّةٍ مما تقوله عن الانضباط...إرادة الجماهير! يجب تشجيع المدّ الثّوريّ، رُغم أنّ ذلك يُناقض ما تقوله عن العلم العسكريّ...ولتكن عمليّة فوج فارنافسكي بلا جدوى، ولتكن مضرّة، لتكن ما تكون! عندنا ثورة...وإذا منعتهم الآن هرعوا إلى عقد إجماع عام. أنا أعرف هؤلاء الصيّاحين. سيصرخون ثانيةً بأنني أُحطّم الجَيش بالسُّكر...

واندفع إلى الموقد، ونظر إلى سوكولوفسكي نظرةً ضارية:

– قدّم تقريرك!

أخرج تليغين ورقةً على الفور، ووضعها على الطاولة. اختطفها القائد، ومرّر عليها عينيه السّريعتين، وأخذ يكتب ناثراً الحبر من ريشته:

«آمر فوج فارنافسكي بالقيام فوراً بالزّحف، وتأدية واجبه الثّوريّ».

نظر رئيس الأركان إليه بابتسامةٍ ساخرة، ولكنّه تراجع خطوةً حين مدّ القائد العام الورقة إليه، ووضع يديه خلف ظهره:

– لأقدم إلى محكمة، ولكني لن أوقّع هذا الأمر...

في تلك اللحظة قفز إيفان إيليتش وأمسك سوروكين من معصمه مانعاً إياه من رفع الـمُسدّس. وحجب سوكولوفسكي رئيس الأركان بجسمه. تردّدت أنفاس الأربعة ثقيلة. حرّر سوروكين نفسه، ووضع الـمُسدّس في جيبه، وخرج صافقاً الباب بشدّةٍ جعلت بعض الجصّ يتساقط...

صفقت أبواب، وتلاشت خطوات القائد الـمُتسرّعة.

قال رئيس الأركان بمصالحةٍ ونبرةٍ جشّاء:

– أستطيع أن أؤكّد لكم يا رفاق، أنني إذا وقّعت على هذا الأمر فإنّ مصيبةً قد تحصل على نطاقاتٍ واسعة.

سأل سوكولوفسكي بصوتٍ مبحوح بعد أن سعل:

– أيّةُ مُصيبة؟

نظر رئيس الأركان نظرةً غريبةً إليه.

– ألا تحدس عمّ أتحدّث؟

– لا.

ورفّت عينا سوكولوفسكي من طرفيهما.

– أنا أقصد جيشي...

– يعني؟

– ليس لي الحقّ في أن أكشف عن أسرارٍ عسكريّة أمام مفوّض فوج. أليس كذلك، يا رفيق؟ ستكون أوّل مَنْ يرميني بسبب ذلك... ولكننا تعرّضنا أثناء حديثنا في شؤونٍ عميقة. حسناً... خذوا كلّ شيءٍ على مسؤوليّتكم...

أقبَلَ على خارطةٍ غُرزت فيها أعلامٌ صغيرة. تقدّم سوكولوفسكي وتليغين وصارا وراء ظهره. والظاهر أنّ تقارب حرارة الأنفاس في فمّين أزعج رئيس الأركان بعض الشّيء. تحرّكت لوحتا كتفيه تحت القميص. إلا أنّه أخرج بهدوء عوداً قذراً لتخليل الأسنان، ومرّر نهايته المقضومة على الخارطة من الأعلام الثّلاثيّة الألوان في الاتّجاه الجنوبيّ إلى مواقع الحُمر الكثيفة. وقال:

– هنا البيض.

– أين؟ –وتقدّم سوكلوفسكي من الخارطة تماماً، مُمرّراً عليها عينيه العمشاوين. –ولكن هذه توروغوفايا...

– نعم، تورغوفايا. وسُقوطها سينظّف نصف الطّريق أمام البيض.

– أنا لا أفهم...تصوّرنا البيض أبعد إلى الشمال على الأقلّ بحوالي...

– نحن تصوّرنا، لا البيض. تورغوفايا في اللحظة الراهنة تحت ضربةٍ مركّزة. والبيض يملكون طائراتٍ ودبّابات. وهم ليسوا شرذمة كورنيلوف السابقة...إنّهم يعملون على خطوطٍ داخليّة، ويوجّهون الضّربات أينما يُريدون. والـمُبادرة في أيديهم.

قال تليغين:

– في الشمال من تورغوفايا فرقة دميتري شيليست الحديديّة...

– تحطّمت...

– وفرقة الخيالة؟

– تحطّمت.

أتلع سوكولوفسكي رقبته، وتقدّم من الخارطة. وقال:

– أنت إنسانٌ شديد التّحفّظ، يا رفيق. كأنّك قد قنعتَ بسقوط تورغوفايا...هنا تحطّمٌ وهنا تحطّم. –واستدار نحو رئيس الأركان مُخاطباً–وجيشنا؟

– نحن ننتظر أمر القيادة العامّة العُليا. فإنّ للرفيق كالنيين حساباته الخاصّة. ولا تستطيع أركان قيادة الجيش أن تُطالب أركان القيادة العامّة العُليا بالهُجوم، وهي تهزّ قبضتها عليها. فماذا تظنّ أنت؟ إنّ الحرب ليست اجتماعاً عاماً.

وابتسم رئيس الأركان ابتسامةً رقيقة. نظر سوكولوفسكي إلى وجهه الـمُمتلئ الهادئ حابساً أنفاسه. وتحمّل رئيس الأركان تلك النّظرة. قال وهو يعود إلى الطاولة:

– تلك هي الأمور، أيها الرّفيقان. ولهذا السّبب لا أملك الحقّ في أن أسحب وحدةً عسكريّةً واحدة من الجبهة، ولو أنّ ذلك يبدو معقولاً كلياً وضرورياً...إنَّ وضعنا ليس بالسّهل أبداً. الآن، عودا إلى وحدتكما فوراً. وكلّ ما قلته لكما سريّ لا يُفشى في الوقت الحاضر. يجب الـمُحافظة على الهدوء التام في الجيش. أما بشأن فوج

«الحريّة البروليتاريّة» فلا حاجة للفزع على مصيره، فقد حصلت على معلوماتٍ مُطمئنة...

وانعقد حاجبا رئيس الأركان فوق أنفه المعكوف. وصرف الزّائرين بهزّةٍ من رأسه. خرج سوكولوفسكي وتليغين من مكتبه. في الغرفة الـمُجاورة كان النوبجي ينظّف أظافره واقفاً عند النافذة. وقد حيّا الخارجين بأدب.

همس سوكولوفسكي:

– وغد.

عندما خرجا إلى الشارع، أمسك بكمّ تليغين:

– ها؟ ما رأيك؟

– شكلياً إنّه على حقّ. أما من حيث الجوهر فإنّ ذلك تخريبٌ بالطّبع.

– تخريب؟ لا. إنّ اللعبة أكبر، سأعود لأرميه...

– دع عنك هذا، يا سوكولوفسكي، لا تأت بحماقة...

تمتمَ سوكولوفسكي:

– خيانة، أقول لك إنّ هنا خيانة. كلّ يوم يبلغون غيمزا بأنّ في هيئة الأركان سُكراً، وقد شتّت سوروكين المفوّضين. وحاول أنت أن تقف أمامه. إنّ سوروكين قيصرٌ وإلهٌ في الجيش. إنّه محبوبٌ لشجاعته، لأنّه من عندهم. وهي تعرف من رئيس الأركان هذا؟ إنه عقيدٌ قيصريّ يُدعى بيلياكوف...هل فهمت العُقدة؟ ولكن لنذهب...ما رأيك، هل سنتخطّى البيض بنجاح؟

هزّ رئيس الأركان الجرس، ظهر النوبجي على الباب.

– اعرف لي ما هي حالة القائد؟

– الرّفيق سوروكين في المطعم. وحالته بين بين.

وانتظر النوبجي حتى ابتسم رئيس الأركان ابتسامةً ساخرةً على مضض، وعندئذٍ ابتسم النوبجي ابتسامةً كثيرة الدّلائل:

– زينكا[١٤] معه.

– حسناً، انصرف.

ذهب بيلياكوف إلى شعبة الاتّصال، وعاين الأخبار التّلفونيّة. وقّع بخطٍ واضح بطيء بعض الأوراق، ولبث برهةً في الممرّ عند الباب الأخير، حيث كانت تتردّد من ورائه أنغامٌ هادئةٌ على أوتار. أخرج رئيس الأركان منديله، ومسح رقبته الحمراء القويّة، وطرق الباب، ودخل دون أن ينتظر رداً.

كان سوروكين يجلس مُشمّراً كمّي سُترته العريضين عند مائدةٍ في وسط الغرفة مفروشة بجرائد وعليها آنيةٌ مستخدمة وأقداح. وكان وجهه الوسيم ما يزال عابساً، وقد تساقطت خصائل من شعره الأسود على جبهته النّديّة. نظر في بيلياكوف بحدقتين مُتّسعتين. كانت زينكا تجلس على مقعدٍ بلا ظهر إلى جانبه واضعةً ساقاً على ساق حتى لاح رباط جوربها، ومخرّمات ثوبها الداخليّ، وكانت تعزف على قيثار. كانت امرأةً شابّة ذات عينين زرقاوين زاهيتين وشفتين نديّتين، وأنفٍ دقيق ينمّ عن الحزم، وشعرٍ أشقر منفوشٍ مرفوع إلى أعلى رأسها.

١٤– صيغة لاسم زينايدا. (المُترجم).

والثنيات السقيمة وحدها عند الفم، ولو أنها لا تكاد تبيّن، كانت تُضفي على وجهها الرقيق مسحة حيوانٍ وحشيّ يستطيع أن يعضّ. كانت حسب هويّتها ابنة عامل سكك الحديد من أنحاء أومسك، وذلك ما لم يكن يصدّق به أيّ إنسان بالطّبع، مثلما لم يُصدّق إنسانٌ بأنّ عمرها ثمانية عشر عاماً، وبأنّها من عائلة تُدعى كانافينا، وبأنّ اسمها زينايدا. إلا أنها كانت تضرب على الآلة الكاتبة بشكلٍ ممتاز، وتشرب الفودكا، وتعزف على القيثار، وتُغني أغاني عاطفيّة جذابة. وقد وَعَدَ سوروكين بأنّه سيرميها بيده لدى أوّل محاولةٍ منها لنشر فساد الحرس الأبيض والتّعفّن في هيئة أركانه. واطمأنّ الناس عند ذلك.

قال بيلياكوف هازّاً رأسه، وبقي عند الباب للتّحوّط:

– رائع، بكلّ تأكيد. في أيّ وضع تضعني أنت؟ يأتي اثنانٌ من اللجنة المركزيّة كما هو واضح، ويُهدّدان بالاجتماعات العامّة. فإذا أنت تنحاز إلى جانبها بسرعة... ما أسهل الذّهاب إلى جهاز التّلفون، والاتّصال بيكاترينودار، ليرسلوا لك على الفور يهودياً يُنظّم لك هيئة الأركان، وينام معك في السّرير، ويصحبك إلى المرحاض، ويضبط جميع أفكارك. فظاعة، بالتّأكيد! إنّ لدى القائد العامّ سوروكين ميلاً إلى الدّكتاتوريّة! اذهب لتكون تحت الرّقابة.. أما أنا فلا أريد... يُمكنك أن ترميني... ولكنّي لن أسمح لك بأن تهدّدني بالـمُسدّس في وجود مَنْ هم أقلّ رتبة... أيُّ انضباطٍ سيكون بعد هذا!...

– ليختطفك الشّيطان.

مضى سوروكين ينظر إلى رئيس الأركان، ومدّ يده الكبيرة القويّة، ولكنه قبض على الهواء بدلاً من عنق الزّجاجة. سَرَتْ رعشةٌ في فمه،

وتوتّر شارباه. إلا أنه استطاع أن يُمسك بالزّجاجة على أيّة حال، وصبّ كوبين.

– اجلس، واشرب.

نظر بيلياكوف بطرف عينه إلى مخرّمات سروال زينكا، وتقدّم من المائدة. قال سوروكين:

– لو لم تكن ذكياً لرميتك بالرّصاص...الانضباط...إنّ انضباطي هو القتال. هيا، ليحاول أيّ منكم إنهاض الجماهير...سأقودها. انتظر وقتاً، لا أحد غيري يستطيع دحر البيض، أنا الذي سيُحطّم الأوغاد البيض...وسيهتزّ العالم...

واستنشق منخراه الهواء، وبدأت العُروق على صدغيه تنبض:

– سأُنظّف مناطق كوبان والدون وتيريك بدون اللجنة المركزيّة... إنّ هؤلاء الأوغاد، أعضاء اللجان، ماهرون في تصرّفاتهم في يكاترينودار لا في الجبهة...إنّهم جبناء...إذن فأنا على حقّ، في المعركة دكتاتور...أنا أقود جيشاً!

ومدّ يده إلى قدح الكحول، إلا أنّ بيلياكوف دلق له القدح، وقال:

– كفى شرباً.

– أها، تأمرني؟

– أرجوك، كصديق...

ألقى سوسوكين نفسه على ظهر المقعد، وزفر عدّة زفرات قصيرة، وأخذ يُجيل بصره حتى أوقفه على زينكا. كانت تُمرّر أظافرها على الأوتار.

غنّت، وقد رفعت حاجبيها بتكاسل: "وتنفّس الليل..." استمع سوروكين، والعُروق على صدغه راحت تنبض بقوّةٍ أسرع. نهض، ودفع رأس زينكا إلى الوراء، وراح يُقبّلها من فمها بنهم. استمرّت زينكا في العزف، ثمّ نزل القيثار من ركبتيها.

قال بيلياكوف بلُطف:

– هذا أمرٌ يختلف. آه، يا سوروكين. أحبّك، ولا أدري لماذا أحبّك.

حرّرت زينكا نفسها أخيراً، وانحنت انحناءةً واطئةً إلى الأرض مُحمرّة ورفعت القيثار. ولمعت عيناها الناصعتان من تحت شعرها المُشوّش. لصقت شفتيها المتورّمتين بطرف لسانها وقالت:

– أوف، أوجعتني...

– أتعرفون يا أصدقائي؟ عندي زجاجةٌ مخبّأة...

وقطع بيلياكوف كلامه مُختنقاً بكلمته. وتعلّقت في الهواء يده المُنفرجة الأصابع. أزّت رصاصةٌ وراء النافذة وتعالت أصوات. خرجت زينكا من الغُرفة مع قيثارتها خطفاً وكأنّها مدفوعةٌ بريح. تجهّم سوروكين واتّجه نحو النافذة.

قال رئيس الأركان بعُجالة:

– لا تخرج، سأعرف قبلك ما الأمر.

كان العِراك وإطلاق الرّصاص ظاهرةً اعتياديّةً في مقرّ هيئة الأركان. فقد كان جيش سوروكين يتألّف من جماعتين أساسيّتين: القوزاق الكوبانيين الذين جُمعوا من بقايا الجيوش الأوكرانيّة الحمراء

التي تراجعت تحت ضغط الألمان... وكان بين القوزاق والأوكرانيين شحناء مُزمنة. كان الأوكرانيّون لا يُحسنون المُقاومة في أراضٍ غريبة، ولا يتورّعون كثيراً إذا كان الأمر يتعلّق بالعلف والتّموين، حين كانوا يمرّون في قرى القوزاق.

وكان العراك وإطلاق الرّصاص يحدث كلّ يوم. ولكن ما بدأ اليوم كان أكثر خطورة. اندفع القوزاق الخيالة بالصّيحات. وتراكض الجنود الحُمر جماعاتٍ مذعورة من سياج إلى آخر ومن حديقة إلى أخرى. وسُمع إطلاق نارٍ شديد بالتّجاه المَحطّة. وفي الساحة أمامَ نوافذ مقرّ الأركان كان قوزاقيٌّ جريح يصرخ بوحشيّة زاحفاً ومتلوّياً في الغُبار.

وبدأ هرجٌ ومرج في مقرّ الأركان. كان خطّ التّلفون منذ الصّباح لا يردّ على المكالمات. والآن عاد يحمل من هناك سيلاً من الأنباء المخبولة لا يُمكن أن يفهم منه غير شيءٍ واحد: إنّ البيض في زحفهم السّريع باتجاه سوسيكا–أومانسكايا يُطاردون أمامهم وحدات الحُمر المذعورة. ووحداتهم الأماميّة التي وصلت إلى مقرّ الأركان بدأت بالنّهب في المحطّة والقرية. وفتح الكوبانيّون النار، ونشبت معركة.

اندفع سوروكين خارج البوّابة على فرسٍ أصهب ضخم شرس. ووراءه زهاء خمسين راكباً في سترٍ جركسيّةٍ وسيوفٍ معوجّة، وقلانسهم تتطاير وراء ظهورهم. وكان سوروكين يجلس على الصّهوة وكأنه قد سمر فيها. كان حاسر الرّأس ليعرف الناس وجهه حالاً. ألقى رأسه الجميل إلى الوراء. فصارت الريح تعبث بشعره وكُمّيه وأذيال سُترته. كان ما يزال سكران، بادي الحزم، شاحب الوجه. وكانت عيناه تنظران بتفرّس، ونظرتهما رهيبة. وكانت سحابةٌ من الغبار تتطاير وراء الخيول المُنطلقة.

كانت بعض الطّلقات تُسمع من وراء الحاجز النّباتيّ بالقرب من المحطّة. كان بعض الـمُرافقين يُطلق صرخات عالية، وقد وقع من حصانه، إلا أنّ سوروكين لم يعر إلى ذلك التفاتاً. كان ينظر إلى حيث كانت جمهرةٌ رماديّة من الجنود تتصايح وتفور وتركض بين قطارات البضائع.

عرفوه من بعيد، صعد الكثيرون إلى سطوح العربات. وارتفعت البنادق فوق الرّؤوس وتعالى الصّياح. تخطّى سوروكين سياج حديقة المحطّة دون أنْ يُخفّف سرعته، وعدا على السّكك إلى قلب الجمهرة. أمسك الجُنود بلجام فرسه. رفع ذراعيه فوق رأسه وصاح:

– أيها الرفاق، رفاق السّلاح، أيها الـمُقاتلون! ماذا حدث؟ ما هذا الرّمي؟ ولماذا الهلع؟ مَنْ أدر لكم رؤوسكم؟ أيّ وغد؟

ارتفع صوتٌ هالع:

– غدروا بنا!

وارتفعت أصواتٌ أخرى:

– غدر بنا أُمراء الوحدات! كشفوا الجبهة!

راح جمهورٌ مؤلّفٌ من عدّة آلاف يصرخ على السّكك الحديديّة، وفي الحقل، والعربات:

– غدروا بنا... تحطّم الجيش كلّه... يسقط القائد! اقتلوا القائد!

وصدر صفيرٌ وعويل، وكأنّ ريحاً شيطانيّةً كانت تهبّ. صهلت خيول الـمُرافقين، ووقفت على أرجلها الخلفيّة. وتدافعت نحو

سوروكين وجوهٌ ملتوية وأيدٍ سوداء. صرخ بشدّةٍ جعلت رقبته القويّة تنتفخ:

- سكوت! لستم جيشاً ثورياً...شرذمةٌ من قُطّاع الطُّرق والأوغـاد...أروني الخائفين على جلودهم ومُثيري الهلع...أروني أعوان الحرس الأبيض!

وحثّ حصانه فجأة، هزّ الحصان جزءه الأماميّ، واندفع عميقاً بين الجمهور. انحنى سوروكين من على السّرج وأشار بإصبعه:

- هذا هو!

التفت الجمهور بصورةٍ لا إراديّة إلى الذي أشار إليه سوروكين. كان رجلاً طويلاً نحيلاً ذا أنفٍ كبير. شحب الرّجل، ورفع مرفقيه، وتراجع. لا أحد يدري هل كان سوروكين يعرفه حقاً أم قد ضحّى به كأوّل رجلٍ في طريقه ليجد مخرجاً للوضع الحرج...وكان الجمهور بحاجةٍ إلى دم. اختطف سوروكين سيفاً معوجاً، ورفعه في الهواء، وهوى به على رقبة الرّجل الطّويلة يصفر صفيراً. انبجس الدّم على بوز الحصان برشّاشٍ قويّ.

- هكذا يُعاملُ الجيش الثّوريّ أعداء الشّعب.

حثّ سوروكين حصانه ثانية، ودار في الحشد رهيباً شاحباً ملوّحاً بالسّيف الدّامي لاعناً مُهدّداً مُهدّئاً:

- لا اندحار أبداً...الجواسيس وعملاء البيض يُثيرون الرُّعب عن قصد...وهم الذين يدفعونكم إلى النهب، ويقوّضون الانضباط... من قال إنّهم حطّمونا؟ من رآهم يضربوننا؟ هل رأيت ذلك أيّها

الحقير؟ أيها الرّفاق، لقد قدتكم إلى المعركة، وأنتم تعرفونني...أنا أيضاً أحمل في جسدي ستّة وعشرين جُرحاً! أطالبكم بأن تكفّوا عن النّهب في الحال! وليذهب كلّ واحدٍ منكم إلى قطاره! اليوم سأقودكم في هُجوم...أما الجبناء والخائفون على جلودهم فبانتظارهم انتقام السّخط الشّعبيّ...

استمع الجُمهور. وعلته الدّهشة، وصعد بعض الأفـراد على أكتاف آخرين ليُلقوا نظرةً على قائدهم العام. ما تزال الأصوات تزعق ولكنّ القلوب تتوهّج. وتردّد هنا وهناك: «إنّه يقول الحقيقة... ليقدنا. لنذهب معه...». وظهر أُمراء السّرايا الذين كانوا قد اختفوا، وأخذت الوحدات تعود إلى قطاراتها شيئاً فشيئاً. كان ثمّة شقٌّ في سترة سوروكين عند الصدر. أفرجه وأظهر آثار جراحٍ قديمة...وكان وجهه شاحباً مأخوذاً...زال الهلع. نُصبت حواجز الرّشاشات لملاقاة القطارات الـمُقتربة. وحفل الخطّ كلّه ببرقياتٍ في مُنتهى الحزم.

ومع ذلك فقد كان لا محيص من تراجع الجيش. وبعد عدّة أيام فقط أمكن إعادة النّظام إلى الوحدات العسكريّة في منطقة محطّةً تيماشيفسكايا، والبدء بهجوم مضادّ. زحف الحُمر في طابورين على فيسيلكي وكورينيفكا. كانً الجنود الحُمر يرون سوروكين مُنطلقاً على حصانه الأصهب كُلّما تأرجحت كفّة المعركة. وكان يبدو وكأنّه بإرادته الـمُلتهبة وحدها قد حوّل مصير الحرب مُنقذاً المنطقة السّاحليّة على البحر الأسود. ولم يبق أمام اللّجنة التّنفيذيّة المركزيّة لجمهوريّة شمال القفقاس إلا أنْ تعترف رسمياً بأسبقيّته في العمليات الحربيّة.

-٦-

في تلك الأيام من أواخر أيار، حين كان جيش دنيكين يقوم بـ"حملة كوبان الثانية" خيّم خطرٌ جديد على جمهوريّة روسيا السوفييتيّة. ثارت ثلاث فرقٍ تشيكيّة في وقتٍ واحد تقريباً في جميع القطارات من بينزا إلى أومسك زاحفةً من الجبهة الأوكرانيّة نحو الشّرق.

وكان هذا التّمرّد أوّل ضربة أعدّها مُسبقاً المتدخّلون ضدّ روسيا السوفييتيّة. كانت الفرق التشيكّية قد بدأت تتشكّل منذ عام ١٩١٤ أولاً من التشيكيين الذين كانوا يعيشون في روسيا، ثمّ من أسرى الحرب، وقد أضحت بعد ثورة أكتوبر جسماً غريباً داخل البلاد، وراحت تتدخّل في الشّؤون الداخليّة بقوّة السّلاح.

ولم يكن من السّهل دفع التشيكيين إلى الهجوم المُسلّح على الثّورة الروسيّة، لأنّهم كانوا ما يزالون ينظرون إلى روسيا باعتبارها المُحرّر المُقبل للشعب التشيكيّ من الحُكم الامبراطوريّ النّمساوي. وكان الفلاحون التشيكيّون الذين كانوا يسمّنون الأوزّ لعيد الميلاد يقولون على العادة القديمة "وأوزّةٌ واحدة للروسيّ". كانت الفرق التشيكيّة وهي تتراجع تحت ضغط المعارك مع الألمان في أوكرانيا تتهيّأ إلى الانتقال إلى فرنسا ليظهروا في الجبهة، للعالم أجمع، تأييدهم لحريّة بلاد التشيك، والمساهمة في انتصارها على النّمساويين والألمان.

تحرّك أسرى الحرب الألمان المجريّون المكروهون بشكلٍ خاصّ

للقاء القطارات التشيكيّة المُتّجهة إلى فلاديفوستوك. وكان فوران الدّم يحتدم في الأماكن التي يلتقي فيها هذان التّياران. وكان عُملاء الحرس الأبيض يوَشوشون للتشيكيين بنوايا البلاشفة السّيّئة، وبمقاصدهم المزعومة عن تجريد الوحدات التشيكيّة السيارة وتقديمها إلى الألمان. وفي ١٤ أيار حدث عراكٌ خطير بين التشيكيين والمجريين في محطّة تشيليابنسك. فاعتقل سوفييت نواب الشغيلة في هذه المدينة بعض التشيكيين الذين تمادوا في القتال بشكلٍ خاصّ. مما أدى إلى أن يهبّ القطار كلّه لرفع السلاحِ. اضطرّ السوفييت إلى التّراجع لأنّ الجنود الحُمر عنده في خطّ السّكة الحديديّة كلّه لم يكونوا مُسلّحين التّسليح الكافي. شاع نبأ حادث تشيليابنسك في القطارات التشيكيّة كلّها. وحدث الانفجار حين أُعلن الأمر الخيانيّ الاستفزازيّ لرئيس المجلس العسكريّ الأعلى للجمهوريّة رداً على هذه الأحداث:

«على جميع السوفييتات تجريد التشيكوسلوفاكيين من السّلاح، والمخالف سيقع تحت طائلة المسؤوليّة. وكلّ تشيكوسلوفاكيّ يوجد مُسلّحاً على الخطّ الحديديّ يجب أن يُرمى في مكانه، وكلّ قطارٍ يُعثر فيه ولو على مُسلّح واحد يجب أن تُفرغ عرباته، ويوضع ركابها في معسكر لأسرى الحَرب».

ولما كان للتشيكيين انضباط فائق وتضامن وخبرة في القتال وعددٌ وافر من الرشاشات والمدافع، بينما لم يكن للسوفييتات غير فصائل رديئة التسلّح من الحرس الأحمر، وبلا قيادةٍ محنّكة، فإنّهم هم الذين قاموا بتجريد السوفييتات، وليس بالعكس، وبسطوا سيادتهم على طول الخطّ من بينزا إلى أومسك.

بدأ التّمرّد في بينزا، حيث أرسل السوفييت خمسمائة من الحرس

الأحمر لملاقاة أربعة عشر ألفاً من التشيكيين. وقد قام الـحُمر بهجوم على محطّة السّكّة الحديديّة، ودمّر على بكرة أبيهم تقريباً. وأخرجَ التشيكيون معهم من بينزا آلة طباعة "بعثة إعـداد أوراق الدّولة" ودحروا الحُمر في معركةٍ كبيرة قرب بيزنتشوك وليبياغي، واحتلوا سامارا.

وعلى هذا النّحو تشكّلت جبهةٌ جديدةٌ للحرب الأهليّة شملت بسرعة مساحاتٍ هائلة في الفولغا والأورال وسيبيريا.

كان الدّكتور دميتري ستيبانوفيتش بولافين يرقد على بطنه في شباكٍ مفتوح، ويُصغي إلى الهدير الأصمّ لقصف المدافع. كان الشارع خالياً. والشّمس البيضاء تُحرق بشكلٍ لا يُطاق جدران البيوت غير العالية، والنوافذ الـمُتربة للمخازن الخالية، واللافتات غير الـمُجدية والشارع الإسفلتيّ المغطى بغبار الكلس.

في الساحة إلى اليمين، إلى حيث كان ينظر الطّبيب بَرَزَتْ المسلّة الخشبيّة الـمُغطاة بأسمالٍ ناحلة اللون والتي تستر تمثال ألكسندر الثاني؛ وإلى جنبها نصب مدفع، وتجمّع رهطٌ من الناس يقلبون الحجارة، ويحفرون شيئاً، بلا جدوى، كما هو واضح. كان بينهم القسّ سلوفوخوتوف وكاتب العدل ميشين بهاء وفخر الـمُثقّفين في سامارا ورومانوف صاحب مخزنٍ للمأكولات، وسترامبوف العضو السابق لـلإدارة المحليّة الذاتيّة، وكورويدوف صاحب الأطيان الأشيب الوسيم الذي كان رجلاً كبيراً في زمانه. وجميعهم زبائن دميتري ستيبانوفيتش، وشركاؤه في لعبة الورق "الهويست"...كان أحد الجنود الحُمر يضع بندقيّته بين رجليه ويُدخّن جالساً على حجر.

دوّت المدافع وراء ساماركا. ورنّ زجاج النّوافذ رنيناً خافتاً. تلوّى فم الطبيب على هذه الأصوات وعقاً، ناخراً من منخريه في شاربيه الأشيبين كان نبضه مائة وخمسة. ومعنى ذلك أنّ الخميرة الاجتماعيّة القديمة ما تزال فيه. ولكنّ إظهار عواطفه أكثر من ذلك ما يزال أمراً خطراً. لأنّ أمر اللّجنة الثوريّة الذي يهدّد العناصر المضادّة للثورة بالرّمي بالرّصاص كان يلوح كالعين الحمراء في مكانه على الألواح التي سدّت بها النافذة اللامعة الـمُهمّشة لمخزن ليدر للمجوهرات في الجانب الآخر من الشارع مُقابل داره.

ظَهَرَ في الشارع الخالي شخصٌ غريب المظهر موعوب يرتدي قبّعةً تسمّى "سلاماً ووداعاً" من ليف جوز الهند، وسترةٍ من حرير التيسور من فصائل ما قبل الحرب. كان الرّجل ينسلّ بمحاذاة الجدار، ويتطلّع إلى الخلف بين برهةٍ وأخرى، ويثب، وثمة طلقات كانت تتفجّر قرب أذنه. كان شعره بلونٍ ليفة الكتان يتدلّى حتى كتفيه، ولحيته الصهباء قليلاً تبدو وكأنها قد لصقت بوجهه الشديد الشّحوب.

كان ذلك الشّخص هو غفيادين الأحصائيّ في الإدارة المحليّة الذاتيّة (الزيمستفو) والذي حاول ذات مرّةٍ أن يُثير في داشا "الحيوان الجميل" الكامن فيها. كان قادماً لزيارة دميتري ستيبانوفيتش، والقصد من الزيارة، كما يبدو، مهمٌّ جداً جعله يتغلّب على خوف الشارع الخالي، ودوّى قصف المدفعيّة.

رأى غفيادين الطبيب في النافذة. فلوّح له بذراعه مُتضايقاً، وكأنّه يقول له: "من أجل الرّب لا تنظر لأنّهم يُراقبونني". انضغط على الحائط تحت أمر اللجنة الثّوريّة مُتلفتاً إلى الوراء، ثمّ ركض عبر الشارع، واختفى وراء البوابة. وبعد دقيقة دقّ باب الطبيب الخلفيّ.

همس غفيادين وهو يدخل غرفة الطّعام:

– اغلق النافذة، بحق الرّبّ، إنّهم يُراقبوننا. وأنزل السّتار...لا... الأفضل ألا تنزلها...يا دميتري ستيبانوفيتش، أنا مبعوثٌ إليك...

– أيّ خدمة؟

سأل الطّبيب بسخرية، وجلس إلى المائدة الـمُغطاة بمُشمّعٍ قذرٍ محروق. ثمّ قال:

– اجلس، وحدّثني...

تناول غفيادين مقعداً، وهبط عليه، وعكف ساقه تحته، وهمس في أذن الطّبيب همساً عالياً مُتطاير اللعاب:

– دميتري ستيبانوفيتش...قبل حين جرى تصويتٌ في اجتماعٍ سريّ للجنة الجمعيّة التّأسيسّيّة للاقتراح عليك بشغل منصب نائبِ وزير الصّحّة.

– نائب وزير؟ –استفسر الطّبيب، وأرخى طرفي فمه حتى أنّ حنكه قد تغضّن كلّه. –هكذا، ولأيّة جمهوريّة؟

– ليس لجمهوريّة بل لحكومة...إننا نأخذ بأيدينا الـمُبادرة للقتال...نفتح جبهة...نحصل على آلةٍ لطبع الأوراق النّقديّة... ونزحف برئاسة الفيلق التشيكوسلوفاكي على موسكو...ونستدعي جميعيّةً تأسيسيّة ...وكلّ هذه الأعمال ننفّذها نحن، أنت تفهم، نحن...اليوم حصل نزاعٌ حادّ. الاشتراكيّون–الثّوريّون والمناشفة طالبوا بكلّ المناصب الوزاريّة. ولكن، نحن أعضاء الإدارة المحليّة الذاتيّة، دافعنا عنك، ومرّرنا ترشيحك...هل أنت مُوافق؟

وفي تلك اللحظة بالذات صدر دويٌّ رهيب وراء نهر ساماركا جعل الأقداح تُطقطق على المائدة حتى أنّ غفيادين وثب على قدميه، وأمسك بقلبه قائلاً:

– إنهم التشيكيون...

وصدر دويٌّ آخر، ولعلعت رشاشةٌ كانت تبدو قريبةً للغاية. جلس غفيادين ثانيةً وقد شحب كلياً، وطوى ساقه.

– إنّهم الأوغاد الحُمر...عندهم رشّاشاتٌ نصبوها على سايلوات الحبوب...ولكن لا مجال للشّك في أنّ التشيكيين يقتحمون المدينة... سيستولون عليها حتماً.

تمتم دميتري ستيبانوفيتش بصوتٍ أجشّ:

– أعتقد أنّي موافق. هل تريد شاياً، ولكنّه بارد؟

امتنع غفيادين عن الشاي، وراح يهمس وكأنّه في غيبوبة:

– سيرأس الحكومة وطنيّون–أنزه النّاس، شخصياتٌ نبيلة... فولسكي، وأنت تعرفه، محامٍ من تفير، رجلٌ مُمتاز...والنقيب فورتوناتوف...وكليموشكين، وهو من بلدتنا سامارا، إنّه إنسانٌ نبيلٌ أيضاً...وجميعهم من الاشتراكيين–الثوريين، مُناضلون صلبون... يتوقّعون أيضاً تشيرنوف نفسه. ولكنّ ذلك سريٌّ للغاية...إنّه يُقاتل البلاشفة في الشمال...والضباط في كتلةٍ وثيقةٍ معنا...ومن العسكريين يُرشّح العقيد غالكين...يقولون إنّه دانتون الجديد...وباختصار، كلّ شيءٍ مهيّأ. ونحن بانتظار الهُجوم فقط...وكلّ المعلومات تُشير إلى أنّ التشيكيين قد عيّنوا اليوم ليلاً موعداً للهجوم...وأنا أمثّل الميليشيا.

وهذا عملٌ خطير ويحتاج إلى جهدٍ كثير... ولكن يجب أن نُقاتل، وأنْ نضحّي بالنّفس...

تردّدت وراء النافذة أصواتٌ عاليةٌ ناشزة لأبواقٍ عسكريّة تعزف «النّشيد الأمميّ». طوى غفيادين جذعه، ووضع رأسه على بطن دميتري ستيبانوفيتش، كان شعره الكتانيّ يبدو كشعر دُمية.

انحجبت الشّمس وراء سحابة ممطرة. و لم تأت الطّراوة مع الليل. وغشي النّجوم نقابٌ من الظّلمة. وازداد قصف المدافع وراء النّهر حدّةً وكثافة. فكانت البيوت تهتزّ من الانفجارات. وكانت بطاريّة البلاشفة ذات ٦ بوصات، المنصوبة على السايلو ترعد في الظلام. وكانت الرشاشات تُلعلع على سطوح البيوت. وفيما وراء النهر، في ضواحي سامارا التي كانت ترتبط بجسرٍ خشبيّ كان الحُراس الحُمر في النّقاط الأماميّة يُطلقون النار، فتتردّد أصواتها ضعيفة.

انتشرت سحابةٌ في السماء بدمدمةٍ راعدة. وحلّ ظلامٌ حالك. و لم يلح أيّ ضوءٍ لا في المدينة ولا على النّهر. لا شيء غير ومضات المدافع وهي تُطلق نيرانها.

لم ينم أحد في المدينة. وكانت لجنة الجمعيّة التّأسيسيّة تجتمع بشكلٍ مُتواصل في مكانٍ مجهول. وكان المتطوّعون من منظمات الضباط هائجي الأعصاب في البيوت في بدلهم وبأسلحتهم. وكان أهالي المدينة يقفون عند النوافذ يحدّقون في الظلام الليليّ؛ ورجال الدّوريات يتنادون في الشّوارع. وفي فترات السّكون كانت تُسمع صافرات القاطرات وهي تنقل القطارات صوب الشّرق. رأى المُتطلّعون من النوافذ برقاً مُتعرّجاً يقطع السّماء من الحافّة إلى الحافّة. وأضاء مياه

الفولغا الكدرة بضوء كئيب. ولاحت معالم الصّنادل والسّفن عند الأرصفة، وظهر عالياً فوق النّهر وحديد السّطوح هيكل السايلو الضّخم، والبُرج المُستدقّ للكنيسة اللوثريّة، وبرج الجرس الأبيض المُلحق بدير النّساء، والمُشيّد، كما يقال، بالأموال التي جمعتها الراهبة المُتجوّلة سوسانا. وانطفأ البرق. وحلّ الظّلام...

تمزّقت السماء، وهبّت ريح، وأعولت مداخن المواقد عويلاً رهيباً. وبدأ التشيكيون الهجوم.

هجم التشيكيون بصفوفٍ غير كثيفة من جانب محطّة كرياج إلى جسر السّكّة الحديديّة، وخلال مصانع كبس الشّحم إلى ضواحي المدينة في ما وراء النّهر. وقد أعاقت تقدّمهم وعورة المنطقة، والسّدّ، وتكاثر الصفصاف الأرجوانيّ.

وكان المدخل إلى المدينة يقع عبر الجسرين الخشبيّ والخاصّ بالسّكّة الحديديّة. وكانت مدافع البلاشفة في الساحة وراء سايلو الحبوب تقصف مشارف المدينة. وأيّدت ضرباتها القويّة والانفجارات على روح الشّجاعة في وحدات الحُمر غير الواثقة بخبرة قيادتها.

وفي أواخر الليل لجأ التشيكيون إلى الحيلة. كان بقايا اللاجئين البولونيين يعيشون في عنابر بالقرب من سايلو الحبوب مع نسائهم وأولاهم. وكان ذلك معروفاً لدى التشيكيين. وحين أخذت قذائفهم تنفجر فوق السايلو خرج البولونيّون من العنابر، وتناثروا هنا وهناك بحثاً عن ملجأ. أبعدهم المدفعيون عن المدافع ذات السّتّ بوصات تهدر مُصمّةً تخطف الأبصار...ولكنّ حشداً جديداً من النساء تراكض من العنابر، وتصايح:

– لا تُطلقوا، يا باني[١٥]، لا تطلقوا من فضلكم، نتضرّع إليكم ألا تصرعوا التّعساء.

وأحاط بالمدافع من كلّ جانب. أمسكت البولونيات الغريبات الشّكل بأسياخ التّسليك، وعجلات المدافع، وأخذن بالأيدي، وتعلّقن ثقيلات بالمدفعيين المصعوقين بهدير المدافع، وتشبّثن بلحاهم، وسحبنهم إلى الأرض...وكان تحت بلوزة كلّ احدٍ منهم قميصٌ عسكريّ، وتحت كلّ تنورةٍ بنطلون عسكريٌّ...

وصرخ شخص:

– يا أصحاب، هؤلاء تشيكيون!

فعاجلته طلقة مُسدّس حطّمت رأسه...أخذ البعض المُقاومة، ولاذ البعض الآخر بالفرار...أما التشيكيون فكانوا قد خلعوا المغاليق من المدافع، وتراجعوا مُطلقين النار. ثمّ غابوا في الفواصل بين العنابر وكأنّ الأرض ابتلعتهم.

أعطبت البطاريّة، وسكتت الرشاشات، واستمرّ التشيكيون في الهجوم مُحتلين ضواحي سامارا فيما وراء النّهر ووصلوا إلى الفولغا.

في صباح اليوم التالي انقشعت السُّحب، وانعكست الشّمس الجافّة على نوافذ بيت دميتري ستيبانوفيتش غير المغسولة. كان الدُّكتور جالساً إلى الطاولة في هندام أنيق، وعيناه غائرتان، لأنّه لم ينم الليلة. كان مغسل الأواني والصينيّةً وصحون الفناجين مملوءاً بأعقاب السّكائر. كان بين الفينة والأخرى يتناول بمشطٍ مكسور، ويُمشّط به

١٥– "باني" جمع "بان" وهي تعني السيّد بالبولونيّة (الـمُترجم).

خصلات شعره الجعداء الشائبة إلى جبينه. كان يتوقّع في كلّ لحظةٍ أن يُدعى لأداء واجباته الوزاريّة. لقد تبيّن أنّه كان طموحاً.

كان الجرحى يمرّون بنوافذ بيته في شارع دفوريانسكايا وكأنّهم يسيرون في مدينةٍ شبه ميتة. وكان بعضهم يجلس على الأرصفة بمحاذاة الجدران، ويلفّون جراحهم بخرقٍ مُدمّاة على نحوٍ ما. وكانوا يرفعون أبصارهم إلى النوافذ الفارغة، ولكن لا يجدون أحداً يطلبون منه ماءً أو خبزاً.

كانت الشّمس تسخّن الشارع الذي لم تُرطّبه عاصفة المطر ليلاً. وكانت أصوات المعركة تترامى قادمةً من وراء النّهر. انطلقت سيارةٌ مليئة شارع دفوريانسكايا بسحب الغُبار الكلسيّ، وتراءى وجه المفوّض العسكريّ الملتوي ذي الفم الأسود. انحدرت السيارة في الشارع عبر الجسر الخشبيّ، حتى نُسفت بقذيفة مدفع بكلّ رُكابها، كما ذُكر فيما بعد. توقّف الزّمن. وبدت المعركة بلا نهاية. وخمدت المدينة فلم تعد تتنفّس. وارتدت نساء المُجتمع أثوابهنّ البيضاء واستلقين واضعاتٍ الوسائد على رؤوسهنّ. وتناولت لجنة الجمعيّة التّأسيسيّة شايها الصّباحيّ الذي أعدّته صاحبة الطاحونة. وبدت وجوه الوزراء في السّرداب شاحبةً شحوب الموت. وأصوات المعركة ما تزال تترامى من وراء النّهر...

عند الظّهر تقدّم دميتري ستيبانوفيتش من النافذة ونخر وفتحها، حيث لم يعد قادراً على الجلوس في دخان التّبغ الأزرق. كان الشارع قد خلا من أيّ جريح. والكثير من النوافذ قد فتح فتحاتٍ صغيرة، فلاحت عينٌ تتلصّص من وراء ستارةٍ هنا، وتراءى وجهٌ منفعلٌ هنا وهناك. وأطلّت رؤوسٌ من مداخل البيوت، واختفت. كان يبدو

وكأنّ البلاشفة لم يعودوا في الوجود...ولكن ما هذه الطّلقات الـمُتتابعة من وراء النّهر؟..آه، يا أتعب الوضع!..

وفجأة–كمعجزة–ظهر من وراء الـمُنعطف ضابطٌ طويل السّاقين في سترةٍ عسكريّة ناصعة كالثّلج مرتفعةٍ عند الخصر، وتوقّف بُرهة، وسار في وسط الشّارع. كان سيفه يضربُ في جانب حذائه. وكانت كتافيّتاه المذهبتان تتألقان مثل شمس الظّهيرة، مثل نعمةٍ من العهد القديم.

ورفّ في قلب دميتري ستيبانوفيتش شيءٌ منسيّ، وكأنّما تذكّر شيئاً، ونق على شيء. أطلّ برأسه من النافذة بحيويّةٍ مُبهمة، وصاح على الضابط:

– عاشت الجمعيّة التّأسيسيّة!

ألقى الـمُلازم نظرةً غامزةً على وجه الطّبيب الـمُمتلئ، وأجاب على نحوٍ غامض:

– سنرى...

وأطلّ الناس من جميع النوافذ، ونادوا، وتساءلوا:

– يا حضرة الضابط...كيف الحال؟ استولينا؟ رحل البلاشفة؟

ارتدى دميتري ستيبانوفيتش قبّعةً بيضاء لها حافّةٌ ناتئة، وتناول عصاه، ونظر إلى نفسه في المرآة، وخرج. كان الناس يملؤون الشوارع، وكأنّهم خارجون من كنيسة. وفي الواقع رنّ جرس كنيسة رنيناً رقيقاً. تزاحم الجمهور الصاخب ببهجةٍ على المفرق. أمسكت بكُمّ دميتري ستيبانوفيتش إحدى زبائنه، وهي سيّدةٌ لها ثلاثة ذقون. كانت رائحة

النفتالين تفوح من الزّهور الاصطناعيّة على قبّعتها الضّخمة، وقالت:

– دكتور، انظر إنّهما تشيكيان!

كان تشيكيان يقفان عند مُلتقى الشوارع مُحاطين بالنّساء، وبندقيتاهما مائلتان إلى الأرض. أحدهما أزرق الوجه من الحلاقة، والآخر ذا شاربين أسودين ضخمين. كانا يبتسمان بعصبيّة، ويُلقيان نظراتٍ سريعة على السّطوح والنوافذ والوجوه.

كانت قبّعتاهما الأنيقتان، والسّترتان العسكريّتان بأزرارهما الجلديّة، والعلامتان المشدودتان على ذراعيهما اليسراوين، والحقيبتان وأمشاط الرّصاص المتينة، ووجهاهما النامّان عن تصميم، كلّ ذلك يبعث الانشراح والدّهشة المقرونة بالاحترام. فكأنّ هذين قدما إلى شارع دفوريانسكايا من عالمٍ آخر.

صاح بعض الموظّفين من وسط الزّحام:

– مرحى! عاش التشيكيون! لنرفعهم على أيدينا! هيا!

أراد دميتري ستيبانوفيتش أن يُقدّم التحيّة اللائقة، وقد انحشر مُنضغطاً ونخر من أنفه، إلا أنّ الانفعال جفّف حُنجرته، فأسرع إلى الشّقة السريّة، حيث كانت تنتظره التزاماتٌ رفيعة. كان السّرداب عند صاحبة الطاحونة فارغاً، لا شيء غير بقايا رائحة التّبغ الـمُحترق، ونفاضاتٍ مملوءةٍ بأعقاب السكائر، وفي طرف المنضدة كان رجلٌ أشقر ينام ورأسه مُلقىً على أوراقٍ رُسمت عليها وجوهٌ كبيرة الأُنوف. مسّ دميتري ستيبانوفيتش كتفه. تنفّس الأشقر نفساً عميقاً، ورفع وجهه الـمُلتحي بعينيه الزّرقاوين الفاتحين الـمُتقلّبتين بعد النّوم.

– ما الخبر؟

سأل دميتري ستيبانوفيتش بحدّة:

– أين الحكومة؟ الذي يتكلّم معك نائب وزير الصّحة.

– آه، الدّكتور بولافين. أوه، اللعنة. كنت...ما هي الحال في المدينة؟

– لم يتمّ تطهير كلّ شيء. ولكن هذه هي النّهاية. الدّوريات التشيكيّة في شارع دفوريانسكايا.

كشف الأشقر عن أسنانه فاتحاً فمه، وقهقه.

– لطيف!..يا للشيطان...مهارة! إذن فالحكومة ستجتمع هنا تمام الساعة الثالثة. إذا سار كلّ شيءٍ على ما يُرام سننتقل في المساء إلى مكانٍ أفضل...

وهل على دميتري ستيبانوفيتش حدسٌ مُخيف فقال:

– اعذرني...هل أنا أتحدّث مع عضوٍ في اللجنة المركزيّة للحزب؟! هل أنت أفكسينتيف؟

أجاب الأشقر بإيماءةٍ غير محدودة، وكأنّه يقول: «ما العمل...» دقّ جرس التّلفون. تناول السّماعة من على المنضدة.

– اذهب، يا دكتور. إنّ مكانك الآن في الشارع...تذكّر أننا يجب ألا نسمح بالـمُتطرفين...أنت ممثّل المثقّفين البرجوازيين. فحاول أن تهدّئ من ثائرتهم...وإلا فأنت تعرف–وغمز له–ستحدث مُنغّصاتٌ في الـمُستقبل...

خرج الدّكتور. كانت المدينة كلّها الآن قد خرجت إلى الشّوارع. كان الناس يتبادلون التّحيات، وكأنّهم في عيد الفصح. وكانوا يتبادلون التهاني، ويتناقلون الأخبار...

– البلاشفة يندفعون إلى ساماركا بالآلاف. يُحاولون العبور إلى هذه الضّفّة...

– ولكن يقتلونهم...

– وغرق منهم الكثير...

– صحيحٌ تماماً. الفولغا كلّها في أسفل المدينة مغطّاةٌ بالجُثث...

– إذن فشكراً للخالق على ذلك...أنا لا أعتبر ذلك خطيئة...

– حقاً موت الكلاب للكلاب...

– يا سادة، هل سمعتم؟ قذفوا القندلفت من على برج الجرس...

– مَنْ؟ البلاشفة؟

– حتى لا يدقّ الجرس..هذا ما يُسمى صفق الباب وراءك...يُمكن أن أفهم لو كان آخر غير القندلفت.

– إلى أين، يا أب؟

– إلى الأسفل. أريد أن أعاين الهُري. هل هو سالم؟

– هل فقدت عقلك؟ ما زال البلاشفة على أرصفة النّهر.

– دميتري ستيبانوفيتش، جاء اليوم السّعيد!..لماذا أراك مشغول الفكر؟

– اختاروني نائب وزير...

– تهانيّ، يا صاحب المعالي...

– لم يحن الوقت بعد للتّهنئة... لم نستولِ على موسكو بعد...

– آه، يا دكتور، على الأقلّ أن تتنفس هواءً نقياً..وسنقول شكراً على ذلك...

كانت الكتافيات الـمُذهّبة تطوف في الحشد هنا وهناك مُتباهية. كانت رمزاً لكلّ ما هو قديمٌ ومريحٌ ومأمون. مرّت جماعةٌ من الضّباط بخطىً حازمة يُصاحبها صبيان مُناكفون. ضحكت نساءٌ أنيقات. انعطف الجمهور من شارع سادوفايا إلى شارع دفوريانسكايا ماراً بفيلّا لكورلينا ذات الأُبّهة السّخيفة، المرصوفة بالبلاط الأخضر. اندفع رجلٌ في الحشد...

– ما هذا؟ ماذا حصل؟

– يا حضرة الضابط، في هـذا الفناء بلشفيان يختفيان وراء الخشب...

– هكذا...يا سادة، يا سادة، تحرّكوا...

– إلى أين هرب أولئك الضباط؟

– يا سادة، يا سادة، لا حاجة إلى أيّ فزع...

– وجدوا أعضاءً في اللجنة الاستثنائيّة!

– دميتري ستيبانوفيتش، لنبتعد احتياطاً، وإلا...

صدرت طلقات. ماج الحشد، وتراكض الناس فاقدين قبّعاتهم.

ووجد دميتري ستيبانوفيتش نفسه في شارع دفوريانسكايا مرّةً أخرى لاهثاً. وشعر بالمسؤوليّة إزاء كلّ ما يحدث. بلغ الساحة وقلّص عينيه ناظراً إلى المسلّة التي تُغطي نصب ألكسندر الثاني. مدّ ذراعه، وقال بلهجةٍ غاضبة وبصوتٍ عالٍ:

– البلاشفة مُستعدّون لتحطيم كلّ ما هو روسيّ. وهم يُريدون أن ينسى الشّعب الروسيّ تاريخه. هنا ينتصب تمثالٌ لقيصرٍ محرّر لا يؤذي أحداً. ارفعوا عنه هذه الألواح السخيفة، وهذه الخِرق الكريهة.

كان هذا أوّل خطابٍ له في الشّعب. وفي الحال صاح شُبان في قُبّعات لها حوافٍ ناتئة–تدلّ هيئتهم على أنّهم باعةٌ في حوانيت:

– اكسروها!

ارتفعت قرقعة الألواح، وهي تخلع عن التّمثال. وواصل دميتري ستيبانوفيتش سيره. قلّ الجمهور، كانت الطلقات تتردّد هنا من وراء النّهر بأصواتٍ أعلى. جاء رجلٌ عارٍ إلا من سروالٍ داخليٍّ مُبلّل يركض من الجهة الـمُضادّة للجهة التي كان يتقدّم منها دميتري ستيبانوفيتش. كان شعره الداكن يتهدّل على عينيه، وصدره العرض موشوماً. تصايحت بعض النّسوة، وابتعدن عنه مُتراكضاتٍ إلى البوابات. استدار الرّجل فجأة، وانطلق هابطاً الـمُنحدر إلى الفولغا. ركض وراءه ثلاثةٌ آخرون، ثمّ آخرون، وآخلون مُبلّلين نصف عُراةٍ لاهثين...وارتفعت أصواتٌ في الشارع:

– بلاشفة! اقتلوهم!

كان الجميع كالشناقيب التي أفزعتها الطّلقات ينعطفون نحو

المُنحدر، إلى الأرصفة. قلق دميتري ستيبانوفيتش، وركض أيضاً، وأمسك برجلٍ سقيمٍ ذي أنفٍ معقوف، وبلا رُموش.

– أنا وزيرٌ في الحكومة الجديدة... يجب أن توضع رشاشةً هنا في الحال! اذهب، واجلبها، أنا آمرك...

– لا أفهم الكلام الروسيّ.

أجاب الرّجل السّقيم مُتعضاً مُديراً لسانه بصعوبة... دفعه الطّبيب... يجب الإسراع بالفعل... ذهب بنفسه ليبحث عن تشيكيّين عندهم رشاشة... وإذا به يرى بلشفياً آخر عند المدخل الحديديّ، حيث كانت تتعلّق نجمةٌ حمراء نصف مخلوعة. كان الرّجل مسودّ البشرة من تلويح الشّمس، حليق الرّأس ذا لحية تتريّة. كان القميص العسكريّ الذي يرتديه مُمزّقاً، وقد سال الدّم من بقعة صغيرة على كتفه. هزّ رأسه كالكلب مُبدياً أسناناً صغيرةً مقرقشاً، وقد لاح عليه الرّعب من الموت.

هاجمه حشدٌ من الناس، وتفوّهت النّساء خاصّةً بكلمات مُبهمة. ولوّح الكثيرون بالمظلات والعصيّ والقبضات المضغوطة... واحتدّ جنرالٌ متقاعدٌ واقف على درجات مدخل بيت ورفع صوته فوق جميع الأصوات ملوّحاً على البلشفيّ بذراعيه الليلقيّتين. وقد تحدّرت طاقيّته الضّخمة على صلعتيه الجانبيّتين، وتأرجح الوسام تحت رقبته الرّخوة.

– احزم، يا سادة... إنّه مفوّض... بلا رحمة... إنّ ابني هو الآخر أحمر... محنةٌ عظيمة... أرجو، يا سادة، أن تجدوا ابني وتجلبوه لي...

سأقتله هنا، أمام الجميع. أقتل ابني...يجب ألا تكون ثمّة رحمةٌ في هذا الخصوص أيضاً...

فكّر دميتري ستيبانوفيتش قلقاً: «التّدخّل لا فائدة منه في هذه الحال» وتلفّت مُبتعداً...هدأت الصّيحات...وفي المكان الذي كان يقف فيه المفوّض الجريح قبل حين كانت المظلات والعصيّ تلوح في الهواء...عمّ السّكون تماماً، ولم تُسمع إلى الضّربات.

نظر الجنرال الـمُتقاعد من على مدخل البيت إلى الأسفل ملوّحاً بذراعيه بوهنٍ كقائد فرقةٍ موسيقيّة، وقد نزلت قُبّعته على أنفه. لحق بدميتري ستيبانوفيتش كاتب العدل ميشين. كان في سترةٍ قذرة مزرّرةٍ حتى عُنقه، ووجهه مُنتفخ، ونظارته الأنفيّة قد فقدت إحدى عدستيها.

– قتلوه...انهالوا عليه بالمظلات...إنّه فظيعٌ مثل هذا الحكم الكيفيّ للغوغاء...آه، يا دكتور، ويقولون إنّ أشياءً فظيعةً تحدث على شاطئ ساماركا...

– لنذهب إلى هناك في هذه الحال...أنت تعرف أنني في الحكومة...

– أعرف، أنا مسرور...

وباسم الحكومة أوْقف دميتري ستيبانوفيتش جماعةً من ستّة ضبّاط، وطالبهم بمصاحبته إلى شاطئ النّهر، حيث كانت تجري تجاوزاتٌ غير مرغوبٍ فيها. الآن كانت الدّوريات التشيكيّة تقف في كلّ مكانٍ عند مفارق الشوارع. كانت النّساء الأنيقات يُزيّنهن بالزّهور، ويُعلّمنهن النطق بالروسيّة مُتضاحكاتٍ ضحكاً رنّاناً مُحاولات أن يعجب

الأجانت بالنّساء والبلدة وبروسيا كلّها التي أذاقت التشيكيين العلقم في سنوات الأسر.

على شاطئ ساماركا القذر قضى مُتطوّعون من الأهـالي على فلول الحُمر الفارّين من ضواحي سامارا. وصل دميتري ستيبانوفيتش إلى هناك متأخّراً كثيراً. استطاع الحُمر الذين وقفوا في عبور الجسر الخشبيّ، وعبروا النّهر سباحةً بخطٍّ مائل أن يركبوا الصّنادل والسُّفن، ويرحلوا إلى أعلى الفولغا. كانت بعض الجُثث مطروحةً على الشاطئ في الموج الـمُتكاسل، ومئاتٌ أخرى قد جرفتها الفولغا.

كان غفيادين يجلس على زورق مقلوب عفن، وقد شدّ على كمّه شريطاً ثُلاثيّ الألوان. وشعره الكتّانيّ مُبلّلٌ من العرق. كانت عيناه البيضاوان تماماً تنظران ببؤبؤيهما الصّغيرين إلى النّهر الـمُشمس.

تقدّم دميتري ستيبانوفيتش منه، وهتف بحدّة:

– أيّها السّيّد مُعاون رئيس الميليشيا، بلغني أنّ تجـاوزاتٍ غير مرغوبٍ فيها تحدّث هنا..والحكومة تأمر بأن...

لم يتمّ الدّكتور كلامه إذ وقع بصره على هراوةٍ من البلّوط في يدي غفيادين التصق بها دمٌ وخُصلٌ من الشّعر. همس غفيادين بصوتٍ مكتوم. يكادُ يسمع:

– هكذا آخر يعوم...

ونزل من الزورق بتراخٍ، وتقدّم من الماء، ونظر إلى رأسٍ حليق يعوم ببطءٍ وانحرافٍ عن التيار. تقدّم خمسةٍ أو ستّةٍ من الشّبان من غفيادين ومعهم العصي. عندئذٍ عاد دميتري ستيبانوفيتش إلى ضبّاطه الذين

كانوا يشربون الكفاس[16] البافاريّ من بائعٍ نشط في مئزرٍ نظيف لا أحد يعرف أيّة حماسة جعلته يخرج بعربته. خطب الدّكتور بالضّباط يحثّهم على وضع حدٍّ للقسوة الزائدة. وأشار إلى غفيادين وإلى الرّأس العائم. حرّك ضابط الفرسان الطّويل الساقين ذو القميص الناصع الذي رأيناه قبل حين، حرّك شاربيه الأبيضين من زبد الكفاس، ورفع بندقيّته، وأطلق الرّصاص. فغاص الرّأس تحت الماء.

عندئذٍ شعر دميتري ستيبانوفيتش بأنّه فعل كلّ ما يتعلّق به، فاستدار عائداً إلى المدينة. كان عليه ألا يتأخّر على اجتماع الحكومة الأوّل. صعد في التّل لاهثاً مُثيراً الغبار بحذائه. كان نبضه لا يقلّ عن مائة وعشرين. لقد تكشّفت أمام بصره آفاق تدير الرّأس: الزّحف على موسكو، الرّنين الرّقيق لكنائسها التي لا تُحصى، بل والله يعلم ربّما كرسيّ الرّئاسة...فإنّ الثّورة أمرٌ لا يُحرز، وإذا تدهورت مُتراجعةً فإنّ كلّ هؤلاء الاشتراكيين–الثّوريين والاشتراكيين–الديمقراطيين سيجدون أنفسهم صرعى تحت عجلاتها في لمحة البصر...لا، لا، لنوقف أعمال اليساريّين المُتطرّفين.

١٦– مشروبٌ مصنوع من الخُبز الأسود (المُترجم).

-٧-

جلست يكارينا دميتريفنا في غرفة الجلوس الواطئة وراء شُجيرة الدُّريقة، عصرت المنديل الـمُبلّل بالدّمع، وراحت تكتب رسالةً إلى أختها داشا. كان المطر يصفح النافذة المحبّبة، والأقاصيا تتمايل في الفناء بشدّة. وكان ورق الجدران المحلول يهتزّ في الريح الذي كانت تسوق السّحب من بحر آزوف.

كتبت كاتيا:

«داشا، يا داشا. قُنوطي لا حدود له. فاديم قُتل، وقد أبلغني بذلك صاحب البيت الذي أعيش فيه، الـمُقدّم تيتكين. لم أصدّق، وسألته ممن عرف ذلك. فأعطاني عنوان فاليريان أونولي أحد رجال كورنيلوف الذي جاء من الجبهة. في الليل هرعت إلى فندقه. يبدو أنّه كان سكران، فقد جرّني إلى غرفته، وأخذ يعرض علي أن أشرب النّبيذ... كان ذلك فظيعاً... أنت لا تستطيعين أن تتصوّري أيّ أناسٍ هنا... سألته: «هل زوجي قُتل؟..» كان أونولي من الفوج الذي خدم فيه فاديم ورفيقه، وقد اشترك معه في معارك... وكان يراه كلّ يوم... أجابني باستهزاء: «نعم قُتل، فاهدئي، يا فتاة. فقد رأيت بنفسي كيف كان الذّباب يأكله...» ثمّ قال: «كان روتشين تحت الشّبهة عندنا، ومن حُسن حظّه أنّه قُتل في معركة...» ولم يذكر اليوم الذي حصل فيه الحادث، ولا المكان الذي قُتل فاديم فيه... توسّلت، وبكيت...

صرخ بي: «لا أذكر كلّ الأماكن التي قُتل فيها قتيلٌ ومتى». وعرض على نفسه كبديل...آه، داشا! أيّ أناسٍ هؤلاء!..هربت من الفندق مذهوبة العقل...

أنا لا أستطيع أن أصدّق أنّ فاديم لم يعد في الوجود...ولكن لا يجوز ألا أصدّق به. فلماذا يكذب هذا الرّجل؟ المقدّم أيضاً يقول هذا ما حصل، كما يبدو... لم أتلقّ من فاديم طوال وجوده في الجبهة غير رسالةٍ واحدةٍ قصيرة تبدو وكأنّما كتبها شخصٌ آخر غيره...وقد جاءتني في الأسبوع الثاني بعد عيد الفصح...رسالةٌ بلا خطاب... وهذه هي كلمةٌ بكلمة:

«أرسل لك نقوداً...أنا لا أستطيع أن أراك...أتذكّر كلماتك عند الفراق...أنا لا أعرف هل يُمكن أن يكفّ الإنسان عن أن يكون قاتلاً...أنا لا أدري كيف أصبحت قاتلاً...وأنا أحاول ألا أفكر، ولكن يبدو أنني سأضطرّ إلى أن أفكّر وأن أفعل شيئاً...وأن يزول ذلك–إذا كان ذلك مُمكناً–عندئذٍ سنتقابل...».

وهذا كلّ شيء، يا داشا، وكم ذرفت من دموع. لقد رحل عنّي ليموت...بأيّ شيءٍ كنت أستطيع أن أوقفه، أعيده، أنقذه؟ ماذا في وسعي أن أفعل؟ أن أضمّه في قلبي بكلّ قوّتي...هذا فقط...ولكنّه لم يعد يلاحظني في المدّة الأخيرة. كانت الثّورة تحدّق في وجهه بكلّ عيونها. آه، أنا لا أفهم شيئاً. هل ينبغي علينا جميعاً أن نعيش؟ لقد تهدّم كلّ شيء...نحن، كالطّيور في العاصفة ننطلق في أرجاء روسيا...لماذا. لو أنّ كلّ الدّم المُراق، كلّ العذابات والآلام تُعيد لنا البيت، وغرفة الطّعام النّظيفة، والأصحاب الذين يلعبون الورق...

فهل سنعود سعداء من جديد؟ إنّ الماضي مات، مات إلى الأبد، يا داشا...وانتهت الحياة، فليأت آخرون أقوياء وأفضل..."

وضعت كاتيا القلم، ومسحت عينيها بمنديلٍ مدعوك. ثمّ نظرت إلى المطر النازل على زجاجات النافذة الأربع. كانت الأقاصيا تنحني وتتمايل في الفناء بشدّة، وكأنّ الريح الغاضبة تنفش شعرها. وعادت كاتيا تكتب:

«رحل فاديم إلى الجبهة. وحلّ الرّبيع. كان هدف حياتي كلّها انتظاراً لفاديم. ما أحزن ذلك، وما كان أقلّه ضرورةً لأيّ إنسان... أتذكّر كيف نظرت من خلال الشّباك قُبيل المساء. وقد تفتّحت الأقاصيا، وتفتّقت البراعم الكبيرة. واضطرب سربٌ من العصافير... وأحسست بالكدر والوحشة...أنا غريبة، غريبةٌ على هذه الأرض... انتهت الحرب، وستنتهي الثّورة. وستتغيّر روسيا. نُقاتل، ونهلَك، ونتعذّب. أما الشجرة فتتفتّح كما تفتّحت في الرّبيع الماضي، الذي سبقه، وما قبله وقبله. وهذه الشّجرة والعصافير—والطبيعة كلّها—قد ابتعدت عني إلى مدىً كبير، وهي تعش هناك حياتها غير المفهومة لي...

داشا، لماذا عذاباتنا كلّها؟ لا يُمكن أن تكون عبثاً...نحن، النّساء، أنا وأنت، نعرف عالمنا الصّغير...ولكن كلّ ما يحدث حولنا—كلّ روسيا—أيّ موقدٍ مُلتهبٍ هو! لا بُدّ أن خلق هناك سعادةٌ جديدة... وإذا كان الناس لا يؤمنون بذلك، فليس من المعقول أن يصير أحدهم يبغض الآخر ويَقتل أحدهم الآخر بهذا الشّكل...لقد فقدت كلّ شيء...ولست بحاجةٍ إلى نفسي...ولكنني أعيش لأنّه من العار،

ليس من الخوف، بل من العار أن أضع رأسي تحت عجلات قطار... أو أن أتعلّق من حبلٍ على خشبة.

غـداً سأغادر روستوف كي أنسى كـلّ شيء..وأسافر إلى يكاترينوسلاف...فهناك عندي معارف. وهم ينصحونني بأن أعمل في محلّ حلويات. ربّما ستأتين أنت أيضاً إلى الجنوب، يا داشا...يقولون إنّ الحال عندكم في بتروغراد سيّئةٌ جداً...هذا هو الفرق: إنّ المرأة لن تهجر حبيبها ولو كان في نهاية العالم...بينما رحل فاديم...لقد أحبّني طالما كان واثقاً من نفسه...أنت تذكرين أيّ شمس كانت تضيء سعادتنا في بطرسبورغ في حزيران...لن أنسى ما حييت شمس الشمال الشاحبة...لم تبق لي من فاديم صورةٌ فوتوغرافيّة، ولا شيء آخر...كأنّ كلّ شيءٍ كان حُلماً...لا أستطيع، يا داشا، لا أستطيع أن أصدّق بأنّه قُتل..أظنّ أنني سأفقد عقلي...لقد عشت حياتي عيشةً حزينة، وبلا جدوى..."

ولم تستطع كاتيا أن تستمرّ في الكتابة أكثر...كان المنديل قد تبلّل كلّه...ومع ذلك فقد كان يجب أن تنقل إلى أختها كلّ ما هو مألوفٌ واعتياديّ ممّا يقدّره الناس أكثر من غيره في الرسائل...وقد كتبت تحت ضجيج المطر هذه الكلمات دون أن تضع فيها فكرةً أو شعوراً...عن ثمن المواد الغذائيّة، وعن غلاء المعيشة..."لا توجد أيّة أقمشة، ولا خيط...والإبرة بألف وخمسمائة روبل أو بخنوصين حين...جارتي في البيت، فتاةٌ في السابعة عشرة عادت ليلاً عاريةً مضروبة، فقد جرّدوها من ملابسها في الشارع. والشّيء الرئيسيّ أنهم يقتنصون الأحذية اقتناصاً..." وكتبت عن الألمان أنّهم يعزفون في حديقة البلديّة موسيقى عسكريّة، وهم يأمرون بكنس الشوارع.

أما الحبوب والسَّمنة والبيض فيحملونها بالقطارات إلى ألمانيا... وعامّة الناس والعُمال يكرهونهم، ولكنّهم يلزمون الصّمت، لأنّهم لا يتوقّعون معونةً من أحد.

وكلّ ذلك أخبرها به المقدّم تيتكين. "إنّه طيّبٌ جداً ولكنّ إطعام فم زائد كان يُرهقه على ما يبدو. وزوجته لم تعد تخجل من أن تذكر ذلّك". وكتبت كاتيا أيضاً: "يوم أمسِ الأوّل أكملت ٢٧ عاماً من عُمري، ولكنّ شكلي..أوه، دعك عن هذا...إنّه غير مهمّ الآن... ليس لي أحدٌ يهتمّ بشكلي..."

وتناولت المنديل مرّةً أخرى. سلّمت كاتيا هذه الرّسالة إلى تيتكين. فوعد بأن يُرسلها إلى بتروغراد في أقرب فُرصة. ولكنها ظلّت في جيبه مدّةً طويلةً بعد رحيل كاتيا. كان الاتّصال بالشّمال صعباً جداً. ولم يكن البريد يعمل. وكانت الرّسائل بأيدي رُسُلٍ خاصّين من الـمُجازفين، وكانوا يتقاضون عليها نقوداً كثيرة.

باعت كاتيا، قُبيل رحيلها، كلّ الأشياء القليلة التي حملتها من سامارا. لم تُبق إلا شيئاً واحداً هو الخاتم الزّمرّديّ الذي كان قد أُهدي لها في عيد ميلادها. وكان ذلك منذ زمنٍ بعيد قبل الحرب، في صباح ربيعيّ في بطرسبورغ. وقد صار ذلكً ذكرىً بعيدةً حتى أنّ كاتيا لم تحسّ بارتباطها مع تلك المدينة الضّبابيّة التي انقضى فيها صِباها...خرجت داشا والمرحوم نيقولاي إيفانوفيتش وكاتيا إلى جادة نيفسكي...واختاروا خاتماً فيه فصٌّ من الزّمرّد. فوضعت القبس الأخضر في إصبعها، ولم يبق إلا هو من الحياة الماضية...

غادرت عدة قطارات محطّة روستوف تباعاً. دُفعت كاتيا وحُشرت

في عربةٍ من الدّرجة الثالثة. فجلست عند النافذة، ووضعت على ركبتيها صُرّةً من الثياب الداخليّة المرقّعة. ومرّت بها الـمُروج المغمورة بالماء، ومُستنقعات الدون، والأدخنة في الأُفق، والمعالم الضّبابيّة لباتايسك التي لم يقهرها الألمان. وتحت الضّفّة العالية قُرى الصيّادين الغاطسة في الماء إلى النّصف، وبيوتٍ طينيّة وبساتين وزوارق مقلوبة، وأولادٌ يحملون عُدَدَ صيد. ثمّ انبسط بحر آزوف كغطاءٍ حليبيّ، وفي البعيد بعض القوارب الشّراعيّة المائلة. ثمّ المداخن الـمُنطفئة لمصانع تاغانروغ، وسهوب ورواب ومناجم مهملة وقرىً كبيرة على مُنحدرات تلال طباشيريّة، وبواشق في السّماء الزّرقاء. وصفير القطار موحشٌ كهذه الرّحاب. وفلاحون جهمون في المحطات. وخوذ الألمان الحديديّة...

نظرت كاتيا من نافذة القطار مُنحنية الظّهر كالعجوز. لعلّ وجهها كان حزيناً وحلواً حتى أنّ الجنديّ الألمانيّ الذي كان يجلس قبالتها حدّق طويلاً في هذه المرأ الروسيّة القريبة. وكان الحُزن أيضاً يبدو على وجهه النّحيل الـمُتعب في نظّارةٍ إطارها من النيكل.

قال لها بالألمانيّة بصوتٍ خفيض:

– الجُناة يُلقون القصاص على كلّ شيء، يا سيّدة. سيحين الوقت. سيكون ذلك عندنا في ألمانيا، وفي العالم أجمع: المحكمة الكُبرى... سوسياليزموس سيكون اسمها...

لم تفطن كاتيا في الحال إلى أنّه يُخاطبها بالذات. رفعت بصرها إلى النّظارة الصافية الكبيرة النيكليّة الإطار. أحنى الألمانيّ رأسه لها بمودّة:

– السّيدة تتكلّم بالألمانيّة؟

- نعم.

- حين يتعذّب الإنسان كثيراً يجد السّلوى في معقوليّة أسباب عذابه. -قال الألمانيّ وقد وضع رجليه تحت المقعد، وأنزل جبهته بحيث أنّ عينيه صارتا تنظران إلى كاتيا من فوق النّظارة. -لقد درست كثيراً تاريخ الإنسانيّة. إننا بعد فترةٍ طويلةٍ من الهدوء نعود مرّةً أخرى لندخل في عهد الكوارث. هذا هو استنتاجي. نحن نشهد بداية انهيار حضارةٍ عظيمة. وقد مرّ العالم الآريّ بمثل ذلك ذات مرّة. كان ذلك في القرن الرابع، حين خرّب البرابرة روما. والكثيرون مُستعدّون لإيجاد أوجه تشابهٍ في عصرنا هذا. ولكنّ هذا لا شيء. فروما قد حطّمتها أفكار المسيحيّة. ولم يعمل البرابرة أكثر من أن مزّقوا جثّة روما. أما الحضارة الحديثة فإنّ الاشتراكيّة ستُعيد تنظيمها. في المثل السابق كان هناك هدم، أما هنا فإنشاء. كانت أكثر أفكار المسيحيّة تحطيماً هي الـمُساواة، والأمميّة، والتّفوّق الخلقيّ للفقراء على الأغنياء. وكانت هذه أفكار البرابرة الذين كانوا يُغذّون روما الطّفيليّة الفظيعة الغارقة في التّرف. وبسبب ذلك كان الرومان يخافون المسيحيين ذلك الخوف الشّديد ويلاحقونهم بتلك القسوة. ولكنّ المسيحيّة لم تكن لها فكرةٌ إنشائيّة، ولم تنظّم العمل. واكتفت على الأرض بالتّهديم فقط، أما سائر الأشياء فقد وعدت بها في السّماء. المسيحيّة لم تكن إلا سيفاً للتحطيم والعقاب. وحتى في السماء وفي الحياة الـمُثلى لم يكن في وسعها أنْ تعدّ إلا نظام الامبراطوريّة الرومانيّة الطّبقيّ البيروقراطيّ ذي المقامات المقلوب رأساً على عقب. وكانت هذه أخطاءها الرّئيسيّة. وبمقابل ذلك وضعت روما فكرة النّظام. ولكنّ انعدام النّظام في ذلك الحين-الفوضى الشاملة-كان هو الحلم الأمثل

للبرابرة الذين كانوا يتحيّنون ساعة اقتحام أسوار روما. وقد حانت تلك الساعة. وتحوّلت المدن إلى خرائب داخنة. وتناثرت الجُثث في الطّرقات مطعونة بالسّنان مسحوقةً بعجلات البرابرة. ولم يكن ثمّة خلاص لأنّ أوروبا وآسيا الصُّغرى وإفريقيا كانت تحترق من أدناها إلى أقصاها. وحام الرومان كالطّيور فوق حريق العالم. فقتلهم البرابرة، وفتكت بهم الوحوش في الغاب، وهلكوا في الصحاري من الجوع والحرّ والقرّ. قرأت قصّةً لأحد المُعاصرين تحكي كيف أنّ "بروبا" زوجة حاكم روما هربت في قاربٍ ليلاً مع ابنتيها من روما التي اجتاحها ألمان الرايخ. ورأت الرومانيات، وهنّ يعمن في نهر التيبر اللهب الذي كان يلتهم المدينة الخالدة. وكان ذلك نهاية العالم...

فكّ الألمانيّ صُرّة متاعه، وأخرج من قعرها دفتر مذكّرات سميك ذي غلاف جلديٍّ مُهترئ، واستغرق في توريقه بعض الوقت مُبتسماً ابتسامةً مُتحفّظة. قال وقد انتقل إلى مقعد كاتيا:

– هذا لتتصوّري على نحوٍ أفضل كيف كانت حالة الرومان قُبيل هلاكهم. استمعي إلى فقرةٍ من أميانوس مارسيلنوس. هذا وصفه لأسياد الكون:

«الأثواب الطّويلة من الأرجوان والحرير تُرفرف في الريح، وتتيح النّظر من تحتها إلى القميص الغالي المُطرّز برسوم الحيوانات المُختلفة. وعرباتهم المُغلقة المُرفقة بخمسين من الخدم تهزّ الأرصفة والبيوت وهي تنطلق في الشارع بسرعة فائقة. وإذا ما دخل أحدهم الحمامات المُتّصلة عادةً بحوانيت ومطاعم وأماكن للنّزهة فإنّه يطلب بلهجةٍ آمرة أن تخصّص كلّ أدوات الاستعمال العامّ لاستخدامه وحده. ويخرج من الحمامات لابساً خواتم وحليّاً مع الأحجار الكريمة، ورافلاً

بروبٍ ثمين يكفي قماشه لإكساء اثني عشر رجلاً. ثمّ تأتي الثّياب الخارجيّة التي ترضي غروره. وعلاوةً على ذلك لا يُنسى أن يتّخذ مظهر العظمة التي لا تُغتفر حتى لمارسيلوس العظيم غازي سيراقوسة. وأحياناً كان هو أيضاً يقوم برحلاتٍ جريئة ومعه حاشيةٌ ضخمة من الخدم والطّهاة والـمُشايعين والخصيان المشوّهين إلى ضياعه الإيطاليّة، حيث يُمارس صيد الطّيور والأرانب الداجنة. وإذا ما صادف لا سيما في ظهيرةٍ قائظة أن واتته الشّجاعة ليعبر بحيرة لوكرين بمركبه المذهّب قاصداً دارته البحريّة فإنّه فيما بعد يُقارن هذه الرّحلة بحملات قيصر واسكندر الأكبر. وإذا نفذت ذُبابةٌ إلى ما وراء السّتارة الحريريّة لسطح مركبه، أو سقطت أشّعة الشّمس من خلال الثّنيات فإنّه يندب حظّه العاثر متأسّفاً على أنّه لم يلد في البلدان الكيميريّة، حيث يُخيّم الظّلام الأبديّ. وضيوف الأعيان الـمُفضّلون هم الطّفيليون والمتزلّفون الذين يُهلّلون لكلّ كلمة للسيّد. إنّهم يتطلّعون بغبطةٍ إلى أعمدة الحجرات المرمريّة وإلى الأرضيّة الفسيفسائيّة. وعلى المائدة طيورٌ وأسماكٌ غير اعتياديّة في حجومها تثير دهشة الجميع حتى يجلب ميزان للتّأكّد من جسامة هذه المأكولات، وفي الوقت الذي يشيح فيه الضّيوف الرّزينون بوجوههم من هذا المنظر يطلب الطّفيليون كاتب عدلٍ ليكتب وثيقةً في صحّة هذه الأعاجيب...».

قال الألمانيّ وهو يصفق دفتر مذكّراته:

– نعم، *sic transit*(١٧). إنّ هؤلاء الناس راحوا يجوبون الطّرقات والـمُدن الـمُخرّبة بحثاً عن الطّعام. واستمرّت موجات البرابرة تأتي من الشّرق ساحقةً ناهبة. وبعد حوالي خمسين سنة لم يبق للامبراطوريّة

١٧– هكذا ينقضي...(مجد العالم).

الرومانيّة أثر. ونما العشب في مكان روما العظيمة وراحت الأغنام ترعى بين القصور المهجورة. وخيّم ليلٌ على أوروبا قرابة سبعة قرون.

وقد حدث ذلك لأنّ المسيحيّة استطاعت أن تدمّر، ولكنها لم تكن لديها فكرةٌ عن تنظيم العمل. والوصايا المسيحيّة لا تتحدّث عن العمل. إنّ قوانينها الخلقيّة لا تطبّق على من يزرع ويحصد، بل على من يزرع لهم العبيد ويحصدون. وأصبحت المسيحيّة دين الأباطرة والغُزاة. وبقي العمل غير مُنظّم، وخارج الأخلاق. والبرابرة الجُدد هم الذين يجلبون دين العمل إلى العالم، أولئك هم الذين يُحطّمون روما الثانية. هل قرأت شبينغلر؟ إنّه رومانيٌّ من رأسه حتى أخمص قدمه، وهو على صواب في شيءٍ واحدٍ فقط، وهو أنّ الشّمس تغرب من أوروبا له. ولكنها تشرق علينا. إنّه لا يستطيع أن يجلب البروليتاريا العالميّة إلى قبره. إنّ البجع يصرخ قُبيل الموت. وعلى هذا النّحو، أُجبرت البرجوازيّة شبينغلر على أن يصرخ كالبجعة...إنّه آخر ورقةٍ رابحةٍ لديها. لقد تعفّنت أسنان المسيحيّة. أما أسناننا فهي من حديدٍ. ونحن نُعارضها بالتّنظيم الاشتراكيّ للعمل...إنّهم يجبروننا على مُحاربة البلاشفة...أهوه!..أتحسبين أنّنا لا نفهم من يدفع يدنا، وضدّ مَنْ؟ إننا نفهم أكثر بكثير مما يبدو في الظاهر...من قبل كُنا نحتقر الروس. أما الآن فقد بدأنا نُعجب بالروس ونحترمهم...

مرّ القطار بقريةٍ كبيرة يصفر صفيراً ممطوطاً. تراءت بيوتٌ متينة ذات سقوفٍ مغطاةٍ بالحديد، وأكداس قشٍّ طويلة، وحدائق مُسيّجة، ولافتات حوانيت. سارت عربةٌ صغيرة على دربٍ متربٍ إلى جانب القطار يسوقها فلاحٌ يرتدي قميصاً عسكرياً بلا حزامٍ وقبّعةٍ من فروة. خروفٌ وقف الفلاح فارجاً ساقيه على العربة بعجلاتٍ حديديّةٍ لافاً

طرفيّ الزّمام. جرى الحصان الـمُمتلئ الضّخم مُحاولاً أن يسبق القطار. التفت الفلاح نحو نوافذ العربة، وهتف بشيءٍ كاشفاً عن أسنانٍ بيض. قال الألمانيّ:

– هذه غولاي–بوله. قريةٌ غنيّةٌ جداً.

اضطرّت كاتيا أن تنتقل من قطارٍ إلى آخر عدّة مرات، إذ أخطأت فلم تأخذ القطار الـمُباشر. وقد صرفها عن أفكارها الـمُرهقة الضّوضاء والانتظار في المحطات، والوجوه الجديدة، ورحاب السّهوب التي لم تكن قد رأتها من قبل مُنداحةً خارج نافذة العربة. وكان الألمانيّ قد نزل منذ وقتٍ طويل، وقد هزّ يدها بقوّةٍ عند الوداع. لقد كان هذا الرّجل شديدَ الوثوق في حتميّة الأحداث الراهنة، كما حدّد بدقّةٍ، على ما يبدو، نصيبه في الاشتراك فيها. وقد أدهش كاتيا تفاؤله الرّصين وأقلقها. فإنّ كلّ ما كان الجميع يعتبرونه هلاكاً وفظاعةً وفوضى كان بالنّسبة له بدايةً متوقَّعةً طويلاً لعهدٍ عظيم. كانت كاتيا طوال هذا العام لا تسمع غير صريف الأسنان العاجز، وتنهُّدات اليأس الشّديد، ولا ترى–مثل ذلك الصّباح من آذار في بيت أبيها–غير وجوهٍ متلوّية، وقبضاتٍ مشدودة. صحيحٌ أنّ المقدّم تيتكين لم يكن يتنهّد و لم يصرف بأسنانه، إلا أنّه، على حدّ تعبيره، «مغتبط» وكان يرحّب بالثّورة انطلاقاً من إيمانه «الـمُغتبط» بالعدالة.

كان جميع الناس في الوسط الذي عاشت فيه كاتيا يرون في الثّورة هلاكاً نهائياً لروسيا وللثقافة الروسيّة، وهزيمة للحياة كلّها، وفتنة عالميّة، وسِفْر الرّؤيا الموعودة. لقد كانت هناك امبراطوريّة، وكان جهازها يعمل بشكلٍ مفهوم واضح. كان الفلاح يحرث، وعامل المنجم يقلع الفحم، والمعامل تصنع البضائع الرّخيصة والجيّدة،

والتّجار يبيعون بنشاط، والموظّفون يعملون كالساعة. والناس الذين في الأعلى كانوا يتنعّمون بنعم الحياة. وكان يُقال إنّ مثل هذا النّظام غير عادل. ولكن ما العمل؟. والله قد قضى بذلك. وفجأةً يتحوّل كلّ شيءٍ إلى حُطام، وتتحوّل الامبراطوريّة إلى خليّة نملٍ مُهاجة... وسار رجلٌ وعربد مترنّحاً وعيناه مُبيضّتان من الفزع...

توقّف القطار طويلاً في سكونٍ عند محطّة صغيرة. أخرجت كاتيا رأسها من القطار. كانت أوراق شجرةٍ عاليةٍ تحفّ حفيفاً هادئاً في الظّلام. وكانت السّماء الـمُنجّمة تبدو لاً نهائيّة فوق هذه الأرض التي يلفّها الغُموض.

وضعت كاتيا مرفقيها على إطار النافذة المفتوحة. ذكّرها حفيف الأوراق والنّجوم ورائحة الأرض الدافئة بإحدى الليالي... كان ذلك في متنزّهٍ قُرب باريس... وكان بعض الأشخاص وجميعهم بطرسبورغيون تعرفهم جيداً قد جاؤوا إلى هناك في سيّارتين... وكان الجوّ رائقاً جداً في التّعريشة فوق البركة التي تناولوا عشاءهم فيها حيث كانت أشجار الصّفصاف الباكي تبدو كالغمائم الفضيّة فوق الماء.

كان بين الذين كانوا يتناولون العشاء رجلٌ ألمانيّ عاش في وقتٍ ما في روسيا لا تعرفه كاتيا. وكان يجيد التّحدّث بالفرنسيّة. وكان يرتدي بدلة المساء وبلا قبّعة. كان نحيلاً ذا وجه عصبيٍّ مُستطيل ذا جبينٍ عريض مشى فيه الصّلع، وعينين جدّيتين لهما جفنان ثقيلان. وكان يجلس هادئاً واضعاً أصابعه الطّويلة على أسفل قدح النّبيذ. كانت كاتيا حين تُعجب بشخص يُشيّع في داخلها دفءٌ وحنان. وكان الليل التّمّوزيّ يبدو وكأنّه يمسّ كتفيها نصف العاريتين.

وكانت النّجوم تتراءى من خلال أوراقه الكرمة الـمُتسلّقة التّعريشة، والشّموع تُلقي ضوءاً دافئاً على وجوه الأصدقاء والفراشات الليليّة على مفرش المائدة وعلى وجه الغريب الغارق في أفكاره. وأحسّت كاتيا بأنّه مُستغرقٌ في أفكاره وهو ينظر إليها. لعلّها كانت حلوةً جداً في ذلك المساء. وحين نهضوا من وراء المائدة، وساروا في الدّرب القائم المعرش بأشجارٍ طويلةٍ متّجهين إلى نهاية الـمُنتزه، إلى السّطيحة ليطلّوا منها على أضواء باريس سار الألمانيّ إلى جانبها وقال بصوتٍ صارمٍ مؤكّداً أنّه لا يريد أن يُعطى لكلامه معنيين:

– ألا تعتبرين الجمال، أيّتها السّيّدة، غير جائزٍ وغير مسموحٍ به؟

كانت كاتيا تسير ببطء. ما أعذب أن يكون هذا الرّجل قد بدأ حديثاً معها، وأنّ صوته لم يكن يغطّي على حفيف أوراق الأشجار القائمة. كان الألمانيّ ينظر إلى الأمام، وهو يسير إلى يسارها مُرسلاً بصره إلى أعماق الدّرب. حيث كان يلوح وهج المدينة الليلقيّ. وتابع الرّجل قوله:

– أنا مُهندس، وأبي ثريٌّ جداً. وأنا أشتغل في مشاريع كبيرة، أتعامل مع مئات الألوف من الناس. وأرى وأعرف الكثير مما تجهلينه. اعذريني، هل حديثي مُضجرٌ لك؟

أدارت كاتيا رأسها نحوه، وابتسمت صامتة، وعلى انعكاس الوهج البعيد لمح الألمانيّ ابتسامةً في عينيها فتابع قوله:

– نحن، لسوء الحظّ، نعيش على مُلتقى قرنين. أحدهما، العظيم والبهيّ، يزول. والثاني يولّد في ضجيج الآلات، والشّوارع المعمليّة الصارمة المظهر والرّتيبة. وأسمّي هذا القرن بقرن الجماهير، الجماهير

الإنسانيّة، حيث تتحطّم جميع الفوارق. إنَّ الإنسان ليس إلا يدين ماهرتين توجّهان الآلات. هنا قوانين أخـرى، وحسابٌ جديد للزّمن، وحقيقةٌ أخرى. وأنت، يا سيّدة، الأخيرة من العصر القديم. ولهذا السّبب يعتروني الحزن وأنا أنظر إلى وجهك. والعصر الجديد ليس بحاجةٍ إلى وجهك مثل أيّ شيءٍ لا فائدة منه، ولا نظير له، قادرةٌ على إثارة المشاعر التي تضمحلّ: الحبّ، والتّضحية بالذات، والشّعر، ودموع السّعادة..جمال!..لأيّ شيء؟ إنّه شيءٌ مقلق... شيءٌ غير مسموح بـه...وأنـا أؤكّـد لك أنَّ الناس في الـمُستقبل سيشرعون القوانينَ ضدّ الجمال..هل صادف وأنْ سمعت عن العمل على خطّ الإنتاج الـمُتحرّك؟ هو آخر ابتكارٍ أمريكيّ. يجب إدخال فلسفة العمل على الخطوط الـمُتحرّكة إلى الجماهير...يجب أن تبدو السّرقة والقتل أقلّ إجراماً من ثانيةٍ من الارتباك عند خطّ الإنتاج... والآن تصوّري أنّ الجمال يدخلُ في قاعات الورش الحديديّة، ما يُقلق..فماذا يحصل؟ تُشربك الحركات، ارتعاش العضلات، وتأخّر الأيدي لثوانٍ، تخلخل...ومن ثواني الخطأ تتكوّن ساعات، ومن الساعات كوارث...ومصنعي يصير يُنتج منتجات أقلّ جودة من المصنع الـمُجاور...ويفشل المشروع...ويفلس بنكٌ في مكانٍ ما... وتستجيب البورصة بهبوط حادّ...ويُطلق شخصٌ الرّصاصَ على قلبه...وكلّ ذلك لأنّ امرأةً رائعة الجمال بشكلٍ إجراميّ سارت في الورشة تحفّ بفستانها.

ضحكت كاتيا، لم تعرف شيئاً عن خطّ الإنتاج. ولم تزر مصنعاً قط، ولم تر غير المداخن الـمُسخّمة التي تُفسد المنظر الطّبيعيّ...وقد أحبّت كثيراً جمهور الناس–الحشد–في البولفارات الكبيرة ولم تتخيّل

شراً فيه. وكان اثنانٌ من معارفها على مائدة العشاء عند البركة من الاشتراكيين–الديمقراطيين. يعني أنّ ضميرها مُرتاح. أما كلام مُحدّثها الذي يسير بطيئاً مرفوع الرّأس في عتمة الدّرب الدافئة فقد كان طريفاً وجديداً، مثل اللوحات التّكعبيّة مثلاً، تلك التي كانت معلّقةً في غرفة الطعام عندها...ولكنّ الفلسفة لم تكن تعنيها في ذلك المساء...

قالت كاتيا:

– أظنّ أنّ شيئاً فظيعاً قد لحق بك من النّساء الجميلات لكي تضمر لهنّ الكراهية إلى هذا الحدّ.

وضحكت ضحكاً خافتاً ثانيةً مفكّرةً شيءٍ آخر غير محدّد كهذا الليل، فيه رائحة زهورٍ وأوراقٍ وأشعّة نجومٍ في الفرجات بين رؤوس الأشجار–إنّه الحبّ الذي كان يدير الرّأس دوراناً حلواً. ليس حُباً لهذا الرّجل الطّويل، أو ربّما حُباً له. فإنّه يُثير فيها الرّغبة. والشّيء الذي بدا إلى وقتٍ قريب صعباً بل لا أمل فيه، قد اقترب بسهولة، واستولى عليها بسهولةٍ...

ليس من المعروف ما كان يُمكن أن يحدث لها في تلك الأيام في باريس...إلا أنّ كلّ شيءٍ قد تقطّع فجأة...زأرت مدافع الحرب العالميّة. و لم تلتق كاتيا بالألمانيّ بعد ذلك اللقاء...فهل كان يعرف بدنوّ الحرب أم حدس ذلك؟ وأثناء الحديث اللاحق عند الحاجز الحجريّ، حيث كانا يمتّعان نظرهما بأنوار باريس الـمُتناثرة في الأفق القاتم والـمُتألّقة كالألماس، كان الألمانيّ يبدأ عدّة مراتٍ كلامه عن حتميّة الكارثة بيأسٍ حادّ. وكأنّما قد تملّكته فكرة لا فرارٍ منها في أنّ كلّ شيءٍ لا جدوى منه سواءً أكان فتنة الليل أو سحر كاتيا.

ولم تذكر ما قالت له، فعلى الأغلب أنّه كان هراء. ولكنّ ذلك لم يكن مُهماً. وقف مُرتفقاً على الحاجز يكاد يمسّ بخدّه كتف كاتيا. وكانت كاتيا تعرف أنّ هواء اللّيل قد امتزج برائحة عطرها ورائحة كتفيها وشعرها...ولم أنّه وضع يده الكبيرة على ظهرها لما دفعتها عنها، أم هذا ما يُخيّل إليها الآن...لا، إنّ ذلك لم يحدث...

خفق الهواء في خدّها، وعبث في شعرها. وانقذفت شراراتٌ من القاطرة. وسار القطار في السّهب. أدارت كاتيا عينيها عن النافذة بنظرةٍ غير مرئيّة، وانحشرت في زاوية تختها، وشدّت أصابعها الباردة. وأحسّت بتأنيب الضّمير. ما هذا؟ لم يمضِ على معرفتها بمصرع فاديم أسبوع، وها هي تقع في أسوأ من الخيانة...حلمت برجلٍ لم يكن حبيبها...إنّ ذلك الألمانيّ قد قُتل بالطّبع. كان ضابط احتياط. قُتل، قُتل...كلّهم ماتوا، كلّ شيءٍ هلك، ودُمّر، وتلاشى كتلك الليلة على السّطيحة في الـمُنتزه، فوق البركة، اختفى بلا عودة. زمّت كاتيا شفتيها حتى لا تئنّ، وأغمضت عينيها. ونفذت إلى صدرها لوعةٌ حادّة...كان في العربة القذرة الـمُضاءة بشمعة شاحبة الضّوء غير كثيرٍ من الناس. وكان ظلالٌ سوداء ساهرة تتقلّبُ عاكسةً يداً مرفوعة أو لحيةً شعثاء أو قدمين حافيتين مُتدلّيتين من التّخت الأعلى. لم ينم أحدٌ رغم أنّ الساعة مُتأخّرة. وكان الرُّكاب يتحدّثون بأصواتٍ خفيضة.

– أقول لك إنّ هذه المنطقة أسوأ المناطق...

– وماذا؟ هل من المعقول أن لا أمن هنا أيضاً؟

– أنا أعتذر، ما هذا الذي تقوله؟ هنا أيضاً ينهبون. هذا غريب. فماذا يفعل الألمان؟ إنّهم مُلزمون على حراسة الـمُسافرين...ما داموا قد احتلّوا البلاد وجب عليهم الـمُحافظة على النّظام.

– اعذروني، يا سادة، على التّعبير الخشن، ولكنّ الألمان يصفون علينا...إنّهم لا يريدون أن يتدخّلوا في شؤوننا ويريدون أن نُدبّر شؤوننا بأنفسنا...نعم، إنّ اللصوصيّة والنّهب في خلقنا..أناسٌ أوغاد...

ردّ على ذلك صوتٌ واثق:

– يجب أن يُشطب على كلّ الأدب الروسيّ ويُحرق في العالم بأسره...إنّ الكتاب قد صوّروا الناس بصورةٍ جميلة...ربّما لا يوجد رجلٌ نزيه في كلّ روسيا...أتذكّر أنني كنت في فنلنده، وتركت نعالي في الفندق...فأرسلوه إليّ مع رجلٍ على فرس، بينما النّعال مثقوبة... هذا شعبٌ نزيه. ما أشدّ تنكيلهم بالشّيوعيين، وبالروس بشكلٍ عام. في مدينة «آبو» بعد قمع الانتفاضة أحرق الفنلنديون وعذّبوا رئيس الحرس الأحمر هناك. وكان يسمع صراخ هذا البلشفيّ الفنلنديّ حتى من وراء النّهر.

– آوه، يا إلهي، حتى يكون عندنا نظامٌ ما...

– اعذروني، كنت في كييف...مخازن فاخرة، وموسيقى في المقاهي...والسّيّدات يخرجن علناً وهنّ يتحلّين بالألماس. حياةٌ دافقة..ومصالح شراء الذّهب وغيره تعمل جيّداً جداً...وتزدهر حياة الشارع...مدينةٌ رائعة...

– قطعة قماشٍ للبنطلون تُساوي رواتب نصف عام. المُضاربون أطبقوا على خناقنا...جميعهم ذوو جباهٍ عالية، وجميعهم في بِدلٍ زرقاء من الجوخ...يجلسون في المقاهي يُتاجرون بالفاتورات...خرجت في الصّباح فلم أجد في المدينة علبة كبريت. وبعد أسبوعٍ صارت العلبة

بروبل. أو خذوا الإبر مثلاً. أهدوا لزوجتي في عيد ميلادها إبرتين وبكرة خيوط. وفي الماضي كنت أهدي أقراطاً ألماسيّة...والمثقّفون يهلكون، يشرفون على الموت...

– يجب أن يُرمى الـمُضاربون بالرّصاص بدون شفقة...

– أيها السّيّد الرّفيق ليس عندنا بلشفيّة...

– ما هي أخبار كييف؟ هل حُكم الهيتمان قويّ؟

– ما دام الألمان يسندونه. يقولون طلع مدّع آخر بأوكرانيا هو فاسيلي فيشيفاني. إنّه أميرٌ من هابسبورغ، ولكنّه يلبسُ الملابس الأوكرانيّة.

– يا مواطنون حان وقت النّوم، حبّذا لو أطفأتم الشّمعة.

– كيف نُطفئ الشّمعة؟ إننا في عربة قطار...

– بهذا الشّكل آمن...كلّ النّوافذ تُرى من الخارج، تتراءى.

صمت رُكاب العربة فجأة. وتناهت ضربات العجلات على السّكة بوضوح أشدّ. وتطاير الشّرر من القاطرة في ظلام السّهب. ثمّ بحّ صوتٌ بحنقٍ شديد:

– من قال: «اطفئوا الشّمعة»؟ (صار الصّمت منحوساً). إذن «اطفئوا الشّمعة»، بينما هو يمدّ يده إلى الحقائب. دلّوني على القائل، وسألقيه من العربة.

أخذ أحدهم يصرف بأسنانه بضجر. وقال صوتٌ يُثير الهلع:

– عندما كنت مُسافراً في الأسبوع الماضي سرقوا من امرأةٍ صُرّتين بالخُطاف...

– كانوا من جماعة ماخنو بالتّأكيد.

– جماعة ماخنو لا يلوّثون أيديهم بصرّتين فقط. يُمكن أن يسرقوا قطاراً بكامله. هذا ما يفعلونه.

– يا سادة، لا يجوز ذكرهم في الليل...

جرت أحاديث أحدها أفظع من الآخر... وذكرت حكايات تبثّ القشعريرة في الجلد. وظهر أنّ الأماكنِ التي كان يسير القطار فيها الآن غير مُتعجّلٍ أشدّ أوكار قُطّاع الطّرق خطراً، يتحاشاها حتى الألمان وحتى الحُراس نزلوا في المحطّة السابقة... وفي القُرى يتبختر الفلاحون بمعاطف السّمور، والفتيات بالحرير والمخمل.

اللعنة! لا يمضي يومٌ دون أن يحدث حادث: إما أنّهم يُطلقون النار على قطارٍ من رشاشة، أو يفكّون العربات الأخيرة، ويسرّحونها، أو يُفتح البابُ فجأةً والقطار يسير في كامل سُرعته، ويدخل رجالٌ مُلتحون يحملون الفؤوس والبنادق المقطوعة المواسير قائلين:

ارفعوا أيديكم! ويتركون الروس كما ولدتهم أُمهاتهم. أما إذا وقع يهوديٌّ في اليد...

– يهوديّ؟ ما علاقة اليهوديّ هنا؟ لماذا اليهوديّ مُذنبٌ في كلّ شيء؟..

زعق رجلٌ حليق في بدلةٍ زرقاء من الجوخ، هو نفس الرّجل الذي أعلن إعجابه بكييف. ومن هذا الزّعيق تكثّف الرّعب كلياً. هدأت الأصوات. وأغمضت كاتيا عينيها من جديد، لا شيء يسرق منها إلا الخاتم الزمرّديّ. إلا أنّ رعباً مُرهقاً قد استولى عليها أيضاً. ولكي

تتخلّص من اضطراب القلب الـمُزعج حاولت أن تتذكّر ثانيةً سحر تلك الليلة التي لم تتمّ. ولكنّها لم تسمع غير قرقعة عجلات القطار في الخواء الليلي... كاتيا، كاتيا... انتهى، انتهى كلّ شيء...

...توقّفت العربة بحدّة، وكأنّها وقعت في زقاق مسدود. وزعقت الفرامل زعيقاً حديدياً، وصلصلت السّلاسل، ورنّ الزّجاج، وسقطت بعض الحقائب من التّخت الأعلى. وأغرب ما في الأمر أنَّ أحداً لم تبدر منه حتى أنّة. قفز الرُّكاب من أماكنهم وحدّقوا، وتسمّعوا. وكان واضحاً بدون كلام أنّ مأزقاً قد وقع.

صدرت في الظلام طلقات بنادق. وتحرّك الرّجل الحليق ذو بدلة الجوخ في العربة وغاب واختفى. ووراء النافذة تراكضت الناس عند السُّدّة تماماً. ترامت أصوات طلقات والتمعت نارها في العيون، وضربت قعقعتها في الآذان... وصاح صوتٌ رهيب: "لا تطلّوا من النّوافذ!" وانفجرت قُنبلةٌ يدويّة. وارتجّت العربة. وراحت أسنان الرُّكاب ترتعد ارتعاداً شديداً، وصعد أشخاصٌ إلى فسحة العربة. وضربوا الباب بأخماص البنادق. ودخل زهاء عشرة رجالٍ مُتدافعين يلبسون قبّعات فراء الأغنام ملوّحين بالقنابل اليدويّة وبنادقهم يضرب بعضها ببعض. وكانت الأنفاس تتردّد مسموعةً في الصّدور.

– اجمع الأشياء، واخرج إلى الحقل.

– تحرّك انشط، وإلا...

– ميشكا، فجّر البرجوازيين بقنبلتك اليدويّة...

تحرّك الـمُسافرون. اندفع شابٌّ أشقر ذو وجهٍ شاحب خبيث إلى الأمام بكلّ جرمه، ورفع قنبلةً يدويّة، وجمد لحظةً وذراعه مرفوعة...

تردّدت أصوات: نخرج، نخرج، نخرج. وخرج المسافرون من العربة و لم يعودوا يحتجون ولا ينطقون بكلمة واحدة. كان بعضهم يحمل حقيبة، وبعضهم لم يحمل غير مخدّةٍ أو سخان شاي...بل وابتسم أحدهم، وهو رجلٌ ذو نظّارةٍ أنفيّة، ولحيةٍ صغيرة مائلةٍ إلى جانب، شاقاً طريقه بين قُطّاع الطُّرق.

كان اللّيل طرياً، والنُّجوم تنداح فوق السُّهب مثل غطاءٍ فاخر. جلست كاتيا، ومعها صُرّتها، وعلى كومةٍ من العوارض الخشبيّة الـمُتهرّئة. ما داموا لم يقتلوا رأساً، فإنّهم لن يقتلوا الآن. وأحسّت بوهنٍ شديد، وكأنّها قد أفاقت من غيبوبةٍ لتوّها. وفكّرت: "هل هناك فرقٌ في أن أجلس هنا على العوارض أو أجوب يكاترينوسلاف وليس معي قطعة خبز..." وكانت تحسّ ببردٍ في كتفيها، تثاءبت. في العربة سحب فلّاحون أشدّاء الحقائب من الرُّفوف، وقذفوها من النّوافذ. حاول ذو النّظارة الأنفيّة أن يصعد الـمُنحدر مُتّجهاً إلى العربة.

– يا سادة، يا سادة، عندي أجهزةٌ فيزياويّةٌ هناك، بحقّ الرّبّ على مهل، فإنّها سريعة الكسر.

أسكَتَهُ بعضهم، وأمسكوا مُشمّعه من الخلف، ودفعوه إلى حشد الرّكاب. وفي تلك اللحظة انطلقت من الظّلام كوكبةٌ من الخيّالة في قعقعةٍ وكبكبة. اندفع أمامهم على بُعد أمتار رجلٌ قويٌّ بشكلٍ مُذهل في قبّعةٍ عالية مُتواثباً على سرجه. تراجع الـمُسافرون. توقّفت الكوكبة عند العربة وأفرادها يرفعون أيديهم بالبنادق والسّيوف. صاح الرّجل القويّ ذو القبّعة العالية بصوتٍ رنّان:

– بلا خسائر، يا فتيان؟

وردّت أصوات:

– لا، لا... نحن نُفرغ الحمولة... أرسل لنا العربات.

استدار الرّجل القويّ ذو القبّعة العالية بحصانه، ودخل حشد الـمُسافرين، وأمر مُتلاعباً بحصانه حتى أنّ الزّبد تطاير من بوز الحصان في عيون الـمُسافرين الـمُبحلقة رُعباً:

– أخرجوا هويّاتكم، لا تخافوا، أنتم تحت حماية جيش الأتمان ماخنو الشّعبيّ. نحن لا نرمي غير الضّباط والجندرمة–ورفع صوته مُهدّداً– والمضاربين بأقوات الشّعب.

ومرّة أخرى تقدّم الرّجل ذو الـمُشمّع، وعدّل نظارته الأنفيّة.

– اعـذرني، يمكنني أن أقـدّم لك كلمة شرفٍ على أنّه لا يوجد بيننا الأصناف التي ذكرتها من الناس... لا يوجَد غير أناسٍ بسطاء مُسالمين... اسمي أوبروتشيف مُعلّم فيزياء...

قال الرّجل القويّ ذو القُبّعة بلهجة تعنيف:

– معلّم، معلّم. وتتعامل مع مختلف الأوغاد، تنحّ جانباً. يا فتيان، لا تمسّوه، إنّه مُعلّم.

جلبت الشّمعة من العربة. وبدأ التّدقيق في الهويات. حقاً لم يكن في الجمع ضابطٌ ولا جندرمة. كان الرّجل الحليق ذو بدلة الجوخ يتحرّك مشغولاً أقرب الناس إلى الشمعة... ولكنّه لم يكن الآن في بدلة الجوخ، بل في سترةٍ فلاحيّة مُهلهلة، وقبّعة جنديٍّ ذات حافّة ناتئة. ولم يكن مفهوماً أين حصلَ على كلّ ذلك. لعلّه وضعها في حقيبته. كان يُربّت على أكتاف اللصوص بمودّة.

– أنا مغنٍّ، سعيدٌ جداً بالتّعرّف عليكم، أيها الأصدقاء. الفنانون يجب أن يعرفوا الحياة، وأنا فنان...

وسعل مُنظّفاً حنجرته حتى قال له أحدهم بغموض:

– سيعرفون أيّ فنانٍ أنت، فلا تفرح قبل الأوان...

جاءت العربات على عجلات مغلّفة بالحديد. ألقى الماخنوريّون فيها الحقائب والسّلال والصُّرر، وصعدوا على الأمتعة، وصفر السّواقون على الطريقة السّهبيّة، وانطلقت خيول «الترويكا» الشّبعى، واختفى طابور العربات في السّهب في صفيرٍ وقرقعة. انطلقت كوكبة الخيّالة أيضاً. وكان بعض الماخنوويين يسير حول العربة. عندئذ اختار الـمُسافرون وفداً بطريقة رفع الأيدي البسيطة ليطلبوا إذناً من اللصوص بمواصلة السّفر. تقدّم الشاب الأشقر مُحمّلاً بالقنابل. كانت خصلة الشّعر البارزة من حافّة قبّعته تُغطّي على عينه. بينما كانت العين الأخرى الزّرقاء تنظر بصفاءٍ ووقاحة.

سأل وهو يتمعّن في كل موفدٍ من رأسه إلى أخمص قدمه:

– ما هذا؟ إلى أين تسافرون؟ وفي أيّ واسطة؟ آه، يا حمقى... سائق القطار قد نزل من القاطرة هارباً في السّهب وهو الآن على بُعد عشرة فراسخ. وأنا لا أستطيع أن أترككم في الليل هنا، فما أكثر الـمُتسكّعين هنا في السّهب..أيها الـمُواطنون، اسمعوا أمري... (ونزل من منحدر السّدّة، وعدّل من حزامه الثّقيل. وهبط نحوه الآخرون، ملقين بنادقهم وراء ظهورهم) أيها المواطنون، اصطفوا أربعةً أربعة...واذهبوا مع حاجياتكم في السّهب...

ولما مرّ بكاتيا انحنى نحوها ومسّ كتفها قائلاً:

– يا فتاة...لا تحزني، لن نسيء إليك...خذي صرّتك وسيري إلى جانبي خارج الصّفّ.

سارت كاتيا في السّهب الـمُنبسط، وصرّتها في يدها، وقد أنزلت منديلها حتى حاجبيها . كان الشاب الأشقر يسير إلى يسارها ناظراً من خلال كتفه إلى جمع الأسرى السائرين في جمعٍ حزينٍ صامت. كان يصفر صفيراً خافتاً من بين أسنانه. سأل كاتيا:

– من أنت؟ ومن أين؟

لم تجب كاتيا وأدارت وجهها. الآن لم تعد تشعر برعبٍ ولا اضطراب، بل بلا اكترثٍ فقط. بدا كلّ شيءٍ لها وكأنه سنةٌ من نوم. أعاد الشاب سؤاله من جديد:

– إذن، فأنت لا تريدين أن تحطّي من نفسك بالتّحدّث مع قاطع طريق. مؤسفٌ جداً، يا سيّدة. يجب أن تنزلي من غرورك الأرستقراطيّ. ولّى ذلك العهد...

التفت ونزع فجأةً بندقيّته من كتفه، وصاح بخبث على شخصٍ غير واضح كان يسير منزوياً عن الأسرى:

– هاي، يا وغد، تتأخّر...سأرميك!

اندفع الشّخص داخل الجمع بسرعة، فضحك الشاب راضياً.

– وإلى أين سيهرب هذا الأحمق؟ يبدو أنّه يريد أن يقضي حاجة. هكذا إذن، أيّتها السّيّدة...لا تريدين أن تتكلّمي، وتصمتين، شيءٌ أفظع...لا تخافي. لست سكران. عندما أسكر أصمت ويسوء سلوكي...لنتعارف–ورفع إصبعين إلى حافّة طاقيّته مُحيياً–أنا ميشكا

سولومين. الهارب من الجيش الأحمر...وبالأحرى قاطع طريقٍ بطبيعته، إذا أردت الحقيقة. رجلٌ فاسد. لم تخطئ في وصفي...

سألت كاتيا:

مكتبة
t.me/soramnqraa

– إلى أين أنتم ذاهبون؟

– إلى مقرّ الفوج في القرية. نتحقّق منكم، ونستجوب. البعض سيُرمى، والآخر سيُطلق سراحه. وأنت، كامرأةٍ شابّة، لا حاجة إلى أن تخافي من شيء...وفضلاً عن ذلك، فأنا معك.

– أرى أنّك أكثر ما يجب أن أخافه.

قالت كاتيا، وألقت نظرةً جانبيّةً خاطفة على الشاب. و لم تتوقّع أن تلذعه هذه الكلمات على هذا النّحو. فقد توتّر، وتنهّد تنهّداتٍ حادّةٍ من منخريه، وتعبّس وجهه الطّويل الشاحب في ضوء النّجوم. وهمس «كلبة». وسارا صامتين. لفّ ميشكا لُفافةً أثناء سيره، وراح يُدخّن.

– أنا أعرف من أنت، ولو كنت ستنكرين. أنت من فئة الضُّباط.

قالت كاتيا:

– نعم.

– زوجك في عصابات البيض، بالطّبع.

– نعم...زوجي قُتل...

– لا أستطيع أن أضمن لك أنّه لم يصرع برصاصتي...

وأبدى أسنانه–ألقت كاتيا نظرةً سريعةً عليه، وتعثّرت. أسندها ميشكا من مرفقها. فكّت ذراعها من قبضته، وهزّت رأسها.

– أنا من جبهة القفقاس. و لم يمضِ عليّ هنا غير أربعة أسابيع، طوال الوقت كنت أحارب عصابات البيض. وكم من رصاصةٍ نفذت من هذه البُندقيّة في عظامهم الزّرقاء.

هزّت كاتيا رأسها مرّةً أخرى. سار الشاب بعض الوقت صامتاً، ثمّ راح يضحك وقال:

– ثمّ وقعنا في مأزقٍ حرج عند محطّة أومانسكايا. وتمزّق فوجنا، فوج فارنافسكي. قتل مفوّض الفوج سوكولوفسكي. ومضى آمر الفوج سابوجكوف مع حفنةٍ من الـمُحاربين قدماً، وجميعهم جرحى جراحاً عديدة... ونفذتُ أنا خلال الجبهة الألمَانيّة إلى الأتمان. هنا الجوّ أمرح. لا أحد يقف فوقي. جيشٌ شعبيّ، نحن أنصار، يا سيّدة، ولسنا قُطاع طُرق. نحن نختار آمرينا بأنفسنا... ونتخلّص منهم بأنفسنا: نمسك بالـمُسدّس ونضرب... شخصٌ واحد فوقنا هو الأتمان... أتظنين أننا نهبنا القطار لنصرف ما كسبناه على الخمرة؟ لا، أبداً. كلّ المغانم إلى مقرّ الفوج. وهناك يجري التّوزيع. قسمٌ إلى الفلاحين، وقسمٌ إلى الجيش. والقطار هو قاعدة تموّيننا. نحن جيشٌ شعبيّ، يعني أنَّ الشّعب نفسه في حالة حربٍ مع الألمان. تلك هي المسألة. نحنُ نفتكُ بملّاكي الأراضي. ومن الخير للجندرمة وضُباط الهيتمان ألا يقعوا في قبضتنا، نقضي عليهم بالسّلاح البارد. إنّنا ندفع فصائل النّمساويين والألمان الصّغيرة نحو يكاترينوسلاف. ها هو جوهر لصوصيّتنا.

كانت النّجوم في السّهب تبدو بلا نهاية. وفي الطّرف الذي كانوا

يتّجهون إليه من الأُفق بدأت السّماء تخضوضر قليلاً. كانت كاتيا تتعثّر أكثر فأكثر، وتُمسك أنفاسها. أما ميشكا فكان لا يُضايقه شيء، يستطيع أن يقطع ألف فرسخ على هذا المنوال، والبندقيّة على كتفه. كانت كاتيا تهتمّ الآن في شيءٍ واحد: ألّا تُبدي ضعفاً، وألا تدع هذا المُتباهي المُتبجّح يُشفق عليها...

– كلّكم على حدّ السّواء!

وتوقّفت، وعدّلت من وضع منديلها لتلتقط أنفاسها، وسارت من جديد على الفسنتين وجحور الصّوالق:

– نحن، النّساء نلد أبناءنا ليقتلوهم. لا يحقّ لأحدٍ أن يُقتل، وهذا كلّ ما في الأمر.

قال ميشكا دون أن يُفكّر لحظةً واحدة:

– سمعنا هذه الأغنية. أغنية النّساء القديمة. ومفوّضنا يشرح المسألة كالآتي: «انظروا إلى الأمر من وجهة النّظر الطّبقيّة...» عندما تصوّب البندقيّة فإنّك لن تتصوّر أنّ أمامك إنساناً بل ظاهرةً طبقيّة. مفهوم؟ لا مجال للشّفقة هنا، إنّ ذلك عداءٌ للثّورة محض. وهناك مسألةٌ أخرى، أيتها العزيزة...

وتغيّر صوته فجأةً بشكلٍ غريب. صار خافتاً وكأنّه يستمع إلى كلماته:

لن أقضي العُمر كلّه أسير في الجبهات ببندقيّتي. يقولون إنّ ميشكا، رجلٌ ضائع، سكّير. ستنتهي به الحال إلى حفرة. صحيح، ولكن ليس تماماً...لستُ مستعجلاً على الموت. بل لا أرغب في ذلك البتّة... لم تصنع، بعدُ، الرّصاصة التي ستقتلني.

وأزاح خصلة الشّعر من على جبينه.

– ما هو الإنسان الآن؟ معطفٌ عسكريّ وبندقيّة؟ لا، ليس كذلك...ما أكثر ما أودّ أن أريده في هذه الدّنيا! ولكنني لا أعرف بنفسي ما أريد...وأفكّر: كومةٌ من الفلوس؟ لا. إنّ الإنسان في داخلي يتعذّب...ولا سيما في وقتٍ كهذا–ثورة، وحربٌ أهليّة. إنني أبري رجليّ، وأنا أتعذّب من البرج، ومن الجراح في سبيل طبقتي وعن وعي...في آذار كان عليّ أن أستلقي نصف نهار في حفرة ثلج تحت نيرانٍ رشاشة أثناء نوبة الخفارة. ألا يعني ذلك أنني بطلٌ إزاءً الجبهة؟ ومَنِ أنا، بيني وبين نفسي؟ مُشبّعٌ بالكحول، وحانقٌ على نفسي والسكين أخرجه من وراء حذائي...

وانتصب ميشكا مرّةً أخرى مُستنشقاً هواء الليل الطّريّ. وبدأ وجهه حزيناً ورقيقاً تقريباً. حشر يديه عميقاً في جيبي معطفه، وصار لا يتحدّث إلى كاتيا، بل وكأنّما إلى ظلٍّ يَسْري أمامه:

– تعليم...أعرف وقد سمعت به...أنا رجلٌ مُتوحّش...أولادي سيكونون مُتعلّمين. أما أنا الآن في حالتي الراهنة وبخلقي وعاداتي فأنا شرّير...في ذلك موتي...عن الـمُثقّفين تكتب الرّوايات. ما أكثر الكلمات الطّريفة. ولكن لماذا لا يكتبون روايةً عنّي؟ أتظنّين أنّ الـمُثقّفين وحدهم يخرجون عن أطوارهم؟ أنا في النوم أسمع صياحاً..فأستيقظ، مُستعداً لأنْ أقتل مرّةً ثانية...

طلع من الظّلام فرسان صارخين من بعيد: «قف، قف...» نزع ميشكا بُندقيّته. «قف، يا بن!..لا تعرف جماعتك!» ترك ميشكا كاتيا، وسار نحو الفُرسان، وتشاوروا هناك طويلاً.

وقف الأسرى، وتهامسوا هالعين. جلست كاتيا على الأرض. وأنزلت رأسها على ركبتها. ومن الشّرق، حيث كان الفجر يخضوضر بوضوحٍ أشدّ انبعثت رطوبةٌ ودخان روثٍ محترق، ورائحة قرية.

بدأت نجوم ذلك الليل الذي لا ينقضي تشحب وتغور. مرّةً أخرى كان على كاتيا أن تنهض وتسير. وبعد قليل أخذت الكلاب تنبح، وظهرت أكداس القشّ وشواديف الآبار، وسقوف البيوت. ولاح الإوزّ النائم في المرج كقطع من الثّلج. وانعكس الفجر الورديّ على سطح بحيرة. أقبَلَ ميشكا عًابساً:

– لا تذهب مع الآخرين، سأنزلك في بيتٍ على حدة.

قالت كاتيا «حسناً» وكأنّما تسمعه من بعيد. ولم يكن يهمّها أين تذهب. فقط أن تتمدّد، وتنام...

رأت من خلال جفنيها الـمُسبّلين زهور عُبّاد شمس كبيرة، ووراءها صفّاقاتٌ خُضر رُسمت عليها زهورٌ وطيور. نقر ميشكا بأظافره على زجاج النافذة الصّغيرة الـمُحبّب. وفتح الباب ببطءٍ في جدار البيت الأبيض، وأطلّ رأس فلاح أشعث. ارتفع شارباه إلى فوق، وتثاءب فمه مُبدياً أسناناً كبيرة. وقال: "حسناً، ادخل..."

دخلت كاتايا البيت وهي تترنّح. وكان الذّباب يطنّ فيه مذعوراً. أخرج الفلاح فوراً خروفاً ومخدّةً من وراء حاجزٍ وقال "نامي"، ومضى. وجدت كاتيا نفسها على السّرير وراء الحاجز.

خُيّل إليها أنّ ميشكا انحنى عليها، وعدّل من وضع المخدّة تحت رأسها. كان استغراقها في الغيبوبة لذيذاً جداً...

...قرقعة العجلات. ظلّت تُقرقع وتُدمدم. سارت عربات خيولٍ عديدة. والشّمس انعكست خلفها على نوافذ بيوتٍ شامخة. سطوحٌ قرميديّة نصف دائريّة. باريس، مرّت عرباتٌ فيها نساءٌ أنيقات. الجميع يصرخ بشيءٍ ما، ويتقلّب، ويومي... النّساء يلوّحن بمظلاتٍ مدنتلة... وتصبح العربات أكثر فأكثر. يا إلهي! هذه مُطاردة... في البولفارات في باريس! هذه هي. ظلالٌ هائلة على خيولٍ شعثاء في الفجر المخضوضر. لا تستطيع أن تتحرّك أو تهرب! كركبة حوافر! صيحات! وضيق نفس!..

...جلست كاتيا على السّرير. هدرت عجلات وصهلت خيول وراء النافذة. ومن خلال باب الحاجز غير المحجوب بستارة رأت الناس يدخلون ويخرجون مُدجّجين بالأسلحة، وسمعت طنين أصواتٍ في البيت ودمدمة أحذية. وعند المنضدة تزاحم كثيرون يتفحّصون شيئاً عليها. ونُطقت كلماتٌ قويّة. وكان النّهار قد طلع، ونفذت بعض الأشعّة الدّاخنة من خلال النوافذ الصّغيرة إلى دخان التّبغ الأزرق الكثيف في البيت.

ولم يلتفت أحدٌ إلى كاتيا. عدّلت ثوبها الأجعد ولكنّها بقيت جالسةً في السّرير. الظاهر أنّ قواتٍ جديدة دخلت القرية. وكان واضحاً من الدّويّ المُقلق للمتزاحمين في البيت أنّهم يُعِدّون لشيءٍ جديّ. صاح صوتٌ حادٌ مُتأتئٌ في نبرةٍ نسائيّة وبلهجةٍ آمرة:

– ليأخذه الشّيطان! استدعوا هذا الوغد!

وترامت أصواتٌ وهتافات من البيت إلى الفناء والشارع، حيث كانت تقف عرباتٌ بخيولها الثُّلاثيّة، وخيولٌ مسروجة، وتجمّعات جنودٍ وبحارةٍ وفلاحين مُسلّحين.

– بتريتشينكو...أين بتريتشينكو؟...اجرِ في أثره...

– اجرِ أنت، أيّها الخنزير السّمين...يا أخ، نادِ العقيد...ولكن أين هو، عليه اللعنة؟...إنّه هنا، سكران نائم على عربة...الق عليه جردلاً من الماء...اسمع، اذهب إلى البئر بجردل–لا نستطيع إيقاظ العقيد... يا إخوان لن نوقظه بالماء، بل اطلِ بوزه بالقطران...صحا، صحا... قُل له: الألمان ساخط...إنّه قادم...قادم...

ودخل إلى البيت الرّجل الضّخم نفسه ذو القُبّعة العالية. ونام قبل ذلك الحين، على ما يبدو، نوماً عميقاً، حتّى كان من الصّعب أن ترى عينيه المُنتفختين في وجهه المُحمرّ المُشوْرب...شقّ طريقه إلى المنضدة وهو يُدمدم، وجلس.

صاح صوتٌ عالٍ صارفٍ مُتلعثم:

– ما هذا، يا وغد، تخون الجيش! اشتروك!

– ماذا؟ غفوتَ وكفى.

لغط العقيد بصوتٍ أجشّ عميق، وكأنّه خارجٌ من تحت برميل.

غمغم الصّوت المُتقطّع:

– أنت...أنت...سهوت على الألمان أثناء نومك.

– كيف ذلك؟ لم أسهَ على شيء.

– أين نقاط حراستك؟ سِرنا طوال الليل و لم نجد نُقطةً واحدة... لماذا الجيش في المصيدة؟

– ما هذا الصِّياح؟ لا أحد يعرف من أين جاء الألمان...السّهب كبير...

– الذّنب يقع عليك، يا حقير.

– حذار...

– مُذنب!

– لا تُمسك بي!

وعمّ السُّكون البيت فجأة. ابتعد الواقفون عن المنضدة. صارع رجلٌ لاهثُ الأنفاس. وارتفعت يدٌ بمسدّس. تشبّثت بها عدّة أيدٍ. وصدرت طلقة. صَمّتْ كاتيا أذنيها، وأسرعت في الارتماء على المخدّة. تساقط نثار الجصّ من السّقف. ومن جديد تعالت أصوات، ولكن بمرح هذه المرّة. نهض العقيد بتريتشينكو وهو يكاد يمسّ سقف البيت بقبّعةٍ من فراء الأغنام، وخرج إلى الشارع بعظمة مع جمهرةٍ من الرّجال.

بدأت حركةٌ وراء النافذة. ركب الـمُتمرّدون خيولهم، وتحرّكوا في عربات. وقرقعت سياط، وزعقت محاور، وارتفع سُبابٌ فاحش. وخلا البيت. وعندئذٍ أدركت كاتيا لماذا لم تستطع حتى ذلك الحين أن ترى الذي كان يصرخ بصوتٍ نسائيٍّ آمر. كان رجلاً ضئيلاً جالساً إلى المنضدة، وظهره إلى كاتيا واضعاً كوعيه على خارطة.

كان شعره السّبط الكستنائيّ الطّويل يسقط على كتفيه الضّيقتين مثل كتفيّ غلام. وكانت سترته من الجوخ الأسود مشدودةً بحزامين مُتصالبين، وخلف الحزام الجلديّ مُسدّسان وسيف. وكانت رجلاه الـمُتردّيتان حذاءً طويلاً أنيقاً مع مهمازٍ متصالبتين تحت المنضدة. كان يكتب بعجالةٍ ورأسه يهتزّ فيجعل شعره المدهون يتدلّى على كتفيه، والحبر يتناثر من تحت ريشته، وينشق الورق.

من الفناء دخل الفلّاح الذي تنازل لكاتيا عن فراشه، دخل بحذر. كان وجهه وردياً مُستعطفاً. وفي شعره بعض القشّ، جلس رامشاً بخفّة على المسطبة قُبالة الرّجل الذي كان يكتب، ووضع تحت فخذيه كِلتا يديه، وحكّ قدمه الحافية بالأخرى.

– كلّ الوقت مشغول، يا نستور إيفانوفيتش، بينما ظننت أنّك ستبقى للغداء. بالأمس ذبحنا عجلاً، وكأنّ قلبي قد أعلمني أنّك ستأتي...

– لا وقت لديّ...لا تعيقني...

– طيّب...(وصمت الفلاح بُرهة، وكفّ عن الرّمش، وصارت عيناه ذكيّتين ثقيلتين. تابع بهما يد الكاتب بعض الوقت) إذن، يا نستور إيفانوفيتش، لا تنوي أن تدخل في معركةٍ في قريتنا؟

– حسب الظُّروف...

– نعم، القضيّة حربيّة...ولكنني أفكّر فقط في أنّه لم تحصل معركةٌ هنا ينبغي أن نتدبّر أمر الماشية...هل نسوقها للمزارع؟

ألقى الرّجل الطّويل الشّعر قلمه، وحشر يده الصّغيرة في شعره، وهو يقرأ ما كتبه. حكّت الفلّاح لحيته وما تحت إبطه فحكّها. وقال وكأنه تذكّر لتوّه:

– نستور إيفانوفيتش، كيف نتصرّف بالقماش؟ لقد منحت الجوخ وهو جيّد. إنّه جوخٌ ميريّ عرضةٌ للأنظار...إنّها ستّ عربات.

– قليلٌ عليكم؟ لم تشبعوا؟ قليل؟

– ليس بالقليل، ولا نعرف كيف نشكرك عليه...أنت تعرف أننا

أرسلنا أربعين مُقاتلاً من القرية إليك...وذهب إبني أيضاً. قال لي إنّ عليه التّضحية بالدّم في سبيل قضيّة الفلّاحين...وإذا كان قليلاً خرجنا نحن الشُّيوخ إلى المعركة...حارب وستلقى الـمُساندة منّا...أما قضيّة القماش، فإذا هاجمنا الألمان، لا قدّر الله، أو الجندرمة...فأنت تعرف تنكيلهم. إذن هل يوجد شكٌّ في المعركة أم لا؟

انتصبَ ظهر الرّجل الطّويل الشّعر، وأخرج يده من شعره، وأمسك بحافّة المنضدة. وكانت أنفاسه تتردّد مسموعة. مدّ رأسه إلى الوراء. فتراجع الفلاح عنه على المصطبة بالحذر، وأخرج يديه من تحته، وخرج من البيت خلسة.

ترنّح الكرسيّ فدفعه طويل الشّعر عنه بساقه. وأخيراً رأت كاتيا، وهي ترتعش، وجه هذا الرّجل الضّئيل ببزّته السّوداء نصف العسكريّة التّفصيل. كان يبدو مثل راهبٍ متنكّر. تطلّعت إلى كاتيا عينان بُنيّتان مُتفرّستان مُحتدّتان من محجرين تحت حاجبين قويّين. كان وجهه مُجدّراً بعض الشّيء مُصفراً حَسَنَ الحلاقة نسائياً فيه شيءٌ ينمّ عن عدم النّضوج والضّراوة مثل وجه غُلام. كلّ شيء، ما عدا العينين، الهرمتين الذّكيّتين.

ولو كانت تعرف أنّها أمام الأتمان ماخنو لارتعشت أكثر. كان ماخنو ينظر إلى امرأة شابّة جالسةٍ على السّرير في حذاءٍ مُترب، ورداءٍ حريريٍّ مدعوك ما زال أنيقاً، وقد شدّت رأسها كالفلّاحات بمنديلٍ داكن، غير قادرٍ على أن يعرف مَنْ هذا الطائر الذي دخل عنده. انفرجت شفته العُليا الطّويلة عن ابتسامةٍ هازئة كشفت عن أسنانٍ مُنفرجة. وسأل باقتضابٍ وحدّة:

– من أنت؟

لم تفهم كاتيا فهزّت رأسها. غادرت الابتسامة وجهه وصار بشكلٍ جعل شفتيها ترتجفان.

– من أنت؟ مومس؟ إذا كان فيك سيفلس سأرميك بارّصاص؟ هل تعرفين الكلام بالرّوسيّة؟ مريضة؟ أم بصحّة؟

قالت كاتيا بصوتٍ لا يكادُ يُسمع:

– أنا أسيرة.

– ماذا تعرفين؟ هل تعرفين تقليم الأظافر؟ سنعطيك الأدوات...

أجابت بصوتٍ أخفّ:

– حسناً.

– ولكن لا تنشري الفِسق في الجيش...فهمت؟ ابق. عندما أعود مساءً بعد المعركة، ونظّفي أظافري.

كان الكثير من القصص يدور بين الناس حول الأتمان ماخنو. فكان يُقال إنّه حاول عدّة مرّات، بينما كان يقضي الأشغال الشاقة في سجن أكاتوي، أن يهرب وهرب، ولكنّه اصطيد في سقيفة لخزن الحطب فحارب الجنود بفأس. وقد حطّمت كلّ عظامه بأخامص البنادق وصفّد بالسلاسل، حيث ظلّ فيها ثلاثة أعوام، صامتاً كابن عِرسٍ محاولاً ليلاً ونهاراً أن ينزع الأصفاد الحديديّة عنه بلا نجاح. وفي السّجن تعرّف على الفوضويّ أرشينوف–مارين وصار تلميذاً له.

كان نستور ماخنو ابن نجار من قرية غولاي–بوله من منطقة

يكاترينوسلاف. وقد تعوّد على الضّرب منذ أن كان صبياً يعمل في دُكانٍ لبيع السّلع الصّغيرة، وكان آنذاك يُدعى "ابن عرس" لشراسته وعينيه البنّيتين. وقد طرد وهو صبيّ حين سكب–بعد جلده–على كبير مُساعدي صاحب الدُّكان ماءً فائراً. وقد جمع له شرذمةً صار يسطو بها على مزارع القرعيات والبساتين، ويُبدي شقاوةً ويعيش على هواه حتى أعطاه أبوه إلى مطبعة. وقيل، هناك رآه الفوضويّ فولين الذي صار بعد ثمانية عشر عاماً رئيس أركانٍ لدى ماخنو والرّأس المفكّر في جميع الأعمال. وقد أُعجب به فولين في صباه فصار ماخنو معلّماً. إلا أنّ ذلك غير صحيح، إذ لم يكن ماخنو مُعلماً قط، والأصحّ من ذلك أنّه عرف فولين فيما بعد وقد تعرّف على الفوضويّة عن طريق أرشينوف أثناء السّجن.

ومنذ عام ١٩٠٣ عاد ماخنو إلى تصرّفاته السابقة من جديدٍ في غولاي–بوله، ولكن لا على نطاق مزارع القرعيّات والبساتين بل على ضياع الأعيان وأهراء الباعة. مرّةً يسرق الخيول، وأُخرى ينهب الأقبية، وثالثةً يكتب المذكّرات للباعة يأمرهم بوضع نقودٍ تحت حجر. وكانت له في ذلك الوقت صداقة سُكرٍ غريبة مع البوليس.

وصار ماخنو مرهوب الجانب، إلا أنّ الفلاحين لم يشوا به، لأنّ مضايقاته لأصحاب الأطيان أخذت تشتدّ كلّما اقترب الزّمن من ثورة ١٩٠٥. وحين بدأت الضِّياع تحترق أخيراً، وأضحى الفلاحون يزرعون أراضي الأعيان انسلّ ماخنو إلى المُدن ليقوم بعملٍ كبير. وفي بداية عام ١٩٠٦ هاجم مع عصابةٍ من فتيانه بيت المال في بردیانسك، ورمى ثلاثةً من الموظّفين، وقبض على الخزنة، إلا أنّ رفيقه وشى به، وأرسِل إلى الأشغال الشّاقّة في أكاتوي...

وبعد اثني عشر عاماً، حين حرّرته ثورة شباط ظهر في غولاي–بوله من جديد حيث كان الفلاحون يطردون الحكومة المؤقّتة الموواربة. وذكّرهم ماخنو بخدماته السابقة فانتخب نائباً لرئيس الإدارة المحليّة الذاتيّة في القضاء. واتّخذ في الحال نهجاً حاداً لإقامة "النّظام الفلّاحيّ الحرّ" وأعلن في اجتماع الإدارة المحليّة أنّ رجال الإدارة برجوازيون وكاديت، وعند احتدام النّقاش أطلق النار في الاجتماع على عضو الإدارة، ونصّب نفسه رئيساً ومفوّضاً للمنطقة. و لم تستطع الحكومة المؤقّتة أن تفعل شيئاً معه. وبعد عام دخل الألمان، واضطرّ ماخنو إلى الهرب، وقضى بعض الوقت يجوب روسيا حتى وصل إلى موسكو في صيف ١٩١٨، وكانت في ذلك الوقت تعجّ بالفوضويين. فكان فيها العجوز أرشينوف الذي كان يُتابع بعينين حزينتين أحداث الثورة التي كان البلاشفة يوجّهونها بلعبةٍ من القدر لا يفهمها، وكان فيها فولين النّظريّ الجبار وأحد أعلام فوضويّة–"أم النظام"–الذي لم تعرف لحيته ولا شعره التّمشيط، كما كان فيها بارون الطّموح وعديم الصّبر وأرتين وتيبر ويعقوب آلي وكراسنوكوتسكي وغلاغزون وتسينتسيبر وتشيرناك وكثيرون آخرون من عظماء الناس الذين لم يستطيعوا أن يَنفذوا إلى الثّورة، وقعدوا في موسكو بلا نُقود وبجدول أعمالٍ واحد لاجتماعاتهم اليوميّة: "وضع التّنظيم والشّؤون الماليّة"...وفيما بعد أصبح بعضهم قادة الفوضويّة الماخونيّة، والبعض الآخر مُشتركين في الانفجار الذي حصل في مقرّ لجنة موسكو البلشفيّة في شارع ليونتيفسكي الجانبيّ.

وليس من شكٍّ في أنّ وصول ماخنو قد أثّر في الفوضويين الـمُتراخين في مقاهي موسكو. فقد كان ماخنو رجل عمل، وصاحبُ

حزم أيضاً. ففكّروا بأنْ يُسافر نستور إيفانوفيتش إلى كييف، ويقتل الهيتمان سكوروبادسكي وجنرالاته.

وعبر الحُدود الأوكرانيّة في بيلينخين ومعه فوضويٌّ مساعدٌ له بعد أن راوغ المفوّض الرّهيبساينكو الذي كان يُراقب تلك الطّرق بعينٍ يقظة. وتزيّا ماخنو بزيّ ضابط، إلا أنّه عَدلَ عن الذّهاب إلى كييف، فقد شمّ رائحة السّهب الطّليقة، ولم يطب له العمل التّآمريّ. فذهب إلى غولاي–بوله رأساً.

في هذه القرية، مسقط رأسه، جمع خمسةً من الفتيان الموثوقين. وتربّصوا في وهدة مسلّحين بالفؤوس والسّكاكين والبنادق المقطوعة على مقربةٍ من ضيعة صاحب الأطيان رزنيكوف، وفي الليل سطوا على البيت دون كبير ضجّة وذبحوا صاحب الأطيان مع إخوته الثّلاثة العاملين في شرطة المنطقة، وأضرموا النار في البيت، وحصل في هذه الغارة على سبعة بنادق ومُسدّس وخيولٍ وأسرجة وبعض بزّات الشّرطة.

وبعد أن تسلّح جيّداً وصارت له خيول لم يضيّع الوقت وأخذ مع خمسته يسطو على الضّياع ويحرقها من جهاتها الأربع. وجمع فصيلةً وراح ينطلق بجنون من طرف القضاء إلى طرفه الآخر مُنظّفاً إياه من أصحاب الأطيان. حتى عمد أخيراً إلى قضيّةٍ اشتهر بها شُهرةً واسعة.

كان ذلك في عين الثالوث الأقدس. وكان صاحب الأطيان ميرغورودسكي أحد سلاطين السّهب يزوّج ابنته لعقيد الهيتمان. وفي يوم العرس قَدِمَ بعض الجيران الذين لا يخافون، في مثل هذا

الوقت العصيب، الجري على الطّريق السّهبيّ. وجاء ضيوفٌ من الـمُحافظة ومن كييف.

وكانت ضيعة ميرغورودسكي تحت حراسة قويّة من قِبل الشّرطة. وقد نصبت رشّاشاً في عليّة البيت، كما أنّ العريس نفسه جاء مصحوباً برجال فوجه الأشدّاء بسراويلهم الزّرقاء العريضة التي يجب أن تمسّ أواسطها الأرض على العادة القديمة، ومعاطف من الجوخ القرمزيّ وطرابيش استراخان لها شراريب مذهّبة تكاد تصل إلى الحزام. وكانت السّيوف المعكوفة تتدلّى إلى جنبهم جميعاً وتضرب بأحذيتهم المرفوعة المقدّمات من جلد الماعز.

وكانت العروس قد جاءت قبل مدّة غير بعيدةٍ من انجلترا، حيث أكملت تعليمها في مدرسة داخليّة للأوانس، وتتحدّث الأوكرانيّة بلهجة لا بأس بها، وقد ارتدت الأكمام الـمُطرّزة والعقود والأشرطة والحذاءَ الطّويل الأحمر. وكان أبوها قد تسلّم من كييف، وبناءً على توصيةٍ خاصّة، روباً مخملياً مؤطّراً بالفراء، وهو في صورةٍ طبق الأصلِ للرّوب الذي كان يرتديه الهيتمان مازيبا في صورته الشّهيرة. لقد كانوا يريدون أن يقيموا زفافاً على الطّريقة القديمة. ورغم أنّ شراب العسل الـمُعتّق كان من الصّعب الحصول عليه في أوكرانيا الملتهبة فقد كان هناك الكثير منه لمأدبةٍ عظيمة. بعد القُداس ساروا بالعروس عبر الـمُنتزه إلى الكنيسة الحجريّة الجديدة. وكانت إشبينات العروس اللواتي يرافقنها ويُغنّين الأغاني في مُنتهى الجمال. وكانت هي تبدو وكأنّها طالعةٌ من أغنيةٍ قوزاقيّة. حتى قال أشابين العريس، وهم ينتظرون عند السّياج: "يبدو أنّ عهود أوكرانيا الطّيّبة قد عادت إليها..." وبعد عقد القِران نثرت على الزّوجين حُبوب الشّوفان.

وباركهما الأب ألبان في روبه المازيبي بأيقونة قديمة من ميجيغوريه. وشربوا الشّمبانيا، وهتفوا بالأنخاب، وحطّموا الأكواب وركب العروسان في سيّارةٍ إلى القطار، وبقي الضّيوف يأكلون ويشربون.

هبط الليل على فناء الضّيعة الواسع، حيث كان الخدم والجندرمة يرقصون الرّقصات الـمُعقّدة. وكانت نوافذ البيت كلّها تتألّق ببهجة. وكانت الفرقة الموسيقيّة اليهوديّة التي جلبت من ألكسندروفسك تعزف بكلّ قوّتها. ورقص الأب ألبان رقصة "الهوباك" المجنونة وشرب ماء الصودا. ونشدت الفتيات والسّيّدات الطّراوة في النّوافذ المفتوحة. وعاد أشابين العريس—وجميعهم ضُبّاطٌ قوزاقيّون—إلى موائد النّواشف من الطّعام مُصلصلين بسيوفهم مُهدّدين بالذهاب إلى موسكو نفسها وقتل الروس الملاعين. وفي ذلك الوقت ظهر بين الضّيوف ضابطٌ قصير القامة في بزّة شرطة الهيتمان. ولم تكن أيّة غرابة في أن يأتي شرطيٌّ إلى الضّيعة في مثل هذا اليوم. دخل متواضعاً، وحيّاً بانحناءات صامتة، ونظر صامتاً إلى الموسيقيين. إلا أنّ بعضهم لاحظ أنّ البزّة كبيرةٌ عليه بعض الشّيء، ثمّ إنّ إحدى السّيدات قالت للأخرى فجأةً في قلق: "من هذا؟ يبدو مُرعباً!.." ورُغم أنّ الضابط الغريب كان يحاول أن يخفض بصره، إلا أنّ عينيه كانتا تلتهبان رغم إرادته، كعيني شيطان... ولكن ما أكثر ما يتوهّم السّكران من أوهام...

عزف الموسيقيون التانغو بعد رقصات المازوركا والفالس. بدأ اثنان أو ثلاثةٌ من ذوي القمصان الحمراء ممن ما يزالون واقفين على أقدامهم الرّقص من السّيّدات. وطلب أحدهم إطفاء الأضواء العُليا. وفي الضّوء الشاحب لاحت النّغمات الضّعيفة وكأنّها آتيةٌ من أعماق

السّنين الخوالي، وتراخى الراقصون في حركاتهم وتهافتوا مُعبّرين عن شهوات الموت.

وعند ذاك انطلقت رصاصة، وجمد حشد الضّيوف، وانقطعت الموسيقى. كان ماخنو المتزيّ بزيّ ضابط شرطةٍ واقفاً وراء مائدة الطّعام عند بابٍ مفتوح إلى النّصف يُطلق الرّصاص من مُسدّسين على ذوي القمصان الحمراء. وَقَعَ المقدَّم الأحمر الضّخم صديق العريس على المائدة ثقيلاً باسطاً ذراعيه وقالباً المائدة. أرسلت النّساء صيحاتٍ زاعقة. حاول آخرٌ أن يستلّ سيفه، فعاجلته رصاصةٌ وطرحته على وجهه على البساط...وهاجم ثلاثةٌ آخرون ماخنو فسقط اثنان منهم في الحال، وقفز الثالث إلى النافذة وصرخ هناك كالأرانب. ظهر في الباب الـمُقابل رجلان في بزّتيّ شرطة أيضاً ضاريان في مظهرهما تتدلّى ناصيتاهما من تحت قبّعتيهما، وفتحا النار على الضيوف أيضاً. ركضت النّساء من جهةٍ إلى أخرى وسقطنَ. و لم يستطع الأب ألبان أن ينهض من مقعده فتقدّم ماخنو منه، وأطلق رصاصةً في فمه. وصدرت طلقاتٌ في الفناء أيضاً وفي الـمُنتزه حيث تراكض الضّيوف الذين قفزوا من النوافذ. واستطاع القليلون الاختفاء في الأجمات وبين نبات الأسل في البركة. وذبح الخدم والجندرمة بالجملة. ثمّ شدّ رجال ماخنو الخيول على العربات، وظلوا حتى الفجر يحمّلونها الأمتعة والسّلاح. وطلعت الشّمس على الضّيعة وهي تحترق.

وتركت هذه الغارة الجريئة أثراً قوياً في غولاي–بوله. وفي ذلك الوقت كان الفلاحون يرزحون تماماً تحت الألمان وتحت أصحاب الأراضي الحديثي النّعمة، وتحت قمع رجال الشّرطة السّريعين في تصرّفاتهم الوحشيّة. رفض أصحاب الأراضي تأجيرها إلى الفلاحين

غير مُصدّقين بهم، وطالبوا ليس فقط بمحصول الصّيف الحالي، بل وبإعادة خسارة العام الفائت من الحبوب. ولم يبق أمام الفلاحين إلا أن ينوحوا على مُصيبتهم. وظهر ماخنو، وأعلن الإرهاب. وسرت الشائعات في القرى بأنّ أتماناً قد ظهر.

تشجّع الفلاحون، وأُضرمت النيران في الضّياع. وأُحرقت أكداس القمح في السّهوب. وهجمت فصائل الأنصار بجرأةٍ على المراكب والصنادل المُحمّلة بالحبوب المنقولة إلى ألمانيا. وسَرت القلاقل إلى الضّفّة اليُمنى للدّنيبر. وصدرت الأوامر إلى القوات النّمساويّة والألمانيّة لوضع حدٍّ للفوضى. وانتشرت مئاتٌ من فصائل التّنكيل في البلاد. وعندئذ بادر ماخنو بمهاجمة القوات النّمساويّة بفصيلته الصّغيرة الحسنة التّسليح.

في ذلك الحين لم يكن جيش الأتمان ماخنو كثير العدد. فإنّ نواته الدّائميّة المُتماسكة كانت من تتألّف من مائتين أو ثلاثمائةٍ من الرّجال الجسورين. كان من بينهم بحارةٌ من البحر الأسوج، وجنودٌ حاربوا في الجبهة، وهم مَنْ لم يستطع لسببٍ أو لآخر الظّهور في قريته الأصليّة، والأتمانات الصّغار المُنضوون تحت لوائه مع فصائلهم، وأناسٌ لا عوائل لهم يُحاربون إظهاراً لجسارتهم وحُباً للحياة المرحة.

وعندئذٍ انضمّ إلى الجيش فوضويّون فُرادى هم مَن يُسمّون بـ"المُحاربين" الذين سمعوا بعصاباتٍ جديدة تتنقّل حُرّةً على خيولها. جاء الفوضويّون إلى مقرّ ماخنو على الأقدام مُهلهلي الثّياب جياعاً في أحد جيوبهم قُنبلة، وفي الجيب الآخر مُجلّد كروبوتكين، وقالوا للأتمان:

– سمعنا أنّك شخصيّةٌ عبقريّة. فلننظر!

أجاب الأثمان:

– انظروا.

فقالوا:

– إذا كنت كذلك حقاً، فإنّك ستصنع صفحاتٍ من التاريخ العالميّ. الشّيطان يعرف، فقد تكون فجأةً كروبوتكين الثاني.

أجاب الأثمان:

– جائز.

وأخذ الفوضويون يتبعون الأثمـان في طابوره، ويحتسون معه الكحول، ويقولون له كلمات مُدهشة كان يتعشّقها كثيراً—حول التاريخ والمجد. وشيئاً فشيئاً بدأ بعضهم يصعد إلى المناصب المسؤولة والقياديّة. وصار لكلّ واحدٍ منهم عربته من الأسلاب المغنومة في المعارك: صُندوق كونياك، وبرميلٌ صغير من الذّهب، وزكيبةٌ من الملابس. وكان من بين هؤلاء الأفراد تشالدون، سكوروفيونوف، يوغولوبوف، تشيريدنياك، أنغاريتس، فرانتسوز، وكثيرون غيرهم. وخلال فترات القعود الطّويلة كانوا يجمعون حولهم مجاميع كاملة من الفتيات الـمُنطلقات، وينظّمون ليالي اثينيّة مؤكّدين للأثمان أنّ هذه الطّريقة في معالجة القضيّة الجنسيّة تعتق الحياة، أما السيفلس فإنّه محض هُراء ما دامت الحريّة الـمُطلقة مُحقّقة. وسمّى ماخنو فوضويّيه بالثّعابين الزّاحفة، وهدّدهم أكثر من مرّة بالإعدام رمياً بالرّصاص، ولكنّه تحمّلهم كرجالٍ قرأوا الكُتب ويعرفون جيداً ما هو المجد العالميّ. لم

يكن للجيش مقرّ قيادة دائم. وكان يتنقّل حسب الضّرورة من طرف المُحافظة إلى طرفها الآخر على الخيول والعربات. قبل قيام ماخنو بغارةٍ أو معركة كان يُرسل الرُّسل إلى القرى، ويلقي هو في مكانٍ مُزدحم خطاباً لاهباً، وبعده كان فتيانه يلقون القماش من العرباتِ على المُحتشدين. وفي يوم واحد كان ينضمّ إلى نواة جيشه أنصار– فلاحون. وحين كانت المعركة تنتهي كان المتطوّعون يعودون بالسّرعة نفسها إلى قراهم، ويُخفون الأسلحة، وحين كانت المدفعيّة الألمانيّة تمرّ بهم بحثاً عن العدوّ كانوا يقفون أمام بوابات بيوتهم، وكأنّهم لم يفعلوا شيئاً، هارشين أجسامهم بكسل. كانت الفصائل الألمانيّة والنّمساويّة وهي تبحث عن ماخنو لا تجد شيئاً دائماً، بينما كان هذا الشّيطان الموجود في كلّ مكانٍ دائماً في مؤخّرتهم. كان الأنصار كالرُّحّل القُدامى لا يشتركون في أيّة معركةٍ حاسمة، بل ينتشرون على خيولهم وعرباتهم زاعقين صافرين مُطلقين الرّصاص، ويجتمعون في مكانٍ لم يتوقّعوا فيه، ويهجمون فجأة.

خلت القرية. خرج ماخنو في أثر الجيش على عربة تجرّها ثلاثة خيول ومفروشةٌ ببساط. كان الوقت ظُهراً، كانت فتاةٌ بدينةٌ شوّهها البكاء في تنورةٍ محزومة إلى فوق تكنس البيت بمكنسةٍ من الافسنتين. وكان صاحب البيت جالساً قرب نافذةٍ مفتوحة ينظر إلى التلال التي اتّجه نحوها المُشاة والفُرسان. وحيث يدور دولابا طاحونتين بوداعة، وزَفَرَ زفرةً ثقيلة، فإنّ الحديث مع ماخنو قبل قليل لم يُدخِل الهدوء إلى نفسه.

ذهبت كاتيا إلى البئر، واغتسلت، ورتّبت هندامها. دعاها صاحب البيت إلى الفطور، فأكلت فطيرتين وشربت بعض الحليب. وجلست

عند النافذة الأخرى، وهي لا تعرف الآن ماذا تفعل وماذا تنتظر؟ كان الجوّ حاراً جداً. وفي الشارع دجاجٌ كثير يطوف بين الرّوث الطازج. وفي الحدائق أمام البيوت كانت تتمايل زهور عبّاد الشّمس الذّهبيّ، وتنضج ثمار الكرز. والبواشق تحوم فوق القرية. تَنَحْنَحَ صاحبُ البيت، وتنهّد. وقال للفتاة الباكية:

– كان من الأفضل أن ترفعي التّنورة أعلى. ليست هناك مُصيبة في أنّهم مسّوك...لست الأولى.

أجهشت الفتاة، وألقت المكنسة، وأنزلت تنّورتها على ساقيها البيضاوين الـمُمتلئتين. نظر صاحب البيت إلى المكنسة بعض الوقت.

– من هو؟ قولي، ولا تخافي، يا ألكسندرا...

– لا أعرف ما اسم هذا اللعين...ليس من أبناء قريتنا...يلبس نظّارة...

أسرع صاحب البيت يقول وكأنّه قد فرح:

– ها! يلبس نظّارة...إنّه أحدهم، فوضويّ. –والتفت إلى كاتيا– إنها ابنة أخي ألكسندرا...أرسلتها إلى الهُري لتجلب القشّ...أتعرفين أين يقع الهري؟ وعادت في الصباح وثيابها مُمزّقة. اللعنة!..

– كان سكران، وهدّدني بالـمُسدّس. فماذا في إمكاني أن أفعل؟

قالت ألكسندرا مُولولة. ضرب صاحب البيت الأرض بقدمه الحافية مُهدّداً:

– اخرجي من هنا. أنا نفسي لا أعرف هل سأبقى على قيد الحياة أو لا.

خرجت الفتاة راكضة. عاد إلى النّحنحة من جديد محدّقاً في التّلال.

– ما العمل؟ وهل نحن سعداء في إطعام هؤلاء اللصوص؟ نعطيهم الخيول لعرباتهم. وهم يسوقونها بسرعة ثمانين فرسخاً. هؤلاء الشّياطين. والحصان ليس سيّارة، ويجب الاعتناء به. إنّ ماشيتنا كلّها الآن مُصابة...آه، الحرب!..

اهتزّت زجاجة المصباح المعلّق فوق المنضدة، ورنّ زجاج النّوافذ رنيناً خافتاً. وكأنّ الهواء الحارّ قد تنهّد. وسرى في الأرض هديرٌ بعيد. مدّ صاحب البيت نصف جسمه من النافذة بحركةٍ حيّة، وحدّق طويلاً في التّلال، حيث لاح فارسٌ وحيد بالقرب من الطاحونتين. ثمّ جمع أصابعه، ورسم علامة الصّليب أمام الصورة الموضوعة في زاوية.

قال:

– المدفعيّة الألمانيّة تضرب جماعتنا–ثمّ هرش تحت قميصه الحائل اللّون وقال–زمان!

ورفع المكنسة، وألقاها في زاوية، وخرج إلى الفناء جامعاً أصابع قدميه الحافيتين. وعاد الهدير يسري فوق القرية. لم تستطع كاتيا أن تطيل البقاء في البيت أكثر، وخرجت إلى الظّهيرة القائضة الفواحة بالرّوث.

رأت جمعاً مُضطرباً من مُسافري الأمس يسير في الشارع. سار في المقدّمة معلّم الفيزياء أوبروتشيف ناظراً من فوق نظارته الأنفيّة. كان يلبس ممطاراً مطّاطياً وكالوشاً، ويبدو رئيساً وموضع ثقة.

هتف بكاتيا:

- انضمّي إلينا!

اقتربت، كان المسافرون في مظهرٍ مهروس، وقد نحلت وجوههم. انتفخت عيون المرأتين الكهلتين من ذرف الدّموع. ولم يكن بينهم الـمُضارب الذي غيّر ملابسه.

قال أوبروتشيف بصوتٍ مرح:

- اختفى أحد أصحابنا دون أثر. والظاهر أنّه قد أُعدم رمياً. وجميعنا ينتظرنا نفس المصير، يا سادة، إذا لم تكن لدينا الحيويّة الكافية. يجب أن نُقرّر على الفور: هل سننتظر نتيجة المعركة، أم ننتهز فرصة عدم حراستنا من قِبل أحد، على ما يبدو، ونحاول أن نصل مشياً إلى السّكّة الحديديّة... أنا أحدّد لكلّ متكلّمٍ دقيقةً واحدة.

عندئذ تحدّث الجميع دفعةً واحدة. أشار البعض إلى أنّ قُطّاع الطُّرق إذاً لحقوا بهم في السّهب فسيقضون عليهم بدون شكّ. وقال آخرون: إنّ في الهروب نصيباً من الخلاص على أيّة حال. أما الفريق الثالث الذي كان واثقاً من انتصار الألمان فقد أصرّ على انتظار نتيجة المعركة. وحين تعالى الهدير وراء التّلال من جديد صَمَتَ الجميع، وقلّصوا عيونهم متأمّلين وحدّقوا إلى حيث لم يكن يُرى غير أجنحة الطاحونتين تتحرّك بوني. ألقى أوبرتشيف خطبةً محكمةً سَرَدَ فيها كلّ التّناقضات في وجهات النّظر. حدّقت السّيدتان في فمه، وكأنّه واعظ. ولم يستقرّ المسافرون على رأي فظلّوا واقفين في الشارع الـمُقفر بين الدّجاج والعصافير، حيث لاً أحد يُفكّر في أن يُشفق على روسيٍّ من أبناء قوميّته... لا أبداً! ها هي امرأةٌ حاسرة الرّأس أطلّت من

نافذة، وتثاءبت، وأشاحت برأسها. خرج فلاحٌ بلا حزام في مظهرٍ غاضب من وراء بيت، ونظر من خلالهم، والتقط قطعةً من طين، ورمى بها خنزيراً لأحد الجيران بكلّ قوّته. وحامت فوق القرية بواشق بلا اكتراث ناظرةً إلى أبناء الـمُدن المنهوبين الذين لا يهتمّ بهم أحدٌ هنا.

ارتفعت سحابةٌ من الغبار من وراء التّلّ. اندفع فارسٌ من الطاحونتين، واختفى. اقترح أحد الـمُسافرين العودة إلى إدارة القرية، حيث قضى الجميع ليلتهم هناك. سارت السّيدتان أوّلاً. وحين ظهرت عربات "الترويكا" من وراء التّلال مُنطلقةً بأقصى سُرعتها انصرف الآخرون أيضاً. بقيت كاتيا ومعلّم الفيزياء في الشارع، وقد صلب المعلّم يديه تحت الـمُشمّع بحزم.

كانت العربات أربعاً أو خمساً. دارت حول البحيرة، ووصلت إلى القرية. كانت تحمل الجرحى. توقّفت الأولى عند نوافذ بيت. صاح سائق الخيول وهو رجلٌ ضخم من الأنصار في سُترةٍ جلديّة غير مُزرّرة:

– ناديجدا، جلبوا رجلك.

خرجت امرأةٌ من البيت راكضةً خالعةً مئزرها عنها وأجهشت بصوت واطئ، وألقت نفسها على العربة. نزل من العربة رجلٌ شاحبٌ إلى حدّ الاخضرار، وأمسك برقبة الزّوج وألقى رأسه إلى الأسفل، وسار نحو البيت بخُطىً رخوة مُنحني الجذع. انتقلت العربة إلى بيتٍ آخر، حيث خرجت ثلاثُ فتياتٍ في ثيابٍ ملوّنة.

صاح السائق بهنّ مرحاً:

– خذن صاحبكنّ، يا حمامات. جرحه طفيف.

وبعد ذلك استدار بالعربة بحركةٍ بطيئة وهو يُفكّر أين سينقُل الجريح الأخير. كان ميشكا سولومين يجلس في العربة مُقلّصاً عينيه، وقد شدّ رأسه بخرقةٍ من قميصٍ مُدمّاة وأسنانه مصكوكة. وفجأةً أوقف السائق الخيول:

– أوه، يا ربّي... يكاترينا دميتريفنا؟..

ولم تكن كاتيا تتوقّع ذلك البتّة. ضاقت أنفاسها من القلق، وهرعت إلى العربة. كان ألكسي كراسيلنيكوف يقف عليها فارجاً ساقيه عريضاً مُسنداً إحدى يديه على جنبه مُمسكاً العنان بالأخرى. كانت لحيته تتلوّى على خدّيه، وعيناه الوضيئتان تنظران بمرح. وقد شدّ على وسطه قنابل يدويّة، وشريط رشاشةٍ فوق سترته الجلديّة، ووراء كتفيه بندقيّة فرسان.

– كيف جئت إلينا، يا يكاترينا دميتريفنا؟ في أيّ بيت تقيمين؟ في هذا؟ عند ميتروفان؟ إنه ابن عمٍّ لي، من عائلة كراسيلنيكوف أيضاً. انظري إلى ميشكا، مسكين. شجّت نسف رأسه قُنبلة شرابنيل...

سارت كاتيا إلى جانب العربة. كان ألكسي ما يزال مُحتداً ثملاً بالمعركة. تلمع عيناه وأسنانه وابتسامته.

– مزّقنا الألمان تمزيقاً... الحمقى... ألقوا أنفسهم على رشّاشاتنا ثلاث مرّات. وهم الآن مُنطرحون في الحقل كلّه... الآن صار للاتمان من الملابس ما يلبس به الجيش كلّه... قف... ميتروفان!.. اخرج من مغارتك، واستقبل البطل الجريح... أما أنت، يا يكاترينا دميتريفنا فلا تغادري هذا البيت. الحالة قلقةٌ عندنا...

صدر من برج الجرس رنينٌ رقيقٌ بهيج. انفتحت أبواب الحدائق في

القرية كلّها، ورفعت الصّفاقات وركضت النّساء في الشارع، وخرج الرّجال الحذرون. وطلع عددٌ كبير من الناس من حيث لا يدري أحد، وساروا مُغنّين مُتحدّثين إلى الدّرب للقاء جيش ماخنو الـمُنتصر.

جلب ألكسي كراسيلنيكوف، وكاتيا معه، ميشكا شبه الميّت إلى فناء ميتروفان، وأرقده في الظّليلة على سرير ألكسندرا. راحت كاتيا تُبدّل ضماده. نزعت بصعوبةٍ من شعره الخرقة التي جمد عليها الدّم. لم يبدر من ميشكا غير صريفِ الأسنان. وعندما بدأت كاتيا تغسل الجرح الرّهيب في الجهة اليُمنى من الجُمجمة، تأوّهت ألكسندرا التي كانت تُمسك بالحوض، وترنّحت، أمسك ألكسي بالحوض، ودفعها. وقال لكاتيا:

انظري، هناك فلقةُ عظمٍ ناتئة. ألكسندرا، اجلبي كمّاشة السُّكّر.

غير موجودة، انكسرت.

أمسكت كاتيا بأظافرها فلقة العظم التي كانت ناتئةً في الجرح. وسحبتها. صرخ ميشكا. لقد كانت فلقةً بالتّأكيد. وكانت أظافرها تنزلق فتنفذ أعمق، وتخرجها.

زفر ألكسي زفرةً صاخبة وضحك قائلاً:

– هكذا نُقاتل، على طريقة الفلاحين!..

شُدّ رأس ميشكا بقماشةٍ نظيفة. فرقد تحت فروة خروفٍ مُبلّلٍ يرتجف بشدة، وفتح عينيه. انحنى ألكسي عليه:

– كيف الحال؟ هل ستكون على قيد الحياة؟

قال ميشكا مُبتسماً ابتسامةً ميتة:

– يوم أمس تبجّحت أمامها، وهذه نتيجة التّبجّح.

ونظر إلى كاتيا. كانت تمسح يدها. تقدّمت أيضاً وانحنت عليه. حرّك ميشكا شفتيه:

– احرص عليها، يا أليوشا[١٨].

– أعرف ما أعرف.

– فكّرت بأن أرتكب عملاً سيّئاً نحوها... يجب نقلها إلى المدينة.

ومرّةً أخرى ثبت في كاتيا بصره المجنون تقريباً. كان يُقاوم الألم ووهج الحُمّى وكأنّها شيءٌ تافه، مجرّد هراءٍ ومضايقة. فإنّ مُصاقبة الموت شتّتت فيه جميع زوابع الانفعالات والتّناقضات. وقد أحسّ في تلك اللّحظة بأنّه ليس الفتى السّكير الشّرير، بل روح روسيّة كالطائر يصعد أثناء العاصفة وأنّه في الأعمال البطوليّة لا يقلُّ صلاحاً عن الآخرين، وأنّه قادرٌ على الإتيان بالأعمال الرّفيعة...

قال ألكسي بخفوت:

– الآن دعيه ينام. لا بأس، إنه فتىً متدفّق الحيويّة. سينام ويشفى.

خرجت كاتيا مع ألكسي إلى الفناء. ما تزال وكأنّها في حلم يقظةٍ غريب تحت سماءٍ لا حدود لها في هذا السّهب الحار حيث يفوح بدخان الرّوث الجاف القديم، حيث كان رجلٌ بعد وقفة طويلة ينطلق على فرسه مُكشّراً أسنانه للريح الطّليقة، والسّورات تطفأ كما يُطفأ الظّمأ بقدحٍ مُترع.

١٨– صيغة تدليل لاسم ألكسي (المُترجم).

و لم تشعر بخوف. إنّ مصيبتها المطمورة في أعماق النّفس لا حاجة بها لأحد، وحتى لنفسها في هذه الأحوال. كانت على استعدادٍ إلى التّضحية، إلى القيام بمأثرةٍ دون أيّ تردّد. ولو دعيت للموت لتنهّدت تنهيدة ورفعت عينين صافيتين إلى السّماء. قالت:

– فاديم بتروفيتش قُتل. ولن أعود إلى موسكو، إذ ليس لي أحدٌ هناك...ولا شيء...لا أعرف ماذا جرى لأختي...ظننت أنني أسافر إلى مكانٍ ما، ربّما إلى يكاترينوسلاف...

أفرج ألكسي ساقيه، ونظر إلى الأرض، وهزّ رأسه:

– من المؤسف أن يُقتل فاديم بتروفيتش، فقد كان رجلاً طيّباً...

– نعم، نعم–قالت كاتيا واغرورقت عيناها بالدّموع. –كان إنساناً طيّباً جداً.

– لم تسمعا كلامي آنذاك. بالطّبع نحن نُكافح من أجل هدفنا وأنتم من أجل هدفكم. ولا حاجة إلى التّكدّر في هذه المسألة. ولكن هل من الـمُمكن أن يُحارب المرء ضدّ الشّعب! ليس من المعقول أن نستسلم!..هل رأيت الفلاحين اليوم؟ ومع ذلك كان فاديم بتروفيتش مُنصفاً على أيّة حال...

قالت كاتيا، وهي تنظر إلى غصن شجرة كرزٍ مُثقلٍ متدلّ من وراء السّياج:

– انصحني ماذا أفعل، يا ألكسي إيفانوفيتش. إنّـه يجب أن أعيش...–قالت وأحسّت برعب فقد ضاعت كلماتها في خواء. و لم يُجِب ألكسي رأساً:

– ماذا تفعلين؟ سؤالٌ من أسئلة السادة. وكيف ذاك؟ أنت امرأةٌ مثقّفة تعرفين لغاتٍ أجنبيّة، وجميلة، وتسألين فلاحاً:

«ماذا أفعل؟»

واكتسى وجهه تعبير الازدراء. وطقطق بالقنابل الـمُعلّقة في حزامه طقطقةٍ خافتة. انكمشت كاتيا. قال ألكسي:

– ستجدين أعمالاً في المدينة. ربّما في حانة تُغنّين وترقصين وربّما كمومس، وربّما في مكتبٍ تطبعين على الآلة الكاتبة. لن تضيعي.

خفضت كاتيا رأسها، وأحسّت بأنّه ينظر إليها، ومن نظرته تلك لم تستطع أن ترفع رأسها. وقد أدركت فجأة، كما هي الحال مع ميشكا، لماذا كان ألكسي يثبّت بصره فوق رأسها بهذه الموجدة. لا وقت الآن للصّفح والشّفقة. إنْ لم تكن منهم فهي عدوّ. إنّها سألت كيف عليها أنْ تعيش. ألقت هذا السّؤال على مُحاربٍ ما زال مُلتهباً بالفروسيّة، بأزيز الرّصاص، بسكرةِ الآن. فلو سألته مع مَنْ وفي سبيل أيّة حقيقةٍ ينطلق على هذه العربة في السّهب لرأت الطّيبة تعلم في عينيه...

أدركت كاتيا ذلك، ولجأت إلى المكر مثل حيوانٍ صغير. لقد حاولت لأوّل مرّةٍ في هذا اليوم أنْ تدافع عن نفسها:

– لقد أسأت فهمي، يا ألكسي إيفانوفيتش. ليس ذنبي أن تتقاذفني الأرض كالورقة اليابسة. ماذا عليّ أن أحبّ؟ وبم أعتزّ؟ لم يعلّموني ذلك. فلا تسألني، علّمني أوّلاً. (كفّ عن الطّقطقة بالقنابل. ومعنى ذلك أنّه أرهف السّمع). ذهب فاديم بتروفيتش إلى الجيش الأبيض خلاف إرادتي. لم أرد أن يفعل ذلك. وقد عاتبني لأنّ نفسي لا تضمر بُغضاً...أنا أرى كلّ شيء، وأفهم كلّ شيء، يا ألكسي إيفانوفيتش.

ولكنني في الهامش...هذا شيءٌ فظيع. وفي ذلك يكمن عذابي كلّه...ولهذا سألتك ماذا أفعل وكيف أعيش...

صمتت برهة، ثمّ حدّقت في عيني ألكسي إيفانوفيتش تحديقة جليّة صافية. فرمش، ولاح على وجهه بعض السّذاجة والحيرة، وكأنّما قد احتيل عليه. رفع يده إلى علياته، وحكّ.

قال مغضّناً أنفه:

– هذه مأساة. أنت على حقّ. المسألة سهلةٌ بالنّسبة لنا. أخي قتل ألمانياً في فناء بيتي، فأحرقنا البيت وخرجنا نحن. إلى أين؟ إلى الأتمان، أما أنت، الـمُثقّفة...فحقاً...

ونجح مكر كاتيا. وعزم ألكسي إيفانوفيتش، في الظاهر أن يحلّ المسألة اللعينة في هذه اللحظة: في سبيل أيّة حقيقةٍ تُناضل امرأةٌ مثل كاتيا لا أرض لها ولا فرس.

لقد كان مضيعةً للوقت الوقوف عند السّياج تحت شجرة الكرز التي كانت تنظر إليها كاتيا. لقد كانت تودّ لو تقطع حبّتين سوداوين لتعلّقهما قرطاً، ولكنّها استمرّت واقفةً بهدوء أمام كراسيلنيكوف، إلاّ أنّ ومضات الفكاهة كانت تومض في عينيها الواسعتين وقد أضاءتهما السّماء.

قال ألكسي إيفانوفيتش مقوياً تأثير كلماته بإيماءٍ حاسم:

– إذا كنا نحن الفلاحين نطعمكم، يا أبناء المدن فإنّ الواجب يقتضي أن تقفوا إلى جانبنا. نحن الفلاحين ضدّ الألمان، وضدّ البيض، وضدّ الشّيوعيين، ولكننا في سبيل سوفييتات الريف الحرّة. مفهوم؟

هزّت رأسها، فتابع كلامه، أما هي فوقفت على أطراف أصابعها، ورفعت ذراعها اليُسرى، لأنّ كمّها الأيمن مشقوقٌ تحت الإبط، وقطعت حبّتين من الكرز. وضعت واحدةً في فمها. وأخذت تُدير الأخرى من عودها. قالت وقد لفظت النّواة:

– لو كنت قرويّة لكان كلّ شيءٍ واضحاً لي. كل مرّةً سمعت: الوطن، روسيا، الشّعب. ولكنني لأوّل مرّة أرى ما تعني هذه الكلمات. وأكلت الحبّة الأخرى ناظرةً إلى ألكسي إيفانوفيتش، وإلى لحيته التي لاحت في النور ذهبيّة، وإلى السّترة الجلديّة المفتوحة، وإلى رجليه القويّتين، وتسلّحه المُخيف. قال وهو يزداد ارتباكاً:

– الشّعب، الشّعب. أعجوبةٌ صغيرة، بالطّبع...ولكننا لن نتخلّى عما يخصّنا. –وأمسك بقوّةٍ بالخابور الطالع من السياج وجرّبه ليتأكّد من ثباته. –سنحارب بقسوة ولو في العالم كلّه...ليتك تسمعين ما يقوله فوضويّونا، لا ما أقوله أنا. إنّهم أساتذةٌ في فنّ الكلام...فقط... (وتحرّك حاجباه، ومرّر عينيه على كاتيا بنظرةٍ فاحصة). ولكنّ المُصيبة: إنّهم فُسّاقٌ وسكّيرون دون تحفّظ...أظنّ من الخير ألا تدعي عيونهم تقع عليك...

– لا أهميّة لذلك، –قالت كاتيا.

– كيف لا أهميّة لذلك؟

– أقصد لست صغيرة. ولا أسمح لأحدٍ بأن يمسّني.

– أنت تتكلّمين جيّداً...

ارتجف حنك كاتيا، وابتسمت، ورفعت جسمها إلى غصن الكرز

ثانية. وأحسّت بأنّ حرارة الشّمس تنفذ إلى جسمها وتُداعبه. وكان ذلك حلم يقظة. قالت:

– على أيّة حال ماذا تظنّ أنّ في وسعي أن أفعل عندكم، يا ألكسي إيفانوفيتش؟

– في حقل التّنوير...لدى الأتمان يتكوّن قسمٌ سياسيّ...ويقولون يريد أن يُصدر جريدة.

– وأنت؟

– أنا؟..(وأمسك بالخابور مرّةً أخرى، وهزّ السّياج). أنا مُحاربٌ بسيط. سائق عربة رشّاشة. ومكاني في القتال. وأنت، يا يكاترينا دميترييفنا، القي نظرةً في البداية، ولا تتّخذي قراراً رأساً. أنا سأعرّفك بزوجة أخي ماتريونا. يعني نضمّك إلى عائلتنا...

– ولكنّ الأتمان ماخنو طلب إليّ أن آتي مساءً لأنظّف أظافره.

– ماذا؟!–وأمسك ألكسي في الحال حزامه بكلتا يديه تحت السّترة الجلديّة. بل وأنّ أنفه قد تدبّب. –أظافره؟ وبماذا أجبته؟

قالت كاتيا هادئة:

– أجبته بأنني أسيرة.

– حسناً، سيُرسل في طلبك–اذهبي. ولكنني سأكون هناك...

في تلك اللحظة هبطت ألكسندرا السّمينة من مدخل البيت، ومئزرها يهتزّ. صاحت وانطلقت تفتح الباب:

– إنّهم قادمون، قادمون!

كانت «هورا» تُسمع من بعيد مع طلقاتٍ منفردة، ووقع حوافر خيول. لقد عاد الأتمان مع الجيش. خرج ألكسي وكاتيا إلى الشّارع. ارتفعت سحابة الغبار فوق الدّرب. كان الفرسان والعربات تنطلق على الأكمات مروراً بالطاحونتين.

دخلت مقدّمة الجيش القرية. وأحاط الصّبيان بها وتراكضت الفتيات. كانت بطون الخيول العرقة المُزبدة الأشداق تعلو وتهبط. وقف رجال ماخنو على العربات مُغبرّين عرقين وطاقيّاتهم مائلةٍ إلى الوراء.

جاء ماخنو على عربةٍ عليها بساطٌ فارسيٌّ تتطاير حوافّه. كان يجلس على صندوق ذخيرة مترنّحاً متمسكاً بقبّعته الفرائيّة قرب فخذه. وقد جمد وجهه الشاحب متوتّراً، وشفتاه الجافّتان المُتشقّقتان مزمومتان.

وفي العربة الثانية وراءه ركب ستّة أشخاص في هيئةٍ مدنيّة—يرتدون ستراً وقبّعاتٍ ناعمة وطاقياتٍ قشيّة وقد أرسلوا جميعاً شعورهم ولحاهم، ووضعوا النّظارات على عيونهم. إنّهم الفوضويّون من هيئة الأركان والقسم السّياسيّ.

-٨-

عاشت داشا تليغينا خمسة أشهرٍ وحيدة في غرفةٍ خالية. حين خرج إيفان إيليتش إلى الجبهة ترك لها ألف روبل، إلا أنّ هذه النّقود لم تكفِ وقتاً طويلاً. ومن حسن الحظّ أنّ أجنبياً حاذقاً يُدعى ماته قد نزل في شقّةٍ تقع تحت شقّتها كان يُقيم فيها موظّفٌ كبير من بطرسبورغ هرب مع عائلته في كانون الثاني. وكان هذا الأجنبيّ يشتري اللوحات والأثاث وأيّ شيءٍ كان.

باعت داشا له السّرير العريض لشخصين، وبعض المحفورات، والحليّات الصّينية. وتخلّت بلا مبالاةٍ عن الأشياء التي كانت تعبق بالرائحة القديمة والذّكريات الماضية. لقد انتهى كلّ شيءٍ من الماضي.

وقضت الرّبيع والصّيف على النقود التي تسلّمتها من بيع الأشياء. خلت المدينة. كانت الجبهة تبدأ وراء نهر سيسترا على بُعد ساعةٍ ركوباً بواسطة نقلٍ من بطرسبورغ. انتقلت الحكومة إلى موسكو. وكانت القصور تطلّ على نهر النيفا بنوافذها الـمُحطّمة الفارغة. ولم تكن الشّوارق مُضاءة. ولم تكن لرجال الميليشيا رغبةٌ كبيرة في الحفاظ على دعة البرجوازيين وهم إلى زوالٍ على أيّة حال. وفي الأماسي كان يظهر في الشوارع أناسٌ رهيبون لم يكن لهم وجودٌ من قبل. كانوا يتطلّعون في النّوافذ ويتجوّلون في السّلالم الـمُظلمة مُحاولين تدوير قبضة الأبواب. والعياذ بالله لو غفل بعض الناس، ولم يقفلها

بعشرات المزاليج والسّلاسل. فقد كانت تُسمع خشخشة، ويدخل الشّقّة مجهولون قائلين: "ارفعوا أيديكم!" ويهجمون على السّاكنين، ويربطونهم بالأسلاك الكهربائيّة، ثمّ يشدّون الغنيمة بصُرر غير مُتعجّلين.

وظهرت الكوليرا في المدينة. وحين نضجت الأعناب عمَّ الرُّعب. تساقط الناس في الشّوارع والأسواق يتلوّون من الألم. وجرى التّهامس في كلّ مكان. وتوقّع الناس بلاءً شديداً. وقالوا إنّ رجال الجيش الأحمر يضعون النّجوم الخُماسيّة معكوسةً على قُبّعاتهم– وتلك علامة المسيح الدّجال–وزعموا أنّ "الرّجل الأبيض" صار يظهر في الكنيسة الصّغيرة الـمُغلقة على جسر الضابط شميدت، وهذا يعني أنّ المصائب متوقّعةٌ من البحر. ومن الجسور كان الناس يشيرون إلى مداخن المصانع الخامدة التي كانت تبدو في الشّفق القرمزيّ مثل "أصابع الشّيطان".

وأغلقت المعامل. وانضمّ العُمال إلى فرق التّموين، أو ذهبوا إلى الريف، وطلع العُشب بين بلاطات الشّوارع. ولم تكن داشا تخرج من البيت كلّ يوم، وإذا خرجت ففي الصّباح إلى السوق حيث طلبت الـمُضاربات الفنلنديات الوقحات على البود[١٩] الواحد من البطاطس بنطلونين. وكان غالباً ما يأتي رجال الحرس الأحمر إلى السوق، ويفرّقون بقايا النّظام البرجوازيّ بإطلاق النار في الهواء: الفنلنديّات مع بطاطسهنّ، والسّيدات بصُررهنّ من ثياب الرّجال وستائر النّوافذ. وصار الحُصول على الطّعام يزداد صعوبةً من يومٍ إلى يوم. وأحياناً كان يُسعفها ماته هذا بأن يُبادلها الـمُعلّبات والسّكّر بالأشياء العتيقة

١٩– بود يساوي ١٦,٣٨ كيلوغراماً (المترجم).

الثّمينة. كانت داشا تحاول أن تُقلّل من طعامها لتقلّل من أتعابها. كانت تستيقظ في ساعةٍ مبكّرة، وتخيط شيئاً إذا وجدت خيوطاً، أو تتناول كتاباً مطبوعاً في عام ١٩١٣ أو ١٩١٤، وتقرأ لمجرّد ألا تدع عقلها يُفكّر. ولكنّها كانت تفكّر في أكثر الأوقات وهي جالسةٌ إلى النافذة، أو بالأحرى كان فكرها يحوم حول نقطةٍ داكنة. سورتها النّفسيّة قبل مدّة، يأسها، حنينها، فكان كلّ شيءٍ قد تكوّر الآن في هذه الكتلة الغريبة في عقلها، عقابيل مرض. وقد نحلت نحولاً شديداً حتى أصبحت كفتاةٍ في السادسة عشرة. إنّها قد أحسّت وكأنّها انقلبت إلى فتاة، ولكن بلا لعب الفتاة.

وكان الصّيف ينقضي، وانتهت الليالي البيضاء، وأمسى الغروب وراء كرونشتادتٍ أكثر كآبة. ومن النافذة المفتوحة في الطابق الخامس كانت تنداح إلى مسافةٍ بعيدة الشّوارع الآخذة بالأقفار عند هبوط المساء، ونوافذ البيوت الـمُظلمة. لم تكن الأضواء تُنار. ونادراً ما تُسمع خطوات عابر سبيل.

وكنت داشا تُفكّر: ماذا سيكون بعد الآن؟ متى ينتهي هذا الجُمود؟ عن قريبٍ سيأتي الخريف والأمطار، وتعول الرّيح الباردة فوق السّطوح من جديد. ولا يوجد حطب، والمعطف الفرائيّ قد بيع. ربّما يعود إيفان إيليتش... ولكنّ الوحشة تأتي من جديد، ذبالات المصباح الـمُحمرّة، الحياة التي لا فائدة منها.

ليتها تجد القوّة، وتحطّم الجمود، وتخرج من هذا البيت الذي تدفن فيه حيّة، وتغادر هذه المدينة الـمُحتضرة!.. عندئذٍ لا بُدّ أن يحصل شيءٌ جديد في الحياة... ولأوّل مرّةٍ في هذه السّنة فكّرت داشا بـ«الجديد»، وجدت نفسها تُفكّر بذلك، واضطربت ودُهشت، وكأنّما عاد يلوح

من خلال ستار الجزع القانط ألق الرّحابة البراقة، لذلك الذي داعب آمالها في تلك الباخرة عل الفولغا.

ثمّ جاءت أيام الأسى على إيفان إيليتش. بدأت تُشفق عليه بطريقةٍ جديدة، إشفاق الأخت. وتذكّرت بأسفٍ همومه الصّابرة، وطيبة قلبه التي لا تُضايق أحداً على أيّة حال.

عثرت داشا في خزانة الكتب على ثلاثة مُجلّداتٍ بيضاء تضمّ أشعار بيسونوف. إنّها ذكرى خمدت كلياً. وقرأتها قُبيل المساء، في السُّكون، حين كانت الخطاطيف تتطاير حول النافذة كالخطوط السّوداء. ووجدت في الأشعار كلماتٍ عن أساها، عن وحدتها، عن الريح القاتمة التي ستصفر فوق قبرها...وغرقت داشا في أحلامها، وبكت. وفي الصّباح أخرجت من الصّندوق بين النّفتالين الثّوب الذي خاطته لزفافها، وبدأت تُعيد خياطته. وكانت الخطاطيف تطير، كما في الأمس، والشّمس شاحبة الضّوء. وفي السّكون ترامت من بعيد ضرباتٌ نادرة، وأحياناً هبدة، وكأنّ شيئاً ثقيلاً يسقط على الرّصيف. لعلّ بيتاً خشبياً يُحطّم في شارعٍ جانبيّ.

أخذت داشا تخيط على مهل. وكان الكشتبان يخرج مراراً من إصبعها الناحلة وكاد يسقط ذات مرّةٍ من فوق النافذة. وتذكّرت يوم جلست مع هذا الكشتبان على الصّندوق في رواق شقّة أختها، وهي تأكل المربّى بالخبز. كان ذلك في عام ١٩١٤. وكانت كاتيا قد تخاصمت مع زوجها، وقد تهيّأت للسّفر إلى باريس. كانت ترتدي قبّعةً صغيرة فيها ريشةٌ صغيرةٌ رقيقة. وبينما كانت عند الباب التفتت ورأت داشا قاعدةً على الصّندوق، فقالت: «دانيشكا، تعالي معي...» ولكنّ داشا لم تُسافر. أما الآن...فلو تنتقل إلى باريس. كانت داشا

تعرفها من رسائل كاتيا: زرقاء حريريّةٍ عاطرة كعلبة عُطور...راحت تخيط وتتنهّد من الانفعال. أن تُسافر!..يقولون إنّ القطارات معدومة، ولا يُسمح بالسّفر إلى الخارج...ودّ لو تذهب مشياً، تسير والحقيبة على ظهرها عبر الغابات والجبال والحُقول والأنهار الزّرقاء المياه، متنقلّةً من بلدٍ إلى آخر، حتى المدينة الرائعة الأنيقة...

وتساقطت الدّموع من عينيها. أيّة حماقة، آه، أيّة حماقة! الحرب تجري في كلّ مكان. والألمان يُطلقون النار على باريس من مدفعٍ هائل. مجرّد أحلام! أمن العدل الا تُتاح للإنسان حياةٌ هادئةٌ مُفرحة...«ماذا فعلت لهم؟...» وقع الكشتبان تحت الكرسيّ. ولمعت الشّمس من خَلَل الدّموع، وانطلقت الخطاطيف بصفيرٍ فارغ. ما يهمّ هؤلاء بشيء، فقط أن يتوفّر ذبابٌ وبعوض...«ولكنني سأسافر على أيّة حال!» -قالت لنفسها وهي جاهشة...ثمّ تردّدت طرقاتٌ متقطّعةٌ ملحاحة على الباب في الرّواق. وضعت داشا إبرتها والمقصّ على إفريز النافذة، ومسحت عينيها بلفّة خياطتها، وألقتها على المقعد، وذهبت لتسأل مَنْ الطارق...

– هل داريا دميتريفنا تليغينا تعيش هنا؟..

وبدلاً من أن تُجيب انحنت على فتحة المفتاح. ومن الجانب الآخر انحنى شخصٌ على هذه الفتحة أيضاً، وقال صوتٌ حذر: «لها رسالةٌ من روستوف...» أسرعت داشا لفتح الباب. دخل رجلٌ غريب في معطفٍ جنديٍّ مدعوك، وقبّعةٍ مشقوقة. خافت داشا، وتراجعت، ومدّت يجها. قال الرّجل بعُجالة:

– بحقّ الرّبّ، يا داريا دميتريفنا، ألم تعرفيني؟..

- لا، لا...

- كوليتشيك، نيكانور يوريفيتش...مساعد الـمُحامي. هل تذكرين سيسترورتسك؟

أنزلت داشا يديها، وحدّقت في وجهه النّحيل الـمُدبّب الأنف الذي لم يحلق منذ زمن. كانت الغضون عند العينين الـمُنتبهتين السّريعتين تنمّ عن عادة الحذر، والفم الغريب الشّك عن التّصميم والقسوة. كان يُشبه وحشاً صغيراً يتوجّس خطراً.

أمن المعقول أنّكِ نسيت، يا داريا دميتريفنا...كنت آنذاك مساعد المرحوم نيقولاي إيفانوفيتش سموكوفنيكوف زوج أختك...كنت مغرماً بك، وقد صدّدتني صداً قوياً...هل تذكرين؟ -وابتسم فجأةً بسمةً منسيّة، بسمة «ما قبل الحرب» ببساطة قلب. وإذا بداشا تتذكّر كلّ شيء: الشاطئ الرّمليّ الـمُنبسط، والغبش الشّمسيّ فوق الخليج الدافئ النّاعس، وتذكّرت نفسها «الشائكة» والعُقدة الصّبويّة على الفستان، وكوليتشيك العاشق، الذي كانت تزدريه من كلّ عفافها الـمُتشامخ...ورائحة أشجار الصّنوبر العالية التي كانت تحفّ ليل نهار بعظمةٍ على الكثبان الرّمليّة...

قالت داشا بصوتٍ مرتجف:

- لشدّ ما تغيّرت.

ومدّت يدها له. أمسكها كوليتشيك بخفّةٍ وقبّلها. كان يبدو، رُغم المعطف العسكريّ القذر، أنّه كان يخدم في سلاح الفرسان طوال هذه السّنوات.

– اسمحي لي أن أقدّم لك الرّسالة. اسمحي لي أن أخلع حذائي في مكانٍ ما...لقد وضعتها، وأرجو المعذرة، في لفافة السّاق–ونظر نظرةً ذات مغزى، ودخل وراء داشا إلى غرفةٍ فارغة حيث جلس على الأرض، وأخذ يسحب حذاءه الطّويل الـمُلَطّخ بالقذر وهو يغضّن وجهه.

كانت الرّسالة من كاتيا، وهي نفس الرّسالة التي سلّمتها كاتيا إلى المقدّم تيتكين في روستوف.

صاحت داشا من السّطور الأولى التي قرأتها، وأمسكت برقبتها...فاديم قُتل!...وطوّفت ببصرها في الرّسالة مُستعجلةً عينيها. وأعادت قراءتها بنهم. وجلست على ذراع المقعد خائرة القوى. كان كولتشيك يقف على انفراد مُتواضعاً.

– نيكانور يوريفيتش، هل رأيت أختي؟

– لا، سلّمت إليّ الرّسالة قبل عشرة أيام من قِبل شخص. وقد ذكر أنّ يكاترينا دميترييفنا غادرت روستوف منذ شهر...

– يا إلهي! أين هي الآن؟ ماذا حصل لها؟

– مع الأسف لم يكن في الإمكان الاستفسار عن ذلك.

– هل كنت تعرف زوجها؟ فاديم روتشين!..قُتل...كاتيا تكتب...آه، ما أفظع ذلك!

رفع كوليتشيك حاجبيه بدهشة. كانت الرّسالة تهتز بيدها النّحيلة اهتزازاً شديداً حتى أنّه تناولها، ومرّر عينيه على السّطور التي كانت تتحدّث عن فالريان أونولي الذي روى لها مصرع زوجها...ارتفع طرف فم كوليتشيك إلى الأعلى بحركةٍ غاضبة:

– كنت دائماً أعتقد أنّ أونولي قادرٌ على السّفالة...يستدلّ من أقواله أنّ روتشين قُتل في أيّار. أليس كذلك؟ إنّه لغريب...يُخيّل إليّ أنني رأيته في وقتٍ متأخّرٍ عن ذلك بعض الشّيء.

– متى؟ أين؟

إلا أنّ كوليتشيك مدّ أنفه الكاسر، وتفرّس في داشا بنظرة فاحصة شائكة. وقد استمرّ كلّ ذلك ثانيةً واحدة. كانت عينا داشا الـمُلتهبتين بالانفعال وأصابعها الباردة الـمُتشابكة تقول بأوضح الوضوح أنّها لن تخونه، ولو كان زوجها ضابطاً أحمر، فليكن على ثقةٍ من ذلك. سأل كوليتشيك مُتقدّماً من عيني داشا:

– لا يوجد في الشّقّة غيرنا؟ (هزّت داشا رأسها بسرعة: لا، لا). اسمعي، يا داريا دميترييفنا، ما سأقول لك يجعل حياتي مُتوقّفةً على...

– هل أنت من ضُباط دنيكين؟

– نعم.

طقطقت داشا بأصابعها، ونظرت بوحشةٍ في النّافذة، في الزُّرقة التي لا يُمكن بلوغها.

– ليس عندي ما يُخيفك...

– كنت واثقاً من ذلك...أريد أن أسألك مبيتاً عندك لعدّة أيّام.

قال ذلك بصرامة بل بتهديدٍ تقريباً. أطرقت داشا برأسها.

– حسناً...

– ولكن إذا كنت خائفة...(وقفز متراجعاً) لست خائفة؟

(وتقدّم). أنا فاهم، فاهم...ولكن لا شيء تخافينه...أنا حذرٌ جداً... سأخرج في الليل فقط...لا أحد يعرف أنّني في بتروغراد...(وأخرج من بطانة القُبّعة هويّة جنديّ). هذه...إيفان سفيتشيف. جنديٌّ أحمر...وثيقةٌ حقيقيّة. تخلّصت منه بيدي وأختها...تريدين أن تعرفي عن فاديم بتروفيتش...أظنّ أنّ هناك بعض البلبلة.

أمسك كوليتشيك يدي داشا وضغط عليها:

– إذن، فأنت معنا، يا داريا دميترييفنا؟ إذن، شكراً. إنّ جميع الـمُثقّفين، جميع الضُّباط الـمُهانين الـمُعذّبين ينضمّون تحت راية جيش الـمُتطوّعين الـمُقدّسة. إنّه جيش الأبطال...وسترين أنّ روسيا ستُنقذ، ستنقذها الأيدي البيضاء. أما تلك البراثن الخشنة فلترتفع عن روسيا! كفى عواطف. الشّعب الكادح! لقد قطعت منذ حين ألفٌ وخمسمائة فرسخ على سطح عربة، ورأيت الشّعب الكادح! وحوش! وأنا أؤكّد لكَ أنّنا وحدنا، الزّمرة القليلة من الأبطال، نحمل في قلوبنا روسيا الحقيقيّة. وسندقّ قانوننا بالحربة على مدخل قصر تافريتشسكي.

وأحسّت داشا بأنّ سيل الكلمات يصمّ أذنها...شقّ كوليتشيك الهواء بظفره الأسود، وتتطاير الزّبد من طرفيّ فمه. على الأغلب أنّه اضطرّ إلى لزوم الصّمت وقتاً طويلاً وهو على سطح العربة.

لا أخفي عليك شيئاً، يا داريا دميترييفنا...أنا مُرسلٌ إلى هنا، إلى الشّمال للاستخبارات والتّجنيد. إنّ الكثيرين لا يتصوّرون حتى الآن قوّتنا...نحن في صُحُفكم مجرّد عصاباتٍ من الحرس الأبيض، حفنةٌ ضئيلة ستُمحى في القريب العاجل عن وجه الأرض...فلا غرابة أن

يخاف الضُّباط الانضمام إلينا... ولكن أتعرفين ما يجري في منطقتي الدون وكوبان في واقع الأمر؟ إنّ جيشِ أتمان الدون يكبر مثل كتلة الثّلج. وقد طهّرت محافظة فورونيج من الحُمر، وستافروبول مُهدّدة... ومن يوم إلى يوم ننتظر أن يخرج الأتمان كراسنوف على الفولغا، ويستوليَ على تساريتسين... حقاً إنّه يتعاون مع الألمان، ولكنّ ذلك شيءٌ موقّت... ونحن رجال دنيكين نزحف على جنوب كوبان، وكأنّنا في استعراض. وقد استولينا على تورغوفايا وتيخوريتسكايا وفيليوكوكنياجيسكايا. وقد مُزّق سوروكين تمزيقاً. وجميع قرى القوزاق تُرحّب بجيش المتطوّعين بحفاوة. وبالقُرب من بيلايا غلينا خُضنا معركةً ضارية، وزحفنا على تلالٍ من الجُثث حتى أنّ خادمك المُطيع خوّض بالدّم حتى الحزام.

شحبت داشا وهي تنظر في عينيه. وضحك كوليتشيك بعظمة:

– أتظنّين ذلك كلّ شيء؟ إنّ ذلك بداية التّنكيل. يشمل الحريق البلاد كلّها. محافظات سامارا وأورنبورغ وأوفا، والأورال كلّه في لهب. وأحسن جزء من الفلاحين يُنظّم بنفسه جيوشاً بيضاء. والفولغا الوُسطى كلّها في أيدي التشيكيّين. والانتفاضة شاملةٌ من سامارا إلى فلاديفوستوك. ولولا الألمان الملاعين لهَبّتْ أوكرانيا كلّها هبّة رجل واحد. ومدن حوض الفولغا الأعلى تُشبه أقبيةً معبّأةً بالدّيناميت لا يعوزها إلا أنْ يُشعل الفتيل فيها... ولا أقدر للبلاشفة من الحياة شهراً واحداً، ولا أراهن على البلاشفة حتى بقشّة.

وكان كوليتشيك يرتعش من الانفعال. ولم يعد يبدو وحشاً صغيراً. حدّقت داشا في وجهه المُدبّب الأنف الملفوح بريح السّهوب، والمُقسّى بنار المعارك. لقد كان هذا حياةً حارّةً دخلت مندفعةً إلى

وحدتها الشّفافة. شعرت داشا بتصدّع شديد في صدغيها، وخفقانٌ في قلبها. وعندما بدأ يلفّ لفافةً من الماخوركا مُبدياً أسناناً صغيرة سألت داشا:

– ستنتصرون. ولكنّ الحرب لن تستمرّ إلى الأبد... فماذا سيكون بعد ذلك؟

– ماذا بعد ذلك؟ –ومصّ من سيكارته وقلّص عينيه. –الحرب ضدّ الألمان حتى النّصر النّهائيّ، والمؤتمر السّلميّ الذي سندخل فيه أبطالاً عظاماً. وبعد ذلك وبالقوى الـمُشتركة للحُلفاء ولأوروبا كلّها نعيد روسيا: النّظام والقانون، والبرلمانيّة، والحريّات... ذلك في الـمُستقبل... ولكن في الـمُستقبل القريب...

وفجأةً أمسك بالجهة اليُمنى من صدره. وتلمّس شيئاً من تحت معطفه. وأخرج كارتونةً مقطوعةً نصفين هي عبارةٌ عن غطاء علبة سكائر، وأدارها بأصابعه. ووخز وجه داشا بحدقتيه مرّةً أخرى.

– لا أستطيع أن أجازف... والمقصود... عندكم تفتيشٌ في الشّوارع... سأعطيك شيئاً. –ونشر الكارتونة بحذر، وأخرج منها مُثلّثاً صغيراً مقطوعاً من بطاقة زيارة خطّ عليه باليد حرفاً: "و" و"ك"... وقال: خبّئي هذا، يا داريا دميترييفنا، واحرصي عليه كحرزٍ مقدّس... وسأعلّمك كيف تستخدمينه... اعذريني... ألا تخافين؟

– لا.

– نِعّم الفتاة أنت!

ووقعت داشا ببساطة ودون وعيٍ مدفوعةً بإرادةٍ جارفة في صميم

مؤامرة ما يُسمّى بـ«اتّحاد الدّفاع عن الوطن والحريّة» التي شملت العاصمتين وعدداً من مدن روسيا الكبرى.

كان سلوك كوليتشيك–عميل قيادة دنيكين–أهوج لا يكاد لا يصدّق: أن يكشف نفسه بصراحة ومن الكلمات الأولى لامرأةٍ قليل المعرفة بها، هي زوجة ضابطٍ أحمر. إلا أنّه كان في وقتٍ ما يعشق داشا، والآن لم يستطع، وهو ينظر في عينيها الرّماديّتين، إلا أنْ يصدق بأنّ عينيها تقولان: "ثق بي".

في ذلك الحين كان الحماس، وليس التّروّي الهادئ، هو الذي يُحرّك إراجة الناس. كانت زوبعة الأحداث تعصف والخضمّ الإنسانيّ يهدر، وكلّ إنسانٍ يحسّ بأنّه مُنقذ السّفينة الهالكة ملوّحاً بمسدّسه وهو على السّطح الـمُهتزّ موعزاً بأنْ تُدار الدّفّة يميناً أو يساراً. وكلّ ذلك كان مجرّد وهم. كان سرابٌ يصوّره الحرس الأبيض يطوف حول روسيا الـمُترامية الأطراف. وقد غشت الكراهية على العُيون. وكلّ ما كانوا يبتغونه كان يظهر فوراً في صورة بهارج السّراب الخياليّ.

وهكذا بدأ هلاك البلاشفة الوشيك أمراً غير مشكوكٍ فيه. فقد تبيّن أنّ قوات الـمُتدخّلين قد دخلت من الجهات الأربع لمساعدة الجيوش البيضاء، وأنّ مائة مليون فلاح روسيّ كانوا مُستعدّين ليصلوا للجمعيّة التّأسيسيّة، وأنّ مدن الامبراطوريّة الموحّدة غير القابلة للتّجزئة لا تنتظر غير الإشارة لتفرّق السّوفييتات، وتعيد، في اليوم التالي، النّظام والشّرعيّة البرلمانيّة.

وكان الجميع يخدعون أنفسهم ويتعلّقون بالخيالات ابتداءً من سيّدات بطرسبورغ الهاربات إلى الجنوب ومعهنّ تبديلةٌ واحدة

من الثّياب الداخليّة إلى البروفيسور ميلوكوف الحكيم بالابتسامة الـمُتعاظمة ينتظر نهاية الأحداث التي انتظمها بنفسه في رؤيةٍ تاريخيّة.

كان ما يُسمّى بـ"اتّحاد الدّفاع عن الوطن والحريّة" واحداً من المؤمنين في الخيالات الـمُطمئنّة. وكان قد تأسّس في بداية ربيع عام ١٩١٨ من قِبل بوريس سافينكوف بعد انتحار الأتمان كاليدين الـمُعيّن، وخروج جيش كورنيلوف من روستوف. وكان الاتّحاد بمثابة منظّمةٍ سريّة لجيش المتطوّعين.

وكان يرأسه سافينكوف المراوغ المختفي الذي كان يجوب موسكو بشاربيه المصبوغين، ويرتدي السُّترة الانجليزيّة، وطمقاً أصفر ومعطفاً بلونٍ كاكيّ. وكان الاتّحاد مُنظّماً على الطّريقة العسكريّة: هيئة أركان، وفرقٍ، وألويةٌ وأفواج واستطلاع وكافّة الخدمات. وكان العقيد بيرخوروف يُدير مؤسّسات هيئة الأركان. كانت تعبئةٌ إلى عضويّة الاتّحاد يجري في سريّةٍ شديدة. والشّخص الواحد لم يكن يستطيع أن يعرف غير أربعة أشخاصٍ، فلا يُمكن في حالة الانكشاف غير اعتقال خمسة أشخاص، ولا تكتشف خيوطٌ أكثر. وبقي عنوان المقرّ وأسماء الزّعماء سريّاً للجميع. وكان رئيس الفوج أو الوحدة يذهب إلى بيوت الراغبين في الانضمام إلى الاتّحاد، ويستفسر ويقدّم النّقود كعربون، ويسجّل في بطاقته اسمه وعنوانه بالشّفرة. وكانت هذه البطاقات الحاوية على دوائر تحدّد عدد الأعضاء وعلى عناوين تُرسل أسبوعياً إلى هيئة الأركان. وكان استعراض القُوات يجري في البولفارات بالقرب من النُّصب التّذكاريّة، وبالإضافة إلى ذلك كان على أعضاء الـمُنظّمة أن يرتدوا معاطف عسكريّة مزرّرة بطريقةٍ خاصّة أو يشدّوا شريطاً في موضعٍ معيّنٍ من المعطف. وكان الذين ينفّذون الاتّصال يميّزون

بمثلّث مقصوص من بطاقة زيارة عليه حرفان يعني الأوّل منهما كلمة السّرّ والثاني المدينة. وعند إظهار المثلّث يوضع على البطاقة التي قطع منها. وكانت لدى الاتّحاد قواتٌ كبيرة من الاستخبارات. وفي المؤتمر السّريّ الذي عُقد في نيسان تقرّر وقف أعمال التّخريب، والتّحوّل إلى العمل في المؤسّسات السوفييتيّة. وبهذه الصورة نفذ أعضاء الاتّحاد إلى وسط جهاز الدّولة. وانتظم قسمٌ منهم في ميليشيا موسكو. ودُسّ في الكريملين مُمثّلٌ لهم. كما تسلّلوا إلى الرّقابة العسكريّة، بل وحتى إلى المجلس العسكريّ الأعلى. وكما يبدو شملت شبكاتهم الكريملين بقوّة.

وفي ذلك الوقت كان استيلاء القوات الألمانيّة بقيادة الفيلدمارشال إيخغورن يبدو أمراً محتوماً. وبالرّغم من أنّ الشّعور الموالي للألمان كان قوياً بين أعضاء الاتّحاد–الوثوق فقط في الحرب الألمانيّة–فإنّ الميل العامّ كان نحو الحُلفاء. بل وإنّ هيئة أركانٍ للاتحاد حدّدت اليوم الذي سيهجم فيه الألمان على موسكو، وهو الخامس عشر من حزيران. ولهذا السّبب تقرّر التّخلّي عن الاستيلاء على الكريملين وموسكون والخروج بقوات الاتّحاد إلى قازان، ونسف جميع الجسور، ومضخّات الخزّانات المائيّة في ضواحي موسكو، وإثارة الانتفاضات في قازان ونيجني وكوستروما وريبنسك وموروم، والتّوحّد مع التشيكيين، وتشكيل الجبهة الشّرقيّة بالاعتماد على الأورال ومناطق ما وراء الفولغا الغنيّة. صدّقت داشا بكلّ ما قاله كوليتشيك: الوطنيّون الروس، أو كما سمّاهم بفرسان الروح كانوا يُحاربون في سبيل القضاء على المُضاربات الفنلنديات الوقحات اللواتي يُتاجرن بالبطاطس، وإضاءة شوارع بطرسبورغ إضاءةٍ باهرة

يسير فيها جمهورٌ مبتهجٌ أنيق، في سبيل أن يستطيع المرء في أيّة لحظة جزع أن يرتدي قبّعةً بريشة، ويُسافر إلى باريس...ولكي يُقضى على النّطاطين قُرب الحديقة "ليتني"، ولا تعود الريح الخريفيّة تصفر على قبر ابن داشا.

لقد وعدها كوليتشيك بكلّ ذلك في حديثه وهو يحتسي الشاي. كان جائعاً كالكلب أتى على نصف المؤنة من الـمُعلّبات، بل وأكل الطّحين مع الملح. وعند هبوط الظّلام اختفى دون أن يُلحظ بعد أن أخذ مفتاح الباب.

ذهبت داشا لتنام. أسدلت السّتارة على النافذة، واستلقت. وكما يحدث في ساعات الأرق الـمُرهقة تدفّقت الأفكار والصُّور والذّكريات والحدوس الـمُفاجئة، والنّدامات الحارّة مُتزاحمة يسابق بعضها بعضاً...تقلّبت داشا، وحشرت يديها تحت إبطيها، واضطجعت على ظهرها، وعلى بطنها...لذعتها البطانيّة وانغرزت لوالب الأريكة في جنبها، ووقعت الأغطية على الأرض...

كانت ليلةً مزعجة طويلةً كالعُمر. انتعشت البقعة الداكنة في ذهن داشا من جديد، وأرسلت جذيراتها السّامة في التّلافيف الخفيّة. ولكن لِمَ كلّ هذه النّدامات والشّعور بالخطأ الفظيع، بالذّنب؟ ليتها تفهم!

وبعد ذلك، حين ازرورقت السّتارة على النافذة تعبت داشا من الدّوران في دوّامة الأفكار الخياليّة، وضعفت. وبعد أن هدأت أخذت تُعاقب نفسها بصراحةٍ ونزاهة من البداية حتى النهاية. وشطبت على كلّ شيءٍ في نفسها.

جلست على الفراش، وجمعت شعرها في عقصة، ودبّسته،

وألقت ذراعيها العاريتين النّحيلتين على ركبتيها، وأنشأت تُفكّر... امرأةٌ وحيدةٌ باردة لم تحبّ أحداً، فلتذهبي إلى الجحيم، وداعاً. أنت لا تثيرين الشفقة...حسناً فعل النّطاطون حين أخافوك عند الحديقة "ليتني". لم يخيفوك إلا قليلاً، كان من الأفضل أن يخيفوا أكثر...الآن اختفي...الآن طيري مع الريح، يا روحي، إلى حيث يأمرون، وافعلي ما يطلبون منك...لا إرادة لك. أنت واحدةٌ من ملايين عديدة...فأيّة سكينةٍ وأيّ انعتاق!..

لم يعد كوليتشيك يومين وليلتين. وكان قد جاء في غيابه عدّة أشخاص جميعهم ضخامٌ في سترٍ مهترئة كانوا ينحنون على ثقب المفتاح، ويقولون كلمة السّرّ. وكانت داشا تدعهم يدخلون.

وبعد أن يعرفوا أنّ "إيفان سفيتشيف" غير موجودٍ في البيت كانوا لا يخرجون رأساً. كان بعضهم يشرع فجأةً في الحديث عن مصائبه العائليّة، والبعض الآخر يطلب الإذن بأن يدخّن سيكارة، ويخرج بحذرٍ ونعومة تبغاً سوفييتياً كريه الرائحة من علبة سكائر عليها رموز ويلعن بفحش "نواب السّرطانات والكلاب" وهو يُشدّد على "الراء" في الكلمات. وينفلت ثالثٌ في صراحةٍ فيقول إنّ زورقه البخاريّ مهيّأً في جزيرة كريستوفسكي، عند قصرٍ بيلوسيلسكي-بيلوزيرسكي، وقد استطاع أن ينتزع أشياءً ثمينةً من الخزنة، إلا أنّ أطفاله يُعانون السُّعال الدّيكيّ...من سوء الحظّ!..

والظّاهر أنّ الجميع كانوا يميلون إلى التّحدّث مع هذه المرأة الشابة الرّقيق النّحيلة ذات العينين الواسعتين. وكان يُقبّلون يديها حين ينصرفون. وكان الشّيء الوحيد الذي يُدهش داشا هو سذاجة هؤلاء المتآمرين، وكأنّما هم أبطال مسرحيّةٍ كوميديّةٍ سخيفة...وكانوا جميعاً

تقريباً يستفسرون بعبارات حذرة: ألم يجلب "إيفان سفيتشيف" المال؟ وفي آخر الأمر أضحوا واثقين كلّ الثّقة من أنّ "حكاية البلاشفة الحمقاء" ستنتهي قريباً جداً. "سيحتلُّ الألمان بتروغراد، والأمر لا يحتاج إلى جُهود".

وجاء كوليتشيك أخيراً، جاء جائعاً مرّةً أخرى قذراً شديد الاستغراق في أفكاره. وسأل عمّن جاء في غيابه. فأطلعته داشا على ذلك بالتّفصيل. فكشّر عن أسنانه:

– السّفلة! جاؤوا يطلبون الفلوس...ويسمّون أنفسهم حَرَساً! يتكاسلون عن رفع عجيزاتهم الأرستقراطيّة عن الكرسيّ، ويرغبون في أن يأتي الألمان ليحرّروهم قائلين لهم: تفضّلوا، يا سادة، ها نحن قد شنقنا البلاشفة، وكلّ شيءٍ على ما يُرام...شيءٌ فاضح، فاضح... من بين مائتي ألف ضابط لم يبق من أبطار الروح غير ثلاثة آلاف عند دروزدوفسكي، وحوالي ثمانية آلاف عند دنيكين، وخمسة آلاف عندنا في «اتّحاد الدّفاع عن الوطن». هذا كلّ شيء...فأين الآخرون؟ باعوا أرواحهم وضمائرهم للجيش الأحمر...وبعضهم يصنع صبغ الأحذية، ويُتاجر بالسّكائر...وجميع ضُباط هيئة الأركان تقريباً لدى البلاشفة...يا للعار!..

وأكل الطّحين مع الملح، وشرب ماءً مغلياً، وذهب لينام. وفي الصّباح الباكر أيقظ داشا. لبست داشا ملابسها على عَجَل، وخرجت إلى غرفة الطّعام فوجدته يتخطّى سريعاً بالقرب من المائدة متجهّم الأسارير. صاح على داشا نافد الصّبر:

– مثلاً أنتِ؟ أيمكنك أن تجازفي وتُضحّي بالشّيء الكثير، وتُقاسي آلاف المصاعب؟..

– نعم، –قالت داشا.

– أنا لا أثق بأحدٍ هنا...وصلت أنباءٌ مقلقة...ويجب السّفر إلى موسكو، فهل تسافرين؟

رمشت داشا، ورفعت حاجبيها فقط...تقدّم كوليتشيك نحوها بعُجالة، وأجلسها إلى المائدة، وجلس قربها تماماً ويمسّها بركبتيه، وأخذ يشرح لها مَنْ يجب أن تقابل في موسكو، والكلمات التي تنقلها إليه عن منظّمة بتروغراد. وغرز الكلمات في ذاكرة داشا مُتحدّثاً بضراوةٍ بطيئة. وجعلها تكرّر. فأعادت الكلمات طائعة.

نهض واقفاً وفرك يديه بقوّةٍ قائلاً:

– عظيم! ذكيّة! نحن بحاجةٍ إلى أمثالك بالذات. والآن ماذا عن شقّتك؟ قولي للجنة المساكن إنّك مُسافرةٌ إلى لوغا لمدّة أسبوع. وسأبقى هنا بضعة أيامٍ أخرى، ثمّ أعطي المفتاح إلى الرّئيس...حسناً؟

– ودار رأس داشا من كلّ هذه العجلة. وأحسّت مدهوشةً بأنّها مستعدّةٌ دون اعتراض إلى أن تُسافر إلى حيث يشاء، وتفعل ما تؤمر به...وعندما ذكر كوليتشيك الشّقّة التفتت داشا إلى الصّوان من خشب القيقب وهي تُفكّر: "صوان كريه موحش كالتابوت..." وتذكّرت الخطاطيف التي أغرتها ذات مرّةٍ بالفضاء الأزرق. وتصوّرت أنّ السّعادة قد طارت من هذا القفص المُترب إلى حياةٍ وحشيّةٍ طليقة...قالت:

– الشّقّة؟ ربّما لا أعود إليها. فافعل ما يحلو لك.

كان من بين الذين جاؤوا في غياب كوليتشيك شخصٌ طويل

الوجه متدلّي الشاربين مؤدّب أجلس داشا في عربةٍ للدّرجة الثالثة تُهشّم زجاج جميع نوافذها. انحنى عليها، وأسرّ إليها في أذنها بصوتٍ عميق: «خدماتك لن تُنسى» واختفى في الزُّحام. وقُبيل تحرّك القطار مرّ به أناسٌ يتراكضون وتسلّلوا من النوافذ وصررهم في أسنانهم. وازدحمت العربة كلياً. ركب الناس في الأماكن المُخصّصة للحقائب، وانسلّوا تحت التُّخوت، وهناك أشعلوا أعواد ثقاب، ودخّنوا الماخوركا بتلذّذٍ تامّ.

سار القطار ببطء قرب المُستنقعات الضّبابيّة ومداخن المصانع المُنطفئة، والبرك المغطّاة بالصوفة، وتراءى من بعيد مرتفع بولكوفو في ضوء الشّمس حيث كان الفلكيّون المنسيّون من العالم كلّه وغلازيناب نفسه بسنّه السّبعين يُتابعون تعداد النُّجوم في الكون. ومرّت شجيرات الصّنوبر الغضّة والأشجار الكبيرة والبيوت الريفيّة. وفي المحطّات لم يسمحوا لأحد بركوب العربة ووضعت الحراسة المُسلّحة. وحلّت الطّمأنينة في العربة الآن رُغم صخبها. كانت داشا تجلس محصورةً بين جنديين من جنود الجبهة. ومن التّخت الأعلى دلى أحدهم رأسه مرحاً وظلّ مُشتبكاً بحديثٍ لا يكاد ينقطع.

– ثمّ ماذا؟ –سألوا من التّخت وهم يغصّون بالضّحك–وكيف أنتم؟

كان فلاحٌ أعور نحيل مُتدلّي الشاربين غير حليق الوجه يرتدي قُبّعةً من القشّ يجلس مُقابل داشا بين امرأتين صامتتين غارقتين في التّفكير. كان القميص الذي يرتديه من خيش الرّكائب، مشدوداً حول عنقه بشريط. وقد تدلّى من حزامه مشط وقطعةٌ من قلم حبر النّسخ، وتحت صدر قميصه أوراق.

لم تُعِرْ داشا انتباهاً إلى الحديث في بادئ الأمر. ولكن حديث الأعور كان يبدو جذاباً جداً. وبالتّدريج استدارت الرّؤوس نحوه من جميع التّخوت، وهدأت الضّجّة في العربة أكثر من ذي قبل. وقال الجنديّ ذو البندقيّة بثقة:

– لقد فهمتكم. بكلمةٍ واحدة أنتم من الأنصار، من جماعة ماخنو.

صَمَت الأعور قليلاً مُبتسماً في شاربيه بخبث:

– أراكم قد سمعتم بالأخبار، ولكن ليس بالشّكل الصّحيح.

ووضع يده المعروقة تحت شاربيه مُنحرفة، وكأنّه ليزيل ابتسامته، وقال في شيءٍ من المهابة:

– عند ماخنو تنظيم كولاكي. وهو يعمل في منطقة يكاترينوسلافل لا أحد يملك هناك أقلّ من مائة فدّان، أما نحن فشيءٌ آخر. نحن أنصارٌ حُمر...

سأل ذو الوجه المرح:

– وماذا تفعلون؟

– منطقة عمليّاتنا مُحافظة تشيرنيغوف، وأقضية نيجين الشّماليّة. مفهوم؟ ونحن شيوعيون. نحن لا نُفرّق بين الألمان ومالك الأرض البولونيّ، وغيادامك الهيتمان، والكولاك من قريتنا...يعني لا يجوز أن تخلطنا مع جماعة ماخنو. مفهوم؟

– نعم، فهمنا، ولسنا أغبياء. فأكمل حديثك.

– تكملة الحديث أنّ عزائمنا قد خارت بعد القتال مع الألمان، وتراجعنا في غابات كوشيليف، ونفذنا إلى أحراشٍ لا يعيش فيها غير الذّئاب. واسترحنا قليلاً. وأخذ الناس من القرى الـمُجاورة يفدون إلينا. وقالوا إنّ الحياة صارت متعذّرةً عليهم وإنّ الألمان أخذوا يُطهّرون المنطقة من الأنصار بشكلٍ جديّ. وساعد الغايدماك الألمان في ذلك، فما يمرّ يومٌ دون أن يهجموا على قرية، ويجلدوا كلّ من يشير إليه الكولاك. وقد استبدّ الغيظ برجالنا من هذه الحكايات حتى ضاقت أنفاسهم. وفي ذلك الوقت جاءت فصيلةٌ أخرى، واجتمع في الغابة جيشٌ كامل، حوالي ثلثمائة وخمسين رجلاً. وانتخبوا رئيساً للجماعة وهو الـمُلازم الثاني غولتا أحد الأنصار من فيركييف. وأخذنا نُفكّر في الاتّجاه الذي ستكون فيه عمليّاتنا الـمُقبلة، وقرّرنا أن نُراقب نهر ديسنا. وكانت الذّخيرة الحربيّة إلى الألمان تمرّ عبر هذا النّهر. وذهبنا، واخترنا مكاناً تضطرّ فيه السُّفن إلى الاقتراب من الشاطئ تماماً. وكمنّا هناك...

وسأل شخصٌ من فوق:

– عظيم، وماذا بعد؟

– هكذا. تتقدّم السّفينة فيصيح صوتٌ في الصّف الأماميّ منّا: "قف!". ولم يطع القبطان أمرنا فأطلقنا القذيفة. وبالطّبع ترسو السّفينة على الشاطئ، فنصعد على متنها في الحال، ونضع الحرس، ونقوم بتفتيش الهويّات.

قال الجنديّ:

– حسب الأصول.

– والسّفينة مُحمّلةٌ بالسّروج والعُدد. ينقلها ضابطان برتبة عقيد، أحدهما رخوٌ تماماً، والثاني شابٌّ ذو فتوّة. وبالإضافة إلى ذلك توجد أدوية. وهذا ما نحتاج إليه. وقفت على ظهر السّفينة أُحقّق في الهويّات. فإذا بشيوعيين يتقدّمان إليّ هما بيتر وإيفان بتروفسكي من مقاطعة بوروديانسك. وحدست في الحال أنّه يجب ألا أظهر أنّهما من معارفي. وعاملتهما بشكلٍ رسميّ وبجديّة: "هويّاتكما". قدّم بتروفسكي هويّته لي ومعها مذكّرةٌ على ورقة سكائر جاء فيها: "الرّفيق بيافكا، أنا أغادر مع أخي تشيرنيغوف، ومسافرٌ إلى روسيا، فأرجو أن تكون بلا رأفة معنا حتّى لا تثير انتباه الـمُحيطين بنا، لأنّ حولنا جواسيس..." حسناً... بعد أن دقّقنا في الهويّات أفرغنا العُدد والسّروج والأدوية، وخمسة عشر صندوقاً من النّبيذ لتقوية جرحانا. ويجب أن نقول الإنصاف في حقّ طبيب السّفينة، فقد تصرّف ببطولة. صاح: "لا أستطيع أن أتخلّى عن الأدوية فإنّ ذلك مُخالفٌ لجميع القوانين، والعُرف الدّوليّ أيضاً". وقد أجبناه باختصار: "نحن أيضاً عندنا جرحى، ومعنى ذلك أنّ العُرف الإنسانيّ لا الدّوليّ يقتضي إعطاء الأدوية!.." واعتقلنا عشرة ضُبّاط، وأنزلناهم إلى الشاطئ، وتركنا السّفينة تمرّ. وعلى الشاطئ أخذ العقيد العجوز يبكي ويتوسّل ألا نقتله، وعدد خدماته العسكريّة. وفكّرنا: "لماذا نسمّه، إنّه سيموت بنفسه قريباً". وأطلقنا سراحه تحت تأثير الشّهامة. أما هو فركض إلى الغابة...

أرسل الذي كان يُدلي برأسه من التّخت قهقهة فرح. واستمرّ الأعور في حديثه حين انتهت نوبة الضّحك:

– والشّخص الآخر، وهو موظّفٌ لدى هيئةٍ عسكريّة، ترك

في أنفسنا انطباعاً حسناً. فقد أجاب على جميع الأسئلة بحماس، وتصرّف ببساطة، فأطلقنا سراحه أيضاً..أما الآخرون فأخذناهم إلى الغابة...وهُنا رميناهم بالرّصاص لانّ أحداً لم يُرِدْ أن يقول شيئاً...

نظرت داشا إلى الأعور مكتومة الأنفاس. كان وجهه هادئاً مُتغضّناً عن حُزن. كانت عينه الوَحيدة الرّماديّة التي شهدت أحداثاً بحدقتها الصّغيرة تُراقب بتفكير أشجار الصّنوبر المارّة من خلف النافذة. واستمرّ الأعور في حديثه بعد وقتٍ وجيز:

– لم تمكث طويلاً على ديسنا. فقد التفّ حولنا الألمان، فتراجعنا إلى غابات دروزدوف. ووزّعنا الغنائم على الفلاحين. حقاً إنّ كلّ واحدٍ منّا شَرِبَ قدحاً من النّبيذ، ولكننا أعطينا الباقي إلى الـمُستشفى. في ذلك الوقت كان كرابيفيانسكي يعمل إلى يسارنا ومعه فصيلةٌ كبيرة، وكان إلى يميننا مارونيا، وكانت مُهمّتنا الـمُشتركة شقّ طريقنا إلى تشيرنيغوف، واحتلالها بهجوم. ويا ليت كان لنا اتّصالٌ جيّد بين الفصائل...ولكن لم يكن ثمّة اتّصالٌ حقيقيّ. فتأخّرنا. وكان الألمان في كلّ يوم يُرسلون القوات والمدفعيّة والخيّالة ضدّنا. فقد كان وجودنا يُزعجهم كثيراً. كانوا ما إنّ يُغادروا قريةً حتى تشكّل في القرية لجنةٌ ثوريّة، ويُعلَّق واحدٌ أو اثنان من الكولاك على جذع شجرة...وذات مرّة أرسلوني إلى فصيلة مارونيا لجلب نقود. فقد كنّا بحاجة ماسّة إليها..كُنّا ندفع للسّكان نُقوداً على الموادّ الغذائيّة. وكان النّهب ممنوعاً عندنا وعقوبته الموت. ركبتُ عربة، وذهبتُ إلى غابات كوشيليف. وهناك تحدّثت مع مارونيا عن شؤوننا، وحصلتُ منه على ألف روبلٍ من عُملة كيرينسكي، وعدتُ راجعاً...وبالقرب من قرية جودوفكا، وما كدت أنزل إلى الوادي حتّى هاجمني اثنانٌ من الخيّالة،

من دوريّات اللجنة الثّوريّة في جوكوفكا. «إلى أين ذاهب والألمان هنا!..»–«أين؟»–«إنّهم يقتربون من جوكوفكا». ورجعت... وخبّأت الفرس في حُرش، ونزلتُ من العربة. وأخذنا نتناقش ماذا تفعل؟ لا مجال أبداً لمقاومةٍ جماهيريّة ضدّ الألمان. فقد كانوا يزحفون بطابورٍ كامل ومعهم مدفعيّة...

قال الجُنديّ:

– ثلاثةٌ مقابل طابور أمرٌ صعب.

– أمرٌ صعبٌ تماماً. فقرّرنا أن نُخيف الألمان فقط. وزحفنا في حقل الجودار. ونرى أمامنا جوكوفكا، ومن غابةٍ صغيرة يخرج طابورٌ من مائتيّ شخصٍ تقريباً، ومدفعان وصفّ عرباتٍ، وعلى مسافةٍ أقرب إلينا دوريّةٌ من الخيّالة. والظّاهر أنّ شُهرة الأنصار هدرت هديرها حتّى أنّهم أرسلوا ضدّنا حتّى المدفعيّة. استلقينا في حدائق الخضروات. وكانت معنويّاتنا عالية، نضحك مُقدّماً. وتصير الدّوريّة على بُعد خمسين خطوة منّا. وأصدر أمري: "كتيبة، ارمي!" وطلقةٌ وراءها أخرى...وانكفأ حصان. ووقع الألمانيّ في القُرّاص. وأنا صائح: النّار! وقلقنا بالتّرابيس، وضججنا وهدرنا...

تقلّبت عينا الرّجل المُطلّ برأسه من التّخت العلويّ، وضمّ فمه بيده منعاً لانطلاق ضحكة أو انفلات كلمة تعليق. وضحك الجُنديّ راضياً.

– عادت الدّوريّة خبباً إلى الطابور، واستدار الألمان، ودفعوا صفوفهم، وانتقلوا إلى الهُجوم حسب الأصول. وفصلوا المدافع من عرباتها، وانطلقت القنابل من عيار ثلاث بوصات على حدائق

الخضروات، بينما كانت النّساء يُقلعن البطاطس منها...وتفجّرت الأرض وأرسلت تُرابها إلى فوق...ونساؤنا (ودفع الأعور قُبّعته على أذنه بظفره، ولم يستطع أن يكتم ضحكة، وقهقه الرّجل من فوق التّخت). ونساؤنا تفرَّقن من الحدائق مثل دجاجاتٍ مُروّعة...بينما تقدّم الألمان من القرية بخطوات سريعة...وهنا قلت: «يا أولاد مزحنا، والآن لنتراجع». وزحفنا ثانيةً خلال الجودار إلى مُنخفض وصعدتُ أنا إلى العربة واتّجهتُ إلى غابة دروزدوف دون مُغامرات. وقد روى أهالي جوكوفكا فيما بعد أنّ الألمان تقدّموا من حدائق الخضروات، إلى أسيجتها تماماً، وهم يهتفون «هورا»...ولكن لم يجدوا أحداً وراء الأسيجة. والذين رأوا هذا المنظر انفجروا ضاحكين...احتلّ الألمان جوكوفكا، ولم يجدوا أحداً من اللجنة الثّوريّة ولا من الأنصار، وأعلنوا حالة الطّوارئ في القرية. وبعد يومين أو ثلاثة جاءتنا أخبار إلى غابة دروزدوف تقول إنّ قافلةً ألمانيّةً كبيرة دخلت جوكوفكا تحمل عتاداً وخراطيش. وكان العتاد والخراطيش أثمن شيء لنا... وأخذنا نُناقش ونُقلّب الأمر، واشتدّت شهيّة الأولاد فقرّرنا الهُجوم على جوكوفكا والاستيلاء على الخراطيش. واجتمع حوالي مائةٌ منّا. وأرسل ثلاثون منهم إلى الطّريق العام ليمنعوا الالمان من التّراجع إلى تشيرنيغوف في حالة نجاحنا. وسار الآخرون طابوراً نحو جوكوفكا. وعند هُبوط الظّلام زحفنا، واستلقينا في حقل الجودار قرب القرية، وأرسلنا سبعة أشخاص في استطلاع ليطلعوا على كلّ المواقع ويبلغونا، وفي الليل نقوم بهجوم مُباغت. استلقينا دون أيّة ضجّة، ومَنعنا التّدخين. ونزل المطر رذاذاً، وغالبنا النُّعاس، وكانت الأرض رطبة... وظللنا ننتظر، حتّى بدأ الظّلام ينقشع. وما من حركة. ويأتي أصحابنا السّبعة الـمُستطلعون عائدين بأدراجهم...ويتبيّن أنّ هؤلاء الملاعين

عندما وصلوا إلى الطاحونة استلقوا ليستريحوا فغفلوا، وناموا الليل كلّه، حتّي وصلت النّساء إليهم مع الماشية. ولا مجال للهُجوم بعد الآن، بالطّبع...وقد تكدّرنا عظيم الكَدَر حتى ضاقت بنا الأرض. وكان يجب تشكيل محكمةٍ وإنزال العقاب بالـمُستطلعين. وقرّرنا بالإجماع رميهم بالرّصاص. إلا أنّهم أخذوا يبكون، ويطلبون الرّحمة، واعترفوا بذنبهم كلياً. كانوا فتياناً أغراراً قد ارتكبوا خطأً لأوّل مرّة...وقرّرنا أن نعذرهم، ولكنّ اقتراحنا على أن يُكفّروا عن ذنبهم في المعركة الأولى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال الجُنديّ:

– يحقّ العفو في بعض الأحيان.

– نعم...وأخذنا نتداول. إذا كُنا لم نستولِ على جوكوفكا ليلاً فسنستولي عليها نهاراً. العمليّة جديّة، وفهم الأولاد الأمر الذي يقدمون عليه. وتناثرنا جماعاتٍ صغيرة، وانتظرنا أن تُلعلع الرّشّاشات. لم تزحف، بل ركضنا على الأربع...

وصَدَرَ من الأعلى صوتٌ ضاحك.

– وبدلاً من أن نلتقي بالألمان التقينا بنساءٍ يحملن سلالاً، فقد كُنّ خارجات لجمع الأعناب البريّة، وكان اليوم يوم أحد. وضحكن منّا ضحكاً عالياً، قائلات: تأخّرتم، القافلة الألمانيّة خرجت منذ حوالي ساعتين في طريق كوليكوفو. وهنا قرّرنا بالإجماع مُلاحقة الألمان، و لم قُتلنا في المعركة جميعاً. وأخذنا معنا رفوشاً لنقوم بحفر الخنادق. وأعطتنا النّسوة فطائر وكعكاً. وخرجنا وسار وراءنا جمعٌ غفير من الناس، جيشٌ كامل، أكثرهم بدافع الفضول. وهذا ما فعلناه: وزّعنا

الخوازيق على الفلاحين والنّساء واصطففنا في صفّين، وجعلنا بين كلّ شخص وآخر زُهاء عشرين خطوة بحيث يكون بين كلّ مسلّح شخصٌ يحملُ خازوقاً أو عصاً لمجرّد التّخويف. وامتددنا إلى حوالَي خمسة فراسخ. وقد اخترت أنا ١٥ مُحارباً من بينهم مُستطلعينا الخائبين أولئك، وأخذت ضابطين من الذين جنّدناهما، وهما من الـمُعادين للثّورة بشكلٍ واضح، ولكنّنا قُلنا لهما: إذا بررّتما ثقتنا سنُنقذ حياتكما. وركضنا، بجماعتنا هذه، أمام القافلة الألمانيّة على الطّريق العام... ونشبت معركة، يا إخواننا، دامت أكثر من يومٍ ويومين... (وهزّ ذراعه وكأنّه لا يُريد أن يُكمل الحديث).

سَأَلَ الجُنديّ:

– وكيف كان ذاك؟

– هكذا... أنا والجماعة تركنا الطّابور يمرّ، وهجمنا على المؤخّرة، على طابور العربات. واستولينا على عشرين عربةً من العتاد تقريباً. ملأنا الحقائب بالخراطيش ووزّعنا البنادق على الفلاحين، قدر ما تمكّنّا، وتابعنا الهُجوم على الطّابور. ظَنَنّا أننا قد أحطنا به فإذا بالألمان قد أحاطوا بنا، فقد زَحَفَتْ إلى ذلك المكان جميع أصناف السّلاح على ثلاثة طُرق... تجزّأنا إلى جماعات صغيرة، ونزلنا إلى الأخاديد. ومن حُسن حظّنا أنّ الألمان قد نظّموا العمليّة وفق كافّة أصول المعركة الكبيرة، وإلا لما خرج منّا واحدٌ حياً... لم يبق أحياءٌ من الأنصار غير عشرة أشخاص، على ما أظنّ. حاربنا إلى آخر طلقة. وبعد ذلك قرّرنا أنّ البقاء هُنا مُستحيل، ويجب التّسلّل إلى ما وراء ديسنا، إلى منطقة مُحايدة، في روسيا. أخفيت البندقيّة، وتظاهرت بأنّني أسير حربٍ، وتوجّهت إلى نوفغورود–سيفيرسكي...

– وأنت الآن، إلى أين ذاهب؟

– إلى موسكو طلباً للتّوجيهات.

وتحدّث بيافكا بقصص أخرى عن حركة الأنصار وعن حياة الريف. «نخرج من مُصيبةٍ، وندخل في أخرى. تلك هي حياتنا. دفعوا الفلّاح إلى أنْ يحيا حياة الذّئاب، و لم يبق أمامه إلا أن يُقتل».

وكان هو من نيجين. وكان يعمل في مصانع بنجر السُّكّر. وقد فقد عينه في عهد كيرينسكي أثناء هجوم حُزيران التّعيس. وقد عبّر عن ذلك قائلاً: "كيرينسكي هو الذي فقأ عيني". وفي خنادق الجبهة تعرّف على الشّيوعيّين، وكان عضواً في سوفييت نيجين، وعضواً في اللجنة الثّوريّة، وعمل سِرياً في تنظيم حركة الـمُقاومة.

وقد أثّرت قصّته في داشا تأثيراً قوياً، فقد كانت فيها صدق. وقد فهم ذلك أيضاً جميع الـمُسافرين الذين كانت عيونهم تتطلّع إلى فم الـمُتحدّث.

كنا بقيّة النّهار والليلِ بطوله مُتعبين. كانت داشا تجلس مُطبقةً ساقيها مُغمضةً عينيها تُفكر إلى حدّ وجع الرّأس، إلى حدِّ القُنوط. كان هناك حقيقتان: حقيقة هذا الرّجل الذي فقد عينه، وهذين الجندين من الجبهة، وهاتين المرأتين الشّاخرتين بوجهيهما البسيطين الـمُتعبين، والحقيقة الأخرى هي الحقيقة التي زعق بها كوليتشيك. ولكن لا وُجود لحقيقتين. فلا بُدّ أنّ واحدةً منهما خاطئة، مُفزعة، مُهلكة...

وصل القطار إلى موسكو في مُنتصف النّهار. ونقل حوذيّ عربةً عجوز داشا بخببٍ غير سريع عبر شارع مياسنيتسكايا القذر المسلوخ الجُدران، حيث كان الوحل يُلطّخ واجهات المخازن الفارغة. وأدهش

داشا فراغ المدينة، فقد كانت تتذكّرها أيام كانت آلاف الناس تسير ملوّحةً بالأعلام منشدةً الأغاني في الشّوارع الجليديّة، مُتبادلةً التّهاني بالثّورة التي لم يُرَق فيها دم.

في ساحة لوبيانسكايا كانت الريح تدومُ غُباراً. سار جنديان بقميصين عسكريّين بلا حزام، وياقتاهما مطويّتان. ونظر إلى داشا شخصٌ واهنُ طويل في سترةٍ مخمليّة، وصرخ بشيء لها، بل وركض وراء العربة. إلا أنّ الغُبار غشي على عينيه، فتأخّر. كان فندق "متروبول" مثلماً بقذائف المدافع، وكان الغبار يدوم هنا في الساحة، وكان غريباً أن يرى المرء في الساحة القذرة حوضاً من الزّهور الزاهية، لا يُعرف مَنْ غَرسها ولِمَ.

وكان شارع تفيرسكايا أكثر حيويّة. كانت الحوانيت مفتوحةً هنا وهناك. ومُقابل سوفييتات المدينة، وفي مكان نصب الجنرال سكوبيليف نهض مكعّبٌ خشبيٌّ هائل مكسوٌّ بقماشٍ أحمر وبدا هذا لداشا مُرعباً. أشار الحوذيّ العجوز إليه بسوطه:

– رفعوا البطل من مكانه. أنا أسوق منذ زمانٍ في موسكو، فأراه واقفاً في مكانه. ولم يرق للحكومة الحاضرة. كيف سنعيش؟ لا يبقى أمامنا غير أن نستلقي ونموت. بودُ التّبن بمائتيّ روبل. السّادة تفرّقوا، ولم يبق إلا الرّفاق، وهؤلاء يمشون على أرجلهم في الغالب...أوه، دولة!..–وجذب العنان. –يا ليت أن يكون لنا ملك، أيُّ ملك...

قبل أن تصل داشا إلى ساحة ستراستنايا رأت يساراً تحت لافتة «مقهى بوم» ووراء واجهتين صقيلتين شُباناً عاطلين وشاباتٍ مسترخيات على الأرائك، وكان الجميع يُدخّنون ويشربون نوعاً من المشروب. وعلى

الباب المفتوح على الشارع وقف رجلٌ حليق طويل الشّعر أشعثه يُدخّن غليوناً وقد اتّكأ بكتفه. وبدا وكأنّه قد اندهش من مرأى داشا، فأخرج غليونه من فمه. ولكنّ داشا عبرته. وظهر برج كاتدرائيّة ستراسنوي الورديّ، وتمثال بوشكين. رأت داشا الخِرقة النّاصلة اللون التي كانت قد علقت أثناء الاجتماعات الحاشدة الصاخبة ما تزال مُتدلّيةً من تحت مرفقه. وكان أطفالٌ نحاف يتراكضون على قاعدته الغرانيتيّة. وعلى مصطبة جلست سيّدةٌ تضع نظّارةً أنفيّة وتعتمر بقبّعةٍ تشبه تماماً القبّعة التي وضعها بوشكين وراء ظهره.

مرّت سحائب هزيلة فوق بولفار تفيرسكوي. وضجّت سيارة لوري محمّلةٍ بالجنود. وقال الحوذيّ وهو يومئ إليها:

– جاؤوا لينهبوا. أتعرفين فاسيلي فاسيليفيتش أوفسيانيكوف؟ أوّل مليونيرٍ في موسكو. بالأمس جاؤوا إليه في سيّارات لوري مثل هذه، وأخذوا كلّ ما في منزله. فاكتفى فاسيلي فاسيليفيتش بهزّ رأسه، وخرج إلى حيث لا يدري أحد. يقول الشّيوخ إنّ الناس نسوا الرّبّ...

ظهرت في آخر البولفار خرائب منزل غاغارين. وفي أعلى الجدار وقف رجلٌ وحيد في صدار يقلع الآجر بمعول ويقذفه إلى الأسفل. وإلى اليسار هيكل بيتٍ محروق ينظر إلى السّماء الشّاحبة بنوافذها الفارغة. وجميع البيوت المُجاورة مُثقّبةٌ بالرّصاص كالغربال. قبل عام ونصف كانت داشا وكاتيا تسيران على هذا الرّصيف وقد وضعتا علىً رأسيهما منديلين وبريّن. وكان الجليد الرّقيق يُخشخش تحت أقدامهما، والنُّجوم مُنعكسةٌ على البِرك المُتجمّدة. كانت الشّقيقتان مُنطلقتين إلى نادي المُحامين للاستماع إلى مُحاضرةٍ استثنائيّة حول

الإشاعات عن الثّورة التي زَعَمَ أنّها بدأت في بطرسبورغ. وكان هواء الرّبيع يبعث النّشوة كالسّعادة...

هزّت داشا رأسها تطرد الذّكريات عنه، وقالت لنفسها: "لا أريد...هذا ولّى..."

خرجت العربة إلى شارع أربات، واستدارت يساراً إلى شارع جانبيّ. وكان قلبُ داشا يدقّ بشدّة حتّى أنها شعرت أنّ الدُّنيا اسودّت في عينيها...وظهر بيتٌ أبيض من طابقين ينتهي بعُليّة. في هذا البيت كانت داشا قد عاشت مع كاتيا والفقيد نيقولاي إيفانوفيتش في عام ١٩١٥. وإلى هذا البيت جاء تليغين بعد هربه من الأسر الألمانيّ. وفيه التقت كاتيا بروتشين وقد خرجت داشا من هذا الباب المُقشّر في يوم زفافها، فأجلسها تليغين في عربةٍ يجرّها حصانٌ رماديّ وانطلقا في الغبش الرّبيعيّ بين الأضواء التي ما زالت شاحبة للقاء السّعادة... كانت نوافذ العليّة مُحطّمة. وتعرّفت داشا على ورق الجُدران في غرفتها السابقة. كان يتدلّى مزقاً. طار غرابٌ من النافذة. سأل الحوذيّ:

- يميناً أم يساراً؟

التجأت داشا إلى الورقة تستفسرها. توقّفت العربة عند بيت متعدّد الطّوابق. كان الباب الخارجيّ مُسمّراً بالألواح من الدّاخل. وكان لا يجوز لداشا أنْ تسأل فحثت طويلاً في السّلالم الخلفيّة عن الشّقّة رقم ١-١١٢. كان وقع خُطاها يجعل بعض الأبواب تفتح قليلاً من سلسلتها. وظهر أنّ وراء كلّ بابٍ كان يقف شخصٌ يُنبّه السُّكان على الخطر.

في الطابق الخامس طرقت داشا ثلاث طَرْقات وطَرقةً أخرى

مُنفصلة، حسب ما علّموها. تردّد وقع خطوات حذرة، ونظر شخصٌ من ثُقب الباب إلى داشا زافراً بأنفاسه منه. وفتحت الباب سيّدةٌ طويلة في مُنتصف العُمر لها عينان جاحظتان مُفزعتان زرقاوان زُرقةً ساطعة. مدّت داشا إليها الـمُثلّث الكارتونيّ صامتة. قالت السّيّدة:

– آه، من بطرسبورغ... تفضّلي بالدّخول.

مرّت داشا عبر مطبخ لم يُستعمل منذ وقت بعيد على ما يبدو إلى حجراتٍ كبيرةٍ مُسدلة السّتائر. وفي شبه الظُّلمة لاحت معالم أثاثٍ فاخر، ولمع برونز، إلا أنّ هنا أيضاً لا وجود لرائحة حياة. دعت السّيّدة داشا إلى الجلوس على أريكة، بينما جلست هي إلى جانبها مُتفحّصةً الضّيفة بعينيها الـمُرعبتين الـمُتّسعتين. قالت بصرامةٍ وآمريّة:

– تحدّثني.

جمعت داشا أفكارها مُجاهدة، وبدأت بنفس الـمُجاهدة تنقل المعلومات الـمُقلقة التي طلب كوليتشيك إليها أن تنقلها. شبكت السّيّدة يديها الجميلتين المزيّنتين بالخواتم على ركبتيها المضمومتين، وطقطقت بأصابعها. وقاطعتها:

– يعني أنّهم لا تعرفون شيئاً في بتروغراد؟ –واهتزّ صوتها الخفيض في حنجرتها. –لا تعرفون أنّه في بيت العقيد سيدوروف جرى التّفتيش الليلة البارحة...وعثروا على خُطّة الجلاء وبعض سجلّات التّجنيد...ولا تعرفون أنّ فيلينكين قد اعتُقل اليوم عند الفجر...

ورفعت السّيّدة صدرها بحركةٍ مُتشنّجة، ونهضت من الأريكة، وسحبت السّتار المسدول على الباب، والتفتت إلى داشا:

– تعالي إلى هنا: سيتحدّثون إليك...

قال الرّجل الواقف وظهرُهُ إلى النافذة، وفي صوته نبرةٌ آمرة:

– كلمة السّرّ.

مدّت داشا إليه الـمُثلّث الكارتونيّ فقال:

– مَنْ الذي أعطاه لك؟ (بدأت داشا تشرح). باختصار!

كان يضعُ بيده اليُسرى منديلاً حريرياً على فمه حاجباً به وجهه الأسمر أو ربّما الـمُموّه. وكانت عيناه غير واضحتيّ اللون والمؤطّرتان بصُفرة تتفرّسان في داشا بنفاد صبر. قاطعها من جديد:

– أتعلمين أنّك في دخولك الـمُنظّمة تُخاطرين بحياتك؟

قالت داشا:

– أنا وحيدةٌ وحُرّة. وأنا لا أكادُ أعرفُ شيئاً عن الـمُنظّمة. وقد عهدَ نيكانور يوريفيتش إليّ بمُهمّة...لا أستطيع أن أظلّ مكتوفة اليدين. أؤكّد لك أنّني لا أخاف العمل ولا...

– أنت ما زلت صغيرة.

قال ذلك بنفس الحدّة، ولكن داشا رفعت حاجبيها بتيقّظ»

– عُمري أربعةٌ وعشرون عاماً.

– هل أنتِ سيّدة؟ (لم تُجب). في الظّرف الراهن هذا مُهمّ. (هزّت رأسها بإثبات). يُمكنك ألا تتحدّثي عن نفسك. أنا أسبر أغوارك كلّها. وأثق بك. فهل يُدهشك ذلك؟

رفّت عينا داشا و لم تقل شيئاً. فإنّ العبارات الحادّة الواثقة، والصّوت الآمر، والعينين الباردتين قد أوثقت بسرعة إرادتها الـمُتأرجحة. وأحسّت بنفس الارتياح الذي يحسّ به إنسانٌ وهو يجد طبيباً يجلس عند فراشه تلمع نظّارتاه الحكيمتان: "يا ملاكي، منذ اليوم سنتصرّف هكذا..."

والآن راحت تتطلّع بانتباهٍ إلى هذا الرّجل الذي يضع منديلاً على وجهه. كان ربع القامة يرتدي قبّعةً ناعمة ومعطفاً بلون الكاكي مفصّلاً عليه تفصيلاً جيّداً، وطماقين جلديّين. وكان بلباسه وحركاته الدّقيقة يُشبه أجنبياً، وكان يتحدّث بلهجةٍ بطرسبورغيّة، وبصوتٍ غير محدّدٍ وأجشّ.

– أين نزلت؟

– لم أنزل في مكانٍ ما. جئت من المحطّة إلى هنا رأساً.

– لطيفٌ جداً. الآن اذهبي إلى مقهى "بوم" في شارع تفيرسكايا. وتناولي طعامك هناك. وسيأتي عليك شخصٌ ستتعرّفين عليه من دبّوس رباطه على شكل جُمجمة. وسيقول لك كلمة السّرّ: "يصحبك الله في الطّريق الميمون". عندئذٍ أريه هذا (وقطع المثلّث الكارتونيّ وأعطى نصفه لداشا). أظهريه بحيث لا يراه أحد. وسيعطيك تعليماتٍ أخرى. أطيعيه طاعةً مُطلقة. عندك فلوس؟

وأخرج من محفظته الجيب ورقتين من فئة ألف روبل من عُملة «الدّوما». وقال:

– سيدفع حسابك. حاولي أن تُحافظي على هذه النّقود للطّوارئ

في حالة الانهيار الـمُباغت، وللرّشوة، والهرب. كلّ شيءٍ يُمكن أن يحصل لك. اذهبي... انتظري... هل فهمتني جيداً؟

– نعم.

أجابت داشا مُتلعثمة، وهي تطوي الورقتين النّقديّتين على شكل مُربّعٍ أصغر فأصغر.

– لا تذكري شيئاً عن لقائي معك، ولا أيّ شيءٍ عن مجيئك إلى هنا. انصرفي.

ذهبت داشا إلى شارع تفيرسكايا. كان جائعةً تعبى. مرّت أمام عينيها أشجار بولفار تفيرسكوي والمارّة القليلون المتجهّمون، وكان كلّ ذلك تراه من خلال ضباب. وكانت ما تزال تشعر بالهدوء لكونها قد وضعت حداً لركودها الـمُعذّب، وجرفتها الأحداث غير المفهومة لها مثل دوامة عاصفة. وحملتها إلى حياةٍ وحشيّة.

مرّت بها امرأتان في نعلين ليفين وكأنّهما ظلّان على شاشة. والتفتنا إلى داشا وقالت إحداهما بخفوت:

– لا تستحي. لا تكاد تقف على رجليها.

وثمّ مرّت امرأةٌ فارعة لها شعرٌ وخطّه الشّيب جمع في تسريحة تُشبه عُشّ غُراب، وقد أحاطت بفمها الذي على ما يبدو كان جميلاً في يوم ما. كانت تنّورتها الطّويلة السّوداء مُرقّعةً بقماشٍ مُختلف وكأنّه عن عَمْدٍ. وقد أمسكت ضُمّةً من الكُتب تحت شالها الّذي كانت تجرّ طرفه على الأرض. توجّهت إلى داشا بصوتٍ خفيض:

– عندي كُتب روزانوف الممنوعة، والأعمال الكاملة لفلاديمير سولوفيوف...

وفي مكانٍ أبعد وقف بضعة شيوخ يفعلون شيئاً ما وهم ينحنون على مصطبة حديقة، ولمّا مرّت داشا بهم رأت جنديّين من الحرس الأحمر غارقين في نوم عميق على المصطبة مُتلاصقين بكتفيها وقد فتحا فميهما، ووضعاً بندقيّتيهما بين ركبتيهما. وكان الشّيوخ يشتمونها همساً بكلماتٍ بذيئة.

كانت الرّيح الجافّة تُطارد الغُبار وراء الأشجار. دق جرس ترام مُنفرد، ومرقاته المخلوعة تضرب بلاط الشارع. كانت مجاميع رماديّةً من الجنود تتعلّق بالدّرابزين وعلى مكان الفرامل إلى الخلف. وكانت العصافير تنطّ على رأس تمثال بوشكين البرونزيّ لا يُهمّها شيءٌ من أمر الثّورات.

استدارت داشا نحو شارعِ تفيرسكايا. واقتحمتها من ظهرها سحابةٌ من الغبار، وغطّتها بقِطَع الأوراق، ودفعت بها إلى مقهى "بوم" –المعقل الأخير للحياة القديمة اللاهيّة.

في هذا المكان كان يجتمع الشُّعراء من كلّ المدارس، والصّحفيّون السابقون، والـمُضاربون بالأدب، والشُّبان النُّشطاء، الذين يكيّفون أنفسهم للزّمن الـمُضطرب ببساطة ومهارة والفتيات الـمُسمّمات بالسّأم والكوكائين، والفوضويّون الصّغار الذين يبحثون عن التّسليات الحادّة، والزّوّار الـمُنجذبون إلى أكل الكعك.

ما كادت داشا تحتلّ مقعداً في أقصى المقهى تحت تمثالٍ نصفيّ لكاتبٍ شهير حتى بسط أحد الأشخاص ذراعيه، واندفع خلال دخان التّبغ، وجلس على مقعدٍ بجوار داشا مُقهقهاً بنداوة كاشفاً عن أسنانٍ فاسدة. لقد كان ذلك هو الشاعر ألكسندر جيروف الذي كانت تعرفه منذ قبل.

– لحقت بك على ساحة لوبيانسكايا... كنت على يقين من أنّك كنت في العربة، يا داريا دميترييفنا. فأيّة مُصادفة. من أين جئت؟ هل أنت وحدك؟ مع زوجك؟ هل تذكرينني؟ كنت في يومٍ ما أعشقك. وكنت تعرفين هذا، أليس كذلك؟

كانت عيناه نديّتين. وكان لا ينتظر جواباً عن أيّ سؤال، على ما يبدو. وكان على عهده في الماضي–في سورةٍ من الانفعال، سوى أنّ بشرته السّقيمة قد ارتخت. كان أنفه المعكوف العريض في الأسفل يبدو كبيراً في وجهه الطّويل النّحيل.

– كم عانيت خلال هذه السّنوات... شيءٌ خياليّ... جئت إلى موسكو منذ موتٍ قصير... أنا من جماعة الشُّعراء التّصويريين: سيرغي يسينين، بورليوك، وكروتشينيخ. نحن نُحطّم... هل مررت بكاتدرائيّة ستراستنوي؟ هل رأيت الحروف الكبيرة على الجدار؟ تلك جرأةٌ عالميّة... حتى البلاشفة ذاهلون... أنا ويسينين عملنا طوال الليل... صوّرنا في شعرنا مريم العذراء وعيسى المسيح بصورةٍ شائنة... فحشٌ كونيّ... في الفجر قرأته عجوزتان فطلعت روحاهما في الحال... داريا دميترييفنا، أنا فضلاً عن ذلك من الجماعة الفوضويّة «الباشق الأسود»... سنجذبك إلينا... لا، لا محالة... أتعرفين من هو رئيسنا؟ مامونت دالسكي الشّهير... عبقريّ... كين الثاني... الجَسور العظيم... لم يمضِ أسبوعان حتّى تقع موسكو كلّها في أيدينا... ويبدأ عهدٌ عظيم! موسكو تحت الرّاية السّوداء. قرّرنا أن نحتفل بالنّصر. أتعرفين كيف؟ نُعلن عن كرنفالٍ عام... براميل النّبيذ في الشّوارع، وفي الساحات الموسيقى تعزفها جوقاتٌ عسكريّة... مليون ونصف متنكر. سيظهر نصفهم عُراة، وليس في ذلك أدنى شكّ. وبدلاً من

الألعاب النّاريّة ستُفجّر مخازن المدفعيّة في جزيرة لوسيني. لم يشهد تاريخ العالم مثيلاً كذلك.

وكان ذلك النّظام السّياسيّ الثالث الذي تعرّفت عليه داشا خلال هذه الأيام. والآن لم تشعر إلا بالخوف. حتّى أنّها نسيتْ جوعها. وانخرط جيروف بالتّفاصيل بعد أنْ رضي بالأثر الذي خلّفه.

– أحقاً لا تشعرين بغثيان دم حين ترين ابتذال المدينة الحديثة؟ إنّ صديقي فاليت، الرّسام العبقريّ–وأنت تعرفينه–وضع خطّةً لتغيير وجه المدينة كُلياً...المقصود تهديم كلّ شيء والبناء من جديد، ولكننا لن نَلْحق في ذلك قبل الكرنفال...بالطّبع تقرّر تهديم بعض المباني. المتحف التاريخي، الكريملين، وبرج سوخاريف، وبيت بيرتسوف... سنضع على طول الشارع حواجز من الألواح بارتفاع البيوت مرسومةٌ عليها تصاميم معماريّة على طرازٍ لا مثيل له وفي مُنتهى الحداثة... والشّجرة بأوراقها الطّبيعيّة غير مقبولة. سنصبغ الشّجر بألوانٍ مختلفة مُستخدمين المرشّات..فتصوّري أشجار زيزفونٍ سوداء في بولفار بريتشيستينسكي، وبولفار تفيرسكوي ليُلقى بشكلٍ منحوس... فظاعة!..وتقرّر أيضاً إقامة أعمال تدنيس تمثال بوشكين على نطاق الشّعب كُلّه...داريا دميتريفنا أتذكرين «التّدنيسات العظيمة» و«مُكافحة المألوف» في شقّة تليغين؟ كانوا يهزأون بنا آنذاك.

وضحك ضحكةً سريعة كالرّجفة وتذكّر الماضي واقترب من داشا، ومسّ صدرها النّاهد قليلاً، وهو يومئ.

– أتذكرين يلزافيتا كييفنا؟ ذات العينين الشّبيهتين بعيني الخروف؟ كانت تهيم بخطيبك إلى حدّ الجُنون. وعاشرت بيسونوف. وزجها

جادوف مُقاتلٌ فوضويٌّ بارز...هو وماموننت دالسكي ورقتانا الرّئيسّتان. كما أنّ أنتوشكا أرنولدوف هنا أيضاً! في عهد الحكومة المؤقّتة سيطر على كلّ الصّحافة، كان يمتلك سيّارتين ويُعاشر الأرستقراطيّات...كانت عنده هنغاريّةٌ من «فيلا روده» ذات جمالٍ صارخ. كان ينام معها والـمُسدّس في يده. وقد سافر إلى باريس في تّموز الماضي، وكاد أن يُعيَّن سفيراً...الحمار!.. لم يلحق أن يُحوّل نقوده إلى الخارج، وهو الآن يتضوّر جوعاً كابن كلبة، يا داريا دميترييفنا يجب أن تُجاري العهد الجديد...دمّر أنتوشكا أرنولدوف نفسه لأنّه اتّخذ لنفسه شقّةً واسعةً مريحة في شارع كيروتشتايا، وأثاثاً مذهّباً، ومعدّات القهوة، ومائة زوج من الأحذية. يجب أن نحرق ونُحطّم ونُمزّق كلّ الخرافات...حريّةٌ مطلقةٌ متوحّشةٌ عذراء. هذا ما نريده! ومن يتكرّر مثل هذا العهد...ونحن نُحقّق تجربةً عظيمة. وكلّ الذين ينجرّون وراء رفاهيّة الطّبقة المتوسّطة سيهلكون...سنسحقهم... إنّ الإنسان هو رغبةٌ لا حدود لها...(وخفض صوته، ومال على أُذُن داشا). البلاشفة قذارة...كانوا جيّدين أسبوعاً واحداً فقط، في أكتوبر...ثمّ التزموا رأساً بمبدأ الدّولة. روسيا كانت دائماً بلداً فوضوياً، والفلاح الروسيّ فوضويٌّ بأصله...البلاشفة يريدون تحويل روسيا إلى معمل. هُراء، لن يستطيعوا ذلك. عندنا ماخنو، وبطرس العظيم مجرّد جروٍ أمامه. ماخنو في الجنوب، وماموننت دالسكي وجادوف في موسكو...سنحرك من الجانبين. اليوم ليلاً سآخذك إلى مكانٍ سترين بنفسك أيّ نطاق...موافقة؟ نذهب؟

منذ عدّة دقائق جلس شابٌّ شاحب ذو لحيةٍ مدبّبة إلى الطّاولة المجاورة. كان يفترس في داشا من خلال نظّارته الأنفيّة من وراء

الجريدة. صعقتها تصوّرات جيروف الخياليّة فلم تحاول أن تحتجّ. وبدا لها أنّ هذه الأفكار فوق الطّبيعة كانت تتولّد كالبروق في سُحب دخان السّكائر، طافت وجوهٌ غريبةٌ متّسعة الحدقات تطبق أسنانها على السّكائر...ماذا كان في وسعها أن تعترض؟ يُمكن أن تُوَلْوِلَ شاكيةً أنّ قلبها يرتجف أمام هذه التّجاريب، وبالطّبع ستضيع ولولتها في هدير الضّحك المجنون والهرجلة والتّهريج.

كانت عينا ذي اللحية الـمُدبّبة تتحسّسانها في مزيد من الإصرار. رأت في رباطه القُرمزيّ جُمجمةً معدنيّةً صغيرة–دبّوساً. فحزرت أنّه هو الذي يجب أن تلتقي به. رفعت جسمها قليلاً، إلا أنّه هزّ رأسه هزّةً قصيرة مُشيراً عليها بأن تظلّ في مكانها. قلّصت داشا عينيها مُفكّرة. أشار الرّجل بعينه إلى جيروف. فهمت، وطلبت من جيروف بأن يجلب لها شيئاً تأكله. عند ذاك اقترب الرّجل ذو اللحية من طاولتها وقال دون أين يفتح شفتيه:

– يصحبك الله في الطّريق الميمون.

فتحت داشا حقيبتها، وأرت نصف المثلّث. فضمّه إلى النّصف الثاني، ومزّق النّصف مزقاً صغيرة.

سأل بسرعة:

– من أين تعرفين جيروف؟

– منذ زمان، في بطرسبورغ.

– هذا يلائمنا. يجب أن يعتبروك من جماعتهم. اقبلي بكلّ ما يقترح عليك. وَغَداً، في مثل هذا الوقت، تعالي إلى تمثال غوغل في بالفار بريتشيستينسكي. أين ستقضين الليلة؟

– لا أدري.

– هذه الليلة اقضيها أينما شئتِ... اذهبي مع جيروف...

– أنا مُنهكةٌ بشكلٍ فظيع.

وامتلأت عينا داشا بالدّمع، وارتعشت يداها، إلا أنها نظرت إلى وجهه غير الودود، وإلى الدّبّوس ذي الجمجمة، فغضّت بصرها مُذعنة.

– تذكّري: السّريّة التامة. وإذا قلت شيئاً ولو عرضاً وجب التّخلّص منك. فإنّ الوقت حربيّ...

وشدّد على كلمة «التخلّص». وشعرت داشا بأنّ أصابع قدميها تنكمش. تقدّم جيروف من الطّاولة يحمل صحنين. تقدّم منه الرّجل ذو الدّبوس، وعوج فمه الدّقيق بابتسامة، وسمعت داشا تقول:

– فتاةٌ حلوة. من هي؟

– اتركها بسلام. ليست مُعدّةً لك، يا يوركا.

وأبدى جيروف له تثلّمات أسنانه وكأنّه يُهدّده أو يبتسم له. ووضع أمام داشا خُبزاً أسود ونقانق وقدحاً من سائلٍ بنيّ، وقال:

– إذن، فأنت في المساء غير مشغولة؟

– لا فرق.

أجابت داشا. وقضمت النّقانق بتلذّذٍ موجع.

اقترح جيروف عليها الذّهاب إلى غرفته في فندق "لوكس" على مسافةٍ قصيرة في الجانب الآخر من الشارع.

– نامي قليلاً واغتسلي، وفي نحو الساعة العاشرة سآتي إليك.

وانشغل مُضطرباً وركض من مكانٍ إلى آخر، فقط ظلّ حسب الذّكريات القديمة يحتفظ بشعور الوجل في حضور داشا بعض الشّيء. كانت غرفته ذات ستائر من قماشٍ مُقصّب، وبساطٍ ورديّ. وكان سريره يبعث على الريبة بعد أن رفع عنها الجرائد والمخطوطات والكتب، وفرش مفرشاً وقطعةً من الفراء الأسود نزعت من معطفٍ ثمين، وأرسل ضحكةً وخرج. خلعت داشا حذاءها. كان حقوها ورجلاها وكلّ جسمها يئنّ تعباً. فاستلقت واستغرقت في النّوم حالاً متدفّئةً بفراءٍ سميك فيه رفيفٌ خفيف من رائحة عطر وحيوان ونفتالين. ولم تسمع كيف دخل جيروف، وانحنى ونظر إليها ولا الصّوت العميق الذي صدر في الباب من رجلٍ ضخم حليق شبيهٍ برومانيّ: «طيّب، خُذها إلى هناك. وسأعطيك مذكّرة».

وكان المساء قد تقدّم كثيراً حين تنهّدت داشا واستيقظت. كان هلالٌ أصفر فوق سطح البيت ينعكس مُهشّماً على زُجاج النّافذة. وتحت الباب امتدّ خطٌّ من الضّوء الكهربائيّ. وتذكّرت داشا أخيراً أين هي، ولبست جوربها على عجل، وسوّت شعرها وثوبها وذهبت إلى المغسلة. كانت الفوطة من القذارة حتّى أنّ داشا فكّرت وهي تفرج أصابعها التي كان الماء يقطر منها، ومسحت بطرف تنّورتها من الجانب الآخر.

وداهمها إحساسٌ حادّ بالوحشة من كلّ سوء الحظّ هذا، وخنقها الاشمئزاز فودّت لو تهرب من هنا إلى بيتها، إلى النافذة النّظيفة تطير الخطاطيف خلفها...أدارت رأسها ونظرت إلى الهلال ميتاً مشوّهاً مُتدلّياً فوق موسكو. لا، لا...لا مجال للعودة. الموت في وحدةٍ

على الكرسيّ عند النافذة فوق جادة كامينواوستروفسكي المقفرة والاستماع إلى الألواح تُسمَّر على البيوت...لا...ليكن ما يكون...

طرق الباب، ودخل جيروف على أطراف أصابعه.

– حصلت على ترخيص. لنذهب، يا داريا دميتريفنا.

لم تسأل داشا أيّ تريخيص هو، ولا إلى أين تذهب. وضعت قبّعتها البيتيّة الصُّنع، وتأبّطت حقيبتها التي في الألفان من الروبلات. وخرجا. كان ضوء القمر يغمر جانباً من جادة تفيرسكوي. و لم تكن المصابيح مُشتعلة. سارت دوريّةٌ ببطءٍ في الشارع المقفر صامتةً تضرب الأرض بأحذيتها الطّويلة.

انعطف جيروف إلى بولفار ستراستنوي. كانت بقعٌ من ضوء القمر ترقد هنا على الأرض غير المستوية. وكانت الظُّلمة الحالكة تحت أشجار الزّيزفون تبعث الرّهبة في النّفس. وبدا أنّ شخصاً قد مرق في هذا الظّلام إلى الأمام. توقّف جيروف، وكان في يده مُسدّس.

وقف قليلاً ثمّ صفر. فأجيب عليه من هناك. قال بصوت أعلى قليلاً: "من جماعتكم". فأجاب صوتٌ واضحٌ متكاسل: "مُرّ، يا رفيق".

انعطفا في شارع ماليا دميتروفكا. فقابلهما هناك شخصان في سترتين جلديّتين عبرا الشارع بسرعة. ولكن بعد نظرةٍ صامتة تركهما يمرّان. عند مدخل نادي التّجار حيث كانت تتدلّى رايةٌ سوداء من الطابق الثاني فوق المدخل خرج أربعةٌ من وراء الأعمدة وصوّبوا مُسدّسات. تعثّرت داشا. وقال جيروف غاضباً:

– ما هذا في الواقع، يا رفاق؟ تخويفٌ عن عبث. عندي ترخيصٌ من مامونت...

– أرِنا.

فحص الأربعة التّرخيص في ضوء القمر وقد أخفوا خدودهم المرداء في ياقاتهم المرفوعة، وسحبوا ظليلات طاقياتهم على عيونهم. وجمد وجه جيروف وكأنّ الحياة قد غادرته، وارتسمت عليه ابتسامة. سأل أحد الأربعة بفظاظة:

– ولمن؟

– لهذه الرّفيقة، –وأمسك جيروف بيد داشا. –إنّها فنانةٌ من بتروغراد...يجب أن تُكسى...تدخل في جماعتنا...

– حسناً، اذهبا...

دخلت داشا وجيروف في رواقٍ مضاء بضوءٍ باهت، وقد وضعت رشاشاً على الدّرج. وجاء القومندان، وهو طالبٌ قصيرٌ منتفخ الخدّين في سترة من بزّةٍ طُلابيّة، وطربوش. قَلّبَ التّرخيص طويلاً وهو يقرأه. وسأل داشا وعقا:

– ماذا تحتاجين من أشياء؟

أجاب جيروف:

– أَمَرَ مامونت بأن تُكسى من القدم حتى الرّأس، بأحسن ما لدينا.

– ما تعني بعبارة "أمر مامونت"؟...حان الوقت أن تعرف يا رفيق أنّه لا توجد أوامر هنا...ليس هنا حانوت...(وهنا أحس القومندان

بأنّ فخذه يحكّه، فقلّص عينيه بشدّة، وهرش). حسناً، لنذهب.

أخرج مفتاحاً، وسار إلى الأمام إلى مشجب المعاطف السابق، حيث يوجد الآن مستودع دار الفوضويّة.

– داريا دميتريفنا، اختاري ولا تخجلي. كلّ هذه الأشياء تعود للشّعب...

وأشار جيروف بتشميرةٍ عريضة من ذراعه إلى مشاجب عُلّقت عليها لفاحاتٌ من فراء السّمّور والقاقم والثّعلب الفضّيّ ومعاطف من فراء الأرانب والقرد وعجل البحر. كما وضعت على المقاعد، وألقيت أكواماً على الأرض. وامتلأت حقائب مفتوحة بالفساتين والملابس الدّاخليّة وعُلب الأحذية. وبدا وكأنّ مخازن كاملة من الأشياء الفاخرة قد جُلبت إلى هنا. تثاءب القومندان غير مكترثٍ بهذه الوفرة وقد جلس على صندوق.

– داريا دميتريفنا، خُذي كلّ ما يروق لك. سأحملها لك. ونصعد إلى الأعلى، وهناك ستبدّلين ثيابك.

ورغم كلّ ما يُمكن أن يُقال عن مشاعر داشا الـمُعقّدة، فقد كانت قبل كلّ شيءٍ امرأة. تورّد خدّاها، قبل أسبوع، عندما كانت تتهافت كزنبقة الوادي قُرب النافذة، تتخيّل أنّ الحياة قد انتهت ولا شيء تنتظره، ربّما لم تكن تغريها أيّة كنوزٍ في العالم. أما الآن وقد انفتح حولها كلّ شيء فإنّ ما كانت تعتبره ميتاً وجامداً في نفسها عادت إليه الحركة. ودخلت في تلك الحالة الـمُذهلة، حيث الرّغبات والآمال المتيقّظة تنطلق مُندفعةً في الضّباب الـمُقلق للغد الآتي، بينما الحاضر يرقد في ركامٍ كمنزلٍ مهجور.

ولم تتعرّف على صوتها، وأدهشتها أجوبتها وتصرّفاتها وهدوؤها الذي تقبّلت به الفنطازيا التي تدور حولها. وأحسّت بغريزة حفظ النّفس التي ظلّت غافيةً فيها حتى تلك اللحظة أنّ عليها الآن أن تنشر أشرعتها وتنطلق مُلقيةً بالحُمولة وراء حاجز سفينتها. مدّت يدها إلى لفاحٍ من السّمور الرّماديّ.

– أعطني هذه، من فضلك.

نظر جيروف إلى القومندان فهزّ هذا خدّيه موافقاً. تناول جيروف اللفاح، وألقاه على كتفه. انحنت داشا على حقيبة كبيرةٍ مفتوحة–وللحظة أحسّت بالتّقزّز من أشياء الآخرين هذه–وأدخلت يدها حتى المرفق في كومة الملابس الداخليّة.

– والحذاء، يا داريا دميتريفنا؟ خذي حذاءً طويلاً للمطر. والزّينات المسائيّة في هذا الدولاب. أيها الرفيق القومندان أعطني المفتاح... الزينة بالنّسبة للفنانة أداة الإنتاج.

قال القومندان:

– خذا ما تشاءان، لا يهمّني.

صعدت داشا ووراءها جيروف يحمل الأمتعة إلى الطابق الثاني، ودخلا غرفةً صغيرة فيها مرآةٌ حطّمتها رصاصة. لمحت داشا بين الصّدوع الشّبيهة بنسيج العنكبوت على المرآة المغبشّة امرأةً منشغلة بارتداء جورب حريريٍّ ببطء. وضعت عليها قميصاً رقيقاً، وارتدت سروالاً داخلياً مُدنتلاً، وتخطّت بحذائها الجميل وأبعدت جانباً ثيابها الداخليّة المرفوءة. وألقت فراءً على كتفيها النّحيلتين العاريتين...ومن أنت، يا روحي؟ مومس؟ سالبة؟ لصّة؟..ولكنّك لطيفةٌ جداً...إذن،

فإنّ كلّ شيء لي في الـمُستقبل؟ لا بأس، سندبّر الأمر فيما بعد على نحوٍ ما...

كانت القاعة الكبيرة لمطعم "متروبول" الذي أصابته قنابل في أكتوبر مغلقةٌ لا تعمل، ولكنّ الطّعام والنّبيذ كان يُقدّم في المقاصير، لأنّ نصف الفندق كان يحتلّه الأجانب، وهم في معظمهم ألمان، وأولئك المضاربون الـمُستميتون الذين استطاعوا الحصول على جوازٍ أجنبيّ-ليتوانيّ أو بولونيّ أو فارسيّ. والمخموررون في المقاصير الـمُغلقة يضجّون كما في فلورنسا أثناء الطاعون. وكان يسمح لأهالي موسكو الأصليّين بالدّخول إلى هناك بوساطة المعارف، ومن بابٍ خلفيّ، وهؤلاء في معظمهم مُمثّلون واثقون من أنّ مسارح موسكو لن تبقى حتى نهاية الموسم، وأنّ الهلاك الـمُحقّق سيصيب المسارح والـمُمثّلين معاً. وكان الـمُمثّلون يشربون بإفراط.

كان مامونت دالسكي الـمُمثّل الدّراميّ، والتّراجيديّ روح هذه المباذل الليليّة، وكان اسمه إلى عهدٍ قريب لا يقلّ صدىً عن اسم روسيه. كان رجلاً ذا طبعٍ وحشيّ جميل الطّلعة، مُقامراً، مجنوناً شديد الطّمع، خطراً، مهيباً ماكراً. وقد أضحى في السّنوات القليلة الأخيرة لا يُمثّل إلا نادراً، وفي الجولات الفنيّة فقط. وكان يتردّد على دور القمار في العاصمتين، وفي الجنوب، وفي سيبيريا. وقد رويت رواياتٌ عن خسائره الفادحة. وبدأ يشيخ، وكان يقول إنّه سيترك المسرح. وفي أثناء الحرب اشترك في صفقاتٍ غامضةٍ في الأسلحة. وعندما بدأت الثّورة ظَهَر في موسكو، وأحسّ بوجود المسرح التّراجيديّ الجبّار وأراد أن يلعب فيه دوراً رئيسياً في المسرحيّة الجديدة على غرار "اللصوص" لشيلر.

وبدأ يتحدّث بكلّ يقين مُمثّل عبقريّ عن الفوضويّة الـمُقدّسة، وعن الحريّة الـمُطلقة، وعن نسبيّة المبادئ الخلقيّة وعن حقّ كلّ شخصٍ في كلّ شيء. وبذر في موسكو الهياج في الأفكار. وعندما بدأت بعض جماعات الشّباب مدعومةً بأشخاصٍ محكومين تُصادر منازل الأغنياء جمع هو هذه الجماعات المتفرّقة من الفوضويّين، واستولى على نادي التُّجار بالقوّة، وأعلنه داراً للفوضويّة. ووضع السُّلطة السوفييتيّة أمام حقيقة واقعة. و لم يكن قد أعلن بعد الحرب على السُّلطة السوفييتيّة، ولكنّ خياله، دون شكّ، كان يتخطّى مستودعات نادي التُّجار والمباذل الليليّة، عندما كان يتحدّث وهو واقفٌ في النافذة، أمام الناس الـمُتجمّعين في فناء دار الفوضويّة، وبعد إيماءته الرومانيّة تتطاير على الناس في الفناء البناطيل والأحذية وقطع القماش، وزجاجات الكونياك.

عندما دخلت داشا المقصورة في "متروبول" مع جيروف كان أوّل مَنْ رأته هذا الرّجل بوجهه الكئيب وكأنّه صبّ من برونز، وقد انطبعت عليه السورات والأهواء والحياة الصاخبة مثل نحّاتٍ مشهور حفر عليه الغضون والتّجعّدات وخطوط الفم النّامّة عن الحزم والحنك والرّقبة المحفوفة بالياقة الناعمة القذرة.

كان غطاء البيانو مرفوعاً. وكان رجلٌ حليق نحيل في سترةٍ مخمليّة، رأسه إلى الوراء يطبق أسنانه على سيكارة، ويسدل رموشه على عينيه النّديّتين، يعزف على البيانو لحناً جنائزياً. وإلى مائدةٍ حفلت بعددٍ كثير من الزّجاجات الفارغة جلس عددٌ من ذوي الصّيت الواسع. وكان أحدهم، وهو رجلٌ أفطس الأنف أسند ذقنه البارز على راحته حتّى أنّ وجهه الناعم قد انضغط، يرفع صوته بغناءٍ كنائسيّ مُمثلاً القس. أما

الآخرون، وهم محاجج له وجهٌ كالجرّة، وممثّلٌ فكاهيٌّ عبوس متدلّي الشّفّة، وبطلٌ لم يحلق منذ ثلاثة أيام له أنفٌ مدبّب، وعاشق في منتهى السّكر، ورجلٌ عظيم ذو صيتٍ ذائع خدّدت جبينه أخاديد عميقة في مظهرٍ صاحٍ كلياً، فقد كانوا ينضمّون إلى الغناء جماعياً عند الضّرورة.

وكان الأرشيدوق من كنيسة "المسيح المُخلّص" وهو رجلٌ وسيم سرى الشّيب في شعره يضع نظّارةً ذهبيّةً ثقيلة مُهداةً له من تجارة موسكو يسير على البساط جيئةً وذهاباً ملوّحاً بكمّيّ غفارته الكهنوتيّة مُردّداً اللازمة. وكانت أقداح البلّور تهتزّ من نبرة صوته القويّة. كانت المقصورة مزيّنةً الجدران بحريرٍ داكن الحمرة، وعلى الباب سدولٌ من القماش المقصّب وحاجز ثلاثيّ المصاريع. كان مامونت دالسكي يقف مُتّكئاً على هذا الحاجز. وكان يُمسك شدّةً من ورق اللعب. وكان يرتدي بدلةً شبه عسكريّة: سترةً انجليزيّة التّفصيل، وبنطلون ركوبٍ في مربّعات، عجيزته من الجلد، وحذاءً طويلاً أسود. عندما دخلت داشا ضحك بخُبث، وهو يسمع ألحاناً جنائزيّة.

قال الشّخص الجالس إلى البيانو:

– جمالٌ صارخ. يجنّن!

ارتعبت داشا وتوقّفت. نظر الجميع إليها ما خلا دالسكي.

وقال الأرشيدوق:

– جمالٌ روسيٌّ صرف.

وقال الرّجل العظيم:

– تعالي اجلسي معنا، يا آنسة.

همس جيروف:

– اجلسي، اجلسي.

جلست داشا إلى المائدة. أخذ الجالسون يُقبّلون يديها بعد أن تقدّموا وانحنوا بمهابة، وكأنها ماري ستيوارت. وبعد ذلك استمرّ الغناء. وضع جيروف بعض الكافيار والمشهّيات في صحن داشا، وجعلها تشرب مشروباً حلواً مُحرقاً. كان الجوّ خانقاً داخناً. وبعد الشّراب المَطّاط ألقت داشا فراءها ووضعت يديها العاريتين على المائدة. أقلقتها هذه النّغمات الحزينة، وكلمات الغناء القديمة. ولم تصرف بصرها عن مامونت. وكان جيروف قد حثّها عنه في طريقهما إلى هنا. ظلّ على وقفته الجانبيّة عند الحاجز، وكان إما في سورةٍ من الحنق أو سكران إلى حدّ فقدان الوعي.

قال بصوتٍ عميق ملأ أرجاء المقصورة:

– إذن، يا سادة. لا يريد أحد؟

– لا أحد، لا يريد أحدٌ أن يلعب معك، نحن في غاية المرح دون حاجةٍ إلى لعب. فاتركنا على حالنا، واهدأ.

قال ذلك ذو الوجه المضغوط بصوتٍ عالي النّبرة سريع ثمّ أضاف:

– هيا، ياشا، اعزف التّرتيلة السابعة.

ألقى ياشا الجالس إلى البيانو رأسه إلى الوراء تماماً، ووضع أصابعه على المفاتيح مُقلّصاً عينيه. قال مامونت:

– بلا فلوس... بصقةٌ على فلوسكم...

– ومع ذلك لا نريد، فلا تلحّ، يا مامونت.

– أريد أن ألعب على طلقة...

بعد هذا صَمَتَ الجميع بُرهة. مرّر البطل ذو الأنف الـمُدبّب كفّه على جبينه وشعره، ونهض وأخذ يُزرّر صِدريته:

– أنا ألعب على طلقة.

أمسكه الـمُمثّل الفُكاهيّ صامتاً، ووقع عليه بجسمه الثّقيل، وأجلسه في مكانه. صاح البطل:

– أنا أقسِمُ بحياتي على أنّ في يد مامونت الوغد ورقاً مُعلّماً...لا يُهمّ. دعه يوزّع الورق. اتركني...

إلا أنّه عجز. وقال المحاجج ذو الوجه العريض من الأسفل بلهجةٍ ناعمة:

– لا توجد قطرةٌ واحدةٌ من النّبيذ. مامونت، هذه شناعة، يا عزيزي...

عندئذ ألقى مامونت دالسكي على طاولة التّلفون شدّة الورق ومُسدّساً أتوماتيكياً كبيراً. وامتقع من شدّة الغيظ وجهه الضّخم المنحوت. وقال مُقطّعاً الكلمات:

– لن يخرج أحدٌ من هنا. سنلعب، كما أريد...شدَّة الورق هذه غير مُعلَّمة.

واستنشق الهواء بقوّة من منخرين عريضين، وتدلّت شفته السُّفلى. وأدرك الجميع أنّ اللحظة الخطرة قد حلّت. مرّر بصره

على وجوه الجالسين إلى المائدة. عَزَفَ ياشا بإصبع واحدة نغم أغنيةٍ شائعة. وفجأةً ارتفع حاجبا مامونت الأسودان، ولمعت الدّهشة في عينيه العميقتي الغور. فقد وقع بصره على داشا. سَرَتْ برودةٌ سريعة في قلب داشا من تلك النّظرة. تقدّم مامونت منها بدون ترنُّح، وأمسك أطراف أصابعها، ورفعها إلى شفتيه الجافّتين الـمُتشقّقتين ومسّها دون أن يُقبّلها:

– تقولون إنّه لا يوجد نبيذ...سيكون جاهزاً...

دقّ الجرس وهو ما يزال يتمعّن في داشا. دخل الخادم التّتري، وبسط يديه: لا توجد زجاجةٌ واحدة. شُربت الخمرة كلّها، والقبو مُغلق، والمسؤول قد خرج. عندئذٍ قال مامونت:

– انصرف.

وتقدّم من التّلفون وكأنّ أنظار ألفٍ من الـمُتفرّجين مُصوّبةٌ نحوه. وأدار رقماً: «نعم...أنا...دالسكي...أرسل دوريّة. «متروبول»... أنا هنا...بسرعة...نعم...أربعةٌ يكفي...»

ووضع السّمّاعة ببطء. واتّكأ بكلّ جسمه على الحائط، وطوى يديه على صدره. مرّ ما لا يزيد عن خمس عشرة دقيقة. عَزَفَ ياشا على البيانو ألحاناً من سكريابن بخفوت. ودار رأس داشا من هذه النّغمات الأليفة الآتية من الماضي. واختفى الزّمن. وارتفع القُماش الـمُقصّب الفضّيّ على صدر داشا وانخفض وتدفّق الدّم إلى أذنيها. همس جيروف، ولكنّها لم تسمع.

كانت مُنفعلةً تشعر بسعادة التّحرّر، وخفّة الشّباب. وخُيّل إليها

أنّها قد طارت مثل تُفّاحةٍ انفلتت من عربة أطفال، أعلى فأعلى بشكلٍ يُدير الرّأس...

مسّد الرّجل العظيم ذراعها العارية. وتمتم بأُبوّة:

– لا تنظري إليه بهذه الرِّقّة، يا عزيزتي...ستعمى عيناك...في مامونت شيءٌ شيطانيّ دون شكّ...

في تلك اللحظة انفتحت فجأة دفّتا الباب، وظهرت وراء الحاجز أربعة رؤوس في كيبيهات، وأربعة أكمام جلديّة تضغط على مقابض قنابل يدويّة. وهَتَفَ أربعةٌ من الفوضويّين بتهديد:

– لا تتحرّكوا من أماكنكم! ارفعوا أيديكم!

قال دالسكي بهدوء:

– دعوهم. كلّ شيءٍ على ما يُرام. شكراً، يا رفاق.

وتقدّم منهم، ورفع جسمه من فوق الحاجز وراح يشرح لهم شيئاً ما همساً. أومأوا بكيبيهاتهم، وانصرفوا. وبعد دقيقة تردّدت أصواتٌ منفردة، وصيحةٌ مكتومة. وهزّ الجدران انفجارٌ أصمّ الرّنين هزاً خفيفاً. قال مامونت:

– هؤلاء الجِراء لا يستطيعون أن يُؤدّوا أمراً دون إثارة ضجّة.

ودقّ الجرس، وفي الحال دخل المقصورة الخادم شاحب الوجه وأسنانه تصطكّ. فأمرهُ مامونت:

– ارفع كلّ شيء. وضع أقداحاً نظيفةً للنّبيذ. ياشا، كفاك تعذيباً لأعصابي. اعزف شيئاً حياً.

وبالفعل، ما إن فرش الخادم مفرشاً نظيفاً على المائدة حتّى دخل الفوضويّون ثانيةً ومعهم عددٌ كبير من الزّجاجات. وضعوا على البساط زجاجات الكونياك والويسكي والليكور والشّمباني، واختفوا صامتين أيضاً. تردّدت حول المائدة هتافات الدّهشة والانشراح. وأضاح مامونت الأمر قائلاً:

- أمرت بأن يُصادر ٥٠ بالمائة فقط من الخمر الموجود في الغُرف. وأن يترك النّصف الآخر إلى أصحابه. يُمكن أن ترتاح ضمائركم. فكلّ شيءٍ على ما يُرام.

عَزَفَ ياشا لحناً احتفالياً. وتطايرت سدّادات الشّمبانيا. جلس مامونت إلى جانت داشا. بدا وجهه المُنار بمصباح الطاولة أكثر عظمةً وشبهاً بوجهٍ منحوت. سأل:

- اليوم رأيتك في «لوكس». كنت نائمة... من أنت؟

أجابت وهي تضحك من دُوارٍ في رأسها:

- لا شيء... نفّاخة...

وَضَعَ يده الكبيرة الحارّة على كتفها العارية، وأخذ يُحدّق في عينيها. و لم تهتمّ داشا. لم تشعر إلا بالدّفء تحت ثِقَل اليد على كتفها الباردة. رفعت قدح الشّمبانيا من ساقه الدّقيقة، وشربت حتّى الثّمالة. سألها:

- لست الثّمالة. سألها:

- لست لأحد؟

- لست.

عندئذٍ سرّ في أذنها بنبرةٍ تراجيديّة:

– عيشي، يا طفلتي، بكلّ جوارحك..من حُسن حظّك أنّك التقيت بـي...لا تخافي، لن أشوّه شبابك بـالحُـبّ...الأحـرار لا يُحبّون ولا يطلبون حُباً..عطيل نارٍ موقدةٍ من القرون الوُسطى، محكمة تفتيش، سحنةٌ شيطانيّة...روميو وجيوليت...أوه، أنا أعرف أنّك تشتاقين إليهما سراً..ذلك هُراءٌ عتيق...نحن نهدم كلّ شيءٍ من الأعلى إلى الأسفل...نحن سنحرق جميع الكُتب، وسنهدم المتاحف...يجب أن يَنسى الإنسان القُرون الماضية...الحريّة في شيءٍ واحد: الفوضويّة الـمُقدّسة...حريق الأهواء الهائل...لا! لا تنتظري الحُبّ ولا السّلام، يا حسناء...أنا أحرّرك...أحطّم عنك أغلال البكارة...أعطي لك كلّ ما سيخطر على ذهنك في الفترة ما بين عِناقٍ وعناق...اطلبي...اطلبي الآن...ربّما سيفون الأوان غداً.

ومِن خلال هذيان الكلمات هذا كانت داشا تحسّ بكلّ بشرتها فوران الهوى الثّقيل إلى جانبها. واستولى عليها الذّعر كما يحدث في الحُلم، حين لا تقوى على الحركة، ومن ظُلمة الحُلم تتقدّم عينا وحش ملتهبتان. ليلقيها أرضاً، ويطأها، ويسحقها...وكان أفظع من ذلك أنّ رغائب غريبة لاذعة خانقة كانت تتولّد في داخلها للاستجابة له...وأحسّت بكلّ كيانها كامرأة...ولعلّها كانت في تلك اللحظة مُضطربةً وجميلة حتى أنّ الرّجل العظيم مال نحوها، وقال بحسدٍ وهو يقرع كأسها:

– مامونت، أنت تُعذّب الطّفلة...

وَثَبَ دالسكي، وكأنّما أُصيب بطلقة، وضَرَبَ المائدة.

قفزت الأقداح وسقطت:

- سأرمي كلّ مَنْ يمسّ هذه المرأة!

واندفع إلى طاولة التّلفون، حيث كان الـمُسدّس. ونَهَضَ جميع من كانوا إلى المائدة، مُنحين المقاعد. واندسّ ياشا تحت البيانو. عندئذ تعلّقت داشا بيد مامونت الحاملة للـمُسدّس، دون أن تعرف كيفاً حدث هذا. وتوسّلت إليه بعينيها. أمس ظهرها النّحيل إلى الأسفل من دفّة كتفها، ورفعها، وأطبق فمه على فمها ماسّاً أسنانها بأسنانه. تأوّهت داشا. وفي تلك اللحظة دقّ التّلفون. ترك مامونت داشا تجلس على المقعد (أغلقت عينيها بيديها) وخَطَفَ سمّاعة التّلفون:

- نعم...ماذا تُريد؟ أنا مشغول...نعم...أين؟ في شارع مياسنيتسكايا، جواهر؟ ثمينة؟ سأكون بعد عشر دقائق...

دسّ الـمُسدّس في الجيب الخلفيّ، وتقدّم من داشا، وطوّق وجهها بيديه، وقبّلها عدّة قُبُلاتٍ نهمة، وخرج بعد أن أشار بيده مُودّعاً كالرّومانيّ.

قضت داشا بقيّة الليل في "لوكس". ونامت كالميّتة دون أن تخلع الفستان من القماش الفضّيّ الـمُقصّب. (نام جيروف في الحمّام خوفاً من مامونت). ثمّ كانت تجلس حزينةً حتّى مُنتصف النّهار قُرب النافذة لا تتحدّث مع جيروف، أو تردّ على أسئلته. وفي نحو الساعة الرابعة خرجت، وانتظرت حتّى الساعة الخامسة في بولفار بريتشيستنسكي، في الساحة عند تمثال غوغل الطّويل الأنف، حيث كان في الأسفل أطفالٌ نحفاء يعملون بهدوء فطائر من التُّراب والرّمل.

كانت داشا قد عادت ترتدي ثوبها القديم وقُبّعتها المصنوعة بيتيّاً.

كانت الشّمس تُدفئ ظهرها، الشّمس الـمُطلّة على حياةٍ بائسة. كانت للأطفال وجوهٌ صغيرةٌ شائخةٌ من الجوع. والهدوء يسود ما حولها والخواء. ما مِنْ كركبةٍ لعجلات، ولا أصوات عالية. فإنّ العجلات كلّها قد ذهبت إلى الحرب، والسّابلة صامتون. وكان غوغل في مقعده الغرانيتيّ ينحني تحت ثِقَل معطفه الـمُبقّع بذرق العصافير. مرّ رجلان مُلتحيان دون أن يلحظا داشا: نظر أحدهما إلى الأرض، والآخر إلى الأشجار. وترامت نتفٌ من حديثهما:

– اندحارٌ تامّ...فظيع...ما العمل الآن؟

– ومع ذلك فقد احتلّت سامارا، واحتلّت أوفا...

– لا أصدّق الآن بأيّ شيء...لن ينقضي هذا الشّتاء ونحن أحياء...

– ومع ذلك فدنيكين يتصرّف في الدون...

– لا أصدّق، لا شيء يُنقذ...هلكت بابل، وهلكت روما... ونحن أيضاً سنهلك...

– ومع ذلك لم يعتقلوا سافينكوف. ولم يعتقلوا تشيرنوف...

– لا أهميّة لذلك كلّه...كانت روسيا، والآن لا وجود لها...

ومرّت أيضاً تلك المرأة الشّائبة التي أخرجت من تحت شالها بالأمس، وهي خائفة، مؤلّفات روزانوف. أشاحت داشا بوجهها عنها. اقترب من مصطبتها خالسة شابٌّ يضع دبّوس جُمجمة. تلفّت فيما حوله، وعدّل نظّارته الأنفيّة، وجلس إلى جانب داشا:

– قضيت الليلة في «متروبول»؟

أنزلت داشا رأسها، وردّت مُحرّكةً شفتيها بلا صوت:

– نعم.

– مُمتاز. وجدتُ لكِ غُرفة. انتقلي إليها مساءً. لا تقولي لجيروف كلمةً واحدة. والآن لندخل في الموضوع: هل تعرفين لينين بالنّظر؟

– لا.

أخرج عدّة صورٍ فوتوغرافيّة، ودسّها في حقيبة داشا. ولبث جالساً يُمسك بشعر لحيته ويعضّه. وأمسك يدي داشا الـمُستلقيتين على ركبتيها بلا حياة، وهزّهما:

– المسألة هي كالآتي. البلشفيّة هي لينين. هل تفهمين؟ ونحن نستطيع أن ندحر الجيش الأحمر، ولكن لن ننتصر ما دام لينين في الكريملين. مفهوم؟ إنّه نظري، إنّه قوّةٌ إراديّة، وأعظم خطرٍ على العالم كلّه، وليس علينا فقط...فكّري وأجيبي بحزم: موافقةٌ أنتِ أم لا؟

– أقتُله؟

سألت داشا وهي تنظر إلى طفلٍ عاري البطن يترنّح معوجّ الساقين. تلوّى وجه الشاب، ونظر إلى اليمين، وقلّص عينيه ناظراً إلى الأطفال، وعاد يقضم شعر لحيته.

– لا أحد يقول ذلك...وإذا كنتِ تفكّرين به فلا حاجة إلى أن تنطقي به بصوتٍ عالٍ...لقد قبلناك عضواً في مُنظّمتنا...أمِنَ المعقول أنّكِ لم تفهمي ما كان يقوله سافينكوف؟

– إنّه لم يتحدّث معي..(ابتسم الشاب بسُخرية). آه، يعني، ذو المنديل كان...

– خفّضي صوتك...نعم، الذي تحدّث معك هو بوريس فيكتوروفيتش...لقد وضعت فيك ثقةً هائلة...نحن بحاجة إلى أناسٍ جُدد. فقد حدثت اعتقالاتٌ كبيرة. أنتِ تعرفين بالطّبع أنّ خُطّة التّعبئة في قازان فشلت...ويُنقل عمل المركز إلى مكانٍ آخر...ولكنّنا سنترك المُنظّمة هنا...ومُهمّتكِ أن تراقبي خُطب لينين، وتَحضري اجتماعاتٍ عامّة، وتتردّدي على المصانع...ولن تكوني وحيدةً في العمل...سيخبرونك بتنقّلاته من الكريملين، وبالأماكن التي يتوقّع أن يُلقي خُطبه...وإذا تعرّفت على شيوعيّين اطلبي الدُّخول إلى الحزب. فإنّ ذلك سيكون الأفضل. تابعي الجرائد، واقرئي المنشورات... والتّوجيهات الأخرى ستحصلين عليها غداً في الصّباح، في هذا المكان...

ثمّ أعطاها العنوان السّريّ، وكلمة السّرّ، وقدّم لها مفتاح الحُجرة. وسار مُتّجهاً نحو شارع أربات. أخرجت داشا الصُّور من الحقيبة، وأطالت النّزر فيها. ولكن حين بدأ يتراءى لها–بدلاً من هذا الوجه– الوجه الآخر الذي خرج من وراء السّتار القُرمزيّ في الليلة الماضية، أغلقت الحقيبة بشدّة، وذهبت أيضاً مُتجهّمةً مزمومة الشّفتين. حاول الطّفل الصّغير ذو الساقين المعوجّتين أن يلحقها، إلا أنه وقع بجسمه الرّخو على الرّمل، وبكى بحدّة.

كانت حجرة داشا تطلّ على الفناء في منزلٍ خربٍ في شارع سيفتسيف فراجيك. والظاهر أنّ البيت كان مهجوراً. طرقت داشا باب المدخل الخلفيّ وقتاً طويلاً حتى استقبلتها امرأةٌ عجوز قصيرة قذرة الثّياب لها جفنان مقلوبان تبدو من هيئتها أنّها مُربّية تعيش في بيت مخدوميها. ظلّت وقتاً طويلاً غير فاهمةٍ شيئاً ثمّ سمحت لداشا

بالدّخول أخيراً، وقادتها إلى حجرتها، وأخذت تتحدّث حديثاً غير مفهوم.

– طار الصّقور مُتفرّقين: يوري يوريتش وميخائيل يوريتش وفاسيلي يوريتش. أمّا فاسينكا[٢٠] فقد بلغ السادسة عشرة في عيد القدّيس توماس... أخذت أصلّي لسكينة روحهم...

رفضت داشا أن تشرب الشاي، وخلعت ملابسها، ودخلت تحت اللحاف، وفي الظّلام ذرفت الدّمع غزيراً وهي تسدّ فمها بالوسادة.

وفي صباح اليوم التالي تلقّت عند تمثال غوغل تعليمات وأمراً بالحضور في مصنع في الغد. وفكّرت بالعودة إلى بيتها، إلا أنّها عدلت عن ذلك وذهبت إلى مقهى "بوم"، حيث وجدت جيروف وظلَّ مُلتصقاً بها يسألها أين اختفت، ولماذا انصرفت دون أن تأخذ أشياءها. "أنا أنتظر من مامونت نداءً تلفونياً فماذا أجيبه عنك؟" – أشاحت داشا بوجهها لئلّا يرى خدّيها الـمُحمرّين...وفكّرت مع نفسها وهي تحسّ بأنّها تكذب: "على كلّ حال تقضي التّعليمات بأنْ أُتابع صُحبتي لهم..."

قالت غاضبة:

– سآتي لآخذ الأشياء. وهناك سنرى.

وعادت إلى بيتها تحمل لفّةً فيها لفاع الفرو الثّمين والملابس الدّاخليّة وفستان الأمس. وفكّت اللفة في حجرتها، وألقتها على السّرير، ونظرت إليها فتملّكتها رعدة حتّى أنّ أسنانها اصطكّت،

٢٠– صيغة تدليل لاسم فاسيلي (المُترجم).

وأحسّت من جديد بثقل يده على كتفها وببرودة أسنانه...وركعت داشا أمام السّرير، وأخفت وجهها في الفراء الـمُعطّر. وظلّت تُكرّر مذهولة: «أيّ شيءٍ هذا، أيّ شيءٍ هذا؟»...

وفي الصّباح لبست حسب ما أوصيت به: فستاناً داكن اللون من القماش الرّخيص جلبه إليها الشاب ذو الدّبوس، وشدّت شعرها بمنديل على طريقة البروليتاريات (وكان عليها أنْ تتظاهر بأنّها خادمةٌ سابقة في منزل أحد الأثرياء اغتصبها سيّدها)، وركبت الترام إلى المصنع.

لم يكن معها ترخيص. فغمز لها الحارس العجوز عند الباب قائلاً: "ذاهبةٌ إلى الاجتماع، يا فتاة؟ ادخلي المبنى الرّئيسيّ". سارت على رصيفٍ من الألواح الخشبيّة الـمُتآكلة عبر أكوام من الحديد الصّدئ ونفاية الصّهر، وعبر نوافذ ضخمة مُتحطّمة. وكان المكان حولها خالياً، والمداخن تُرسل الدُّخان بهدوءٍ في السّماء الصافية.

أشاروا لها إلى بابٍ مُلطّخ في جدار. فدخلت إلى قاعة طويلة آجريّة. وكان الضّوء الكئيب ينفذ إليها من خلال سقفٍ من الزُّجاج الـمُسخّم. وكان كلّ شيءٍ أجرد عارياً. وكانت سلاسل الرّافعات تتدلّى من المنصّات، وإلى الأسفل امتدّت محاور التّحويلات، وتدلّت أحزمة النّقل على بكراتها بلا حِراك. واندهشت عينها غير الـمُجرّبة لمرأى مساند الآلات السّوداء والأشكال الواطئة والطّويلة والـمُتباعدة الأطراف لآلات السّحج والتّثقيب والتّقوير والفريزة والمخارط، والأقراص الحديديّة لمكائن الاحتكاك. ولمحت داشا في شبه الظُّلمة وراء طاقٍ عريض مطرقةً بخاريّةً ضخمة.

في هذه الورشة كانت تُصنع الآلات والأجهزة التي كانت تملأ

الحياة وراء جدران المصنع الكالحة بالضّوء والدّفء والحركة والمعنى والتّرف. هُنا كانت رائحة البرّايات الحديديّة وزيت المكائن والتّراب وتبغ الماخوركا. كان جمهورٌ غفير من الناس يقف أمام منصّةٍ من الألواح الخشبيّة، وكان الكثيرون جلسين على مساند المخارط، وعلى أفاريز النّوافذ العالية.

شقّت داشا طريقها أقرب إلى المنصّة. التفتَ شابٌّ ضخم، وكَشَفَ ابتسامته العريضة عن أسنانه البيضاء في وجهٍ مُلطّخ بالزّيب، وأشار برأسه إلى نُضُد ومدّ يده. صعدت داشا إلى النّضد عنّد نافذة. وحولها عدّة آلاف من الرّؤوس—وجوهٌ عابسة وجباهٌ مُتغضّنة، وأفواهٌ مُطبعة. كانت تُرى كلّ يوم هذه الوجوه في الشّوارع وعربات الترام—وجوهٌ روسيّةٌ اعتياديّة مُتعبةٌ بنظراتها الصارمة. ذات مرّة—وكان ذلك قبل الحرب—وأثناء نزهة يوم الأحد حوّل إثنانٌ من الـمُحامين كانا بصحبتها الحديث إلى هذه الوُجوه بالذات: "خذي جمهور باريس على سبيل المثال يا داريا دميترييفنا. إنّه مَرِحٌ طيّب القلب يطفح حبوراً.. أما عندنا فكلّ واحدٍ يبدو جَهِمَ الأسارير. انظري إلى هذين العاملين السّائرين. لو شئت لذهبت إليهما، وقلت لهما نُكتة... إنّهما سيتكدّران ولا يفهمان... الشّعب الروسيّ أخرق ثقيل الطّبع..." والآن كان هؤلاء الذين لا يُحبّون النّكتة يقفون قلقين كئيبين مُصمّمين مشدودين. إنّها نفس تلك الوُجوه، ولكنّها قد عتمت من الجوع، نفس تلك العيون، ولكن نظرتها مُلتهبة نافدة الصّبر.

نسيت داشا ما جاءت من أجله. فإنّ انطباعات الحياة التي انقذفت إليها من النافذة الخالية في شارع كراسنيه زوري قد حملتها في أمواجها مثل طائرٍ عصفت به العاصفة. واستسلمت لهذه الانطباعات بكلّ

إخلاصها الكُلّيّ. لم تكن قطّ امرأةً حمقاء، ولكنّها مثل الكثيرات قد تركت نفسها لتجربتها الصّغيرة لا غير. وكان فيها الظّمأ إلى الحقيقة، الحقيقة الخاصّة، الحقيقة النّسائيّة، الحقيقة الإنسانيّة.

تكلَّمَ الخطيب عن الوضع في الجبهات. وكان في خطابه القليل ممّا يبعث على التّشجيع. إنّ حصار القمح قد اشتدّ: قطع التشيكوسلوفاكيّون قمح سيبيريا، والأتمان كارسنوف قمح الدّون. والألمان يفتكّون دون رحمةٍ بأنصار أوكرانيا. وكان أسطول الـمُتدخّلين يُهدّد كرونشتادت وأرخانغيلسك. "ولكن الثّورة يجب أن تنتصر!" وألقى الخطيب بالشّعارات، ودقّها بقبضته في الهواء، وأمسك المحفظة، ونَزَلَ عن المنصّة. وصفّقوا له، إلا أنّ التّصفيق كان مُتراخياً، فإنّ الأمور لم تكن تستحقّ التّصفيق. وأطرقت الرّؤوس، واختفت العُيون تحت الحواجب.

التقت عينا داشا بعيني الشاب الكبير الأسنان وابتسم لها ثانيةً بمرح:

– تلك هي الـمُصيبة، يا آنسة. يريدون أن يهلكونا جوعاً كالفئران... ماذا ستفعلين؟..

سألت داشا:

– وهل خِفت؟

– أنا؟ خفتُ خوفاً شديداً (أخذ النّاس يسكتونه بالهسيس: "اهدأ، يا شيطان!") وأنت ما اسمك؟

نظرت داشا إليه–الصّدر العضليّ والقميص الأسود المفتوح،

والعُنق الغليظ، والوجه المـرح، والابتسامة، والخصلات الجعداء الـمُبلّلة بالعرق، والعينين الـمُستديرتين الشّغوفتين بالنّساء وكلّه ملطّخٌ بالزّيت...

قالت داشا:

– يا لك! ما لك تُكشّر عن أسنانك؟

– ألقَتني أمّي من المصطبة وأنا طفل. حسناً، تعالي معنا إلى الجبهة بعد غد. ها؟ ستهلكين حتماً هُنا في موسكو...سنخرج ومعنا أكورديون، يا حلوة...

غطّت على كلماته ضجّة التّصفيق. كان على المنصّة خطيبٌ جديد، وهو رجلٌ رُبع القامة في سترةٍ رماديّة وصِدارٍ مجعّد بتجاعيد أفقيّة. أحنى جُمجمته الصّلعاء العُجراء وقَلَبَ أوراقه. وقال بصوتٍ ألثق قليلاً: «أيّها الرّفاق!» –ورأت داشا وجهه المهموم وعينيه الـمُتقلّصتين وكأنّهما من ضوء الشّمس. كانت يداه مُستقرّتين على الطّاولة، على الأوراق. وعندما قال أنّ موضوع اليوم سيكون الأزمة الشّديدة الـمُخيِّمة على أوروبا كلّها، وعلى روسيا بشكلٍ أصعب، سيكون الموضوع عن المجاعة حبس ثلاثة آلاف شخصٍ أنفاسهم تحت السّقف الـمُسخّم.

بدأ بآراءٍ عامّة، وتحدّث بصوتٍ مُتّسق ساعياً إلى إيجاد تجاوبٍ مع الـمُستمعين. وابتعد عن المنضدة غير مرّة وعاد إليها. وتحدّث عن الحرب العالميّة التي لا تستطيع ولا تُريد أن تُنهيها جماعتان من الوُحوش أطبقت إحداهما على عُنق الأُخرى، وتكلّم عن الـمُضاربة

الجُنونيّة على المجاعة، وعن أنّ الحرب لا يُمكن أن تُنهيها إلا الثّورة البروليتاريّة...

وعرّج على الكلام عن وجود طريقتين لمكافحة المجاعة: هُناك التّجارة الحُرّة التي تجلب الثَّراء الفاحش للـمُضاربين، وهناك احتكاريّة الدّولة. وتراجع جانباً ثلاث خطواتٍ عن المِنضدة، وانحنى نحو الـمُستمعين، ووضع إبهامي يديه وراء صداره من الجانبين، وأظهر يديه الكبيرتين ورأسه العريض الجبين إلى الأمام رأساً مُظهراً سُبّابةً مُلطّخةً بالحِبر:

— ...لقد وُفّقنا، وسنقف يداً بيد مع الطّبقة التي ناهضنا بها الحرب: مع التي أطحنا بها البرجوازيّة، مع التي نتحمّل كلّ ثقل الأزمة الرّاهنة. يجب أن نقف إلى جانب احتكار الحُبوب حتّى النّهاية...(عند هذه الكلمات صدرت من الشّاب ذي الأسنان الكبيرة نحنحة تأييد). أمامنا مُهمّة ضرورة الانتصار على المجاعة، أو على الأقلّ، تخفيف وطأتها حتّى المحصول الجديد، والدِّفاع عن احتكار الحُبوب، الدّفاع عن حقّ الدّولة السوفييتيّة، الدّفاع عن حقّ الدّولة البروليتاريّة. يجب أن نجمع كلّ فائض الحبوب ونعمل على أن تنقل كلّ الاحتياطات إلى المناطق التي تحتاجها، وتوزيعها بصورةٍ صحيحة. إنّ هذه المَهمّة الأساسيّة هي الحِفاظ على الـمُجتمع الإنسانيّ، والعمل الجسيم، في الوقت ذاته، وذلك لن يتمّ إلا بطريقٍ واحد هو النُّهوض بالعمل على نحوٍ مُشتركٍ مُشدّد...

صدرت من شخص آهةٌ مُفاجئةٌ صمّاء في السّكون الشامل، آهة إنسانٍ جوبهت بهذا الصُّعود الجليديّ الذي كان يقودهم إليه هذا

الرّجل ذو السُّترة الرّماديّة. كانت جبهته تطلّ على الـمُستمعين ومن تحت تقوّس الحاجبين تُحدّق عيناه النّافذتان بلا رحمة.

– ...لقد وقفنا وجهاً لوجه أمام تحقيق مُهمّة ثوريّة اشتراكيّة، وُجوهُنا بمصاعب خارقة. إنّها عهدٌ كامل من أقسى حربٍ أهليّة... ونحن لن ننتصر على المجاعة إلا بتحطيم الثّورة الـمُضادّة ومُواصلة السّير على السّياسة الاشتراكيّة في قضيّة المجاعة، في مُكافحة المجاعة...

وارتفعت يده من وراء الصّدار، وضربت الهواء وكأنّها تقضي على عدوٍّ غير مرئيّ، وتدلّت فوق القاعة:

– ...عندما يتحدّث العُمّال الذين بلبلتهُم شعارات الـمُضاربين عن بيع الحُبوب الحُرّ، وعن استيراد وسائل الشّحن نردّ عليهم قائلين: إنّ ذلك يعني السّير في رِكاب الكولاك...ولن نسير في هذا الدّرب... سنعتمد على الكادحين الذين انتصرنا بهم في أكتوبر، وسنسعى إلى تحقيق قرارنا بتطبيق الضّبط البروليتاري بالذات بين فئات الشّعب العامل. إنّ أمامنا مُهمةً تاريخيّة، وسنُحقّقها...والمراسيم الأخيرة عالجت قضيّة الحُبوب، أكثر قضايا الحياة جذريّة. وكُلّها تتضمّن ثلاث أفكارٍ توجيهيّة؛ الأولى: فكرة المركزيّة أو توحيد الجميع في عملٍ مُشتركٍ واحد تحت قيادة المركز...نعم إنّ هناك من يُبدي لنا أنّ احتكار الحُبوب يخرق في كلّ خطوة بواسطة الذين يشترون بالجُملة والـمُضاربين. وكثيراً ما نسمع من الـمُثقّفين: ولكنّ الـمُشترين بالجُملة يُقدّمون لهم العون، ويُطعمونهم جميعاً...نعم، ولكنّ الـمُشترين بالجُملة يُطعمون على طريقة الكولاك، وهم يتصرّفون تماماً بالطّريقة التي تُعزّز وتقيم وترسّخ إلى الأبد سُلطة الكولاك...

وبإشارةٍ من يده قطع ما لن يحدث بعد الآن.

– ...شعارنا الثاني توحيد العُمال. إنّهم هم الذين سيخرجون روسيا من الوضع اليائس والصّعب للغاية. يجب تنظيم فصائل العُمال، تنظيم الجياع من الأقضية الجائعة غير الزّراعيّة؛ إننا ندعوهم إلى مُساعدتنا وتتوجّه مفوّضيّتنا للتّموين إليهم. إنّنا نقول لهم: «إلى الزّحف الصّليبيّ في سبيل الحُبوب».

ارتفع التّصفيق بعُنفٍ شديد. ورأت داشا كيف تراجع الخطيب بعد أن حشر يديه في جيبه، ورفع كتفيه: وظهرت بُقعٌ مُلتهبةٌ على وجنتيه، وارتجف جفناه، وكان جبينه ندياً.

– ...إنّنا نُقيم دكتاتوريّة...إنّنا نستعمل العُنف إزاء الـمُستثمرين...

وغطّى التّصفيق على هذه الكلمات. لوَّح بيديه ليسكتهم...وفي الصّمت استمرّ:

– ...«يا مُمثّلي الفُقراء، اتّحدوا» –ذلك شعارنا الثّالث. إنّ أمامنا مهمّةٌ تاريخيّة: يجب أن نُزوّد بالوعي الطّبقيّ الطّبقة التّاريخيّة الجديدة...في جميع العالم تتّحد فصائل عُمّال الـمُدن وعُمال الصّناعة حتّى آخر رجل. ولكن لم تجرِ حتّى الآن تقريباً مُحاولات نظاميّة مُتفانية نزيهة لتوحيد الذين يعيشون في القُرى، في الإنتاج الزّراعيّ الصّغير، في الأنحاء النائية، في الجهالة وقد بلدتهم ظروف الحياة كلّها. هُنا تواجُدنا مُهمّة أن ندمج في هَدَفٍ واحد ليس فقط الكفاح ضدّ المجاعة، بل والكفاح في سبيل كليّة نظام الاشتراكيّة العميق والـمُهمّ. هُنا أمامنا معركةٌ تستحقّ أن نَهَبَها كلّ القوى وأن نبذل كلّ الجُهود، لأنّ هذه المعركة في سبيل الاشتراكيّة، لأنّ هذه المعركة في سبيل النّظام الأخير للشّغيلة والـمُستثمرين.

ومَسَحَ جبينه بكفّه سريعاً:

– ...على مسافة غير بعيدةٍ عن موسكو، وفي مُحافظاتٍ مُتلاصقة هي كورسك وأوريـل وتامبوفً ما يزال لدينا الآن، حسَب تقدير الأخصّائيين الحذرين، ما يصل إلى عشرة ملايين بود من الحُبوب الزّائدة. فدعونا، أيّها الرّفاق، أنْ نتضافر بالجُهود الـمُشتركة. فإنّ الجُهود الـمُشتركة وحدها، وتوحيد جميع الذين يُعانون أكثر من غيرهم في الـمُدن والأقضية الجائعة هُما الأمران اللذان يُساعداننا، وذلك هو الطّريق الذي تدعوكم إليه السُّلطة السّوفييتيّة: توحيد العُمال، توحيد الفُقراء وفصائلهم الـمُتقدّمة لبث الدّعوة في الأقاليم، من أجل الكفاح في سبيل الحُبوب وضدّ الكولاك...

وصار يمسح جبينه أكثر فأكثر، وزايل الرّنين صوته، فقد قال كلّ ما أراد أن يقوله. تناول ورقةً من المنضدة، ونَظَرَ فيها، وجَمَعَ بقيّة الأوراق:

– وهكذا، يا رفاق، فإنّنا إذا استوعبنا كلّ ذلك، وفعلنا كلّ ذلك فإنّ النّصر حليفنا بالتّأكيد.

وفجأةً أضاءت وجهه ابتسامةٌ صافيةٌ طيّبة. وفهم الجميع أنّه منهم، رَجُلُهُم! فهتفوا، وصفّقوا، وضربوا الأرض بأقدامهم. نزل من المنصّة راكضاً ضامّاً رأسه بين كتفيه. وهَتَفَ الشاب الكبير الأسنان بالقُرب من داشا بصوتٍ كخوار الثّور:

– عاش إيليتش!

كلّ ما كان في وِسع داشا أن تقوله هو أنّها رأت وسمعت «شيئاً آخر»... حين عادت من الاجتماع جلست على السّرير في حُجرتها،

ونظرت بعينين مُتّسعتين إلى زخرفة ورق الجُدران. وكانت على المخدّة مُذكّرٌ من جيروف: «مامونت ينتظرك في «متروبول» في السّاعة الحادية عشرة». وعلى الأرض عند الباب مُذَّرةٌ أخرى: احضري في الساعة السّادسة عند تمثال غوغل...»

أوّلاً إنّ هذا "الشّيء الآخر" كان خُلقياً بشكل صارم، يعني أنّه سام...تحدّث عن الحُبوب. من قبل كانت تعرف أنّ الخُبز يُمكن أن يشتري ويُبادل. وسعره معروف: البود الواحد من الطّحين بنطلون غير مُرقّع. ولكن تبيّن أنّ مثل هذا الخبز ترفضه الثّورة بحنق. فإنّه خبزٌ قذر. الموتُ أفضل من أكل هذا الخُبز. واليوم رَفَضَ ثلاثة آلاف جائع الخُبز القذر.

رفضوه باسم...(وهنا اختلط كلّ شيءٍ في رأس داشا البائس من جديد). باسم المُهانين والمُضطهدين...أو كيف قال؟ إنّ نهب كلّ القوى، أنّ نبذل كلّ الجُهود. أن نهب الحياة في سبيل الشّغيلة والمُستثمرين...وهذا هو السّبب في صرامتهم التّراجيديّة...

كان كوليتشيك قد قال لها: من جميع جهات العالم تتهيّأ الأيدي للامتداد بالمُساعدة، بالحُبوب...فقط على شرط أن يُقضى على النّظام السّوفييتيّ...اقضوا عليه وسيكون الخُبز...باسم أيّ شيء؟ باسم إنقاذ روسيا. ولكن مِمّن تُنقذ؟ تُنقذ من أنفسنا...ولكنّهم لا يُريدون أن تُنقذ "بهذا الشّكل". وقد رأت ذلك بنفسها...

أوه، يا لرأس داشا البائس! أنت دخلت إلى السّياسة في وقتٍ مُتأخّر، يا داشا. قالت لنفسها: "انتظري، انتظري". وضعت يديها وراء ظهرها، وسارت في الحُجرة ناظرةً إلى قدميها.

«أيُّ شيءٍ يُمكن أن يكون أسمى من أن يهب الإنسان حياته للـمُهانين والـمُضطهدين؟..بينما يقول كوليتشيك: إنّ البلاشفة يودّون بروسيا، والجميع يقولون ذلك...» وأغمضت داشا عينيها مُحاولةً أن تتصوّر روسيا التي يجب أن تُحبّه أكثر من نفسها. تذكّرت لوحة سيروف: حصانان على مُنحدر رابية، ووشاح سحابةٍ على الشّفق، وسفقٌ أشعث من القشّ...«لا، ذلك عند سيروف...» ولاح خلف جفنيها الـمُغمضين الفتى الـمُكشّر الكبير الأسنان مرحاً وموحشاً...مرّةً أخرى ذرعت داشا حُجرتها...«ما هي روسيا إذن؟ لماذا يجذبها النّاس إلى جهاتٍ شتّى؟ أنا حمقاء، لا أفهم شيئاً..آه، يا إلهي!» وأخذت داشا تنقر صدرها بأصابعها المضمومة، ولكنّ ذلك أيضاً لم يُسعفها...«هل أذهب إلى لينين لأسأله؟ أوه، يا للشّيطان، أنا من مُعسكرٍ آخر...».

وكلّ هذه التّناقضات الرّهيبة، وبلبلة النّفس جعلتها تضع قُبّعتها على عينيها في نحو السادسة، وتتّجه إلى تمثال غوغل. وما هي لحظةٌ حتى ابتعد الرّجل ذو الدّبوس عن شجرة:

– تأخّرت ثلاث دقائق...كيف؟ هل كنت هناك؟ استمعت إلى لينين؟ حدّثيني خُلاصة...كيف وصل، ومن كان بصحبته، وهل كانت المنصّة محروسة؟

صمتت داشا قليلاً لتستجمع أفكارها:

– قُل لي: باسم أيّ شيءٍ يريدون قتله؟

– هكذا؟! من أين أخذت هذا؟ لا أحد ينوي ذلك...إذن، إذن... يعني أنّه أثّر فيك؟ بالطّبع...لهذا السّبب هو خطير.

– ولكنّه قال أشياء عادلة.

مدّ رقبته، وابتسم ابتسامةً خبيثةً نديّة في عيني داشا، وسأل بتملّق:

– رُبّما من الأفضل أن تتركي ذاك؟

تنحّت داشا. ولكنّ رقبته تمطّت وكأنّها من مطّاط، وتراقص اللّمعان على نظّارته الأنفيّة نافذاً إلى حدقتي داشا. فهمست.

– أنا لا أعرف شيئاً... لم أعد أفهم شيئاً...يجب أن أكون مُقتنعة، يجب أن أقتنع.

هَمَسَ الرّجل ذو الدّبوس صافراً بصوته قائلاً:

– لينين عميل القيادة الألمانيّة.

ثمّ قضى زُهاءُ نصف ساعةٍ ليشرح خُطّة الألمان الجهنّميّة: إنّهم يُرسلون البلاشفة مُقابل مَبالغ طائلة في عرباتٍ مختومة، والبلاشفة يقوّضون الجيش، ويُغرّرون بالعُمال، ويقضون على الصّناعة الوطنيّة والزّراعة...وبعد شهرٍ أو آخر سيحتلّ الألمان روسيا دون قتال.

– إنّ البلاشفة الآن يُؤجّجون الحرب الأهليّة، ويصرخون مُعلنين أنّ هناك حصاراً على الحُبوب، وفي الوقت ذلك يُقتلون رمياً بالرّصاص المُشترين بالجُملة–مُنقذينا...إنّهم يُخطّطون المجاعة عن وعي...لقد رأيتِ اليوم كيف راح عدّة آلاف أحمقٍ يُثبّتون عيونهم على فم لينين وهو يتكلّم...ذلك شيءٌ يُمزّق النّفس...إنّه يخدع الجماهير، الملايين، الشّعب كلّه...إنّه في المفهوم الماديّ «محرّضٌ كبير»...ومن الناحية الأخرى...(ومال إلى أُذُن داشا، وهَمَسَ بنفثة واحدة) الدّجال! هل تتذكّرين التّنبّؤات؟ التّواريخ تتطابق. الشّمالُ يشنّ الحرب على

الجنوب. وتظهر فرسان الموت من الحديد، وهي الدّبابات...وتسقط في ينابيع المياه نجمة الشّرّ. إنّها نجمة البلاشفة الخُماسيّة الأطراف... وهو يتكلّم للناس كما يتكلّم المسيح، ولكن كلّ شيءٍ على الضّدّ... واليوم حاول أن يغويك، ولكننا لن نتخلّى عنك...سأنقلك إلى عملٍ آخر. وبقي السّؤال الثالث غير مُجاب. (عادت داشا إلى حُجرتها، واستلقت على الفراش، وغطّت عينيها بمرفقها). وفجأةً قرفت من التّفكير...«هل أنا شخت، وبلغت المائة عام؟ وهل أنا قبيحة الوجه؟ سأطلق لحريّتي العنان...لأذهب إلى «متروبول» إذا أردت...ولمن أخفي كلّ ما لا يُريد أن يُخفى وأخنق في صدر صياح السّعادة؟ ولمن أصكّ ركبتي إلى حدّ العذاب؟ وأيّة مُداعباتٍ أتوقّع؟ حمقاء، جبانة...افتحي نفسك، اندفعي...لا شيءَ يُهمّ، فليذهب الحُبّ إلى الشّيطان، وأنت إلى الجحيم..» لقد كانت تعرف أنّها ذاهبةٌ إلى «متروبول». وإذا كانت مُتردّدة، فلأنّ وقت ذهابها لم يحن بعد–كان الظّلام قد بدأ يُخيّم–وتلك السّاعة السّامّة لتدفّق الأفكار. في البيت دقّت الساعة التاسعة ببطء مثل ساعة بُرج. ووثبت داشا من السّرير بسُرعة...«لا أريد أن أقلق هذا القلق الـمُهين!..»

خلعت ملابسها على عجل، وركضت بقميصها الدّاخليّ إلى الحمّام، حيث تراكم حطبٌ وصناديق وأشياءٌ أخرى. ووقفت تحت الدّش. وسقط الرّشاش البارد على ظهرها. وشهقت أنفاسها من البرد. وعادت إلى حُجرتها مُبلّلة وأخذت المفرش من السّرير، ونشّفت نفسها وأسنانها تصطكّ.

حتّى في تلك اللحظة لم تستقرّ على قرار: كانت تنظر تارةً إلى الثّوب القديم المرميّ على أرض الحُجرة مُباشرة، وتارةً إلى الفستان

الـمُلقى على ظهر الكرسيّ. وأدركت مرّةً أخرى أنّ ذلك جُبن، مجرّد تأجيل. وعندئذ أخذت ترتدي ملابسها. و لم تكن في الحجرة مرآة، والحمد لله! ألقت اللفاح الفرائيّ على كتفيها، وخرجت إلى الشارع كاللصّة. كان الظّلام قد اشتدّ. سارت خلال البولفارات. كان الرّجال يُلاحقونها بعيونهم مُندهشين، ومعها مُلاحظاته غير الـمُشجّعة البتّة. ومن وراء شجرةٍ تقدّم اثنان في معطفين من معاطف الجنود وهما يترنّحان، وهتفا: "طفيليّة، انتظري، إلى أين ذاهبة؟"

توقّفت داشا عند ساحة نيكيتسكايا وأنفاسها متقطّعة وقلبها يوخزها. مرّت عربة ترام مُضاءة تجرّ أخرى وراءها وهي تقرع جرسها بحدّة. وكان الناس يتعلّقون على الدّرجات. كان أحد الرُّكاب يُمسك الدّرابزين النّحاسيّة باليد اليُمنى، وحقيبةً مسطّحة من جلد التّمساح باليد اليُسرى، وحين مرّ بها أدار وجهه الحليق القويّ نحوها. لقد كان ذلك مامونت. أهّت داشا، وركضت للحاق بالترام. ورآها، ارتفعت الحقيبة في يده ارتفاعاً راعصاً. فكّ يده الأخرى من الدّرابزين وقفز والترام سائراً في أقصى سُرعته، فإذا به يترنّح ويسقط على ظهره مُحاولاً أن يتشبّث بالهواء وارتفع نعلُ حذائه الضّخم لحظة، ثمّ اختفى جذعه تحت العربة الثّانية، وسقطت الحقيبة عند قدمي داشا. ورأت داشا ركبتيه ترتفعان مُرتعصتين، وسمعت صوت عظام تتهشّم، وارتطام حذاء على البلاط. صرّت فرامل الترام، وتناثر النّاسُ من العربة. غطّى على عينيها غشاءٌ أسود، وبدا الطّريق ناعماً كالكفن، وسقطت داشا على الأرض وذراعاها وخدّها على الحقيبة، وفقدت الوعي.

- ٩ -

بدأ تحوّل جيش المتطوّعين إلى الهُجوم، وهو ما سُمّي بـ"حملة كوبان الثانية" بعمليّة ضدّ محطّة تورغوفايا. كان الاستيلاء على هذا الـمُلتقى للخطوط الحَديديّة مُهماً للغاية، لأنّه يقطع شمال القفقاس كلّه عن روسيا. في العاشر من حزيران زَحَفَ هذا الجيش المؤلّف من تسعة آلاف رجل من الـمُشاة والخيالة بقيادة دنيكين العامّة لتطويق محطّة تورغوفايا بأربعة طوابير.

كان دنيكين في طابور دروزدوفسكي. وكان التّوتّر في غاية الشّدّة. فقد كان الجميع يُدركون أنّ نتيجة المعركة الأولى تُقرّر مصير الجيش. انطلق طابور دروزدوفسكي الـمُحتمي بنيران مدفعه الوحيد المشحون بقذائف شظايا يُحاول عُبور نهر يغورليك سباحةً تحت قصف مدفعيّة الطّرف الآخر. كان النّقيب توركول آمر الفوجِ في الصّفّ الأوّل يتخبّط في الماء كالكرة شارقاً بالماء ولاعناً. دافع الحُمر باستماتة، ولكنّهم لقلّة مهارتهم جعلوا العدوّ الـمُجرّب يطوّقهم. اكتسحت المواقع الأماميّة من قبل طابورِ بوروفسكي جنوباً، ومن قِبل خيّالة أرديلي شرقاً. تركت وحدات الحُمر التي اختلط بعضها ببعض وطوابير العربات الضّخمة محطّة تورغوفايا، وأخذت تنسحب شمالاً. ولكن هنا أيضاً سَدّ طريقهم طابور ماركوف من ناحية شابلييفكا. وصار انتصار الـمُتطوّعين كاملاً. وطوّف قوزاق أرديلي بالسّرايا في أرجاء السّهب يطعنون الهاربين، آخذين الأسرى وعربات المَتاع.

وهَبَطَ الظّلام. وهدأت المعركة. وضع دنيكين يديه السّميكتين وراء ظهره، وراح يذرع رصيف المحطّة أحمر جَهِماً. وكان طُلاب المدارس العسكريّة في ضحكٍ ومُزاح–شأن الذين خرجوا سالمين من خطرٍ مُميت–يحملون أكياس الرّمل ويضعونها على العربات المكشوفة، وينصبون الرّشاشات على قطارٍ مُصفّح تصفيحاً ارتجالياً. ومن حينٍ لآخر كانت قذيفة مدفع تهزّ الهواء مُنطلّقةً من قطارٍ مصفّح للحُمر يقع شمالاً وراء شابلييفكا. وكانت آخر قذيفةٍ منطلقة من هناك قد سقطت بالقرب من جسرٍ على نهر مانيش، حيث كان الجنرال ماركوف يمتطي حصاناً رمادياً. إنّه لم ينم و لم يذق الطّعام و لم يُدخّن منذ يومين، وكان مُنزعجاً من أنّ احتلال شابلييفكا لم يجرِ كما كان يُريد. وظهر أنّ المحطّة كانت تحتلّها فصيلة قويّة للحُمر مع مدفعيّة وقطاراتٍ مصفّحة. وقد حارب طابور الجنرال الذي التفّ حول المحطّة يوم أمس، الحادي عشر من الشّهر، واليوم كلّه بعناد ودون أن يُحقّق نجاحاً. فإنّ التّوفيق السّريع قد خانه في هذه المرّة. وكانت الخسائر فادحة. و لم يتراجع البلاشفة الذين كانوا يحتلون شابلييفكا إلاّ في المساء، وبسبب الوضع العامّ على ما يبدو.

انحنى قليلاً على سرجه، وراح يتمعّن في المعالم المُبهمة لبعض الجُثث المُتجمّدة في الأوضاع التي لحقهم الموت فيها. كانت تلك جُثث ضبّاطه، وكلّ واحد منهم كان يُعادل في المعركة فصيلةً كاملة. إنّ ذلك لمُنتهى الحماقة، أن يُقتل ويُجرح مئاتٌ من أحسن مُقاتليه بسبب من تراخي فكره.

سمعَ أنيناً وزفرات مخرخشة كأنّها تصدر من إنسان يستيقظ من كابوس، نوعٌ من الفحيح. ونهض ضابطٌ من الخندق قُرب الجسر،

ثمّ وقع على بطنه على المتراس. توجّع وتثبّت في الأرض ورفع رجله بصعوبة، وخرج، وتفرّس في نجمة كبيرة صافية، في الشّفق الـمُنطفئ. أدار رأسه الحليق، وأنّ ، وسار مُتعثّراً، فوقع بصرهٌ على الجنرال ماركوف. رفع يده بالتّحيّة ثمّ انتزعها:

– يا صاحب السّيادة، أصابتني صدمة.

– أرى ذلك.

– أُصبتُ برصاصةٍ في ظهري.

– عبثاً...

– أنا مصدومٌ من الظّهر في الرّأس من مسدّسٍ مُصوّبٍ نحوي من مسافةٍ قريبة... حاول قتلي الـمُتطوّع فالريان أونولي...

سأل ماركوف بحدّة: ما اسمك؟

– المقدّم روتشين...

وفي تلك اللحظة، وللمرّة الأخيرة انطلق المدفع ذو البوصات السّتّ من القطار مُصفّح للحُمر الـمُتراجع إلى الشّمال. واندفعت القذيفة بزئير فوق السّهب الداكن. وتَرّ حصان الجنرال الرّماديّ أذنيه مُستثاراً، وبدأ يقعو على وركه. هوت القذيفة من السّماء، وانفجرت على بُعد خمس خطواتٍ من ماركوف.

وحين انقشع الغُبار والدُّخان، رأى فاديم بتروفيتش روتشين الذي قذفه الانفجار الحصان الرّماديّ مُنطرحاً على الأرض وقوائمه تضرب الهواء، وإلى جانبه انطرح جسدٌ صغيرٌ هامد. رفع روتشين جسمه قليلاً وصرخ:

- يا إسعاف! قُتل الجنرال ماركوف!

بعد أن احتلّ جيش المتطوّعين محطّة تورغوفايا تحوّل شمالاً إلى محطّة فيليكوكنياجيسكايا بهدف مُزدوج: مُساعدة الأتمان كراسنوف في تطهير دائرة سالسك من البلاشفة، وتأمين مؤخّرته من جانب تسارتسين بشكلٍ أضمن. احتلّ جيش المتطوّعين محطّة فيليكوكنياجيسكايا دون خسائر كبيرة، إلا أنّه لم يستطع توسيع هذا النّجاح، لأنّ فصيلةً من خيّالة الحُمر تحت قيادة بوديوني اجتاحت في معركةٍ ليليّة وحدات أرديلي القوزاقيّة وأصابتها بضربةٍ قويّة، ولم تُمكّنها من عُبور نهر مانيتش.

وكاد قطار المُتطوّعين المصفّح الأوّل أن يُسحق بالقرب من المحطّة. فقد لاحظ الراكبون فيه قاطرةً تسير رافعةً علماً أبيض فظنّوا أنها تستسلم، فكفّوا عن إطلاق النّار. إلا أنّ القاطرة، اندفعت دون أن تُخفض سُرعتها مُطلقةً صفيرها بلا انقطاع. وفي اللحظة الأخيرة فقط قرّر مَنْ في القطار المُصفّح أن يُطلقوا عليها بعض الطّلقات النّاريّة من مسافةٍ قريبة. ولكنّ الاصطدام قد وقع، وتحطّمت عربةٌ مسطّحة، وانقلبت القاطرة. وكان النّفط قد سُكبَ عليها وعُلقت عليها القنابل. ولبضع دقائق توجّهت كلّ أنظار المُقاتلين إلى هذه اللّقطة من فيلمٍ أمريكيّ.

سلّم دنيكين المنطقة إلى قيادة الدّون، وأوكل أمر القضاء على البلاشفة المحليّين إلى فصائل قوزاق القُرى، واستدار ثانيةً جنوباً للاستيلاء على محطّة مُهمّة هي تيخوريتسكايا التي تربط الدّون بكوبان، والبحر الأسود بقزوين. سار للقاء أخطارٍ جسيمة وكانت في طريقه قريتان كبيرتان من قُرى الأغراب هُما بيستشانوكوبسكويه

وبيلايا غلينا، وكلتاهما كانت بؤراً للبلاشفة. وقد عزّزتا بشكلٍ سريع. وكان جيش سوروكين يفيق في ذلك الوقت، من حالة الذّعر ويبدأ بالضّغط من الغرب. بينما أعادت وحدات الحُمر التي تحطّمت عند مانيتش تشكيلاتها، وتحوّلت من المُؤخّرة إلى الهُجوم. وتدفّقت مفارز المتطوّعين من قرىً كثيرة.

وكان في وسع دنيكين أنْ يعتمد على شيء واحد: انعدام التّنسيق في عمليّات الطّرف الآخر. ولكنّ ذلك أيضاً يُمكن أن يتغيّر في كلّ لحظة. ولهذا عَمَدَ إلى العجلة. وكان في بعض الأماكن يقوم هو نفسه بإنهاض القُوات التي كانت مُسترخية في إعياء تام. كان المُشاة يُنقَلون في عربات. وكان القطار المُصفّح المُرتَجَل نفسه يسير في مقدّمة الجيش.

وبالقُرب من قرية بيستشانوكوبسكويه حارب الأهالي كلّهم إلى جانب الجيش الأحمر. ولم يكن جيش المتطوّعين قد رأى مثيلاً لتلك الضّراوة من قبل. وكان السّهب يهتزّ من القصف من الصّباح حتّى الليل. وأخرج فوجا بوروفسكي ودروزدوفسكي مرّتين من القرية. ولم يهجر الحُمر القرية حتّى آخر إنسان غلا بعد أن رأوا أنفسهم مُحاصرين من جميع الجهات غير عارفين بقوى العدوّ ومعدّاته. والآن تحوّلت جميع الوحدات وجميع الفصائل وحُشود اللاجئين إلى بيلايا غلينا.

وكان في وسط هذه القرية عشرة آلاف متطوّع شعبيّ فرقة دميتري شيليست الحديديّة. ودعا جميع الراشدين إلى حَمل السّلاح. وعزّزت المشارف، وظهر التّنظيم والفهم التّكتيكيّ لأوّل مرّة. وفي الاجتماعات العامّة نودي بالنّصر أو الموت.

ولم ينفع ذلك، فقد كان العدوّ عليماً جابه الشّجاعة والاستماتة بالعلم، وحسب الحساب لكلّ صغيرة، وسار وكأنّه على رُقعة شطرنج، مُباغتاً المؤخّرة دائماً. حقاً إنّ بداية هجوم البيض لم تكن موفّقة. فإنّ العقيد جبراك الذي كان يقود فوج دروزدوفسكي قاد رجاله في الظّلام إلى الضّيعة التي تقف عندها صُفوف الحُمر الأماميّة، فجوبه بنيرانٍ مُباشرة ولكنّه هجم ووقع صريعاً. وتراجع رجال دروزدوفسكي وانطرحوا على الأرض. ولكن في نحو الساعة التاسعة صباحاً شقّ كوتيبوف طريقه إلى بيلايا غلينا من الجنوب ومعه رجال كورنيلوف وفوج دروزدوفسكي للخيالة وسيارة مصفّحة. وتقدّم بوروفسكي من ناحية المحطّة المُستولى عليها. وبدأت معركةٌ في الشّوارع. وأحسّ الحُمر أنّهم مُحاصرون فاضطربت صفوفهم. واخترقت المُصفّحة حشودهم. واشتعلت النار في سُقوف القشّ. وانطلقت الأبقار والخُيول وسط النّار والطّلقات والصّياح.

وتراجعت فرقة شيليست الحديديّة عبر الطّريق الوحيد الذي بقي مفتوحاً. كان دنيكين واقفاً على فرسه عند كشك السّكة الحديديّة. كان يصرخ غاضباً واضعاً كفّيه حول فمه ليقطعوا الطّريق على المُتقهقرين. ووراء فُلول الفرقة الحديديّة خرج الأنصار والأهالي جميعاً. وانطلقت خيّالة أرديلي للحاق بالهاربين. كما أنّ حُراس القائد العام لم يكبحوا جماحهم فسلّوا سيوفهم وعدّوا لطعانهم. وتقلّب ضُبّاط الأركان على سروجهم، وجرّوا على خيولهم وكأنّهم في طراد الوحوش قاطعين الرّؤوس والظّهور. وبقي دنيكين وحده. خلع قُبّعته وراح يهوى بها وجهه المُنفعل. إنّ هذا النّصر كشّف الطّريق أمامه إلى تيخوريتسكايا ويكاترينودار.

في الغسق سمعت طلقاتٌ قصيرةٌ في القرية، في أفنية البُيوت. إنّهم رجال دروزدوفسكي ينتقمون لمقتل جبراك بإعدام أسرى الجيش الأحمر رمياً بالرّصاص. كان دنيكين يحتسي الشّاي في كوخ مملوء بالذّباب. وكان رُغم احتباس الهواء في الليل يرتدي سُترته السَّميكة ذات الكتافيّتين العريضتين، الـمُزرّرة حتى الرّقبة. وكان عند كلّ طلقة يلتفت نحو النّافذة الـمُحطّمة، ويُمرّر منديله المدعوك على جبينه وعلى جانبيّ أنفه.

قال لمرافقه:

– فاسيلي فاسيليفيتش، يا عزيزي، اطلب إلى دروزدوفسكي أنْ يأتي إليّ. لا يجوز ذلك، على أيّة حال.

صفق الـمُرافق بمهمازيه ورفع يده بالتّحيّة وخفضها واستدار وخرج. أخذ دنيكين يصبّ الماء من السّماور إلى إبريق الشّاي. صدرت الطّلقة الجديدة على مقربة شديدة حتى أنّ الزُّجاج اهتزّ. ثمّ رنّ صوتٌ في الظّلام. فاض الماء المغلي عبر الحافّة مع قطعٍ من الشاي. غطّى أنتون إيفانوفيتش الإبريق، وهمس:

«أي، أي، أي!» فتح الباب بحدّة، ودخل رجلٌ في الثلاثين من العُمر شديد الشّحوب عليه سُترةٌ مدعوكة ذات كتافيّتين ناعمتين مدعوكتين أيضاً من كتافيات الجنرالات. انعكس ضوء مصباح الكيروسين على عدستيّ نظارته الأنفيّة انعكاساً باهتاً. كان ذقنه الـمُربّع غير الحليق ناتئ الشّعر، ووجنتاه الغائرتان ترتجفان. توقّف الرّجل عند الباب. نهض دنيكين عن المصطبة ثقيلاً، ومدّ له يده.

– تفضّل اجلس، يا ميخائيل غريغوريفيتش. لعلّك تريد شاياً؟

– شكراً جزيلاً، ليس لديّ وقت.

كان ذلك دروزدوفسكي الذي رقي إلى جنرالٍ قبل فترةٍ قصيرة. كان يعرف لماذا استدعاه القائد العام فكان، على عادته حين يتوقّع التّأنيب، يكبح غيظه بصعوبة. أحنى رأسه، ونظر إلى جانب.

– ميخائيل غريغوريفيتش، أريد أن أتحدّث إليك بشأن هذه الإعدامات، يا عزيزي...

– ليست لديّ قُدرةٌ على إمساك ضُبّاطي–قال ذلك بصوتٍ عالٍ بدرجة مُزعجة تقرب من نوبة الهستيريا، وقد ازداد شُحوبُ وجهه. –إنَّ فخامتكم يعرف أنّ البلاشفة عذّبوا العقيد جبراك تعذيباً وحشياً... الضّباط الخمسة والثلاثون... الذين جلبتهم من رومانيا... عذّبوا وشوّهوا... البلاشفة يقتلون ويُعذّبون الجميع... نعم، الجميع... (تقطّع صوته ولهثت أنفاسه). لا أستطيع أن أُمسكهم... أنا أرفض... إذا كنت تعتبرني غير صالحٍ فيمكنكَ أن تتسلّم استقالتي، بحقّ الرّبّ. سأتشرّف بأن أكون جندياً.

قال دنيكين:

– أي، أي، أي، ميخائيل غريغوريفيتش، لا يصحّ أن تضطرب على هذا النّحو... لا علاقة هنا باستقالتك... افهمني، يا ميخائيل غريغوريفيتش: إننا برمي الأسرى نزيد بأنفسنا مقاومة العدوّ... وستنتشر الإشاعة عن هذا الرّمي في كلّ مكان. فلماذا نُلحق الأذى بجيشنا بأيدينا؟ هل أنت موافقٌ معي؟ أليس هذا حقاً؟ (لزِمَ دروزدوفسكي الصّمت). انقل ذلك لضبّاطك لكيلا تتكرّر مثل هذه الوقائع.

- سمعاً!

واستدار دروزدوفسكي، وصفق الباب وراءه. ظلّ دنيكين يهزّ رأسه طويلاً مُفكّراً على قدحٍ من الشاي. وصدرت الطّلقة الأخيرة من بعيد، وهدأ الليل.

كانت العمليّة ضدّ تيخوريتسكايا ضمن خُطّة اتّخاذ الجيش مواقعه على جبهةٍ طولها ستّون فرسخاً. وكان من الضّروريّ مقدّماً تنظيف رقعةٍ من الفصائل المتفرّقة والأنصار. وقد عهد ذلك إلى الجنرال الشاب بوروفسكي. فاستطاع في يومين من المعارك أنّ الحرب الأهليّة أوّل ما سُمّي بـ"الغارة" على مؤخّرات العدوّ. وانتشر جيش المتطوّعين على الرّقعة الـمُطهّرة من الحُمر. وفي الثلاثين من حزيران أصدر دنيكين أمراً قصيراً: "أنْ تُحتلّ محطّة تيخوريتسكايا غداً في الأوّل من تموز، بعد تحطيم العدوّ الـمُتمركز في منطقة تيرنوفسكايا-تيخوريتسكايا.." وفي الليل تحرّكت الطّوابير ضامّةً تيخوريتسكايا في كماّشةٍ عريضة. وأخذ البلاشفة بعد مناوشاتٍ قصيرة يتراجعون إلى مواقع مُعزّزة.

في هذه المرّة لم تكن تلك المقاومة الـمُستميتة التي أبديت قبل أسبوعٍ من الزّمن. فإنّ سقوط بيلايا غلينا أثارت اضطراباً. أوقف هجومَ سوروكين. والآلاف من الضّحايا الذين صُرعوا في المعركة الدّامية لم يأتوا بجدوى. وتقدّم العدوّ بدقّة الآلة. وضخّمت المخيّلة قوى جيش المتطوّعين أضعافاً مُضاعفة. وقيل إنّ الضُّباط يفدون إلى دنيكين من كلّ أنحاء روسيا كالسّحب، وإنّهم لا يرحمون بأحد، وإنّهم ما إن يُطهّروا منطقةً حتّى يأتي إليها الألمان. وكان كالنين الذي يقود تشكيلة تيخوريتسكايا قابعاً في قطاره في محطّة تيخوريتسكايا

كالمشلول. وعندما رأى جحافل الدنيكيين يزحفون من الجهات الأربع تثبّط عزمه، وأمر بالتّراجع.

هدأت المعركة في نحو الساعة التاسعة صباحاً. وتراجع الحُمر إلى نصف دائرة مُعزّز. أوصد كالنين باب مقصورته، واستلقى وغفا مُعتقداً أن معركةً أخرى لن تحدث اليوم، بينما استمر جيش المتطوّعين في تعميق تطويقهم للعدوّ مُتقدّمين في حُقول القمح النامي الكثيف. وفي مُنتصف النّهار اتّصل جناحاهم بالأطراف، وخرجوا إلى المؤخّرة من الجنوب. هجم فوج كورنيلوف على المحطّة، واستولى عليها دون خسائر. واختفى عُمال السّكة الحديديّة. واختفى كالنين، وبقيت قُبّعته وحذاؤه في المقصورة. وفي مقصورةٍ مُجاورة عُثر على رئيس هيئة أركانه، رئيس هيئة الأركان العامّة، الـمُقدَّم زفيريف المصدوع الجُمجمة. كما وُجدت زوجته مطروحةً على الفِراش ورأسها مُغطىً في شالها، وصدرها مُصابٌ بطلقة، ولكنّها ما تزال تتنفّس.

وبعد ذلك لم يبق لطوابير المتطوّعين غير الإطباق على الجيش الأحمر الذي فقد قيادته، وقُطع عن القاعدة والطُّرق. وحتّى المساء ظلّوا يضربونه بالمدافع والرّشاشات. وماج النّاس واضطربوا، والزّوبعة الرّصاصيّة تلذع وجوههم وظُهورهم. ونهض الرّجال الذين فقدوا صوابهم من الخنادق، وهجموا بالحراب، والموت يترصّدهم في كلّ مكان. وعند المساء سدّ كوتيبوف الطّريق الوحيد الذي بقي مفتوحاً باتّجاه الشّمال، وفتكوا بالنار والسّلاح الأبيض بجماعات الحُمر الـمُتّجهة إلى سُدّة الخطّ الحديديّ. وعند هُبوط الظّلام اختلط كُلّ شيء في حقل القمح الكثيف—البيض والحُمر. كان الأُمراء يتراكضون بين سنابل القمح كطيور السّلوى، ويجمعون الضُّباط، ويشتبكون في

معركةً بعد أخرى. في أحد الأماكن رفعوا المناديل على الحِراب من الخنادق. وهرع كوتيبوف وضُباطٌ فقوبلوا بالرّصاص وبعاصفةٍ من الشّتائم البذيئة في مُنتهى الضّراوة. انطلق مُنحنياً على رقبة حصانه. وكان أمرُ قائد الجيش العامّ يقضي بعدم رمي الأسرى، ولكنّ أحداً لم يأمر بأخذهم أسرى.

في الصّباح طاف دنيكين في ساحة المعركة ببطء. كان القمح، على امتداد البصر، مسحوقاً ومائلاً بسنابله أرضاً ومُتناثراً. وكانت بواشق الجِيَف تطوف في السّماء اللازورديّة. نَظَرَ دنيكين إلى خُطوط الخنادق الـمُتلوّية عبر الحُقول–خلال الرّوابي القديمة والـمُنخفضات–تبرز منها الأذرع والأرجل والرّؤوس الميتة، والجُثث مرميّةٌ كالزّكائب. وكان في مزاجٍ شاعريٍّ رائق، التفت نصف التفاتة ليقترب الـمُرافق منه، وقال مُفكِّراً:

– ولكن هؤلاء جميعاً روس. فظيع، لا أشعر بتمام الفرح بانتصارنا يا فاسيلي فاسيليفيتش...

كان النّصر تاماً. دحر جيش كالنين المؤلّف من ثلاثين ألف رجل وهلك وشُتّت. ولم يستطع الخُروج إلى يكاترينودار غير سبعةٍ من القطارات العسكريّة للحُمر. وقطعُ جيش سوروكين. وفُصلت تشكيلتان مُنفردتان لقوات الحُمر كُلياً: التّشكيلة الشّرقيّة في منطقة أرمافير وجيش تامان على ساحل البحر الأسود. وحَصَلَ جيش دنيكين على غنائم هائلة: ثلاثة قطاراتٍ مُصفّحة، ومدرّعات، وخمسين مدفعاً، وطائرة وعرباتٌ من البنادق والرّشاشات والقذائف، ومجموعةٌ كبيرة من مختلف الأشياء

وكان أثر النّصر مُذهلاً. أمر الأتمان كراسنوف بإقامة صلاة الشُّكر في كاتدرائيّة نوفوتشيركاسك، وألقى خطبه أمام القُوات ليس بأسوأ من صديقه الامبراطور غليوم. فقد دنيكين رُبع جيشه خلال ثلاثة أسابيع، ومع ذلك ففي الأيام الأولى من شهر تمّوز تضاعف جيشه: فقد جاء إليه سيلٌ موصول من المتطوّعين من أوكرانيا ونوفوروسيا وروسيا الوُسطى، ولأوّل مرّةٍ بدأت تتشكّل وحداتٌ من أسرى الجيش الأحمر.

بعد استراحة يومين قَسّمَ دنيكين جيشه إلى ثلاثة طوابير وقام بهجوم واسع على ثلاث جبهات: إلى الغرب ضدّ سوروكين، وإلى الشّرق ضدّ تشكيلة أرمافير، وإلى الجنوب ضدّ بقايا جيش كالنين التي تُدافع عن مشارف يكاترينودار. وكان المهمّة تطهير كلّ المؤخّرة قبل الهُجوم على يكاترينودار. ودُرس كلّ شيء وخُطّط وفق قوانين أعلى فنٍّ عسكريّ. إلّا أنّ دنيكين لم يحسب حساباً لظرفٍ واحدٍ هام: إنّه لم يكن يتصدّى لجيش مُعاد في وسعه أن يُقيم ويزن قواه ووسائله، بل لشعبٍ مسلّح، لقوىً غير مفهومةٍ لديه. ولم يقدّر أنّ في هذا الجيش الشّعبيّ تنمو، مع انتصارات جيش المتطوّعين، الكراهية وروح الإجماع، وأنّ زمن الاجتماعات العاصفة الذي كان يُطرد فيه أمراء الوحدات غير المرغوب فيهم، ويتقرّر الهُجوم بأغلبيّة الأصوات قد ولّى، وحلّ محلّه ضبطٌ جديد للحرب الأهليّة ما يزال فجاً، ولكنّه يتعزّز مع كلّ يوم.

كان كلّ شيءٍ يُنبئ بنصرٍ عاجلٍ سهل. أبلغ رجال الاستطلاع عن حركة قوّات سوروكين المذعورة باتّجاه يكاترينودار وراء كوبان. إلا أنّ ذلك لم يكن صحيحاً تماماً. كان رجال الاستطلاع على خطأ.

فقد فرّ وراء كوبان الهاربون من الجيش وفصائل صغيرة، وسارت قوافل اللاجئين. أمّا تشكيلة سوروكين المؤلّفة من ثلاثين ألف رجل فقد تنظّفت من غير القادرين على القتال، ورصّت صفوفها وازدادت ضراوة. وتركت جبهة باتيسك ضدّ الألمان. وانتظر الحُمر لقاء جيش دنيكين وجهاً لوجه في أرضٍ مكشوفة. فإذا بجيش المتطوّعين الذي أسكرته الانتصارات وقُرْبَ من الهدف كان يهلك عن بكرة أبيه في معركةٍ دامية مع قوّات سوروكين دوهم بها سريعاً واستمرّت عشرة أيام.

أجاب سوروكين عن سؤال اللجنة التّنفيذيّة المركزيّة لمنطقة كوبان–البحر الأسود بعجرفة نابليونيّة: "لا حاجة بي إلى مُحرّضين. أعمال قُطّاع الطُّرق الدنيكينيين تنطق لصالحي. وشجاعة قوّاتي التّاريخيّة تُحطّم كلّ حواجز الثّورة الـمُضادّة". أوقف سوروكين الذُّعر في قوّاته في الأيام الأولى من هجوم دنيكين، وبدا وكأنّه أفاق من سُبات السُّكر. وانطلق ليل نهار في طوال الجبهة، في قطار، في عربة ترولّلي، على فرس. واستعرض القُوات، ورمى بالرّصاص، بيده، اثنين من أمراء الوحدات على الملأ بسبب موقفهما الـمُتهاون من اللحظة الراهنة، ووقف على ركابيه، وتحدّث بكلمات بذيئة عن أعداء الشّعب، طفحت مع الزّبد من شفتيه المعوجّتين حتّى أنّ رجال الجيش الأحمر قاطعوه بخوارٍ كخوار جواميس أثارتها سحابةٌ من ذباب الماشية. ونشط عمل المحاكم العسكريّة والشُّعب الخاصّة، وأدخل عقوبة الموت على إهمال البندقيّة، وأصدر أوامر للجيش تقول: "أيها الـمُقاتلون! إنّ شغيّلة العالم كلّه ينظرون إليكم بأمل، وهم يقدّمون لكم شكرهم العظيم. فأنتم تذهبون للُقيا فجر التّاريخ الدّامي بعيونٍ

مفتوحة وصدور قويّة. إنّ الطّفيليين، والحشرات الزّاحفة، لصوص دنيكين، وكلّ السّفلة المُعادين للثّورة، يجب أن يكتسحوا بالنّار والرّصاص. السّلام للشّغيلة، والموت للمُستثمرين. عاشت الثّورة العالميّة!"

وكان هو الذي يكتب هذه الأوامر في حالة الانفعال. وكانت تُتلى على السّرايا. وكان فلاحو أوكرانيا، وعُمال مناجم الدّون، والمُقاتلون في جيش القفقاس، والأغراب والقوزاق–كلّ هذا الخليط المُهلهل الصاخب الطّليق العنان–يسمعون هذه الكلمات الفخمة كالمسحورين.

ووضع بيلياكوف رئيس الأركان، وهو عسكريٌّ ذكيٌّ مجرّب، خطّةً للهجوم، والأصح أنْ يشقّ الجيش كلّه، بآلافه الثّلاثين، الحصار، ويخرج إلى ما وراء كوبان. ذلك، على الأقلّ، ما كان يراه رئيس الأركان الذي لم يكن له أيّ أملٍ في نزالٍ ناجح مع دنيكين. وعُيّنت منطقة محطّة كورينيفسكايا (ما بين تيخوريتسكايا ويكاترينودار) لتكون نقطة الاقتحام. وبعد احتلال كورينيفسكايا لن يكون من الصّعب مُجابهة طابوري دروزدوفسكي وكازانوفيتش المقطوعين جنوباً من القوات الرئيسيّة، والانعطاف إلى يكاترينودار، أما بقيّة الأمر فعلى المُصادفة...على هذا النّحو فكّر رئيس الأركان. كان وضعه حرجاً للغاية. كان بكلّ كيانه، وفي نومه ويقظته، يكره الحُمر إلا أنّ النّصيب اللعين ربطه بالبلاشفة. وكان وقوعه في يدي دنيكين–الذي كان ينظر بيلياكوف إليه بإعجاب حسودٍ مثير–يعني الموت! كما أنّ ارتياب سوروكين في قلّة حماسه الثّوريّ وكرهه لدنيكين يعني الموت أيضاً! وكان أمله الوحيد هو طموح سوروكين الشّديد،

ولو أنّه أملٌ خياليّ، مثل كلّ أحداث ذلك الزّمن. ولكن من الـمُمكن التّعويل على ذلك: دفعُ سوروكين إلى الدّكتاتوريّة بكلّ الإمكانيّات. ثمّ انتظار ما يخبّئ القدر!..

وعلى أيّة حال فقد استعدّ للهجوم بكلّ نشاط: تدفّقت على محطّة تيماشيفسكايا احتياطات الذّخيرة وعَلَف الماشية، وأنزلت القذائف، ومضت طوابير ضخمة من العربات في السّهب. واتّخذ الجيش مواقعه في منطقة تيماشيفسكايا في الجنوب الشّرقيّ لكي يُهاجم محطّة كورينيفسكايا، ومحطّة أخرى إلى الشّمال منها هي فيسيلكي في آنٍ واحد.

في فجر الخامس عشر من تمّوز فتحت مدافع الحُمر للميدان ناراً حاميةً على كورينيفسكايا، وبعد ساعة انطلق مئات الفُرسان على الحاضرة والمحطّة في موجةٍ إثر موجة. وأعملوا الطّعن في البيض بسيوف صافرة، وداسوهم بالخيول، ولم يأخذوا أسرى إلا أولئك الذين أَلقوا بنادقهم قبل أن يقتربوا منهم. وسارت وحدات الـمُشاة طوال الليل وأخذوا يتخندقون في كورينيفسكايا على الفور، لا في نصف دائرة، كما حصل في بيلايا غلينا، بل في حلقةٍ بيضويّةٍ كاملة.

نهضت الشّمس البيضاء في نقابٍ من الغُبار والحرّ. وكان السّهب كلّه يموج بالحركة: الفرسان يعدون على أفراسهم، وأفواج الـمُشاة تدبّ، وعجلات البطاريات تُقرقع، وتردّد سُباب، وضربات، وطلقات، وصهيل خُيول، وصيحاتٌ مبحوحةٌ بالأوامر. وامتدّت طوابير العربات حتّى الأفق. وكان النّهار حاراً كالفرن. وفي منتصف الطّريق ترك سوروكين ضُباط أركانه، وانطلق على فرسٍ مبيض من الرّغوة وطاف بين قوّاته. ومنه اندفع الـمُراسلون والنّوبجية مثل

كلاب الصّيد ينقلون أوامره إلى الوحدات. كان قد فقد قُبّعته أثناء العدْو، ورمى سُترته الجركسيّة عنه. فكان في قميصٍ حريريٍّ قرمزيّ طوى ردنيه إلى أعلى من مرفقيه، وسروال ركوبٍ أزرق شُدّ بحزام جلديٍّ مُزيّن بقطع معدنيّة شداً مُحكماً. وكان وجهه المسودّ من العرق والغُبار يُرىً في كلّ مكان بأسنانه الـمُكشّرة. وكان قد غيّر ثلاثة خُيول، إنّه تفقّد مواقع البطاريّات والخنادق حيث وحدات الـمُشاة تتخندق في الأرض السّوداء كالمناجذ، وانطلق في السّهب إلى نقاط الـمُراقبة، وعدّى إلى طوابير العربات التي بدأت تصل وتُفرغ حُمولتها من القذائف، ودعا أمراء الوحدات إليه بإشارةٍ من مقرعته، وأصغى إلى تقاريرهم مُنحنياً على سرجه مُلتهباً رهيباً بعينين مجنونتين. كان مثل قائد فرقة موسيقيّة ضخمة يشدّ على أوتار موسيقى معركةٍ مُقبلة. تلك عند المحطّة حصانه اللاهث، وهرع إلى قسم البرقيات، وضرب برجله جُثّةً مطروحة عند العتبة مشجوجة الجُمجمة، جثّة ضابطٍ أبيض ذي كتافتين، وخامره، وهو يقرأ الشّريط الخارج من الجهاز بسرعة، الإحساس بانفعالٍ عارم مُسكر: هجرت قوّات دروزدوفسكي وكازانوفيتش محطّة دينسكايا جنوباً، واقتربت بسرعةٍ لتشتبك في معركة.

كان رجال دروزدوفسكي يركبون العربات. مئات العربات ظلّت طوال النّهار تنطلق في السّهب في سُحُبٍ من الغبار الحار. أمّا رجال ماركوف الذين أصبحوا تحت قيادة الجنرال كازانوفيتش فقد نُقلوا مع مدفعيّتهم في قطارات، فسبقوهم، وفي فجر السّادس عشر نزلوا من العربات واندفعوا راساً يُهاجمون كورينيفسكايا. كان الجنرال كازانوفيتش واقفاً على هيكل بئر قرب كشك السّكّة الحديديّة يُراقب

بهدوء الحركات المُقتدرة لصفوف الضُّباط تزحف دون أن تُطلق ناراً. لاح استغراقٌ هازئ على وجهه الدّقيق الرّشيق بشاربيه الطّويلين الذي يخطه الشّيب ولحيته المُشذّبة (مثل لحية الامبراطور السابق) وأطلّت ابتسامةٌ باردةٌ أنثويّة الهوى من عينيه الجميلتين. وكان شديد الثّقة بنتيجة المعركة حتّى أنّه لم يُرد أن ينتظر فرقة دروزدوفسكي لحظةً واحدة. كان يتنافس على المجد مع دروزدوفسكي المُصاب بمرض الغُرور، والحذر، والبطيء الحركة مما يلحق غالباً الضّرر بالأمر. كان يحبّ الحرب بنطاقها الواسع، وبموسيقى المعركة، ومجد الانتصارات الذّائع. خرج قرص الشّمس الهائل من وراء الرّوابي البعيدة، وكانت فيه ضراوة تمّوز. وكان نور الشّمس يُبهر عيون البلاشفة. لعلعت الرّشاشات، ومزّقت الطّلقات السُّكون المُلتهب. وكان من المُمكن رُؤية صفوف العدوّ الكثيفة تخرج من الخنادق. جرى رجال فرقة ماركوف إلى الأمام، لم يحنِ أحدهم رأسه أمام الرّصاص. ومن الجانب الآخر زحفت للقائهم آلافٌ عديدةٌ من الشّخوص الصّغيرة. رفع كازانوفيتش المِنظار إلى عينيه. غريب!

أَمَرَ جنديّ التّلفون الجالس عند البئر:

– ثلاث قنابل شرابنيل على الرّفاق!

فتحت النّار بطّاريّتين مختفيتين وراء سُدّة السّكة الحديدية. انفجرت على ارتفاع منخفض فوق صفوف العدوّ نفثات الشّرابنيل القُطنيّة. وتفرّقت الشُّخوص، ثمّ ضمّت صُفوفها وتابعت هُجومها. الآن صار الميدان كلّه يهتزّ من الطّلقات. وأخيراً زأرت مدافع البلاشفة. وابتسم كازانوفيتش في دهشة، وارتعشت ذراعه الضّيّقة الحاملة للمنظار. استلقى رجالُ ماركوف، وتخندقوا بسرعة. وشحبت بشرة وجهه

المسفوعة. وثب من هيكل البئر، وجلس مُقرفصاً مُنكباً على جهاز التّلفون، وطلب الجنرال تيمانوفسكي. وصاح في السّماعة:

– الصُّفوف مُنبطحة. اخرق جناح العدوّ الأيسر، مهما كلّف الأمر... كلّ ثانيةٍ من الوقت ثمينة.

وفي الحال ظهر رجال ماركوف–احتياطات تيمانوفسكي– من وراء السّدّة، ونزلوا الـمُنحدر وتراكضوا جماعاتٍ وصفّاً وراء صفّ، مُصمّمين مُنفعلين، واختفوا في القمح العالي الـمُتساقط الحُبوب. ركض تيمانوفسكي وراء الصُّفوف بعد أن أمسك بسيفه. كان شاباً مُتورّد الوجنتين، ضاحك السّنّ دائماً في قميصٍ كتانيّ قذر عليه كتافيّتان سوداوان من كتافيّات الجنرالات، وقد سرّح طاقيّته العالية إلى الوراء. وجرى شيءٌ غيرُ مفهوم: كان البلاشفة قد تغيّروا برجالٍ آخرين، وانقضّت كلّ اللحظات التي كان يجب أن يجفلوا فيها بالتّأكيد. الآن امتلأ السّهب كلّه بشخوصهم الزّاحفة. كانت رشاشات المتطوّعين تضرب بجنون، فكانت موجاتٌ جديدة تحلّ مكان الصّرعى.

كانت سرايا تيمانوفسكي تركُضُ واحدة وراء الأخرى، وحرابها منكّسةٌ إلى الأرض، في نهاية حقل القمح..شدّ كازانوفيتش قامته كالوتر، على هيكل البئر. وكان يرى في مجال الرّؤيا الضّيّق في المنظار أقفية رجال ماركوف الضّارية. ما أشدّ الجهد! ويتساقطون ويتساقطون! وحوّل منظاره إلى الراكضين، وفجأةً رأى أفواهاً فاغرة، ووجوهاً عريضة، وقبّعات بحّارة، وصُدوراً برنزيّةً عارية...بحّارةٌ بلاشفة...وفجأةً اختلط كلّ شيء، وتكوّر في زِحامٍ واحد. إنّه قتالٌ في الحِراب. وجمدت الابتسامة السّقيمة على شفتي كازانوفيتش

الرّشيقتين... لم يصمد رجال ماركوف. تراكضت بقيّة السّريّة الأولى إلى حقل القمح، واستلقت. وتراجعت السريّة الثانية وانطرحت أرضاً.

عندئذٍ وثب من هيكل البئر، وركضَ خفيفاً إلى الحقل. ورآه الرّجال. واستطاع أن يُنهّضَ الصُّفوفَ صائحاً: "عيب، يا سادة، عيب!" ودفعهم في هجوم بالحراب، إلا أنّ النار كانت من الشّدّة بحيث إنّ الرّجال راحوا يتساقطون بكثرة، وانطرحت الصُّفوف من جديد... أيمكن أن تكون هذه معركةً خاسرة؟

في نحو الساعة التاسعة صباحاً تردّد من الغرب قصف مدافع دروزدوفسكي. وظهرت في السّهب مُصفّحةٌ كالسّلحفاة الرّماديّة تترنّح في سيرها. شرع رجال دروزدوفسكي بالهجوم بشكل نظاميّ ودون عُجالة. ونهض رجال كازانوفيتش للمرّة الثالثة. والآن كان الـمُتطوّعون يتقدّمون في جبهةٍ عريضة، على شكل هلال. إنّ البلاشفة لا يُمكن أن يتحمّلوا هذه الضّربة.

ظَهَرَ فارسٌ بين خنادق البلاشفة. عدّى بجنون ملوّحاً بنصلٍ لامع. وصعد رابية، وكَبَحَ حصانه. كان الفارس يرتدي قميصاً قُرمزياً مُطوى الكُمّين، ورأسه مُلقىً إلى الوراء. صرخ، ولوّح بالسّيف مرّةً أخرى. فإذا بسيلٍ من الخيّالة يتصدّى لصفوف دروزدوفسكي الـمُهاجمة. كانت خيولهم الصّغيرة الهائجة تكاد تنطبق على الأرض. وتوقّف إطلاق النار. ومن بعيد كان يُسمع صفير السّيوف، والعويل، ووَقْع الحوافر. اندفع الفارس ذو القميص القُرمزيّ من الرابية، وأطلق العَنان لفرسه، وانطلق بأقصى السُّرعة في المقدّمة. ارتفعت سحابةٌ سوداء من الغُبار مُغطّيةً ساحة المعركة. ولم يصمد رجال دروزدوفسكي

وماركوف لضربة الخيّالة، وتراكضوا هاربين. وتوقّفوا وتخندقوا وراء نُهير كيربيلي.

ضمّد إيفان إيليتش تليغين رأسه بشاش من محفظة الإسعاف الخاصّة به، وهو يُقلّص عينيه ويرتجف من الألم. كان خدشاً خفيفاً، والعظام لم تُصب، ولكنّه كان يحسّ بألم شديد، وكأنَّ لولباً يدور في جُمجمته كلّها. وكان قد وَهَنَ من الجُهد حتى أنه ظلّ راقداً على ظهره في حقل القمح وقتاً طويلاً بعد التّضميد.

وكان غريباً أن يسمع صرير الجنادب الوادع وكأنّ شيئاً لم يحدُث. انتهى الصّراع الدّامي والصّيحات وهدير المعركة الحديديّ بهذه الجنادب الـمُختفية في شقوق الأرض، والنّجوم الكبيرة في ليل الجنوب، وبعض السّنابل الـمُتدليّة بلا حِراك ما بين عينيه والسّماء. وقبل وقت كان أحد الجرحى يئنّ على مسافةٍ قريبة، والآن قد همد.

السُّكون شيءٌ رائع. خفّ الألم اللاذع في رأسه وبدا وكأنّ هُدوء الألم مبعثه عظمة الليل المهيبة هذه. ولمعت في ذاكرته صورٌ ساطعة من اليوم الذي تمزّق وتكوّر مُختلطاً بقصف المدافع، وصيحات الأفواه المفتوحة بوحشيّة، ونوبات الكراهية، حين تركض فلا ترى غير الحراب الحادّة والوجه الشاحب للرّجل الذي يُصوّب النّار عليك. إلا أنَّ الذّكريات نفذت في ذهنه بألم، وحزّت جُمجمته حتّى أنّه توجّع، وحاول أن يُفكّر في شيءٍ آخر...

في أيّ شيءٍ كان من الـمُمكن أن يُفكّر؟ إما في هذه النُّتف الرهيبة لحدث طويل لا تستوعبه الـمُخيّلة-الثّورة والحرب-وإمّا في حلم عن السّعادة بعيدٍ مغلق دونه، حَلُمَ عن داشا! وأخذ يُفكّر فيها (في الواقع

لم يكف قط عن التّفكير فيها) يُفكّر في أنّها مُهملةٌ وحيدة، غير مجرّبة، وعديمة المقدرة، وخياليّة...عينان غاضبتان، أما القلب، فمثل قلب الطّائر، مذعور، خافق. طفلة، طفلة...

قَبَضَ إيفان إيليتش بيده المرميّة على حفنة تُراب حارّ، وعصرها. وأسبل جفنيه. افترقت معه واثقةً من أنه الفراق النّهائيّ. حمقاء... لا أحد تُفزعه عيناك الغاضبتان...ولا أحد سيُلخّص في حُبّه لك أكثر منّي، حمقاء...تُقاسين مساءاتٍ مريرةً لا تُنسى...تحدّرت الدُّموع من خلال رُموش إيفان إيليتش—فإنّ الجرح قد أوهنه. أخذ جندبٌ يُصرصر قُرب أذنه. وبدا الحقل المُدمّى المُداس فضياً من ضوء النُّجوم. وغطّى الليل على كلّ شيءٍ بجنحه...رَفَعَ إيفان إيليتش جسمه، وقعد مُحتضناً رُكبتيه. كلّ شيءٍ كان كالحُلم، كما في الطُّفولة. وأشفق القلب، وبكى...نهض، وسار مُحاولاً ألّا تهزّ خطواته رأسه.

كانت كورينيفسكايا على بُعد فرسخ من هنا. هناك نيرانٌ مُنفردة. وعلى مسافة أقرب، في الوهدة، كان لُسانٌ من اللهب يتراقص فوق الأرض بلا دُخانٍ. وأحسّ إيفان إيليتش بالعطش والجوع، فتحوّل باتّجاه النّار.

في كلّ الحقل كانت شُخوصٌ سوداء تسير إلى هناك. منهم الجريح جرحاً خفيفاً، ومنهم الضائع من وحدةٍ مُمزّقة، ومنهم مَنْ يُسحب أسيراً. وتنادوا، وتردّد سُبابٌ مبحوح، قهقهةٌ قويّة...وعند النار التي تحترق فيها عوراض خشبيّة استلقى رجالٌ كثيرون.

وشمّ إيفان إيليتش رائحة خُبز. كان جميع هؤلاء الذين غطّاهم الغُبار يمضغون الخُبز. كانت بالقُرب من النار عربةٌ فيها خُبز وبرميل

صغير تغرف منه الماء امرأةٌ نحيلةٌ بادٍ عليها الإعياء تشدّ رأسها بمنديلٍ أبيض.

ارتوى إيفان إيليتش، وحَصَلَ على قطعةٍ من الخبز، واتّكأ على العربة. وأكل ناظراً إلى النّجوم. أمّا أولئك الذين كانوا يأتون من الحقل فما زال الغضب يعتمل في نفوسهم. كانوا يشتُمون ويتوعّدون في الظّلام، ولكن أحداً لم يُصغ إليهم. كانت المُمرّضة توزّع الماء وقطعاً من الخُبز.

سَحَبَ شخصٌ ذو لحيةٍ سوداء عارٍ حتّى الحزام أسيراً، وطرحه عند النار.

– هذا هو ابن الكلب، الطّفيليّ... استجوبوه، يا أصحاب...

وضَرَبَ الرّجل المطروح بحذائه، وابتعد ساحباً بنطلونه، وصدره المُنخفض يعلو ويهبط. عَرَفَ إيفان إيليتش أنّهُ تشيرتوغونوف. فاستدار. هرع بعض الأشخاص إلى الأسير المطروح، وانحنوا عليه.

– من المتطوّعين... (نزعوا عنه كتافيّتيه، وألقوها في النّار).

– إنّه صبيٌّ صغير، ولكنّه حقود!

– جاء ليُحارب في سبيل أموال آبائه... يبدو أنّه من الأغنياء...

– عيناه تلمعان، الوغد...

– لماذا ننظر إليه؟ دعوني...

– انتظر، رُبّما عنده أوراق. لنأخذه إلى مقرّ الأركان...

– خُذوه إلى الأركان...

صاح تشيرتوغونوف مُندفعاً:

– لا! كانَ طريحاً مجروحاً. تقدّمت منه، –انظروا إلى حذائه– فإذا به يُطلق النّار عليّ مرّتين. لن أعطيه لأحد.

وصرخ بالأسير صرخةً أكثر وحشيّة:

– اخلع الحذاء!

نَظَرَ إيفان إيليتش بطرف عينه مرّةً أخرى. كان رأس الأسير الصّبويّ الحليق الـمُدوّر يلمع في ضوء النّار. وكانت أسنانه مُكشّرة، وحدقتا عينيه الكبيرتين تروحان وتجيئان، وتغضن أنفه الصّغير غُضوناً كثيرة. كان يبدو أنّه فقد صوابه كُلّياً...وثب ناهضاً بحركة حادّة. وكانت يده اليُسرى تتدلّى بلا حياة في كُمّه المشقوق الـمُدمّى. وصَدَرَ صفيرٌ خفيف من بين أسنانه، بل ومدّ عُنقه...تراجع تشيرتوغونوف أمام هذه الصّورة الحيّة الرّهيبة من الكراهية...

ارتفع من بين الجمع صوتٌ كثيف:

– أها! أنا أعرفه. كُنتُ أشتغل في معمل أبيه للتّبغ. إنّ أباه أونولي صاحب معملٍ في روستوف...

ارتفعت أصوات:

مكتبة
t.me/soramnqraa

– نعرف، نعرف.

أحنى فاليريان أونولي جبينه، وهزّ رأسه، وصَرَخَ ببحّةٍ نافذة:

– وُضعاء سفلة، أوغادٌ حُمر! سأصفعكم على أبوازكم! ألم نقتل ونشنق منكم الكفاية، يا كلاب؟ أهذا قليل؟ سنشنقكم جميعاً، يا

أوغاد أوباش...

وفقد وعيه، وأمسك تشيرتوغونوف من لحيته الكّثّة، وأخذ يضربه على بطنه العاري بحذائه...

ابتعد إيفان إيليتش عن العربة في الحـال. صدرت الأصوات مُتوعّدة، وقطعت صرخةٌ حادّة الغيظ الـمُتصاعد. ارتفع فوق الجمع جسم فاليريان أونـولي مبسوط الذّراعين رافساً، وطار في الهواء وسقط...وارتفع عمودٌ من الشّرر عالياً فوق النار...

في السّهب الـذي مسّه الـبرد قُبيل الصّباح تـردّدت طلقاتٌ مُتوانية، وكأنّها وَقْعُ سياط، وسرى هدير المدافع مهيباً. ذلك طابورا دروزدوفسكي وبوروفسكي عادا إلى الهُجوم مرّةً أخرى من وراء نُهير كيربيلي، ليحولا التّوفيق إلى جانبهما بجهد مُستميت. في تلك الليلة تلقّى القائد سوروكين أمراً من يكاترينودار من اللّجنة التّنفيذيّة المركزيّة الـمُجتمعة بلا انقطاع بأن يكون قائداً عاماً لجميع القُوّات الحمراء في شمال القفقاس. وقد أبلغه بذلك رئيس الأركان بيلياكوف الذي اندفع إلى عربة القائد العام للجيش ومعه الشّريط البرقيّ، وألقى رجليْ القائد من على التّخت وقرأ الأمر على ضوء قدّاحة بنزين. لم يكن سوروكين قادراً على أنْ ينتزع نفسه من النّوم، فرمش بعينيه، وسقط على الوسادة الحارّة. أخذ بيلياكوف يهزّه من كتفيه:

– اصحَ، يا صاحب الفخامة، الرّفيق القائد العامّ الأعلى...سيّد القفقاس. هل فهمت؟ قيصرٌ وإله. فهمت؟

عندئذ فَهِمَ سوروكين أهميّة النّبأ الهائلة برُمّتها، مصيره الـمُذهل كلّه، المطبوع بنقاط وشرطات في الشّريط الورقيّ الضّيّق الملتوي

في أصابع رئيس الأركـان. عدّل بنطاله بسرعة، وألقى عليه سُترته الجركسيّة، وشدّ غلاف مُسدّسه، وسيفه.

– أعلن الأمر على الجيش فوراً. وهيّئ لي الفرس...

في الفجر، وبعد أن أعاد إيفان إيليتش تضميد رأسه سار بين العربات باحثاً عن مقرّ فوجه. وفي تلك اللحظة انطلق في الشارع من جانب المحطّة رهطٌ من الخيّالة ونهايات قلانسهم القوزاقيّة تُرفرف في الريح، كان البوّاق في المقدّمة وخلفه اثنان: سوروكين يهزّ مقود حصانه الطّويل العُرف، وقوزاقيٌّ يحمل شارة القائد الأعلى على رُمح. واندفع الفُرسان باتّجاه الطّلقات مُلتفّين بالغُبار مثل أشباحٍ ليليّة.

ومن العربات الـمُبلّلة بالنّدى ارتفعت رُؤوسٌ ناعسة، وظهرت لحىً، وصدرت أصواتٌ مبحوحة. ولَكَزَ البوّاق العاديّ فرسه بعيداً في السّهب بوّق مُعلناً أنّ القائد العامّ الأعلى قريب، إنّه هنا، في المعركة، تحت الرّصاص...وصَدَحَ البوق: "تا–تا–تا، سندحر العدوّ، قُدُماً إلى النّصر والمجد...البطل لا يعرف الموت: بل المجد الخالد... تا–تا–تا..."

وَجَدَ إيفان إيليتش الضّابط غيمزا في كوخ طينيٍّ مُحطّم النّوافذ. ولا أحد غيره من ضُباط الأركان. كان غيمزا يجلس محدودباً على مصطبة ضخماً كئيباً ويده الحاملة لملعقة خشبيّة تتدلّى بين رُكبتيه الـمُنفرجتين. وعلى المنضدة طاسةٌ من حساء الكرنب إلى جانب حقيبة مُكتنزة–كلّ جهاز رئيس الشُّعبة الخاصّة. كان غيمزا يهوم ناعساً. لم يتحرّك بل أدار عينيه نحو إيفان إيليتش:

– جريح؟

– بسيط...مُجرّد خدش. ظللتُ نصف الليل راقـداً في حقل القمح...فقدتُ جماعتي...أيّة شريكةٍ هذه...أين الفوج؟

قال غيمزا:

– اجلس، هل تريد أن تأكل؟

ورفعَ يده بصعوبة، وقدّم الملعقة. هجم إيفان إيليتش على طاسة الحساء نصف البارد، بل أشفع ذلك بأنين الجوع. أكل برهةً وهو صامت.

– حارب رفاقنا يوم أمس بشكلٍ جيّد، يا رفيق غيمزا حتّى لم تكن ثمّة حاجةٌ إلى إنْهاضِهِمْ. هاجموا بالحراب على بُعد ثلثمائة أو أربعمائة خُطوة.

قال غيمزا:

– كفى أكلاً. –وضع تليغين الملعقة. –هل سمعت بالأمر الذي أذيع في الجيش؟

– لا.

– عَيّنَ سوروكين قائداً عاماً أعلى. مفهوم؟

– وماذا في ذلك؟ شيءٌ جيّد...هل رأيته يوم أمس؟ أطلق العَنان لحصانه في صميم النّار. القميص القُرمزيّ، وهو على مرأى من كلّ الناس. والـمُقاتلون ما أنْ يروه حتّى يهتفوا له: "هورا". لولا هو يوم أمس لما عرفت ماذا...دُهشنا كثيراً يوم أمس: كان كقيصر.

قال غيمزا:

– نعم، إنّه قيصر. من المؤسف أنّني لا أستطيع أن أرميه.

أنزل تليغين الملعقة:

– هل أنت... تهزل؟

– لا، لا أهزل. على كلّ حال أنت لا تفقه في هذه الأمور–ونظر إلى إيفان إيليتش نظرةً ثقيلة لا ترمش–ولكن، ألا تشِ بي؟ (نظر تليغين في عينيه بهدوء). حسناً، أريد أن أعهد إليك بمهمّة صعبة، يا رفيق تليغين... أظنّ أنّك أنسب شخص... يجب أن تُسافرَ إلى الفولغا.

– سامع.

سأكتب كلّ التّفويضات اللازمة. أعطيك رسالةً إلى رئيس المجلس العسكريّ. وإذا كنت لا تنجح، ولا تسلّمها فمن الأفضل أن تنتقل إلى البيض. لا تعُد إلى هنا. مفهوم؟

– حسناً.

– لا تُسلّم نفسك حياً. احرص على الرّسالة أكثر من حرصك على حياتك. وإذا وقعتَ في أيدي الاستخبارات افعل كلّ ما تستطيع فعله، ابتلِع الرّسالة... فهمت؟ –تحرّك غيمزا وضرب الطاولة بجمع يده حتّى أنّ الطاسة قفزت. لعلمك سيكون في الرّسالة ما يلي: الجيش يؤمِن بسوروكين. و. وسوروكين الآن بطل، والجيش يذهب وراءه إلى حيث يشاء... وأنا أطلب أنْ يُرمى سوروكين بالرّصاص... على الفور قبل أن يأخذ بزمام الثّورة. هل استوعبت ذلك؟ إنّ هذه الكلمات هي موتك، يا تليغين... فهمت؟

وصمت. دبّت ذُباباتٌ على جبينه.

قال تليغين:

– حسناً، سيكون ذلك.

– إذن، فسافر، أيّها العزيز...لا أعرف أيّ طريقٍ يجب أن تسلك. الطّريق عبر سفياتوي كريست، إلى أستراخان طويل...الأفضل لك أن تنسلّ على طول الدون إلى تسارتسين...وبالـمُناسبة يُمكنك أن تستطلع الوضع عند البيض، في المؤخّرة...دبّر لنفسك كتافيّتيّ ضابط، وتبختر...ماذا تُريد: كتافيّتا نقيبٍ أم مُقدّم؟

وضحك، ووضع يده عل ركبة تليغين، وربَّتَ عليه كالطّفل:

– نم ساعةً أو ساعتين، أما أنا فسأكتب الرّسالة.

-١٠-

أخيراً حصل فاديم بتروفيتش روتشين على إجازة لمدّة ثلاثة أسابيع. كان تعباً للغاية، مريضاً تمزّقه التّناقضات، يخدم في ذلك الوقت في حامية المتطوّعين في محطّة فيليوكوكنياجيسكايا. لم تكن هناك معارك كبيرة، فإنّ جميع قُوات الحُمر قد انسحبت جنوباً لتُقاتل قوّات دنيكين الرّئيسيّة. وهنا، في القرى الواقعة على نهري مانيتش وسال وقعت قلاقل، إلا أنّ فصائل التّنكيل القوزاقيّة للاتمان كراسنوف هدّأت العقول الثائرة بيدٍ ماهرة: تارةً بالإقناع، وتارةً بالجَلْد، وتارةً بالشّنق.

تهرّب فاديم بتروفيتش من الاشتراك في التّنكيل مُتعلّلاً بالصّدمة التي أصيب بها. وكان يتفادى حسب الإمكان الذّهاب إلى مقاصف الضّباط التي كانت تُقيم احتفالاً بانتصارات دنيكين. والغريب أنّ جميع رجال الحامية كانوا، كما كانوا في الجيش المُحارب، ينظرون إلى روتشين بحذر، وبعداءٍ خفيّ.

كان ثمّة شخصٌ قد أشاع إشاعةً عن "صبغته الحمراء" فلصق هذا النّعت به.

في الخنادق بالقرب من شابلييفكا صوب المتطوّع أونولي النّار عليه. كان روتشين يتذكّر تلك اللحظة بوضوح: هدير قذيفةٍ من القطار المُصفّح، صياح آمر السّريّة: "استلقاء!" وانفجار. ثمّ طلقةٌ

متأخّرةٌ من مسدّس، ضربةٌ كضربة عصا على القفا، وعينا أونولي تطفحان بفرحٍ ضارّ.

رجلٌ واحد كان يُمكن أن يُصدّق بكلمة الشّرف التي يقولها روتشين، وهو الجنرال ماركوف. إلا أنّه قد قُتل. وقرّر فاديم بتروفيتش ألا يُثير مرّةً أخرى هذا الأمر المشكوك فيه في اتّهام الصّبيّ.

وكان يُعذّبه التّفكير في مصدر كلّ هذه الكراهية له. ألم يكن واضحاً حقاً أنّه مُخلص، وأنّه نزيه، وأنّ أفعاله تسترشد بفكرةٍ واحدة فقط، هي عظمة روسيا؟ إنّه لم يأت إلى هذه السُّهوب الرّهيبة من أجل رتبة جنرال...

كانت تَنقص روتشين الرّؤية الصافية الصّلبة للأشياء. كان فكره يلوّن العالم والأحداث بالشّكل الذي كان يراه بنفسه أفضل وأكثر أهميّة. وكان يصرف النّظر عمّا لا يروق له، ويتغاضى عن الـمُزعج من الأشياء. وكان يتصوّر العالم نظاماً كاملاً. وكان مبعث ذلك في أكبر الظّنّ روح الأرستقراطيّة الغريزيّة، والكثير من أجيال مُلاك الأرض الـمُتنعّمين. فإنّ تلك السُّلالة المنقرضة كانت تضع الهناء الذاتيّ الوادع فوق كلّ اعتبار، وتفرضه على كلّ شيء، وعلى كلّ ظرف. لا يُهمّ إذا سُيّط فلاحٌ في اسطبل، فإنّه سيصيح قليلاً، وبعد العصا سيندم، وسيكون ذلك أفضل له، للنادم ولناشد السلام. ولا بأس لو تُبطل السّندات، وتُباع الضّيعة بالمزاد العلنيّ. يُمكن أن يعيش الإنسان في جناح، في أجمات الأرقطيون وعنب الثّعلب، بدون مآدب صاخبة، فإنّ ذلك أهدأ للنّفس عند الشّيخوخة، في أغلب الظّن...ولم يستطع القدر بكلّ جهده أن يقلق مالك الأرض الطّيّب المزاج. ونشأت عنده نظرةٌ ناعمة خاصّة: أنْ لا يرى في أيّ شيء غير الرائع والسامي!

كان لدى فاديم بتروفيتش أيضاً هذا الافتقار إلى النّظرة الانتقاديّة للأشخاص والأفعال. (حقاً إنّ أحداث السّنوات الأخيرة قد أصابت رومانسيّته بضربات شديدة، أو بالأحرى لم يبق منها إلا مزق). وصار عليه الآن أنْ يُقلّصَ عينيه باستمرار. ولهذا السّبب أضحى يتجنّب نادي الضُّباط، مثلاً.

إنّ هؤلاء الناس—حفنةٌ من الضُّباط وطلاب المدارس العسكريّة—كان يجب أن يرتدوا، حسب فهمه، ملابس بيضاء كالصّليبيّين: فقد شهروا السّيف على الغوغاء الـمُتمرّدة، على القادة السّود—خدمٌ وأتباع المسيح الدّجّال أو الألمان—الشيطان يعرف لمَنْ. (بهذه الشّحنة من الأفكار خرج روتشين إلى منطقة الدون). ولكن كان من النابي أن يسمع في مقاصف الضُّباط ثناء صاخباً على رنين الأقداح، إطراءاتٌ على الشّجاعة في قتل الأخ لأخيه. إنّ هذه الوجوه الشابّة والأنيقة في وقتٍ سابق لـ"الصّليبيّين" قد شوّهها الظّمأ إلى القتل، إلى التّنكيل، إلى الانتقام. ها هم يقفون وبأيديهم أقداحٌ من الكحول المركّزة ينشدون لحن الموت لمن كان أوضَعَ الناس، لمن قد رُمي بالرّصاص، وأحرق، وبدّد مع الريح، مثل دميتري الدّعي. ولو جمع كلّ الدّم الـمُراق بإرادته العاجزة لأغرقه الشّعب حياً في تلك البحيرة العميقة من الدّم...

وبدا لحن الموت هذا (وروتشين يُقلّص عينيه على ذلك بالذات) الفكرة الوحيدة لدى زُملائه...تطهير روسيا من البلاشفة، الوصول إلى موسكو، رنين الأجراس...دخول دنيكين الكريملين على فرسٍ أبيض...كلّ ذلك مفهوم. ولكن ماذا بعد؟ الشيء الرّئيسيّ؟ وكانَ حتّى الحديث عن الجمعيّة التّأسيسيّة أمام الضُّباط يُعتبر غير لائق. يعني مرحباً بالموت؟

ما الذي جذب هؤلاء الناس إلى القتال والموت؟ وقلّص روتشين عينيه... لم تعد البطولة تعريض الصُّدور للرصاص، واحتساء الكحول في عربات القطار الـمُدفّأة. فقد أضحى ذلك قديماً بالياً. هذا يُمارسه الشُّجعان والجبناء على حدٍّ سواء. وأصبح مألوفاً التّغلّب على خوف الموت، فقد صارت الحياة رخيصة.

كانت البطولة هي التّخلّي عن النّفس باسم الـمُعتقد والحقيقة. ولكن هنا أيضاً تتقلّص العين اعتراضاً، تتقلّص بلا نهاية...بأيّ حقيقة يؤمن زملاءه في الفوج؟ بأيّ حقيقة آمن هو نفسه؟ في تاريخ روسيا التّراجيديّ العظيم؟ ولكنّ ذلك كانَ واقعاً وليس حقيقة. الحقيقة في الحركة، في الحياة، ليست في تقليب صفحات كتابٍ مُترب، بل في ما يجري نحو المستقبل.

باسم أيّ حقيقة (إذا استثنينا رنين أجراس موسكو، والفرس الأبيض، والأزهار على الحراب وغيرها) ينبغي قبل الفلاحين الروس؟ إنّ هذا السّؤال بدأ يتسرّب إلى وعي فاديم بتروفيتش، ويرتعش مثل ارتعاش الماء من إلقاء حَجَر. ومن هنا بدأ انشطاره الـمُعذّب. كان غريباً بين زُملائه، "صبغةٌ حمراء"، "بلشفياً تقريباً".

وظلّ حديثه الأخير مع كاتيا يلحّ عليه أكثر فأكثر، ويدفع الدّم إلى أذنيه خجلاً. عصرت يديها، وتقطّعت أنفاسها انفعالاً، وكأنّما رأت أحجاراً تتساقط في هاويةٍ من تحت قدمي فاديم بتروفيتش. "يجب أن تفعل شيئاً آخر تماماً، يا فاديم، فاديم!!" وكان ما يزال غير مُتهيّئ لأن يقرّ لنفسه أنّ كاتيا كانت على حقٍّ كما يبدو، وأنّه قد ضلّ ضلالاً ميئوساً منه، وأنّه كلّما تمادى في الأمر قلّ فهمه للسّر في تنامي قوّة "الغوغاء الـمُتمرّدة" بسرعةٍ كابوسيّة، وأنّ من الحماقة الفظيعة القول

في حميا الغيظ بأنّ البلاشفة يخدعون الشّعب، لأنّه لم يُعرف بعد هل البلاشفة هم الذين دعوا إلى الثّورة، أم الشّعب هو الذي دعا البلاشفة، وأنّه الآن لا يتّهم أحداً غير نفسه.

كانت كاتيا على حقٍّ في كلّ شيء. حملت من الحياة القديمة إلى هذه الأوقات العصيبة القلقة حمايةً واحدة، كنزاً واحداً—الحُبّ والحنان. وتذكر كيف سارت في شوارع روستوف وعلى رأسها منديل، وفي يدها صُرّة هي رفيقة حياته الوديعة... حبيبة، حبيبة، حبيبة... أنْ يضع رأسه على ركبتيها، ويضمّ إلى وجهه يديها الرّقيقتين، ويقول فقط: "كاتيا، أنا منهوك..." ولكن تظهر في شارع القرية الـمُترب، في الصّف، في نادي الضُّباط، وكأنه قد شُدّ في حشدٍ حديديّ، وقد اشتعل الشّيب في رأسه المرفوع بإباء...وكانوا يقولون عنه: "يا ربّ، يرفع أنفه، يتصوّر نفسه من حُراس الامبراطور، وهو وغدٌ من الـمُشاة..."

وكان قد أرسلَ لكاتيا رسالتين قصيرتين، ولكنّه لم يتلقّ جواباً. عندئذ قرّر أن يكتب إلى الـمُقدَّم تيتكين. إلا أنه حصل على الإجازة في ذلك الوقت، فسافر في الحال إلى روستوف.

استأجر عربة الحصان من المحطّة عند الظُّهر. كانت المدينة قد تغيّرت تغيّراً لا تُعرف به. كان شارع سادوفايا نظيفاً جداً، والأشجار مُشذّبة، والنّساء أنيقات، وكلّهنّ في ملابس بيضاء يتنزّهن في الجانب الظّليل، وينعكسن على واجهات المخازن الزّجاجيّة اللامع.

تلفّت روتشين وهو في العربة يبحث بعينيه عن كاتيا. ما هذه؟ كأنّ النّساء خارجات من حُلمٍ منسيّ، في قبّعاتٍ عليها ريش على

الطّراز القديم، وقُبّعات بناما، ولفاحات بيضاء...أقدامهنّ البيضاء تضرب الأسفلت الذي يغسله بوّابون جُهماء، وما من لطخة دمٍ على تلك الجوارب البيضاء. من أجل كلّ هذا تُعسكر الوحدة في فيليكوكنياجيسكايا! من أجل هذا يُصارع دنيكين الجحافل الحُمر منذ أربعة أسابيع! تلك هي الحقيقة البسيطة "كرائعة النّهار"، حقيقة الحرب البيضاء!

وابتسم روتشين ابتسامةً مُرّة. في مفارق الطُّرق كان الألمان يقفون في بزّاتهم المألوفة الخضراء الرّماديّة إلى حدّ الغثيان، وفي قُبّعاتهم القشيبة، وكأنّهم في بيوتهم! وإذا بأحدهم يرفع النّظارة الأحاديّة الزُّجاجة من عينه، ويُقبّل يد حسناءٍ فارهة في لباسٍ أبيض...

– يا حوذيّ، أسرع!

كان الـمُقدَّم تيتكين واقفاً عند باب بيته. واقتربت عربة فاديم بتروفيتش فقفز منها، ورأى تيتكين يتراجع وعيناه تتدوّران، وتتبحلقان. ارتفعت يده السّمينة، ولوّحت لروتشين، وكأنّما يُبعده.

– مرحباً، يا مُقدَّم...أحقاً أنّك لم تعرفني؟ أنا...بحقّ الرّب، كيف كاتيا؟ في صحّة؟ لماذا لا...

هَتَفَ تيتكين بصوتٍ نسويّ:

– يا للسّماء، أنت حيّ؟ يا عزيزي، فاديم بتروفيتش!

واندفع على روتشين، واحتضنه، وبلّل خدّه بالدّمع.

– ما الذي حصل؟ أخبرني بكلّ شيء، يا مُقدّم...

– قلبُها أعلمها أنّك حيّ...والمسكينة يكاترينا دميترييفنا، كم قاست!

وأخذ تيتكين يروي له بشكلٍ مشوّش كيف أنّها ذهبت إلى أونولي، وأنّه، لسببٍ غير معروف، أكّدً لها أنّ روتشين قد قُتل. وتحدّث عن شقاء كاتيا، ورحيلها.

فقال روتشين بلهجةٍ حازمة ناظراً إلى الأرض:

– إذن...أين رحلت يكاترينا دميترييفنا؟

بَسَطَ تيتكين ذراعـه، وعبر وجهه الطّيّب عن رغبةٍ حـارّة في الـمُساعدة.

– أتذكر، أنّها قالت لي إنّها مُسافرةٌ إلى يكارينوسلاف...بل أتصوّر أنّها كانت تريد أن تعمل في محلٍّ للحلويّات...من اليأس أن تلجأ إلى محلّ الحلويات...انتظرت أن تكتب، ولكن لم تكتب سطراً واحداً، وكأنّها غطست في الماء...

رفض روتشين الدّعوة لاحتساء قدح من الشاي، وعاد إلى المحطّة رأساً. كان قطار يكاترينوسلاف يُغادرً في المساء. ذهب روتشين إلى صالة انتظار الدّرجة الأولى، وجلس على أريكة بلّوطيّة عارية، واستند على كوعه، وغطّى عينيه في كفّه. وبقي ساعاتٍ طويلةً بلا حِراك...

زَفَرَ شخصٌ زفرة تفريغ، وجلس إلى جانب فاديم بتروفيتش وقتاً طويلاً، كما يبدو. وقبل ذلك جلس كثيرون. كانوا يجلسون قليلاً ثمّ ينصرفون. أما هذا فقد بدأ يهزّ رجله وفخذه بشكلٍ جعل الأريكة كلّها تهتزّ. و لم ينصرف، و لم يكفّ عن الاهتزاز. قال روتشين دون أن يرفع يده عن عينيه:

– اسمع، ألا تستطيع أن تكفّ عن هزّ رجلك؟..

أجاب الرّجل باستعداد:

– اعذرني، عادةٌ سيّئة. –وجلس بعد ذلك ساكناً.

أذهَلَ صوته فاديم بتروفيتش: صوتٌ مألوفٌ جداً، له صلةٌ بشيءٍ بعيد، بذكرى طيّبة. أفرح روتشين أصابعه دون أن يرفع يده عن عينيه، ونظر إلى جاره بعينٍ واحدة. لقد كان ذلك تليغين. كان قد مدّ رجليه الـمُحتذيّتين حذاءً طويلاً قذراً، ووضع ذراعيه على بطنه، وراح يهومُ ملقياً قفاه على مُتّكأ الأريكة العالي. كان يرتدي سُترةً ضيّقة تضغط على الإبطين، وكتّافتيّ مُقدَّم جديدتين. وقد جمدت على وجهه النّحيل الحليق الملوح ابتسامة رجلٍ يستريح بعد تعبٍ مُضنٍ...

كان أقرب إنسانٍ إلى روتشين بعد كاتيا، أخاً وصديقاً عزيزاً. كان يشعّ منه نور سحر الشّقيقتين: داشا وكاتيا...ومن الذّهول كاد فاديم بتروفيتش أنْ يهتف، كاد ينقضّ على إيفان إيليتش. إلا أنّ تليغين لم يفتح عينيه، ولم يتململ. ومرّت ثانية. وأدرك أنّ أمامه عدواً. وكان فاديم بتروفيتش قد عرف منذ نهاية أيار أنّ تليغين في الجيش الأحمر، وقد انضمّ إليه بمحض إرادته، ويعتبرونه ضابطاً مُمتازاً. وكان مُتنكّراً على ما يبدو، ربّما في ملابس ضابط قتله بيده، في رتبة مُقدّم (بينما لم يكن إلا نقيباً في الجيش القيصريّ)...وأحسّ روتشين باشمئزازٍ مُباغت لزج، من ذلك الذي ينتهي لديه في العادة بنوبةٍ من الكراهية الحادّة: لا يُمكن أن يكون تليغين هُنا غير جاسوس...

كان يجب الإسراع بإبلاغ القومندان. ولم كان ذلك قبل شهرين لما تردّد روتشين لحظةً واحدة. إلا أنه التصق بالأريكة، ولم يجد في

نفسه القوّة. ثمّ إنّ الاشمئزاز بدا وكأنّه ينزاه عنه...إيفان إيليتش ضابطٌ أحمر، وها هو الآن إلى جانبه، كما كان من قبل تعباً طيّباً... لم يُقدِمْ على ذلك من أجل المال، ولا من أجل ترقية. ذلك هُراء! إنّه وهو الرّجل الرّصين الرابط الجأش أقدَمَ على ذلك لأنّه اعتبر ذلك قضيّةً عادلة..."شأنه شأني...أشي به ليكون زوج داشا، وأخو كاتيا وأخي أنا، بعد ساعة، مطروحاً على كومةٍ من القاذورات عند سياج، بلا حذاء..." وأطبقَ الذّعر على خناق روتشين، فانكمش بكلّ كيانه... ما العمل؟ انهض، وانصرف؟ ولكن ربّما يعرفه تليغين، ويُصاب بالذّهول، ويهتف. كيف يُنقذه؟

جَلَسَ روتشين وإيفان إيليتش جنباً إلى جنب على الأريكة البلّوطيّة ساكنين وكأنّهما نائمان. وكانت المحطّة خاليةً في تلك الساعة. أغلق الحارس الأبواب المؤدّية إلى الأرصفة. عند ذاك تكلّم تليغين دون أن يفتح عينيه:

– شكراً، فاديم...

ارتجفت يد روتشين بشدّة. نهض إيفان إيليتش بخفّة، وسار نحو المخرج إلى الساحة بمشيةٍ هادئة دون أن يلتفت. وبعد دقيقة اندفع روتشين في أثره. دار حول ساحة المحطّة، حيث كان الباعة المسودّو البشرة يهومون عند بسطاتهم تحت حزم السّمك المُدخّن، في الشمس البيضاء التي أذابت إسفلت الشّارع...كانت الأوراق مُحترقةً على الأشجار، والهواء كلّه يلتهب مُفعماً بغبار المدينة.

«لو أعانقه، فقط أعانقه» وطافت أمام عيني روتشين دوائر حمراء من الحرّ. واختفى تليغين وكأنّ الأرض قد غيّبته.

في الساعة التي انطفأ فيها شفق السّهب، وغفا روتشين على تخت العربة العلويّ في نومةٍ هادئة على دمدمة عجلات القطار كانت تلك المرأة التي يبحث عنها، زوجته كاتيا التي كانت تهفو إليها روحه المُعذّبة المريضة من الدّم والكراهية، قد سارت في السّهب في عربة. كان كتفاها ملفوفتين في شال. وإلى جانبها جلست الحسناء ماتريونا كراسيلنيكوفا. صلصل حديد العربة. ونخرت خيول. وكان عددٌ كبير من العربات يمتدّ في السّهب من الأمام ومن الخلف، تحت جُنح الظّلام لليلةٍ منجمة.

كان ألكسي كراسيلنيكوف قد أطلق العَنان، وجلس على مُقدّمة العربة، وسيميون يحطّ على جنب العربة، وأوراق الأرقطيون والبرسيم تضرف في حذائه. كانت في الجوّ رائحة خيولٍ وافسنتين. وكانت كاتيا تُفكّر في شبه إغفاءة. وكانت الريح تُبرّد كتفيها. والسّهب بلا نهاية، والطّرق بلا نهاية. وعلى مرّ القُرون كانت تسير الخُيول وتصرّف العجلات، والآن تعاود سيرها مثل ظلال مضارب الرُّحّل القُدامى...

السّعادة، السّعادة حنينٌ مستديم، منطقة السّهوب، ساحل لازورديّ، أمواجٌ لطيفة، سلام، رخاء.

حدّقت ماتريونا في وجه كاتيا، وابتسمت. وكركبة الحوافر من جديد، كان الجيش يخرج من الحصار. أمَرَ الأتمان ماخنو بالسّير بهدوء. وهبطت كتفا ألكسي الثّقيلتان، يبدو أنّ النُّعاس قد غلبه. قال سيميون بصوتٍ خافض.

– لا أريد التّخلّص منكم... فلماذا تردّدون: سيميون، سيميون...

(تنهّدت ماتريونا تنهيدةً قصيرة، واستدارت، وحدّقت في السّهب). لقد قلت لألكسي منذ الرّبيع: ليس العزيز عليّ هو شريط البحّارة، بل القضيّة هي العزيزة... (صَمَتَ ألكسي). لمن الأسطول الآن؟ لنا، نحن الفلاحين. فماذا يحدث أو تفرّقنا عنه جميعاً؟ إننا نُكافح من أجل قضيّةٍ واحدة. أنتم هنا، ونحن هناك...

سألت ماتريونا:

– وماذا يكتبون لك؟

– يكتبون: من الضّروريّ العودة إلى الـمُدمّرة، وإلا فسأعتبر هارباً، خارجاً على قانون الثّورة...

هزّت ماتريونا كتفها، كانت تتضرّم غيظاً. ولكنّها ضبطت نفسها، ولم تُجب بشيء. وبعد فترةٍ من الوقت رفع ألكسي جذعه على مقدّمة العربة، وتسمّع، وأشار إلى الظّلام بسوطه:

– قطار يكاترينوسلاف السّريع...

نظرت كاتيا، ولكنّها لم تر القطار الذي كان يحمل فاديم بتروفيتش نائماً على تخت علويّ في إحدى المقاصير ولم تسمع غير صفيرٍ ممدودٍ بعيد، فأثار في نفسها حُزناً حاداً...

اتّجه فاديم بتروفيتش من المحطّة إلى محلّ الحلويّات رأساً مُستفسراً عن كاتيا. دخل في المقاهي الحارّة التي يملأ الذّباب نوافذها الـمُتربة، والشّاش الذي يُغطي الحلويات. وقرأ اللافتات البفتيّة: "فرساي"، "ألدورادو"، "الرّكن الـمُريح". ومن أبواب هذه المطاعم الصّغيرة المشبوهة نظر إليه رجالٌ سُمر الوجوه مُشوربون بعيونٍ جاحظة مثل

بياض البيضة مُستعدّون، عند الحاجة، أنْ يصنعوا كباباً من أيّ شيءٍ كان. وقد استفسر هُنا أيضاً. ثمّ أخذ يطوف على كلّ المخازن واحداً واحداً.

كانت الشّمس تلذع بلا هوادة. وكان عددٌ غفير من أخلاط النّاس يضجّ ويزدحم في الممرّات الـمُعرشة الثّنائيّة تحت أشجار الدّردار في جادّة يكترينيسكي. ودقّت عربات ترام صغيرة مهلهلةً أجراسها. قبل الحرب بدأت تُقام هنا العاصمة الجديدة لجنوب أوكرانيا. وأوقفت الحرب نُموّها. والآن، والمدينة تحت حُكم الهيتمان وحماية الألمان انتعشت من جديد، ولكن بطريقةٍ مُختلفة: فبدلاً من الدّوائر والبُنوك والـمُستودعات التّجاريّة فُتحت دور القمار، وحوانيت الـمُبادلة، ومحلّات الكباب وشراب الليمون. وحلّ محلّ صخب العمل والحركة التّجاريّة اللّغب الهستيريّ لباعة العُملة الأجنبيّة الـمُتراكضين بوجوهٍ غير حليقة، والقُبّعات مُنحدرةٌ على أقفيتهم مُتنقّلين في المقاهي ومفارق الشّوارع، وصيحات عددٍ هائل من مُلمّعي الأحذية، وباعة صُبغ الأحذية–الصّناعة الوحيدة في ذلك العهد–ومضايقات الـمُشرّدين الخُبثاء، وعويل الفِرق الموسيقيّة من «الأركان الـمُريحة»، والازدحام الأرعن للجُمهور العاطل الذي كان يعيش على بيع وشراء النُّقود الـمُزيّفة، والبضائع غير الموجودة.

جلس فاديم بتروفيتش على مسطبة تحت شجرة الأكاسيا يائساً من البحث اللامُجدي مَصعوقاً معذّباً، يمرّ به جمهور النّاس: نسوةٌ أنيقات وغربيات في ملابس مصنوعةٍ من السّتائر، وفي أزياءٍ قوميّة أوكرانيّة، نساءٌ ذوات عيونٍ مخطّطةٍ نديّة من الحرّ، على خدودهنّ المبودرة خُطوطٌ من العرق، ومضاربون مضطربون يشقّون طريقهم،

كالمجاذيب، بأذرع ممدودة خلال هذه الجمهرة من النّساء، وموظّفون هيتمانيّون مُنتفخونَ ببلاهة يشدون على قُبّعاتهم إشارةً ثلاثيّة الشّعب، وأفكارهم مشغولة بالصّفقات الماليّة ونهب أملاك الدّولة، وقوزاق هيتمانيّون ضخام عراض الأكتاف لهم رقابُ الثّيران، وغايداماكيّون مُشوربون عليهم قُبّعاتٌ صخمةٌ قرمزيّة القمّة، وقفاطين بلون السّماء الزّرقاء، وسراويل عجيبةٍ فضفاضة ظلّ المعلّمون الأوكرانيّون الاستقلاليون والرّومانسيّون الغاليسيّون يحنّون إلى لبسها قرنين من الزّمن. وسار في الزّحام ضُباطٌ ألمان مُحصّنون ينظرون فوق الرّؤوس بابتسامة استخفاف...

نظر روتشين واعتمَل الغيظ في قلبه. "لو يُصبّ كيروسين على هذه السّفالة وتُحرق..." شَربَ في كشك مكشوف قدحاً من عصير الفواكه، وسار مرّةً أخرى من بابٍ إلى باب. الآن فقط أخذ يُدرك لا جدوى هذا البحث. إنّ كاتيا في مكانٍ ما، هُنا، في هذا الزّحام نصف المجنون، وحيدة، بلا نُقود، قليلة الخبرة، وَجِلة، هدّتها الـمُصيبة (وتذكّر في ذعرٍ حادّ ومرّةً بعد أخرى قارورة السّم التي كانت تحملها في شقّة موسكو)...تمسّها الأيدي اللزجة لباعة العُملة والقوّادين، وأصحاب المطاعم، وتتفرّسها العيون الخبيثة...

وضاقت أنفاسه...سار في الازدحام مُباعداً بين مرفقيه غير رادٍّ على الصّيحات ولا على السّباب. وفي المساء استأجر غرفةً في فندق بثمنٍ باهظ، وهي عبارةٌ عن خصٍّ مُعتم لم يكن يسع إلّا لسريرٍ حديديّ عليه فراشٌ مُهلهل. وخَلع حذاءه، واستلقى، وبكى صامتاً بلا دُموع ضاماً رأسه الأشيب بين يديه.

عَبَرَ تليغين حُدود منطقة الدون مشياً، وأخفى كتافيّتي المقدّم في كيس متاعه، واستقلّ القطار إلى تساريتسين، ومنها رَكِبَ باخرةً ضخمة مُكتظّةً من سطحها الأعلى حتّى قعرها بالفلاحين والجُنود والـمُقاتلين والهاربين من وحداتهم، واللاجئين. وفي ساراتوف أظهر وثائقه إلى اللجنة الثّوريّة، وركب باخرة الجرّ إلى سيزران، حيث كانت الجبهة التشيكوسلوفاكيّة.

كانت الفولغا مُقفرة، كما في الأزمنة شبه الأسطوريّة، حين وصل فرسان جينكيز خان إلى شاطئها الرّمليّ ليرووا خيولهم من نهر "را" العظيم. سارَ النّهر العريض الصّقيل بين الشّطئان الرّمليّة العالية ومُروج الفيضان، التي نما فيها الصّفصاف. وكانت القُرى القليلة مهجورة. وإلى الشّرق امتدّت سُهوبٌ منبسطة، في موجات الحرّ، في السّراب. ومرّت انعكاسات السّحب على الماء عائمةً ببطء. ودواليب الباخرة وحدها كانت تضرب الماء اللازورديّ في السّكون بهِمّة.

كان إيفان إيليتش يرقد على سطح السّفينة الحار تحت بُرج القُبطان. كان حافياً وفي قميص قطنيّ غير مُحزّم، وقد نما شعرٌ أشقر على خدّيه. كان يتمتّع، كالقطّ في الشّمس، بالسّكون والرائحة الرّطبة لزهور الـمُستنقعات، ورائحة عشب السّهب الجافّة الآتية من الشّطآن المنخفضة، ودفقات النّور اللانهائيّة. لقد كان ذلك ذروة الراحة.

كانت الباخرة تحمل السّلاح والذّخيرة لأنصار الأقضية السّهبيّة. وكان جنود الجيش الأحمر الذين يُصاحبون الحُمولة مُسترخين من الهواء الطّلق، بعضهم نائم، والبعض قد نال قسطه من النّوم فراح يُغنّي الأغاني ناظراً إلى الرّحاب المائيّة. وكان آمر الفصيلة الرّفيق خفيدين،

وهو من بحارة البحر الأسود، يؤنّب الجنود عدّة مرّاتٍ يومياً على انعدام الوعي، فكانوا يجلسون ويستلقون بالقرب منه واضعين خدودهم على أيديهم.

كان يقول لهم بصوتٍ مبحوح:

– يجب أن تفهموا يا إخوان، إننا لا نُقاتل دنيكين، ولا نُقاتل الأتمان كراسنوف، ولا نقاتل التشيكيين، بل نُقاتل البرجوازيّة الدّمويّة كلّها في نصفيّ الكُرة الأرضيّة...يجب أن نضرب البرجوازيّ في العالم كلّه ضربةً مُميتة، قبل أن يجمع قُواه كُلياً...نحن، الروس (وقد نطق بهذه الكلمة في وضوحٍ وتضخيم) موضع عطف أشقّائنا الحميمين، بروليتاريّي جميع الطّفيليّين عندنا، ونهبّ لمساعدتهم في النّضار الطّبقيّ...هذا مفهومٌ بدون كلام، يا إخوان. لا يوجد مَنْ هو أشجع من الجنديّ الروسيّ في العالم، إذا استثنينا بحّار الأسطول الأحمر، ولهذا فإنّ أمامنا جميع الفرص. مفهوم يا أرباب الحُسن؟ أنا أتحدّث بديهيّات، اليوم تخوض معارك قرب سامارا، وبعد مدّةٍ غير طويلة ستخوض معارك في جميع القارّات...

أصغى الجُنود وأبصارهم معلّقةٌ على فمه. وأبدى أحدهم ملاحظةً بهدوء:

– نعم...اختلط الحابل بالنّابل...في العالم كلّه!

إلى اليسار بدت جبال خفالين زرقاء. نظر الرّفيق خفيدين في المنظار. وبدت بلدة خفالينسك الـمُسترخية الناعسة أكثر وضوحاً من وراء كتل الأشجار. وكان على الباخرة أن تتزوّد بالنّفط منها.

وقف القبطان الأشيب عند مُدير الدّفّة. تفرّع النّهر إلى ثلاثة فروع

ملتوياً حول جُزيرات الصّفصاف الغرينيّة وكان مجرى الملاحة صعباً. تقدّم خفيدين من القبطان:

– لا يُرى شخصٌ واحد في البلدة. ما الخبر؟

قال القُبطان:

– يجب التّزوّد بالنّفط حتماً، ومهما كلّف الأمر.

– ارسِ، إذا كان ذلك ضرورياً.

وحين اقتربت الباخرة من جزيرة كادت أغصان القصب تمسّ أغلفة الدّواليب فأخذت تصفر وتستدير. وفي تلك الآونة ارتفعت أصواتٌ حادّة من الصّفصاف الكثيف في الجزيرة:

– قف! قف! إلى أين سائر؟

سَحَبَ خفيدين الـمُسدّس من قِرابه. وتراجع الملّاحون من حاجز الباخرة. وماج الماء تحت دواليب الباخرة.

وارتفعت أصوات:

– قف، قف!

وخشخش الصّفصاف، واندفع بعض الناس إلى الشاطئ، وظهرت وجوهٌ حمراء مُنفعلة، وأذرعٌ ملوّحةٌ مشيرةٌ إلى البلدة. وكان من المتعذّر فهم أيّ شيءٍ من الضّجيج. وأمطر خفيدين الجميع بوابلٍ من شتائم البحارة. ولكنّ كلّ شيءٍ اتّضح بدون حاجةٍ إلى ذلك. تصاعدت أدخنةٌ من الرّصيف في البلدة، وانطلقت رصاصاتٌ على النّهر. لقد كان الحرس الأبيض يحتلّ خفالينسك. وتبيّن أنّ الناس في

الجزيرة هُم بقيّة الحامية الهاربة، وجزءٌ منهم من أنصار المنطقة. كان بعضهم مُسلّحاً، ولكن لم تكن لديهم ذخيرة.

انطلق الجُنود الحُمر إلى المقاصير لجلب البنادق، واحتلّ خفيدين نفسه مكان القبطان، وراح يشتم في عرض النّهر كلّه بشتائم جعلت الناس في الجزيرة يهدأون في الحال. وظهرت البسمات على الوجوه. وبسورة الحماس أراد خفيدين أن يُهاجم البلدة من الباخرة هُجوماً مُباشراً وفي الحال. إلا أنّ إيفان إيليتش أوقفه. وأثبت له في نقاشٍ قصير بأنّ من غير الـمُمكن القيام بالهجوم دون إعداد، وأنّ من الضّروريّ أن تصاحبه حركةٌ التفافيّة، وأنّ خفيدين لا يعرف قوّة العدوّ، فقد تكون لديه مدفعيّة.

كَزَّ خفيدين على أسنانه، إلا أنه وافق. تحرّكت السّفينة حركةً خلفيّة مع تيار النّهر تحت الرّصاص، واقترب من الناحية الغربيّة من الجزيرة، حيث البلدة محجوبةٌ بغابة. ورست هناك. تناثر الناس من الجزيرة على الشّاطئ الرمليّ. وكانوا حوالي خمسين شخصاً مُهلهلين شُعثاء.

وصاحوا:

– اسمعوا ما نقول لكم، يا شياطين.

– زخاركين قادمٌ لنجدتنا مع أنصار بوغاتشيفيسك.

– منذ ثلاثة أيام بعثنا إليه رسولاً.

وذكروا أنّ البرجوازيين في البلدة استولوا بهجوم مُسلّح مباغت على مقرّ السوفييت والتّلغراف والبريد. ووضع الضُّبّاط كتّافيّاتهم، وهجموا على التّرسانة، وأخذوا الرّشاشات. وتسلّح طُلاب المدارس

والتّجار والموظّفون، بل وإنّ شَمّاس الكنيسة خرج إلى الشارع ببندقيّة صيد. و لم يكن أحدٌ يتوقّع هذا الانقلاب، فلم يلحقوا في أخْذ بنادقهم.

– تفرَّق أمراء وحداتنا. خانونا...

– نحن نركض كالخراف.

فلم يكن من خفيدين إلا أنْ قال:

– آه، يا لكم، يا جنود البرّ...

عقد الجميع على الشاطئ اجتماعاً عسكرياً مُشتركاً. وانتخب تليغين سكرتيراً. وطرحوا هذا السّؤال: هل يسترجعون خفالينسك من البرجوازيين أم لا؟ وقرّروا استرجاعها. ثمّ السّؤال الثاني: هل ينتظرون أنصار بوغاتشيفسك أم يستولون على البلدة بقواهم؟ وجرى نقاشٌ حول ذلك. بعضهم صار يصرخ: يجب الانتظار لأنّ لدى أنصار بوغاتشيفسك مدفعاً، والآخرون قالوا إنّ الانتظار غير مُمكن، لأنّ سُفناً للبيض ستأتي من سامارا بين لحظةٍ وأخرى. وضَجر خفيدين من النّقاش، وهزّ ذراعه متضايَقاً.

– كفى كلاماً، يا رفاق. نُقرّر بالإجماع أن تكون خفالينسك بأيدينا في المساء. سجّل المحضر، يا رفيق تليغين.

في تلك الآونة ظهر فرسانٌ على المرتفع في الضّفّة اليُسرى. في البداية لاح اثنان، ثمّ أربعة، ولمّا رأوا الباخرة انطلقوا عائدين. ثمّ تغطّت الضّفة كلّها بالفرسان حالاً، ولمعت في الشّمس سناك عريضة مصنوعةٌ من المناجل. وبدأ أهل خفالينسك يصرخون:

– آي...من أنتم؟

ردّوا عليهم من الضّفّة الأخرى:

– فصيلة زاخاركين، من جيش بوغاتشيفسك للفلاحين...

تَناول خفيدين الميكروفون، وصاح موتّراً عروق رقبته:

– يا إخوان، جئناكم بأسلحة. انزلوا إلى الجزيرة...سنستولي على خفالينسك...

صاحوا من هناك:

– حسناً...عندنا مدفع...اجلبوا الباخرة إلى هنا...

كان الفرسان على الشاطئ إحدى فصائل جيش الأنصار للفلاحين، الذي كان يُقاتل في سهوب سامارا ضدّ النواحي التي اعترفت بسلطة حكومة سامارا الـمُؤقّتة.

وقد تكوّن هذا الجيش بعد احتلال التشيكوسلوفاكيين لسامارا مُباشرة. وكانت مدينة بوغاتشيفسك–التي كانت هناك من قَبْل تُسمّى نيقولايفسك–مركزاً لتشكيله. وقد اجتمع هناك جميع ذوي الرّؤوس الحارّة الذين كانوا يحبّون ركوب الخيل، وجميع الذين حصرهم مُشتري الأرض الشّهير شيخوبالوف إلى رُقعة ضيّقة من الأرض، وكلّ الذين يتنافسون على الأرض مع قوزاق الأورال الأغنياء، وكلّ الذين طفحت نفوسهم التي ولدت في السّهوب الشاسعة، حيث تتماوج سنابل القمح طليقة، والفلاح يسير وراء المحراث الثّقيل يحثّ الثيران البطيئة.

كان العدوّ يظهر في كلّ مكان مثل سراب السّهب. وكانت الاجتماعات تُعقد في القرى، والفلاحون الأغنياء، وضُباط الصّفّ

في الجيش القيصري والـمُحرّضون المتنكّرون القادمون من سامارا يصرخون أنّه لا يوجد قانون يُجيز للفلاح الفقير، والعامل الزّراعيّ، والمتشرّد الذي لا أرض له أن يحكم النّاحية، وينتزع الأرض والحُبوب من الفلاحين الموسرين. وكان الاجتماع يقرّر إرسال الرُّسل إلى القرى المجاورة لحفر الخنادق والتّخندق فيها. وكانت ناحيةٌ كاملة تنهض في الحال، ويخرج أهلها السّلاح من أماكن سريّة، ويشقّون أخاديد بالمحراث للحدود، ويحفرون خنادق لعشرات الفراسخ.

وفي بعض المناطق كانوا يعلنون جمهوريّةً تابعةً لحكومة سامارا. وتعهد حراسة المنطقة إلى الفرسان، ويُجنّد المشاة في حالة هجوم الحمر فقط. وكان الفرسان يتسلّحون بالمناجل التي تربط مقابضها بالعصيّ الطّويلة. وكانت الجيوش الكولاكيّة هذه رهيبة. كانت تظهر بصورةٍ مفاجئة من اغبشاش السّهب وتهجم في سحب الغبار على صفوف الجنود الحُمر ورشّاشاتهم. وكانوا يُقاتلون الأهالي: الأخ أخاه، والأب إبنه، والعرّاب عرّابه، ولهذا كانوا يُقاتلون بلا شفقةٍ ولا خوف. وبعد أن يحطّموا الحُمر يتسلّح الفرسان بالرّشاشات والبنادق، ولكنّهم لا يتخلّون عن المناجل.

لم تبق مدوّنات ولا أرشيفاتٌ عسكريّة من هذه الحرب الفلاحيّة الكبيرة في سهوب سامارا التي ما تزال تتذكّر حملات إيميليان بوغاتشيوف. إلّا إذا جلس أبٌ وابنٌ في عيدٍ دينيّ ومعهما جردلٌ من النّبيذ يتناقشان عن المعارك السابقة وأحدهما يؤنّب الآخر عن الأخطاء الاستراتيجيّة. فيقول الاب:

– هل تذكر، يا ياشكا، كيف أخذتم تضربوننا بالمدفع قرب كولدييان؟ فأقول لنفسي: إنّه بالتّأكيد ابني ياشكا هذا، ابن كلبة...

لم أقطع أذنيه في حينها...وأوقعنا في قلوبكم الرّعب...من حُسن حظّك أنّك لم تقع في يدي في ذلك الحين...

– هذا تبجّح..نحن الذين انتصرنا...

– لا بأس. ستسنح فُرصة، وسنختلف من جديد.

– وليكن، سنختلف...كنت كولاكا وبقيت على وجهة نظرك الدّمويّة.

– لنشرب، يا بُنيّ!

– لنشرب، يا أبَتِ!

اقتربت الباخرة من الضّفّة اليُسرى. وأُلقي الممشى الخشبيّ، وصعد إلى السفينة زاخاركين آمر فصيلة بوغاتشيفسك. وهو شخصٌ ذو أنف معكوف مثل منقار النّسر. وكان شديد القوّة كثير العضل حتى أنّ الألواح قرقعت تحت قدميه. وكانت السّترة النّاحلة التي يرتديها مفتوحةً تحت الإبطين، والسّيف المعكوف يضرب حذاءه العالي. وكان أشقّاؤه الكبار، وهم فلاحون من ناحية أوتيف قوّاد فرق.

وصعد وراءه ستّةٌ من الأنصار–هيئة الآمريّة–في ملابس مثيرةً الدّهشة غير اعتياديّة: قمصانٌ ناحلة اللون، مغبرّة، مقطرنة، ومفتوحة الياقات، بعضهم في أحذية لباديّة شكّلت عليها مهاميز، وبعضهم في أحذية ليفيّة. وكانوا مُسلّحين بأسلحةٍ شتّى: أشرطة رشّاشات، قنابل يدويّةٌ في أحزمتهم، حرابٌ ألمانيّةٌ عريضة، بنادق مقطوعة.

التقى زاخاركين وخفيدين على بُرج القُبطان، وتصافحا مُصافحةً قويّة. وقدّمت السّكائر. عَرَضَ خفيدين الموقف العسكريّ باختصار.

قال زاخاركين:

– أنا أعرف من يصطاد في الماء العكر في خفالينسك. إنّه كوكوشكين، رئيس الإدارة المحليّة الذاتيّة...أودّ أن أمسكه حياً.

قالت خفيدين:

– والمدفع؟ هل هو في حالةٍ جيّدة؟

– يشتغل، ولكن على العيان، بلا جهاز تسديد. نُسدّد من خلال الماسورة. ومع ذلك فهو يقصف. إذا أطلق هدّم برج جرس أو مضخّة ماءٍ كلياً!

– حسناً. وما رأيك، يا رفيق زاخازكين، بالإنزال وحركة الالتفاف؟

– نُلقي بالخيّالة إلى الضّفّة الأخرى. هل تستطيع الباخرة أن تحمل مائة مُقاتل؟

– ببساطة، على مرّتين.

– إذن، فالأمر مضبوط. عندما يحلّ الظّلام نُنزل الخيّالة في مكانٍ في أعلى البلدة. وننصب المدفع على السّفينة. ونبدأ الهُجوم عند الفجر.

عَهِدَ خفيدين إلى إيفان إيليتش قيادة جنود الإنزال من الـمُشاة الذين أوكل إليهم مُهاجمة الأرصفة من الأمام. وفي الغسق سارت الباخرة بحذر وبدون ضوءٍ إلى الفرع الجانبيّ من الفولغا بمحاذاة جزيرة. وفي السّكون لم يكن يُسمع غير صوت الملّاح الذي يقيس عُمق الماء.

وفي أثر الباخرة سارت فصيلة بوغاتشيفسك على الشاطئ. وزّعت الأسلحة على رجال خفالينسك، فاستلقوا على الرّمل. سار تليغين بحذاء حافّة الماء، متأكّداً بنفسه من أنّ أحداً لا يُدخّن أو يُشعل ناراً. وكانت طرطشة الماء على الرّمل خفيفة لا تكاد تُسمع. وفي الجوّ رائحة زهور المستنقعات، وطنين بعوض. وران الهدوء على الرّجال الـمُستلقين على الرّمل.

أمسى الليل أكثر ظلاماً ونعومة، وتناثرت النّجوم في السّماء. وتصاعدت من الشاطئ السّهبيّ رائحة الأفسنتين الجافّة، وشَدَتْ طيور السّلوى. وظلّ إيليتش يسير بمحاذاة الماء مُغالباً النُّعاس.

وحين أخذ الليل يتجاوز نصفه، فقدت السّماء ظلامها المخمليّ، ومن بعيد، وراء النّهر ترامى صوت ديك الفجر، ودمدمت دواليبٌ على الماء الـمُغشى بنقاب خفيف من الضّباب. ودنت الباخرة. عين إيفان إيليتش قُرص مُسدّسه، وأحكم شدّ حزامه على بنطلونه، وسار بين النائمين، مطبطباً على أرجلهم بِعَصاً صغيرةً وقال:

– رفاق، استيقظوا.

– نهض الرّجال مُسرعين مُهتاجين، مرتجفين من رطوبة الهواء والنّعاس عالقٌ بأجفانهم، فلم يُدركوا في الحال ما عليهم أنْ يفعلوا... ذهب الكثيرون منهم ليشربوا الماء من النّهر مُنزلين رؤوسهم فيه. أصدر تليغين أوامره بصوتٍ خفيض. وكان يجب إيجاد تغطية، فأخذ الـمُقاتلون يخلعون ثيابهم، ويعبّئونها رملاً، ويصفّونها على طول جانب الباخرة. وعملوا صامتين، فلم يكن في الأمر مُزاح.

بدأت الدّنيا تتنوّر. وانتهت الاستعدادات، ونُصب مدفعٌ جبليٌّ

صغيرٌ صدئ في مقدّمة الباخرة. وصعد على ظهر الباخرة خمسون من الـمُقاتلين، واستلقوا وراء زكائب الرّمل. ووقف خفيدين على الدّفّة:

– السّير قُدماً في أقصى سُرعة!

ماج الماء تحت الدّواليب. ودارت الباخرة بسرعة حول الجزيرة، واتّجهت نحو البلدة في المجرى الرّئيسيّ. لاحت أنوارٌ صغيرةٌ صفراه هناك. وفي الخلف برز خطّ جبالٍ مغبش تحت جنح الليل. والآن صارت أصوات ديكة الفجر تصل أعلى من ذي قبل. وقف إيفان إيليتش بالقرب من المدفع. وكان لا يستطيع أن يتصوّر أنّهم بعد قليل سيتوجّب عليهم إطلاق النار في هذا السّكون الـمُسترخي. قال أحد أهالي خفالينسك بصوت رقيق، وهو رجلٌ وديع يُشبه قندلفت ميال لصيد السّمك، تطوّع لأَنْ يكونَ مُسدّداً:

– يا عزيزي الرّفيق الآمر، ماذا لو نسدّد على البريد مُباشرة؟ بدقّةٍ تامّة... انظر، هُناك ضوءاث أصفران...

صاح خفيدين في الميكروفون:

– التّسديد على البريد! تهيّأ! المدفع! على العيان!

قرفص المدفعيّ، ونظر عبر ماسورة المدفع، ووجهها نحو الضّوءين. ووضع قذيفة. واستدار نحو تليغين:

– أيّها الرّفيق العزيز، تنحّ قليلاً، فمن الـمُمكن أن ينفجر هذا المدفع...

هَتَفَ خفيدين:

– نار!

انطلق المدفع إلى الوراء وصدرت منه قرقعةٌ ونورٌ ساطع. ومرّ الهدير على الماء، وتردّد الصّدى في الجبال. توهّج انفجار بالقرب من الضّوئين الأصفرين، وتردّد صدىً آخر في الجبال.

صاح خفيدين وهو يُدير الدّفّة:

– نار، نار! من الجانب الأيسر نارٌ سريعة! طلقاتٌ على الأوغاد!

وطبطبَ بقدميه، واحتدّ، وزعق بكلمات شنعاء. وانطلقت من جانب الباخرة طلقةً اعتباطيّة. اقترب شاطئ خفالينسك بسرعة. عبّأ المدفعيّ بعناية، وأطلق من جديد. وكان تُرى الشّظايا تتطاير من زربية. وبدت بوضوحٍ الآن معالم البيوت الخشبيّة، والحدائق وأبراج الأجراس.

وفي الأسفل عند الأرصفة أخذت تومض ومضات نارٍ من بنادق. وفجأةً صدر الصّوت الذي كان تليغين يخشاه: لَعلعَ رشّاشٌ بسرعة ووضوح. انطبقت أصابع رجليه كالعادة، وكأنّ شرايين جسده كلّه قد تقلّصت. قرفص تليغين عند المدفع، مُشيراً للمدفعيّ إلى مبنىً طويل على مُنحدر.

– حاول أن تُسدّد على ذلك الطّرف الذي فيه أجمات...

قال المدفعيّ:

– آه، هذا البيت جيّد. ولكن لا بأس.

وانطلق المدفع للمرّة الثالثة. وسَكَتَ الرّشاش لحظة، ثمّ انطلق في

مكانٍ آخر إلى الأعلى من مكانه الأوّل. استدارت الباخرة دورةً حادّة، واندفعت بسرعةٍ نحو الرّصيف. وضرب الرّصاص في الأعلى–على المدخنة والصّارية.

صاح خفيدين:

– لا تنتظروا الوصول إلى الرّصيف، اقفزوا. هورا، يا فتيان!

صرف وقرقع حاجز الرّصيف. قفز تليغين أولاً، واستدار نحو رجال خفالينسك الذين كانوا يزحفون عبر الحواجز.

– ورائي! هورا!

ركض على الألواحِ إلى الشاطئ. وتبعه الرجال هاتفين. وأطلقوا النار، وركضوا، وتعثّروا. كان الشاطئ خالياً. لاح وكأنّ بعض الأشخاص يندفعون إلى بساتين كثيفة الأشجار. وانطلقت رصاصات من فوق بعض السّطوحِ. وعلى مسافةٍ بعيدةٍ جداً على التّلال لعلع رشاشٌ على فتراتٍ متقطّعة، ثمّ صَمَتَ، وبعدَ ذلك أطلق نيرانه مرّةً أو مرّتين. إنَّ العدوّ لم يشتبك في المعركة. وجد تليغين نفسه في ساحةٍ متعرّجة. جَمع الرّجال مُتلفّتاً لاهث الأنفاس. كان باطنا قدميْه الحافيتين يلذعانه، فلا بُدّ أنّه قد جلطهما في حجر. وكان في الجوّ رائحة غُبار. وكانت البيوت الخشبيّة مُغلقة الصّفاقات. وما من حركةٍ حتى في أوراق الليلق والأقاسيا. وفي أحد الأركان بيتٌ من طابقين له برجٌ من طرازٍ ريفيّ نُشرت على حبلٍ في شرفته أربعة أزواج من السّراويل الدّاخليّة. فكر تليغين مع نفسه: «ستسرق». كانت البلدة تبدو غارقةً في نومٍ عميق. والقتال والتّراكض والصّياح مجرّد أحلام.

سأل تليغين عن مركز البريد والتّلغراف ومحطّة الماء، وأرسل إلى

كلٌّ منها فصيلاً من عشرة رجال. سار المُقاتلون، متوتّري الأعصاب متوثّبين إلى الوراء يرفعون بنادقهم عند كلّ خشخشة. ولم يكتشف العدوّ في أيّ مكان. بدأت الزّرازير تصدح، والحمامات تطير من فوق السّطوح.

احتلّ تليغين بفصيلته مقرّ سوفييت البلدة، وهو مبنىً آجريّ ذو أعمدة مُقشّرة. كانت الأبواب مفتوحة، والسّلاح مُكوّماً في الرّواق. خرج تليغين إلى الشّرفة. فرأى تحته حدائق كثيفة، وسُقوفاً لم تُطْلَ منذ زمان، وشوارع ترابيّة ضيّقة مقفرة. سكونٌ ريفيّ. وفجأةً تردّد من بعيد ناقوس خطر. ارتفع فوق البلدة صوت ناقوسٍ مُكرب سريع رنّان. ومن المكان الذي انطلق منه الصّراخ النّحاسيّ للنّجدة بدأ إطلاق نارٍ سريع، وانفجارات قنابل يدويّة، وصيحات، وكركبة خيولٍ ثقيلة، وعويل. إنّهم جنود زاخاركين للإنزال كانوا يسدّون الطّريق على العدوّ المتقهقر إلى الجبال. ثمّ مرّ فرسان في شارع جانبيّ يضربون الأرض بنعال خيولهم المعدنيّة. وعاد السُّكون إلى كُلّ شيءٍ من جديد.

نزل إيفان إيليتش نحو الباخرة على مهل، وأبلغ بأنّ البلدة قد احتلّت. واستمع خفيدين إلى البلاغ ثمّ قال:

– السُّلطة السوفييتيّة أعيدت. وليس لنا ما نفعله هنا بعد الآن. يجب أن نواصل السّير–وربّتَ بمودّةٍ على ظهر القبطان العجوز الذي كان كالميّت من الخوف وقال: –وأنت أيضاً شممت رائحة البارود. هكذا، يا أخ... أنقل إليك القيادة، فتسلّم الخفارة.

نام تليغين حتى المساء تحت دمدمة المحرّك وخرير الماء. نشر الغروب

شفقه الأحمر على النّهر. وغنّت أصواتٌ مختلفةٌ خافتة في مؤخّر السّفينة انداحت في الرّحاب المُقفرة. كان الجَمال العقيم للأفول المسائيّ يُخيّم على الشاطئ في النّهر، ويفيض في العين والقلب.

هتف خفيدين:

– ما هذه الكآبة، يا إخوان؟ غنّوا أغنيةً مرحة.

وكان قد نال قسطه من النّوم أيضاً، وشرب قدحاً من الكُحول، وصار يتمشّى الآن على السّطح الأعلى رافعاً بنطاله إلى فوق.

– لو نستولي على سيزران أيضاً! ماذا تقول، يا رفيق تليغين؟ كُنا سنُدهش الجميع لو فعلنا ذلك...

وأفرج عن أسنانٍ بيض مُقهقهاً. وكان لا يهاب الأخطار، ولا يعبأ بكآبة الغروب على الفولغا، ولا برصاصة قاتلة تنتظره في مكانٍ ما، في معركة أو من وراء مُنعطف...الظّمأ إلى الحياة والقوّة الحامية كانا يفوران فيه. وكانت ألواح السّطح تهتزّ تحت عقبيه الحافيين:

– انتظر قليلاً وسنستولي على سيزران وسامارا، وستكون الفولغا لنا.

وتغشّى الغروب بنقابٍ رماديّ. وسارت الباخرة بدون ضوء. غطّى المساء على الشّطآن فتوارت. لم يعرف خفيدين كيف يصرف قوّته فعرض على إيفان إيليتش أنْ يلعب الورق:

– إذا لا تريد أن نلعب بفلوس، فلنلعب على ضربةٍ على الأنف... فقط أن تكون الضّربة مُعتبرة.

جلسا في مقصورة القبطان يلعبان الورق على ضربةٍ على الأنف.

واحتدّ خفيدين، وصار يرفع الرّهان حتّى وصل إلى ثلاث مائة ضربةً على الأنف، ومن شدّة الاستثارة كاد يغشّ في اللعب، إلّا أنّ إيفان إليتش كان حادّ البصر: «لا، يا أخ، أنت لا تلعب مع حمقى» وربح. جلس تليغين على مقعدٍ جلسةً مُريحة، وبدأ يضرب خصمه بأوراقٍ متّسخة. حتى صار أنف خفيدين أحمر كالبنجر في الحال.

– أين تعلّمت ذلك؟

– تعلّمته في الأسر عند الألمـان. لا تدير بـوزك. مائتان وسبعة وتسعون.

– اسمع... لا تضرب أشدّ من ذلك... وإلا...

– تكذب... في الضّربات الثلاث الأخيرة يُمكنُ بشدّة.

– إذن، اضرب، يا وغد.

إلّا أنّ تليغين لم يلحق أن يضرب. دَخلَ القبطان إلى المقصورة، وفكّه يرتجف، وقبّعته في يده، وقطرات العرق تقطر من صلعته الرّماديّة.

قال في يأس:

– افعلوا ما تشاؤون أيّها السادة الرّفاق، فأنا مُستعدٌّ لكلّ شيء... لن أنقلكم أبعد من ذلك... إنّه موتٌ محتّم...

ألقى خفيدين وتليغين الـورق، وخرجا إلى سطح الباخرة. في الضّفّة اليُسرى إلى الأمام كانت أنوار سيزران الكهربائيّة تشتعل متوقّدةً كالنّجوم. وكانت سفينة ديزل ضخمة شديدة الإضاءة تسير ببطء بمحاذاة الشاطئ. وكانت العين الـمُجرّدة تستطيع أن ترى على

مؤخّرتها علماً ضخماً هو علم القدّيس أندريه الأبيض، ومعا لم مدافع مثيرة، وشخوص ضُباطٍ يتمشّون على ظهر السّفينة...

هَمَسَ خفيدين:

– لا أستطيع أن أتراجع، يا رفاق. يجب المرور، مهما كلّف الأمر. علينا أن نسير حتّى باتروكي، وهناك نقف ونُفرغ حُمولتنا...

وأَمَرَ بأنْ ينزل جميع البحّارة إلى أسفل الباخرة ويتأهّب للقتال. ورفع على الصارية العلم الثّلاثيّ الألوان. وأضيئت الأنوار الـمُميّزة. وأخيراً لاحظ من في السّفينة باخرة الجرّ. وصدرت صفّاراتٌ قصيرة تأمرها بتخفيض السُّرعة. وارتفع صوتٌ غليظ من الميكروفون هناك:

– لمن السّفينة؟ إلى أين ذاهبة؟

أجاب خفيدين:

– باخرة الجرّ «التاجر كالاشنيكوف» متّجهةٌ إلى سامارا.

– لماذا تأخّرتم في إضاءة الأنوار؟

– خوفاً من البلاشفة. –وأنزل خفيدين الميكروفون، وقال لتليغين بصوتٍ خفيض: –لو كان لديّ لُغمٌ الآن..أرسلت في طلبها من استراخان: ابعثوا ألغاماً..إنّهم قليلو الاكتراث من السّوفيتيين...

بعد صمتٍ أجابوا من السّفينة:

– سيروا إلى غايتكم.

لبس القُبطان قبّعته بيدٍ مرتجفة. وكشّر خفيدين وقلّص عينيه ناظراً

إلى أنوار السّفينة. ثمّ بصق، وذهب إلى المقصورة، حيث كسر أعواد ثقاب وهو يُريد إشعال سيكارة.

صاح على تليغين:

– تعال، واكمل ضرباتك، يا عفريت!

وبعد ساعة صارت سيزران إلى الخلف، أنزل تليغين في قارب الباخرة بالقرب من باتراكي. وفي محطّة باتريكي استقلّ قطار الساعة الثانية عشرة، وفي الساعة الخامسة بعد الظّهر نزل من محطّة سامارا مُتّجهاً إلى شقّة الدّكتور بولافين. وقد عاد إلى بزّته المجعّدة الـمُمزّقة بكتافيّتي مقدّم. سار يضرب على حذائه بنفس العصا التي أيقظ بها الأنصار ليلاً قُرب خفالينسك، ويقرأ في طريقه بفضولٍ شديد إعلانات المسارح، والنّداءات والإعلانات، كشيءٍ لم يره منذ زمان. وكانت كلّها مكتوبةً بلغتين: الروسيّة والتشيكيّة...

نهض دميتري ستيبانوفيتش بولافين رافعاً قدحاً من شراب الليمون في يده، وأخرج فوطةً من صداره، وحرّك شفتيه وقاراً، وبدا كلامه بصوتٍ معتبرٍ عميق اتّخذه في المدّة الأخيرة لمنصب نائب الوزير:

– أيها السادة، اسمحوا لي أيضاً...

كانت المأدبة مُقامةً تكريماً لممثّلي المدينة بمناسبة المسيرة المظفّرة لجيش الجمعيّة التّأسيسيّة نحو الشّمال. وكانت سيمبيرسك وقازان قد احتلّتا. وتبيّن أنّ البلاشفة فقدوا حوض الفولغا الأوسط نهائياً. وبالقرب من ميليكس كانت فُلول جيش الخيالة الأحمر، وعددها ثلاثة آلاف وخمسمائة، تستميت لتنفذ من الحصار. وفي قازان التي

احتلّها التشيكيّون بهجوم مباغت استوليَ على أربعة وعشرين ألف بودٍ من الذّهب تبلغ قيمتها أكثر من ٦٠٠ مليون روبل–أي أكثر من نصف احتياطيّ الدّولة من الذّهب. وكانت هذه الحقيقة جسيمةً وبعيدةً جداً عن التّصديق، حتّى أنّ العُقول ما تزال غير مستوعبةٍ كلّ عواقبها غير المحدودة.

كان الذّهب في طريقه إلى سامارا. و لم يكن أحدٌ قد ادّعى حقاً في ملكيّته بعد، إلّا أنّ التشيكيين قرّروا ظاهرياً تسليمه إلى لجنة سامارا لأعضاء الجمعيّة التّأسيسيّة. كان لتجّار سامارا رأيهم الخاصّ في مصير هذا الذّهب، ولكنّهم لم يعلنوه. وكانت المشاعر نحو التشيكيين الـمُنتصرين قد وصلت إلى ذروة الحماس.

كانت المأدبة حافلةً كثيرة الحُضور والحركة. وكان الكابتن تشيتشيك قائد الجيش التشيكيّ وبطل الأحداث مُحاطاً بباقة ضاحكة من سيّدات مُجتمع سامارا، ومن بينهنّ كواكب مثل أرجانوفا وكورلينا وشيخوبالوفا، مالكات الطّواحين ذات الطّوابق الخمسة وصوامع الحُبوب وشركات البواخر، وأقضيةٍ كاملة من الأراضي السّوداء الخصبة. سيّداتٌ متألّقاتٌ باللآلئ بحجم البُندق وفساتين إنْ لم تكن على الموضة كُلياً، فإنّها في حينها قد استوردت من باريس وفيينّا. وكان تشيتشيك، مثل كلّ الأبطال، بسيطاً بشكل أخّاذ ومؤدّباً. حقاً إنّ جسمه البدين يستشعر شيئاً من الحرارة، والياقة الضّيّقة لسترته الحسنة الفصال مُنغرزةٌ في رقبته الحمراء، إلّا أنّ وجهه الفتى الـمُفعم بالدّم بشاربيه الأصهبين القصيرين وعينيه اللامعتين كان يبدو وكأنّه يطلب قُبلةً تُطبع على كلا خدّيه المتورّدين. وكانت الابتسامة الساحرة لا تزايل شفتيه، وكأنّما قد أنكر على نفسه أيّ مجد، وكان مجتمع

السّيّدات أمتع له بألف مرّةٍ من هدير الانتصارات، والاستيلاء على عواصم الـمُحافظات بقطاراتها من الذّهب.

وكان يجلس قبالته رجلٌ عسكريٌّ ممتلئ الجسم مُتوسّط العُمر يضع على كتفيه شريطاً أبيض. كانت جمجمته البيضاويّة جرداءَ ضخمة مثل حصنٍ للسُّلطة. وكانت شفتاه الغليظتان تبدوان بارزتين في وجهه الشَّحيم الحليق. كان يمضغ بلا توقّف محرّكاً عضلتيّ حاجبيه، مُتفرّساً في الـمُشهّيات الـمُتنوّعة. وكانت الكأس ضائعةً في يده الكبيرة، والظاهر أنّه كان متعوّداً على الأقداح الكبيرة. شرب كأسه دافعاً رأسه إلى الوراء دفعةً قصيرة. وبقيت عيناه الزّرقاوان الذّكيّتان الصّغيرتان كعيني دُبّ لا تستقرّان على أحد، وكأنّه كان على احتراس. وكان العسكريّون ينحنون نحوه باهتمام خاص. كان هذا الرّجل هو دوتوف أتمان أورنبورغ، بطل قوزاق الأورال، وقد حلّ ضيفاً منذ وقتٍ قصير.

وعلى مسافةٍ غير بعيدةٍ عنه جلس مسيو جانو السّفير الفرنسيّ بين امرأتين جميلتين إحداهما شقراء والأخرى ذات شعرٍ كستنائيّ، وكان يرتدي بدلة سهرةٍ رماديّة فاتحة وقميصاً ناصع البياض. وكان وجهه الصّغير ذو الشاربيْن الـمُهيبين والأنف الـمُدبّب تنطبع عليه آثار الحياة الفاسقة. كان يلثغ بالراء ويميل تارةً إلى المفاتن نصف العارية للمرأة ذات الشّعر الكستنائيّ (التي ضربته بزهرةٍ على يده جزاءً على ذلك) وتارةً إلى كتف الشّقراء الورديّة اللؤلؤيّة، فكانت تضحك وكأنّ الفرنسيّ يُدغدغها. وكانت كلتا المرأتين تفهما الفرنسيّة شرط التّحدّث بها ببطء. وكان ظاهراً أنّ مفاتن النّساء قد سلبت عقل جانو المسكين. وكلّ ذلك لم يُعقه أثناء الوقفات القصيرة عن مُخاطبة بريكين

صاحب الطّاحونة الرّصين الذي وصل لتوّه من أومسك، أو رفع كأسه نخب إنجازات دوتوف الباهرة. كان اهتمام مسيو جانو بطحين سيبيريا ولحوم وزُبدة أورنبورغ قد أظهر ولاءه الحارّ نحو حركة البيض. وكان السّفير الفرنسيّ في أوقات المصاعب التّموينيّة قادراً دائماً على أن يعرض للحكومة خمسين قطاراً مُحمّلةً بالطّحين وغيره...وكانت هناك عُقولٌ متشكّكة تؤكّد أنّ لا ضير من دعوة مسيو جانو إلى تقديم أوراق اعتماده كاملة، مثلما تفعلِ أيّة حكومةٍ مُعتبرة...إلّا أنّ الحكومة فضّلت طريقةً أكثر لباقة: الثّقة بالحُلفاء.

وكان يجلس إلى المائدة أجنبيٌّ مُعتبرٌ آخر هو السّنيور بيكولوميني الأسمر السّريع النّظرات (وكان يؤكّد أنّ ذلك هو لقبه الحقيقيّ). وكان يُمثّل شخصه الأمّة الإيطاليّة في شيء من عدم التّحديد، والشّعب الإيطاليّ. وكانت بزّته الزّرقاء القصيرة مزيّنةً بشريط فضّي، وعلى كتفيه كتافيّتا جنرالٍ ضخمتان. وقد شكّل في سامارا كتيبةً إيطاليّةً خاصّة. وقد تساءلت الحُكومة بدهشة "أين تجد الإيطاليين هنا؟ الشّيطان يعلم!" إلّا أنها قدّمت المال. فهو من الحُلفاء على أيّه حال. ولم تكن تُعار له أهميّةٌ في الأوساط البرجوازيّة.

كانت الحُكومة متغيّبةً عن المأدبة ما عدا غير الحزبين: الدّكتور بولافين ومُساعد رئيس الاستخبارات سيميون سيمونوفيتش غفيادين الذي ارتفع عالياً في سُلّم الوظيفة. وقد انقضى زمن المباهج المُتبادلة، حيث كان البلاشفة يُدحرون. كانت حكومة لجنة الجمعيّة التّأسيسيّة–من الاشتراكيين–الثّوريين الجامدين عن بُكرة أبيهم–تثرثر عن مكاسب الثّورة ثرثرةً لم يكن أحدٌ يستطيع التّصديق بها غير التشيكيّين الذين ليس لهم أيّ فهمٍ في الشّؤون الروسيّة. لقد كانت حكومة الاشتراكيين–

الثّوريين شيئاً جيّداً بالطّبع، في بداية الأمر حين أقاموا انقلاباً، وكان يجب تهدئة العُمال والفلاحين. وكان تُجار سامارا أنفسهم يُردّدون شعارات الاشتراكيين-الثّوريين. وها هي الفولغا قد تحرّرت من خفالينسك إلى قازان، واحتلّ دنيكين شمال القفقاس كلّه تقريباً، وكراسنوف يقترب من تسارتسين، ودوتوف طهّر الأورال، وفي سيبيريا يظهر كلّ يوم أتمانات بيض مرعبون، وهؤلاء الشّحاذون الطّوال الشّعر فولسكي وبرُوشفيت وكليموشكين وأضرابه المُجتمعون في القصر الفخم لزعيم نُبلاء سامارا ما زالوا غير قادرين على أن يخلدوا إلى الهُدوء توّاقين إلى الجمعيّة التّأسيسيّة...تفو! وكبار التُّجار أخذوا ينتقلون بحزمٍ إلى شعاراتٍ أخرى أبسط وأمتن وأكثر فهماً...

تحدّث دميتري ستيبانوفيتش مُخاطباً الأجانب بالدّرجة الأولى:

– ...لقد انتزعت من الحيّة حمّتها. إنّها حقيقةٌ ضخمةٌ لها أهميّة نقطة التّحوّل لم يُحسب لها الحساب الكافي...وأنا أقصد بذلك السّتمائة مليون روبل ذهبيّ والموجودة الآن في أيدينا...(وقف شعر شاربي مسيو جانو، وهتف: «برافو!» راجاً القدح في يده. وتوجّهت عينا بيكولومني كعيني الشّيطان). لقد انتزعت من البلاشفة الحمّة الذهبيّة، أيّها السادة...وهم ما يزالون قادرين على اللّدغ، ولكن ليس لدغاً مُميتاً. في إمكانهم أن يُهدّدوا ولكنّهم لا يخيفون أكثر مما يخيف المُتسوّل الذي يلوح بعكّازته...ولا ذهب عندهم الآن. لا شيء غير آلة طباعة...

فَتَحَ بريكين التاجر من أومسك فمه فجأةً وضحك من هذه الكلمات ضحكاً عالياً، وهو يمسح رقبته بفوطة مُتمتماً: "آه، قضايا، قضايا، يا ربّي!"

وتابع الدّكتور بولافين قوله، وقد رنّ صوته رصيناً واثقاً، وهو أمرٌ لم يكن من قَبْل:

– أيها السّادة الـمُمثّلون الأجانب، أيّها السادة الحُلفاء... الصّداقة صداقة والفُلوس فلوس... بالأمس كُنا بالنّسبة لكم مُنظّمة أوبرا كوميديّةٍ تقريباً، تشكيلاً مؤقّتاً، مثل كدمةٍ لا بُدّ أنْ تُخلّفها ضربة... (عبّس تشيتشيك، وأبدى مسيو جانو وبيكولومني علامة استياء... وتبسّم دميتري ستيبانوفيتش ابتسامةً ماكرة). اليوم يعرف العالم كلّه أنّنا حُكومةٌ وطيدة. نحن حُراس رصيد الدّولة من الذّهب... الآن نستطيع أنْ نتّفق، أيّها السادة الـمُمثّلون الأجانب... (ونقر المائدة بأنامله بغضب). أنا الآن أتكلّم كفردٍ في دائرةٍ ضيّقة من الأصدقاء. ولكنّني أرى مقدّماً كلّ جديّة الأفكار التي أنطق بها... أنا أتشوّق إلى تحرّك البواخر بالأسلحة والأنسجة إلى الموانئ الروسيّة... ونهوض الجيوش البيضاء الجبارة، وسيف العقاب الصارم ينزل على عصابة قُطاع الطّرق الذين يعيثون في روسيا. وستمائة مليون تكفي لذلك... أيها السادة الـمُمثّلون الأجانب! نرجو تقديم العون الواسع السّخيّ للـمُمثّلين الشّرعيين للشّعب الروسي!

ومسّ القدح بشفتيه وجلس مُقطّب الحاجب ناشجاً بأنفه. وصفّق الجالسون حول المائدة تصفيقاً حاراً. وهتف التاجر بريكين:

– شكراً، يا أخ... هـذا صحيح، يا أخ، هذا يتّفق وأفكارنا: الحياة بلا اشتراكيّة...

نهض تشيتشيك، ورفع حزامه على بطنه بحركةٍ قصيرة:

– سأتكلّم باختصار...لقد قدَّمنا ونُقدّم حياتنا في سبيل سعادة الرّوس، إخواننا بالدّم...عاشت روسيا عظيمةً جبارة، هورا!

وهدرت المائدة كلّها بعاصفةٍ من التّصفيق. وصفّقت أيدي النّساء بحرارةٍ وسط الزّهور. ونهض مسيو جانو. وكان رأسه مرفوعاً إلى الوراء بعظمة، وقد أضفى شارباه الكَثّان نوعاً من الرّجولة على وجهه، وقال:

– أيّتها السّيدات والسّادة! كُنا نعرف جميعاً أنّ الجيش الروسيّ النّبيل الحالم بمجد آبائه مخدوعٌ بعصابة البلاشفة بشكلٍ خبيث. وقد بثّوا فيه الأفكار الـمُناهضة للطّبيعة، والغرائز الهمجيّة، ولم يعُد الجيش جيشاً. أيّتها السّيّدات والسادة، لا أخفي عليكم أنّه قد مرّ وقتٌ كانت فرنسا مُتردّدةً في اعتقادها بإخلاص الشّعب الروسيّ...وقد انزاح هذا الكابوس...واليوم نرى هنا أننا كنّا على خطأ، وأيّ خطأ. إنّ الشّعب الروسيّ معنا من جديد...والجيش يعترف بأخطائه... والعملاق الروسيّ مُستعدٌّ من جديد إلى تعريض صدره لرصاص عدوّنا الـمُشترك...وأنا سعيدٌ في ثقتي الجديدة...

وعندما هدأ التّصفيق نهض بيكولوميني واهتزّت كتافيّتاه الكثيفتان. ولكن لما كان جميع الحاضرين لا يعرفون الإيطاليّة، فقد صدّق الجميع بأنّه معنا، وتقدّم التاجر بريكين من شخصه الأسمر الصّغير وقبّله. ثمّ ألقى مُمثّلو رأس المال خُطبهم. وتكلّم التُّجار بشكلٍ غامض مُنمّق، مشيرين على الأكثر إلى سيبيريا، من حيث يجب أن يأتي الخلاص...وأخيراً طُلب من الأثمان دوتوف أن يقول كلمةً صغيرة. فاعترض قائلاً: «لا، أنا عسكريّ، ولا أعرف كيف أتكلّم...»

ومع ذلك فقد نهض ثقيلاً في الصّمت الذي خيّم في الحال، وتنهّد:

– يا سادة! إذا ساعدنا الحُلفاء فخيرٌ على خير، وإذا لم يُساعدونا فإنّنا سنُدبّر أمرنا مع البلاشفة بقوانا في حالٍ من الأحوال...فقط أن تكون هناك فلوس...وأنتم، يا سادة، قدّموا لنا العون المادّي...

وجأرَ بريكين بحماسٍ غامر:

– خُذنا، يا أتمان، خذنا بأحشائنا، نحن لا نبخل بشيء.

ونجحت المأدبة. وبعد الجزء الرّسميّ قُدّمت القهوة السّوداء مع الكونياك الأجنبيّ والليكور. وكانت الساعة متأخّرة. وخرج دميتري ستيبانوفيتش على الطّريقة الانجليزيّة، أي دون أنْ يستأذن.

عندما وصل دميتري ستيبانوفيتش إلى بيته في سيارة فتح الباب الخارجيّ، فتقدّم منه ضابطٌ بسرعة:

– اعذرني، هل أنت الدّكتور بولافين؟

ألقى دميتري ستيبانوفيتش نظرةً على الغريب. كان الشارع مُظلماً، فلم يتبيّن غير كتافيّتي المقدّم. حرّك الدّكتور شفتيه وأجاب:

– نعم...أنا بولافين.

– جئت إليك في أمرٍ مهمٍّ جداً جداً...أنا أفهم أنّ هذه الساعة ليست للزّيارة. ولكنّني جئت ودقَقْت الجرس ثلاث مرات.

– غداً في الوزارة من الساعة الحادية عشرة.

– أرجوك، اليوم. سأغادر في باخرةٍ ليليّة.

صَمَتَ دميتري ستيبانوفيتش مرّةً أخرى. كان في الغريب شيءٌ ملحٌ مقلق إلى أقصى حدّ. هزّ الدّكتور كتفيه:

– أحذّرك إذا كان الأمر يتعلّق بمعونة، فإنّ ذلك ليس من نطاق شؤوني.

– لا، لا، لا حاجة بي إلى معونة.

– إذن... ادخل.

اتّجهَ دميتري ستيبانوفيتش من الباب الداخليّ إلى المكتب أولاً، وفي الحال أغلق الباب المؤدّي إلى الغرف الداخليّة. فقد كان الضّوء فيها، والظاهر أنّ أحداً من أهل البيت لم ينم بعد. ثمّ جلس الدّكتور في المكتب، وأشار على الزائر بالجلوس على كرسيٍّ قبالته، ونظر بجهامةٍ إلى إضمامةٍ من الأوراق للتّوقيع، وشبكَ أصابعه.

– أيّة خدمةٍ أستطيع أن أؤدّيها؟

ضمّ الضابط قُبّعته على صدره، وقال برقّةٍ موجعة:

– أين داشا؟

ألقى الدّكتور رأسه إلى الأمام فاصطدم قفاه بظهر الكرسيّ. الآن فقط تفحّص وجه الزّائر. قبل عامين كانت داشا قد أرسلت إليه صورةً فوتوغرافيّةً لها ولزوجها. إذن، فقد كان هو. شحبَ الدّكتور فجأة، وارتعش الانتفاخان تحت عيني، فأعاد السّؤال بصوتٍ مبحوح:

– داشا؟

– نعم، أنت تليغين.

وشحب هو الآخر وهو ينظر في عيني الدّكتور. تمالكَ دميتري ستيبانوفيتش نفسه، وبدلاً من أن يحتفي احتفاءً طبيعياً بصهره الذي كان يراه لأوّل مرّة في حياته، رمى ذراعيه بحركةٍ مسرحيّة، وأصدر صوتاً غامضاً، وكأنّه مشروعُ ضحكة:

– إذن...أنت تليغين...كيف أنت؟

ولا بُدّ أنّ المفاجأة جعلته لا يُقدّم يده لإيفان إيليتش. وضعَ نظارته الأنفيّة على أنفه (لم تكن نظارته السابقة المصدوعة ذات الإطار النّيكلي، بل نظارةٌ معتَبرة ذهبيّة) وأسرع، لسببٍ ما، يفتح جرارات مكتبه الـمُمتلئة بالأوراق.

تابع تليغين حركته مُندهشاً غير فاهم شائاً. وقبل دقيقة كان مُستعداً لأن يقصّ عليه كلّ شيءٍ عن نفسه باعتباره قريباً، أباً...وفكّر الآن: "الشّيطان يعلم، ربّما اكتشفني...ربّما أضعه في موضعٍ حرج. فهو وزير، على كلّ حال..." أنزل رأسه، وقال بصوتٍ خافتٍ تماماً:

– دميتري ستيبانوفيتش، أنا لم أرَ داشا منذ أكثر من نصف عام، ولا تصل رسائل...لا أعلم ماذا جرى لها.

– تعيش، تعيش، وبخير!

قال الدُّكتور، وهو ينحني إلى الأرض حتّى الجرارات السّفلى من مكتبه.

– أنا في جيش المتطوّعين...أحارب البلاشفة منذ شهر آذار... والآن أوفدتني القيادة إلى الشّمال في مُهمّةٍ سريّة.

استمع دميتري ستيبانوفيتش وعلى وجهه تعبيرٌ وحشيٌّ للغاية،

ولكنّ ابتسامةً ساخرة سرت في شاربيه فجأةً حين سمع «مهمّة سريّة»:

– إذن في أيّ فوجٍ تخدِم؟

– في فوج سولداتسكي.

وأحسّ تليغين بأنّ الدّم يتدفّق في وجهه.

– أها...إذن، يوجد مثل هذا الفوج في جيش الـمُتطوّعين..هل ستمكث عندنا كثيراً؟

– سأغادر الليلة.

– رائع. وإلى أين بالذات؟ اعذرني، هذا سرٌّ عسكريّ، فلا أصرّ... بعبارةٍ أخرى في شؤون استخبارات؟

ورنّ صوت دميتري ستيبانوفيتش رنيناً غريباً حتّى أنّ تليغين جفلَ وتحفّز، رُغم قلقه الشّديد. إلا أنّ الدّكتور وجد في تلك اللحظة ما كان يبحث عنه.

– زوجته في صحّة جيّدة...خذ، اقرأ ما تسلّمته منها في الأسبوع الماضي...وفيه ما يخصّك أيضاً (ألقى الدّكتور أمام تليغين بعض الأوراق المكتوبة بخطّ داشا الكبير. وكتبت أمام عيني تليغين هذه الكلمات الثّمينة غير الـمُتقنة شكلاً) اعذرني، سأتركك لدقيقة. ولكن خذ راحتك.

خرج الدّكتور مُسرعاً وأغلق الباب وراءه. وكان آخر ما سمعه إيفان إيليتش كلماته التي ردّ بها على أحدٍ من أهل البيت.

– ...لا شيء، زائر...

سار الدُّكتور مُسرعاً من غرفة الطّعام إلى دهليزٍ صغيرٍ مُعتم، حيث كان يوجد تلفون من طرازٍ قديم. ووقف ووجهه إلى الحائط وأدار قبضة التّلفون، وطلب بصوتٍ خافض رقم الاستخبارات، ودعا إلى التّلفون سيميونوفيتش غفيادين شخصياً.

كانت رسالة داشا مكتوبةً بقلم نسخ، والحُروف تتضخّم بحجمها أكثر فأكثر كلّما مضت في الكتابة، وسُطورها تميل إلى الأسفل:

«بابا، لا أعرف ماذا سيحصل لي... كلّ شيءٍ مشوّش... وأنت الشّخص الوحيد الذي أستطيع الكتابة إليه... أنا في قازان... يبدو أنّني سأتمكّن من الرّحيل بعد غدّ، ولكن هل سأصل إليك؟ أريد أن أراك. ستفهم كلّ شيء. وسأفعل ما تنصحني به... لقد بقيت حيّةً بمعجزة... لا أدري رُبّما كان من الخير ألّا أعيش بعد الذي حصل... كلّ ما قالوه لي، وأوحوا به إليّ كذب، وحقارةٌ عاريةٌ نتنة... وحتّى نيكانور يوريفيتش كوليتشيك... قد وثقت به وجئت إلى موسكو بتحريضٍ منه. (سأروي عند لقائنا بالتّفصيل). حتى كوليتشيك أعلن لي يوم أمس بالحرف الواحد: "النّاس يرمون بالرّصاص، ويدفنون في الأرض أكواماً، وقيمة الإنسان رصاصةٌ من بندقيّة، والعالم غارقٌ بالدّم. بينما يجب أن أجاملك. إنّ آخرين لا يقولون حتّى ذلك، بل يأخذون المرأة للفراش رأساً". وقد قاومت، يا أبي، ثق بي... لن أستطيع أن أكون مجرّد طُعم بعد قدحٍ من الخمرة. فلو أعطي هذا الذي هو آخر ما تبقّى لديّ فإنّ النّور سينطفئ في عيني، وسأعلّق نفسي في حبل. حاولت أن أكون نافعة. في ياروسلافل عملت ثلاثة أيّام تحت النيران كمُمرّضة إسعاف... وفي الليل سقطت على الفراش ويدي وثيابي ملطّخةٌ بالدّم... وإذا بأحدهم يوقظني. ويحاول أن

يرفع تنّورتي. فأقفز، وأصرخ. إنّه صبيّ، ضابط، لن أنسى وجهه أبداً! ويشتدّ جنونه، ويسقط عليّ، ويلوي يديّ صامتاً...الخسيس! يا أبي، وأرميه بطلقةٍ من مسدّسه. لا أعرف كيف حصل هذا...يبدو لي أنّه سقط، لم أره، لا أتذكّر...وأخرجُ راكضةً إلى الشارع. حريق. المدينة كلّها تحترق، القذائف تتفجّر...كيف لم أصب بالجنون في تلك الليلة! عندئذ عزمت على الهروب، الهروب...أريد أن تفهمني، تساعدني...أُريد أن أهرب من روسيا. وعندي إمكانيّة...ولكن ساعدني على الانفصال عن كوليتشيك. إنّه يُلاحقني في كلّ مكان، أي يجرّني خلفه في كلّ مكان، وفي كلّ ليلةٍ يحدّثني نفس الحديث. ولكن، لن أريد ذلك ولو يقتلني...» وتوقّف إيفان إيليتش عن القراءة، وتنفّس، وقلب الصّفحة ببطء:

«بالـمُصادفة وقعت في يدي مجوهراتٌ كبيرة...لقد رأيت بأمّ عيني شخصاً يسحقه الترام عند بوابة نيكيتسكيه. مات بسببي، وأنا أعرف ذلك...وعندما أفقت من الإغماءة رأيت في يدي حقيبة من جلد التّمساح: لعلّ أحدهم دسّها في يدي حين أنهضوني...وفي اليوم التالي فقط تملّكني الفضول، وفتحت الحقيبة ووجدت فيها حليّاً من الألماس واللؤلؤ. وهذه الأشياء قد سرقها ذلك الشّخص من مكان ما...وكان ذاهباً للقاء معي...أفهمت؟ سرقها من أجلي...بابا، أنا لا أحاول أنْ أدخل في تفسيراتٍ قانونيّة...لقد أبقيت هذه الأشياء عندي...وفيها الآن خلاصي الوحيد...ولكن إذا ثَبُتَ لي أنني لصّة، فإنّني سأبقيها معي على أيّة حال...تتملّكني الرّغبة في الحياة بعد أن رأيت الموت بهذه الكثرة... لم أعد أؤمن بصورة الإنسان...إنّ أولئك الرّجال الطّيبين ذوي الكلمات الرّنانة الرائعة عن إنقاذ الوطن، ما هم

إلّا أوغاد، وحوش...آه، ما أكثر ما شاهدت! عليهم اللعنة! وأقول أنّ ما حصل كالآتي: زارني نيكانور يوريفيتش زيارةً مفاجئة في ساعة متأخّرةٍ من الليل، يبدو أنّه جاء من بتروغراد مباشرة...وطلب أن أغادر موسكو معه. وتبيّن أنّ منظّمتهم "اتّحاد الدّفاع عن الوطن والحريّة" قد كشفت من قبل اللجنة الاستثنائيّة، واعتقل كثيرٌ من أعضائها في موسكو. وهرب سافينكوف وجميع أركانه إلى الفوغا. وكان عليهم أن يقوموا بانتفاضةٍ هناك في ريبينسك وياروسلافل وموروم. وكانوا على عُجالةٍ شديدةٍ في ذلك. فإنّ السّفير الفرنسيّ لم يعد يعطيهم يأملون بأنّ جميع الفلاحين سينحازون إلى جانبهم. وقد أكّد نيكانور يوريفيتش أنّ أيّام البلاشفة معدودة، وكان يجب على الانتفاضة أنْ تشمل الشّمال كلّه، وشمال الفولغا كلّها، وتتّحد مع التشيكوسلوفاكيين. وأكّد كوليتشيك أنّ اسمي وُجد في قوائم المُنظّمة، وأنّ البقاء في موسكو خطر، فرحلت معه إلى ياروسلافل. وكان كلّ شيءٍ معداً هناك: كان جميع الرّؤساء في القوات، في الميليشيا، في التّرسانة من رجال منظّمتهم...ووصلنا في المساء، وفي الفجر استيقظت على أصوات طلقات...فهرعت إلى النافذة...وهي تطلّ على الفناء، ومقابلها جدارٌ آجريٌّ لكراج، وكومة قاذورات، وبعض الكلاب تنبح في البوابة..ولم تتكرّر الطّلقات، وهدأ كلّ شيء...إلا في البعيد، فقد ترامى صفير موتوسيكلات وهدير محرّكاتها...ثمّ بدأ قرع الأجراس في المدينة، في كلّ الكنائس...وفتحت البوابة في فناء بيتنا، ودخلت جماعةٌ من الضُّباط، يضعون الكتافيّات. والاضطراب مُرتسمٌ على وجوههم كلّها، وهم يلوّحون بالأسلحة. وكانوا يسوقون شخصاً بديناً حليقاً في سترةٍ رماديّة، بلا قبّعة ولا ياقة، وصداره غير مُزرّر. وكان وجهه أحمر حانقاً. ضربوه على ظهره، فاهتزّ رأسه من

جانبٍ إلى آخر، وبدا عليه الغضب الشّديد. بقي اثنان يُمسكانه عند الكراج، وابتعد الآخرون، وتشاوروا. وفي تلك اللحظة خرج من المدخل الخلفيّ لبيتنا العقيد برخوروف رئيس جميع قوات الانتفاضة الـمُسلّحة... وكنت أراه لأوّل مرّة. أدى الجميع التّحيّة العسكريّة له. إنّه رجلٌ ذو إرادةٍ جبّارة–عينان سوداوان غائرتان، ووجهٌ نحيل، وقامةٌ منتصبة، ويداه مُقفّزتان، وفي احداهما عصاً. وأدركت في الحال: إنّه الموت لصاحب السُّترة الرّماديّة. أخذ برخوروف ينظر إليه من تحت حاجبيه، ورأين أسنانه تتكشّف في غلّ. أما الرّجل فظلّ يشتم ويُهدّد ويُطالب. عندئذٍ هزّ برخوروف رأسه، وأصدر أمره، وانصرف في الحال. قفز الاثنان اللذان كانا يُمسكان بالرّجل البدين... فخلع الرّجل سُترته عنه، ولفّها، وألقاها على الضُّباط الواقفين أمامه فوقعت في وجه واحدٍ منهم تماماً–وظلّ يحمرّ وهو يلعنهم. وهزّ قبضتيه، ووقف في صداره المحلول ضخماً هائجاً. عند ذاك أطلقوا الرّصاص عليه. اهتزّ بكلّ جسمه ماداً يديه إلى الأمام، وخطا، ووقع. وظلّوا يُطلقون الرّصاص عليه بعض الوقت، وهو مطروح. لقد كان ذلك المفوّض البلشفيّ ناخيمسون...لقد رأيت إعداماً، يا أبي! والآن لن أنسى مدى الحياة كيف تشبّث في الهواء...وأكّد لي نيكانور يوريفيتش أنّ ذلك شيءٌ جيّد، فإنْ لم يقتلوه لقتلهم هو...

وما حصل فيما بعد لا أتذكّره بشكلٍ جيّد: إنّ كلّ ما حصل كان استمراراً لهذا الإعدام، كلّ شيءٍ كانَ مُشبّعاً بارتعاشات جسد إنسانٍ ضخم لم يرد الموت...طلبوا منّي أن أذهب إلى بنايةٍ صفراء طويلةٍ ذات أعمدة، وفيها صرت أطبع على الآلة الكاتبة الأوامر والنّداءات. وانطلقت الموتوسيكلات، وثار الغُبار...ودخل أناسٌ

مُستشارون، وغضبوا، وأمروا. وكانوا يتصايحون على كلّ شيء، ويمسكون رؤوسهم. ما بين فزع وآمالٍ مبالغ بها. ولكن حين كان برخوروف يحضر بعينيه القاسيّتين، ويلقيً كلماتٍ قصيرة يهدأ كلّ اللغط. وفي اليوم التالي سمعت طلقات مدفعيّة وراء المدينة. كان البلاشفة قادمين. كان أهل المدينة يتجمهرون في دائرتنا من الصّباح حتّى الليل، فإذا بها تفرغ فجأة. وبدت المدينة كالميتة. إلا سيارة برخوروف تهدر وهي منطلقةٌ به، والفصائل المسلّحة تمرّ... كانوا ينتظرون طائرات فيها فرنسيون، وقوّاتٌ من الشّمال، وبواخر محمّلة بالقذائف من ريبينسك...ولم تتحقّق الآمال. وأحاط بالمدينة طوقً معركة. وانفجرت القذائف في الشّوارع...وسقطت أبراج الأجراس القديمة، وتهدّمت البيوت، وشبّت الحرائق في كلّ مكان، ولم يكن أحدٌ ليطفئها، وغطّى الدّخان وجه الشّمس. وحتّى جُثث القتلى بقيت في الشّوارع. واتّضح أنّ سافينكوف أقام مثل هذه الانتفاضة في ريبينسك، حيث كانت مخازن المدفعيّة. إلا أنّ الجنود قمعوا الانتفاضة، وكما أنّ القرى المحيطة بياروسلافل لم تُبدِ أيّ استعداد للمُساعدة، وأنّ عُمّال ياروسلافل لم يريدوا الجلوس في الخنادق، ومحاربة البلاشفة...وكان أفظع الأشياء وجه برخوروف– كنت ألتقي به في كلّ مكانٍ في هذه الأيام. –إنّه الموت يتجوّل في سيّارةٍ بين خرائب المدينة. وكلّ ما حصل كان يبدو تجسيماً لإرادته. أبقانيً كوليتشيك عدّة أيام في سرداب. ولكنّني أشعر بذنبي أيضاً في كلّ شيء، يا أبي لو بقيتً في السّرداب لجننت. ارتديت منديلاً عليه علامة الصّليب، وعملت حتّى الليلة التي حاولوا فيها اغتصابي... وقبل سقوط ياروسلافل بيومٍ واحد هربنا، نيكانور يوريفيتش وأنا، في قارب إلى ما وراء الفولغا...وسرنا أسبوعاً كاملاً متخفّين عن الناس.

وكنا نقضي الليل تحت أكوام الدّريس، ومن حُسن الحظّ أنّ الليالي كانت دافئة. وقد تهرّأ حذائي، ودَميتْ قدماي. وقد حصل نيكاتور يوريفيتش على حذاءٍ لبادي لي من مكانٍ ما، ربّما سرقه من على سياج. ولا أتذكّر في أيّ يومٍ رأينا في غابة بتولا رجلاً يرتدي معطفاً ممزّقاً، ونعلين من الليف، وقبّعة مهلهلة. كان يسير جهماً سريعاً وباستقامة، كالمعتوه، مُعتمداً على عصا. لقد كان ذلك برخوروف، وقد هرب هو أيضاً من ياروسلافل. فزعت منه حتّى أنّني انبطحت في العُشب...ثمّ وصلنا إلى كوستروما، ونزلنا في بيتٍ عند موظّفٍ يعرفه كوليتشيك، وعشنا هناك حتى استولى التشيكيون على قازان...وكان نيكانور يوريفيتش يعتني بي دائماً كما يعتني بطفل. وأنا أشكره على ذلك... ولكنّ الذي حدث أنّه رأى المجوهرات، ونحن في كوستروما–كانت ملفوفةً في منديل جيبٍ في محفظتي التي كان يحملها في جيب سترته طوال الطّريق. ولم أتذكّرها إلا في كوستروما. واضطررت أن أروي له الحكاية كلّها، وقلت أنني إعتبر نفسي مُجرمةً بضميري. فطلع بهذا الخصوص بنظريّةٍ فلسفيّة كاملة، مُنتهياً إلى أنني لست مجرمة بل رابحة بطاقة نصيبٍ للحياة. ومنذ ذلك الحين تغيّر سلوكه نحوي، وصار مُعقّداً جداً. كما أثّر أيضاً أننا كُنا نعيش في بيتٍ ريفيّ حياةً نقيّةً هادئة، ونشرب الحليب، ونأكل عنب الثّعلب وتوت العُليق. وقد زاد وزني. وذات مرّةٍ بعد الغروب، وكُنا في الحديقة، أخذ يتحدّث عن الحُبّ بشكلٍ عامّ، وأنني قد خُلقت للحب، وأخذ يُقبّل يدي. وشعرت بأنّه لا يشكّ في أنني سأستسلم له بعد كلّ ما حصل، أتفهم، يا بابا؟ لكي لا أشرح له كلّ شيء قلت له شيئاً واحداً: "لن يحصل بيننا شيء، فأنا أحبّ إيفان إيليتش". ولم أكن كاذبة، يا بابا..."

أخرج إيفان إيليتش المنديل، ومسح وجهه، ثمّ عينيه، وتابع القراءة:

«أنا لم أكذب...أنا لم أنسَ إيفان إيليتش. فلم ينتهِ كلّ شيءٍ لي معهُ بعد...أنت تعرف أننا افترقنا في آذار. غادر إلى القفقاس للالتحاق بالجيش الأحمر...إنّه آمرٌ قدير، بلشفيٌّ حقيقيّ، رُغم أنّه ليس حزبياً...وقد انقطعت علاقتنا، إلا أنّ الماضي يربطنا ربطاً قوياً...و لم أقطع الماضي...أما كوليتشيك فقد عالج الأمر ببساطةٍ كبيرة: استلقي لننام سويّة...آه، يا بابا، إنّ ما كُنا نُسمّيه حُباً في وقتٍ من أوقاتٍ ليس إلّا حمايةً للنّفس...إنّنا نخشى النّسيان والتّحطيم...وهذا السّبب في أنّ النّظر إلى عيني مومسٍ في الليل شيءٌ مرعب...إنّها ليست إلا ظلّ امرأة. ولكن أنا، أنا حيّة، وأريد أن أحبّ، وأن أُذكر، أريد أن أرى نفسي في عيني الـمُحبّ. وأحبّ الحياة...ولو تملّكتني رغبةٌ للحظة في الاستسلام، لوقعت في أسر تلك اللحظة...ولكنني الآن لا أشعر بغير الغيظ والنّفور والرّعب...في الفترة الأخيرة حصل شيءٌ في وجهي، في قوامي، ازددت جمالاً...وأنا الآن كالعارية، وفي كلّ مكانٍ عيونٌ جائعة...اللعنة على الجمال!..أبي، أرسل لك هذه الرّسالة لكيلا يُقال شيء، حين نلتقي... لم أتحطّم بعد، فافهمني...».

رفع إيفان إيليتش رأسه. سمع وقع خطواتٍ حذرة وهمساً لعدّة أشخاص وراء الباب المؤدّي إلى الرّواق. وأدير مقبض الباب. قفز سريعاً، ونظر إلى النّوافذ...

كانت نوافذ شقّة الدّكتور غير عاليةٍ عن الأرض، على طريقة مُدن الأقاليم. وكانت النافذة الوُسطى مفتوحة. وثب تليغين إليها. كان ظلّ إنسانٍ يستلقي طويلاً كالفرجار، وظلّ آخر أطول خارج منه هو ظلّ بندقيّة.

كلّ ذلك حدث في جزء من الثانية. أدير مقبض الباب الداخليّ، ودخل إلى غرفة المكتب دفعةً واحدة رجلان في هيئة اعتياديّة مُتلاصقين كتفاً بكتف، يرتديان قُبّعتين لهما حافّتان ناتئتان، وقميصين مُطرّزين. وإلى أوّل ما رأى تليغين حين اندفعوا إلى الحجرة، ثلاث فوّهات لثلاثة مُسدّساتٍ مصوّبةٍ نحوه.

وقد حدث ذلك في الجزء التالي من الثانية. وأدرك وهو العسكريّ الخبير أنّ التّراجع أمام خصم قويٍّ سليم تصرُّفٌ غير حكيم. نقل مسدّسه "البراونينغ" إلى اليد اليُسرى، وانتزع من حزامه تحت السّترة قُنبلةً يدويّةً صغيرة لفّت عليها رسالة غيمزا، وتدفّق الدّم إلى وجهه، وهتف بصوتٍ حادّ متوتّر:

– القوا السّلاح!

وكان هذا الهتاف مفهوماً للغاية، كما أنّ هيئة إيفان إيليتش كلُها كانت مهيبةً جداً حتّى أنّ الرّجلين ارتبكا، وتراجعا قليلاً إلى الوراء. وتنحّى ذو الوجه الشاحب جانباً. إنّ ثانيةً أخرى قد كُسبت...رفع تليغين القنبلة اليدويّة فوقهم:

– القوا...

وهنا حصل ما لم يتوقّعه أحدٌ من الحاضرين ولا سيما تليغين... بعد صيحته الثانية مُباشرة ارتفعت صرخةٌ سقيمة، صوتٌ نسائيّ في ذعرٍ بالغ صادرٍ من وراء الباب من خشب الجوز الواصل بين غرفة المكتب والغرف الداخليّة...وانفتح الباب، ورأى تليغين عيني داشا الـمُتّسعتين وأصابعها الرّقيقة متشبّثةً بعضادة الباب، ووجهها النّحيل الـمُرتعش كلّه انفعالاً:

– إيفان!..

وظهر الدّكتور بالقرب منها، وأمسكها من جنبيها، وجرّها، وصفق الباب...وكلّ ذلك بَـدَّلَ خطفاً خُطط تليغين الهُجوميّة الدّفاعيّة..اندفع نحو الباب من خشب الجوز، ودفعه بكتفه بكلّ قوّته، وفرقع الباب، وهرع إلى غرفة الطّعام...كان ما يزال يُمسك في يده سلاح القتل...كانت داشا واقفةً عند المائدة ممسكةً عند الرقبة بطّتي روبها الـمُخطّط، وحُنجرتها مُتحرّكة، وكأنها تبتلع شيئاً (وقد لاحظ ذلك بإشفاقٍ شديد). تراجع الدّكتور، وكان مذعور المظهر أشعث الشّعر.

– النّجدة! غفيادين!

فحّ بصوتٍ مدحور. ركضت داشا هارعةً إلى الباب من خشب الجوز، وأدارت المفتاح فيه:

– يا إلهي، ما أفظع ذلك!

إلا أنّ إيفان إيليتش فهم كلماتها بشكلٍ آخر: فظيعٌ حقاً أنْ يهرع إلى داشا ومعه هذه الأشياء. أسرع في وضعِ الـمُسدّس والقنبلة اليدويّة في جيبه. عندئذ أمسكت داشا يده قائلة: «لنذهب». وجذبته إلى الدّهليز الصّغير الـمُظلم، ومنه إلى غرفةٍ ضيّقة، حيث كانت تشتعل شمعة على مقعد. كانت الغرفة عارية، ليس فيها غير تنّورة داشا معلّقةً من مسمار، وسريرٍ حديديّ عند الجدار عليه مفارش مُجعّدة.

همسَ تليغين:

– أنت هنا وحدك؟ قرأ رسالتك.

وتلفّت، وارتجفت شفتاه الـمُنفرجتان عن ابتسامة. لم تجب داشا، وجذبته نحو نافذةٍ مفتوحة.

– اهرب، اهرب حالاً. فقدت صوابك!..

كان الفناء يُرى من النافذة في غير وضوح، وظلال وسطوح المباني النازلة إلى النّهر، وإلى الأسفل أنوار الرّصيف النّهريّ. وكانت نسمةٌ رطبة تهبّ من ناحية الفولغا وفيها رائحة مطرٍ حادّة...وقفت داشا مُلامسةً إيفان إيليتش بجسمها كلّه، ورفعت وجهها المذعور، وفتحت فمها قليلاً...وتمتمت محدّقةً في عينيه:

– اعذرني، اعذرني. اهرب من دون إبطاء، يا إيفان.

وكيف ينتزع نفسه منها؟ انغلقت دائرة الفراق الواسعة. تخلّص من ألف موت، وها هو ينظر في الوجه الوحيد. انحنى وقبّلها. ولم تستجب له شفتاها الباردتان، بل ارتعشتا فقط.

– لم أخنك...كلمة شرف...سنلتقي، حين تتحسّن الحال... ولكن اجر، اجر. أتوسّل إليك...

لم يحبّها بهذه القوّة، حتّى في الأيام الهانئة في القرم. أمسك دموعه، وهو يُحدّق في وجهها:

– داشا، تعالي معي...أنت تفهمين. سأنتظرك وراء النّهر. غداً في الليل...

هزّت رأسها، وتأوّهت بيأس:

– لا، لا أريد.

– لا تريدين؟

– لا أستطيع.

قال :

– حسناً، في هذا الحال سأبقى.

وتراجع إلى الحائط...تأفّفت داشا، ونشجت...وفجأةً اندفعت نحوه بحدّة، وأمسكت يديه، وعادت تدفعه نحو النافذة. في الخارج صرف باب الفناء وهسهس رملٌ تحت أقدامٍ حذرة. ضغطت داشا رأسها الدافئ بقوّةٍ على يدي إيفان إيليتش...

وقال لها ثانية:

– قرأت رسالتك، فهمت كلّ شيء.

عندئذ كفّت للحظةٍ عن جذبه، طوّقت عُنقه، وألصقت وجهها كلّه في وجهه:

– إنّهم الآن في الفناء...سيقتلونك، سيقتلونك...

كان شعرها الـمُتناثر يبدو أشقر في ضوء الشّمعة. فبدت لعيني إيفان إيليتش فتاةً صغيرة، طفلة، تماماً كما تخيّلها في تلك الليل، حين كان مُستلقياً في حقل القمح جريحاً قابضاً على كومةٍ من التُّراب في قبضته، مُفكّراً بقلبها الأبيّ القلق الهشّ.

– لماذا لا تريدين أن تذهبي معي، يا داشا؟ سيعذّبونك هنا. فأنتِ ترين أيّ أناسٍ هؤلاء...مهما تكن المصائب سيكون من الأفضل أن أكون معكِ...يا طفلتي...أنت، على أيّ حال، معي في الحياة والموت، أنت مثل قلبي الذي في صدري.

قال ذلك بخفوتٍ وسرعة من زاويته الـمُعتمة. ألقت داشا رأسها إلى الوراء، ولم تترك يديه. وطفرت الدّموع من عينيها.

– سأكون وفيّةً لك حتى الموت... اخرج... افهمني. أنا لست التي تحبّها... ولكن سأكونها.

ولم يعد يسمع شيئاً آخر، فقد أسكره فرحٌ جنونيّ بدموعها، بكلماتها، بصوتها النابع من القلب. فضمّها ضمّةً قويّة جعلت عظامها تُفرقع. وهمس:

– حسناً، فهمت كلّ شيء. وداعاً.

ودفع بصدره إلى إفريز النّافذة، وبعد ثانية انسلّ من النافذة كالظّل، ولم يسمع غير وقع أقدامه الخفيف على سطح الزّريبة الخشبيّ.

أخرجت داشا رأسها من النافذة، ولكن لا شيء كان يُرى: ظلام، وأنوارٌ صفراء صغيرة في البعيد. وضغطت بكلتا يديها على موضع القلب من صدرها... لا صوت في الفناء... ولكن ها هما شخصان يخرجان من الظّل. وانحنيا، وعبرا الفناء في خطٍّ منحرف. وصرخت داشا بصوت حادّ رهيب جعل الشّخصين يدوران في عدوّهما ويتوقّفان. إنّهما على ما يبدو التفتا نحو نافذتها. وفي تلك اللحظة رأت تليغين يتسلّق حافّة السّطح الخشبيّ في نهاية الفناء. انطرحت داشا على وجهها على السّرير. وبقيت بلا حراك. ثمّ نهضت بحركة مُندفعة أخرى، وتلمّست نعلها الذي وقع من قدمها، وركضت إلى غرفة الطّعام.

رأت فيها الدّكتور وغفيادين واقفين على استعداد للقتال. الطّبيب مُمسكٌ بمسدّسٍ صغير نيكليّ، وغفيادين بمسدّس "ناغان". أسرع

الاثنان يسألان داشا دفعةً واحدة: "كيف؟.." ضمّت قبضاتها، ونظرت نظرةً مجنونة في عيني غفيادين الصّهباوين. وقالت هازّةً قبضتها أمام أنفه الشّاحب:

– وغد! سيرمونك بالرّصاص في يومٍ ما. وغد!

ارتعش وجهه الطّري، وازداد شُحوباً، وتدلّت لحيته ميتة. أبدى الدّكتور له إشارة، إلا أنّ غفيادين كان يرتعش بكلّ كيانه حنقاً.

– لا تهزّي قبضته عليّ، يا داريا دميتريفنا...أنا لم أنسَ بعد كيف تطاولت عليّ وضربتني بنعلك على ما أذكر...اخفي قبضتك... وعلى العُموم أنصحك بأن لا تزدري بي.

قاطعه الدّكتور مُستمراً في الوقت ذاته بالتّأشير به ولكن بحيث لا تراه داشا:

– أنت تُضيع الوقت، يا سيميون سيميونوفيتش.

– لا تقلق، يا دميتري ستيبانوفيتش. لن يُفلت تليغين منّا...

صرخت داشا مُندفعةً نحوه:

– لن تجرؤ! (فاحتمى غفيادين بكرسيٍ حالاً).

– سنرى: نجرؤ أم لا...أحذّرك، يا داريا دميتريفنا بأنّ "شعبة الأمن" مُهتمّةٌ جداً بك شخصياً...وبعد حادث اليوم لن أتكفّل بشيء. من الـمُمكن أن يعترضك إزعاج.

قال الدّكتور غاضباً:

– يبدو أنّك أخذت تُلقي الكلام جُزافاً. هذا شيءٌ زائدٌ عن الحدّ...

– كلّ شيءٍ يتوقّف على العلاقات الشّخصيّة، يا دميتري ستيبانوفيتش...أنت تعرف مُراعاتي لك، وميلي القديم نحو داريا دميتريفنا...

شحبت داشا فجأة. وتشوّه وجه غفيادين كلّه من التّكشيرة التي ظهرت عليه، وكأنّه انعكس في مرآة مشوّهة. تناول قبّعته، وخرج مُصلّباً علباءه لكيلا يبدو مُضحكاً من الخلف. قال الدّكتور، وهو يجلس إلى المائدة:

– غفيادين هذا رجلٌ مُخيف.

سارت داشا في الحجرة مُطقطقةً بأصابعها. وتوقّفت أمام أبيها:

– أين رسالتي؟

كان الدّكتور يحاول أن يفتح علبة سكائره الفضّية، فأرسل نشيشاً من خلال أسنانه، وتناول سيكارةً أخيراً، ودعكها بين أصابعه السّميكة التي ما زالت ترتجف.

هناك...الشّيطان يعرف...في غرفة المكتب، على البساط.

خرجت داشا، وعادت في الحال تحمل الرّسالة، وتوقّفت أمام دميتري ستيبانوفيتش ثانية. كان يحاول أن يُشعل سيكارة، إلا أنّ اللهب كان يتراقص قرب نهاية السيكارة.

قال وألقى عود الثّقاب على الأرض:

– لقد قمتُ بواجبي. (صمتت داشا). يا عزيزتي، إنّه بلشفيّ وفضلاً عن ذلك فهو يتجسّس...والحرب الأهليّة، كما تعلمين، ليست قضيّةً بسيطة، وقد تقتضي التّضحية بكلّ شيء...ولهذا

أعطينا السُّلطة. والشّعب لن يغفر الضّعف. (أخذت داشا تُمزّق الرّسالة إلى مزقٍ صغيرة في غير عُجالة، وكأنّها غارقةٌ في أفكارها). إنّه يأتي–وذلك واضحٌ وضوح النّهار– لكي يستقي منّي ما يريد، وإذا سنحت الفرصة يقتلني...هل رأيت كيف كان مُسلّحاً بقنبلة؟. في عام ١٩٠٦ رأيت بأمّ عيني كيف قتل حاكم المحافظة بلوك بقنبلة في منعطف شارع موسكاتيلنايا...ليتك شاهدت ماذا تبقّى منه–جثّةٌ بلا رأس وقطعةٌ من لحية. –وارتعشت يدا الدّكتور من جديد، فألقى السيكارة التي لم تشتعل وتناول أخرى، وتابع قوله: –منذ البداية لم أحبّ صاحبك تليغين. لطيفٌ أنّك قطعت علاقتك به...(وصمتت داشا على هذا الكلام أيضاً). بدأ بحيلةٍ بدائيّةٍ جداً. سأل أين أنت...؟

– إن أمسكه غفيادين...

– ليس من شكٍّ في ذلك، فإنّ لغفيادين استخباراتٌ ممتازة...

لقد عاملت غفيادين مُعاملةً سيّئة...إنّه رجلٌ كبير...والتشيكيّون يقدّرونه جيداً، وفي القيادة أيضاً...والفترة تقتضينا أن نُضحّي بالشخص...لخير البلاد. تذكرين الأمثلة الكلاسيكيّة...وأنت ابنتي، إذا كان رأسك محشواً بالخيالات–ضحك وسعل–فإنّه ليس بليداً...

قالت داشا بصوتٍ مبحوح:

– إنْ أمسك غفيادين إيفان إيليتش، فستفعل كلّ شيءٍ لإنقاذه.

ألقى الدّكتور نظرةً سريعةً على ابنته، ونخر من أنفه. دعكت داشا مزق الرّسالة بقبضتها.

– ستفعل ذلك، يا أبي!

– لا–صاح الدّكتور ضارباً المائدة بكفّه–لا! حماقة! أتصرّف لمصلحتك...لا!

صرخ الدّكتور:

– أنت طفلة، أنت حمقاء! تليغين وغدٌ ومجرم، ستحكم عليه المحكمة العسكريّة بالرّمي.

رفعت داشا رأسها، وتوهّجت عيناها الرّماديتان بشكلٍ لا يطاق حتى أنّ الدّكتور عقد حاجبيه ناخراً. رفعت قبضتها والأوراق المدعوكة فيها، وكأنّها تهدّد. وقالت:

– لو كان جميع البلاشفة مثل تليغين فإنّهم على حقّ.

– حمقاء!..حمقاء!..–وثب الدّكتور على قدميه مُحمراً مُرتجفاً ضارباً الأرض–يجب أن يُشنق البلاشفة مع صاحبك تليغين! على جميع أعمدة التّلغراف...أنْ تُسلخ جلودهم وهم أحياء!

إلا أنّ طبع داشا كان، على ما يبدو، أحد من طبع دميتري ستيبانوفيتش. ولكنّها امتقعت فقط، وتقدّمت منه تماماً مثبّتةً فيه عينيها غير الـمُحتملتين، وقالت:

– وضيع، ما هذه العربدة؟ أنت لست أبي، بل شخصاً مجنوناً فاسداً!

وألقت في وجهه مزق الرّسالة...

في تلك الليلة استدعى الدّكتور إلى التّلفون فجراً، ومن السّماعة صدر صوتٌ هادئ خشنٌ بعض الشّيء:

– أحيطكم علماً بأنّ جثّتي غفيادين نائب رئيس الاستخبارات وأحدُ مخبريه قد اكتشفتا تواً قرب رصيف ساموليتسكايا، وراء مخزن الطّحين...

وعلّقت السّماعة. فتح دميتري ستيبانوفيتش فمه مُبتلعاً الهواء، وانهار قُرب التّلفون في نوبةٍ قلبيّةٍ عنيفة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-١١-

بعد أن حطّم جيش سوروكين قوات دروزدوفسكي وكازانوفيتش أحسن قوات جيش المتطوّعين، غير الخطّة الأوّليّة في الخروج إلى ما وراء كوبان. وبدلاً من ذلك تحوّل شمالاً قرب قرية كورينيفسكايا، وبدأ بالهجوم على محطّة تيخوريتسكايا، حيث يوجد مقرّ قيادة دنيكين.

ظلّت المعركة الضارية مُحتدمةً عشرة أيّام. وقد اكتسح رجال سوروكين، وقد حفّزتهم النّجاحات الأولى، جميع العقبات أمام محطّة تيخوريتسكايا. ولاح الآن وكان ما من شيءٍ يستطيع إيقاف الزّحف السّريع. أسرع دنيكين بتجميع القُوات المبعثرة في كوبان. وكانت الضّراوة من الشّدّة بحيث إنّ كلّ اشتباكٍ كان ينتهي بقتالٍ بالحراب. إلا أنّ تحلّلاً قد أصاب جيش سوروكين بنفس هذا الاندفاع. واشتدّ الخصام بين الأفواج الكوبانيّة والأفواج الأوكرانيّة. كان الأوكرانيّون وجنود الجبهة القدامى يُدمّرون القرى الكوبانيّة الواقعة في طريق الهُجوم دون أن يُفرّقوا بين القرى المُؤدّية للبيض والقرى المؤدّية للحُمر.

وسادت البلبلة. كان أهالي القرى ينظرون بذعرٍ إلى الجحفل الزاحف من وراء نهاية السّهب في سُحُبٍ في الغبار. كانت دنيكين، على أقلّ تقدير يدفع ثمناً للعلف، أمّا رجال سوروكين هؤلاء فلا يعرفون إلّا

شيئاً واحداً: أنْ يكتسحوا كلّ شيء. فكان الشُّبان يمتطون خيولهم وينضمّون إلى دنيكين، والشّيوخ مع النّسوة والأطفال والماشية ينزلون إلى الوهاد الـمُنخفضة.

وهبّت قرىً كاملة ضدّ جيش سوروكين. وكانت الأفواج الكوبانيّة تصيح: "إنّهم يُرسلوننا للقتل، والأغراب ينهبون أراضينا!" وكان بيلياكوف رئيس أركان الجيش يدور بشدّة في دوامة الأحداث، مُتلمّساً رأسه ليتأكّد من أنّه ما يزال بين كتفيه. ولا عجب! فإنّ الاستراتيجيّة قد ذهبت مع الريح. وكان كل التّكتيك في الحراب الحادّة والضّراوة الثّوريّة. وحلّت محلّ الضّبط حركةٌ عاصفة لا تكبح لمجموع القوات. وكان من الفظاعة النّظر إلى القائد العام الأعلى سوروكين، فقد كان يتغذّى على الكحول والكوكائين في تلك الأيام، فكانت عيناه مُحتقنتين، ووجههُ مسوداً، وصوته مبحوحاً، يندفع كالممسوس في المقدّمة على أكتاف الجيش.

وحدث ما لا بُدّ منه. فإنّ جيش المتطوّعين الذي مرسهُ ضبطٌ حديديّ، ويخضع، كالآلة، لإرادة قيادةٍ واحدة، رُغم اندحاره وتراجعه أخذ يتحوّل إلى الهجوم الـمُضادّ مرّةً بعد أخرى مُتشبّثاً بكلّ قطعةِ ملائمة من الأرض مُتخيّراً الأماكن الضّعيفة لدى الخصم ببرودٍ واقتدارٍ. وفي يوم ٢٥ تمّوز، تفجّر اليوم العاشر الأخير من المعركة بالقرب من فيسيلكي، على بُعد خمسين فرسخاً من محطّة تيخوريتسكايا.

كانت مواقع قوّات دروزدوفسكي وكازانوفيتش أسوأ حتى من الأيام السابقة. فقد استطاع الحُمر هنا أنْ ينفُذوا إلى المؤخّرة، ووقع المتطوّعون في الكيس نفسه الذي وقع فيه البلاشفة قرب بيلايا غلينا. ولكنّ جيش سوروكين لم يكن كما كان منذ تسعة أيام. فقد فترت

الهِمَم، وبثّت صلابة العدوّ عدم الثّقة والتّشكّك واليأس: فمتى يأتي النّصر والراحة؟

بعد الساعة الثالثة بعد الظّهر انطلق جيش سوروكين بهجوم على طول الجبهة. وكانت الضّربة قويّة. وكانت المدافع تقصف في كلّ مكانٍ على طول الأفق. وسارت الصُّفوف الكثيفة بقاماتها، ولم تستلقِ. وبلغ التّوتّر ونفاد الصّبر والضّراوة ذروتها...

وبهذا الشّكل بدأ هلاك جيش سوروكين. أبيدت الموجة الأولى من المهاجمين بالنار والحراب. واختلطت الموجات التالية تحت النار بين الجثث والجرحى والساقطين. وحين وقع ما كان من غير الـمُمكن حسبانه ولا إدراكه ولا إيقافه: فجأةً ارتخى التّوتّر. ولم يعد هناك ما يكفي من القوّة والحماس.

واستمرّت عزيمة العدوّ الباردة تنزل الضّربات المحسوبة مضاعفة الارتباك...واخترق الأفواج الـمُرتبكة رجال ماركوف وفوج الخيالة من الشمال، وخيّالة أرديلي من الجنوب. وزحفت المدرّعات النّافثة للنّار، وتحرّكت قطارات البيض الـمُصفّحة. وعندئذ بدأ التّراجع والهروب والذّبح. وفي نحو الساعة الرابعة تَغطّى السّهب كلّه بجيش سوروكين الـمُتراجع جنوباً وغرباً، والمقضيّ عليه كقوّةٍ موحّدة.

ألقى بيلياكوف رئيس الأركان قائد الجيش العام في السيّارة بالقُوّة. كانت عينا سوروكين الـمُحمرّتان جاحظتين، وفمه مزبداً، وكان ما يزال مُمسكاً بيده السّوداء مسدّسه الذي نَفِدَ رصاصُه. انطلقت السيارة الـمُثقّبة بالرّصاص المسحوقة بسرعةٍ جنونيّة بين الجثث، واختفت وراء التّلال.

وتراجع الجزء الرّئيسيّ من جيش سوروكين المهزوم إلى يكاترينودار. وإلى هناك أيضاً أخذ جيش تامان (المجموعة الغربيّة من القوات الحمراء) بقيادة كوجوخ يتراجع من شبه جزيرة تامان. وكانت جميع القُرى في طريق تقهقره تهبّ مُنتفضة، وآلاف الأغراب يهربون—مع متاعهم وماشيتهم—تحت حماية جيش تامان خوفاً من انتقام القوزاق. وقطعت خيّالة الجنرال بوكروفسكي البيضاء طريق التّراجع. وبفورة الحماس استطاع جيش تامان أن يُحطّمها، ويُبعثرها، إلا أنّ تراجعه نحو يكاترينودار لم يعد مُمكناً على أيّة حال، فاستدار كوجوخ بجيشه ومع قوافل اللاجئين بحدّةٍ نحو الجنوب، إلى الجبال الـمُقفرة الوعرة آملاً أنْ يشقّ طريقه إلى نوفوروسييسك، حيث كان أسطول البحر الأسود العائد للحُمر.

الآن لم يعد شيءٌ يوقف دنيكين. فبعد أن طَهَّر الطّريق بسهولة تقدّم بكلّ قواته إلى يكاترينودار التي كانت تحتلّها فُلول جيش شمال القفقاس الذي لم يعد له وجود، واحتلّ المدينة بهجومٍ شديدٍ خاطف.

وهكذا انتهت "الحملة الجليديّة" التي بدأها كورنيلوف قبل ستّة أشهرٍ بحفنةٍ من الضُّباط.

وأضحت يكاترينودار عاصمةَ البيض. وطهّرت مناطق البحر الأسود الغنيّة بسرعةٍ من كلّ عناصر الهياج والعِصيان. وأعاد الجنرالات الذين كانوا، إلى حينٍ قريب، يُفلّون القملَ من قُمصانهم، تقاليد الدّولة العظيمة بنطاقها الامبراطوريّ القديم.

إنّ الطّريقة العتيقة السّالفة في خوض الحرب عن طريق الحُصول على السّلاح والعتاد في معركةٍ أو في غارةٍ على البلاشفة لم تعد،

بالطّبع، مُلائمةً للخُطط الـمُوسّعة الجديدة. كانت هُناك الحاجة إلى المال، وإلى سيلٍ واسع من الأسلحة والذّخيرة، وإلى تهيئة التّموين العسكريّ لحربٍ كبيرةٍ، قواعد جبارة للهجوم على قلب روسيا. فقد انتهى عهدُ الصّراع المحليّ الأهليّ، ودخلت إلى اللعبة قُوات خارجيّة جبارة. وظهر أمام القيادة العُليا الألمانيّة خطرٌ مُفاجئٌ خاصّ عَقِبَ انتصارا دنيكين الأولى في حُزيران. كان البلاشفة أعـداءً مربوطي الأيدي والأقدام باتّفاقيّة برست–ليتوفسك. وظَهَرَ دنيكين كعدوٍّ لم يعرف بعد ولم يدرُس. وبعد اندحار جيش سوروكين خرج دنيكين إلى بحر آزوف ونوفوروسييسك، حيث كان يوجد الأسطول الحربيّ الروسيّ كلّه منذ أوائل أيار.

ولم يكن الألمان محميين من ناحية البحر الأسود. وكانوا مُطمئنّين ما دام الأسطول في أيدي البلاشفة، فقد كانوا يردّون على كلّ عملٍ عدائيٍّ من جانبه بعبور الحُدود الأوكرانيّة. إلا أنّ وقوع خمس عشرة مُدمّرة ومُدرّعتين في يدي دنيكين كان يعني خطراً جِدياً في تحويل البحر الأسود إلى جبهةٍ للحرب العالميّة.

في العاشر من حُزيران قَدّمت ألمانيا للحُكومة السوفييتيّة إنذاراً نهائياً يقضي بأن يُنقل أسطول البحر الأسود كلّه خلال تسعة أيام من نوفوروسييسك إلى سيباستوبول، حيث كانت تُرابط حاميةٌ ألمانيّةٌ قويّة. وهدّدت ألمانيا، في حالة الرّفض، بالهُجوم على موسكو.

في ذلك الحين كَتَبَ رئيس أركان القوات النّمساويّة الـمُحتلّة رسالةً من أوديسا إلى وزير الخارجيّة في فيينّا:

«إنّ ألمانيا ترمي في أوكرانيا إلى هدفٍ اقتصاديٍّ سياسيٍّ مُحدّد.

إنّها تبتغي أنْ تضمن لنفسها وإلى الأبد طريقاً آمناً إلى ما بين النّهرين والجزيرة العربيّة عن طريق باكو وفارس.

والطّريق إلى الشّرق يمرّ في كييف ويكاترينوسلاف وسيباستوبول، ومنها يبدأ الاتّصال البحريّ بباطومي وترابيزوند. ولهذا الهدف تنوي ألمانيا الإبقاء على القرم لها كمُستعمرة أو بأيّ شكلٍ آخر. إنّهم لن يضيعوا من أيديهم ثانيةً شبه جزيرة القرم الثّمينة. وفضلاً عن ذلك، ومن أجل الاستفادة الكُليّة من هذا الطّريق يجب أن يكون لديهم خطّ حديد رئيسيّ، ولمّا كان تزويد هذا الخطّ والبحر الأسود بالفحم من ألمانياً غير مُمكن، فإنّ من الضّروريّ لألمانيا أن تستولي على أهمّ مناجم الدونباس. وكلّ ذلك ستضمنه ألمانيا لنفسها بطريقةٍ أو بأخرى...”

حين سُلّم الإنذار النّهائيّ في موسكو في العاشر من حُزيران حلّ لينين—دون تردّد كما هو دائماً—هذه المسألة الصّعبة ”غير القابلة للحلّ“ بالنّسبة للكثيرين. وكان الحلّ كالآتي: محاربة الألمان في الوقت الحاضر ما تزال غير مُمكنة، ولكنّ تسليم الأسطول إليهم غير مُمكنٍ أيضاً.

وغادر موسكو إلى نوفوروسييسك مُمثّل الحُكومة السّوفييتيّة الرّفيق فاخراميف. وفي حُضور موفدين من أسطول البحر الأسود وجميع أمراء السّفن عُرض الرّد البلشفيّ الوحيد على الإنذار النّهائيّ:

أن يُرسل مجلس مفوّضي الشّعب برقيّةً مفتوحة إلى أسطول البحر الأسود يأمره بالتّوجّه إلى سيباستوبول، والاستسلام إلى الألمان، ولكنّ أسطول البحر الأسود لا يُنفّذ هذا الأمر، ويُغرق سُفنه في مرفأ نوفوروسييسك. وكان الأسطول السوفييتيّ—المؤلّف من مدرّعتين

وخمس عشرة مدمّرة، وغواصات وسُفن مساعدة، والمشلول بموجب مُعادة بريست–ليتوفسك–يرسو في مرفأ نوفوروسييسك. نَزَلَ موفدو الأسطول إلى الساحل، واستمعوا إلى فاخراميف بوجوم، فقد كان يعرض الانتحار. ولكن لا بُدّ مما ليس منه بُدّ. والطّريق مُسدود. فلم يكن لدى الأسطول فحم ولا نفط. كان الألمان يحجبون موسكو، ودنيكين يقترب من الشّرق، وفي الطّرقات المائيّة تلوح منظارات الغواصات الألمانيّة في أشرطةٍ من الزّبد، وفي الازرقاق السّماوي تلمع القاصفات الألمانيّة. وتَناقشَ الموفدون طويلاً وبحرارة...ولكن لم يكن ثمّة غير مخرج واحد، هو إغراق السُّفن...ومع ذلك فقد قرّر الموفدون، وهم أمامَ هذا العمل الرّهيب، أن يطرحوا مصير الأسطول على تصويت جميع أفراده. وبدأت في مرفأ نوفوروسييك اجتماعاتٌ عامّة حضرها آلاف الناس. وصَعُبَ على البحارة أن يفهموا، وهم ينظرون إلى المدرّعتين العملاقتين الفولاذيتين الرماديّتين: "فوليا" و"سوفوبودنايا روسيا" الراسيتين، وإلى الـمُدمّرات السّريعة الحركة المؤثّلة بالمجد الحربيّ، وإلى الأبراج والصّواري الـمُعقّدة التّشابك، الشامخة فوق المرفأ، فوق جماهير الناس–صعبَ عليهم أن يتصوّروا أنّ ملكَ الثّروة الرّهيب هذا، وطنّ البحارة العائم سيغطس إلى قاع البحر دون أن يُطلق رصاصةً واحدة، ودون أنْ يُقاوم.

لم يكن بحّارة البحر الأسود رجالاً يُمكن أن يقرّروا تدمير أنفسهم بهدوء بال. صرخ الكثيرون منهم بكلماتٍ جنونيّة، ودقّوا الصّدور، وشقّوا قمصانهم البحريّة عن صدورٍ موشّمة، ووطأوا بأقدامهم قُبّعاتهم ذات الأشرطة...

وعلى طول الساحل ماجت جماهير غفيرة من البحارة والجنود

وأهل الساحل الآخرين من الفجر حتى المساء، حين ضرج الغروب المياه الليلقيّة الكئيبة التي لم تعد لهم الآن، مياه البحر اللعين. وكان قادة السّفن والضّباط ينظرون إلى الأمر نظرةً مغايرة: فإنّ الجزء الكبير منهم كان يميل سراً إلى الذّهاب إلى سيباستوبول، والاستسلام للألمان، وأما الجزء الصّغير برئاسة قائد الـمُدمّرة "كيرتش" الـمُلازم الأوّل كوَكيل فقد أدرك حتميّة الهلاك، وأهميّتها الهائلة برمّتها بالنّسبة للـمُستقبل. فكان يقول:

«يجب الانتحار، وإغلاق سِفْرِ تاريخ أسطول البحر الأسود لبعض الوقت دون تلويثه...».

وفي تلك الاجتماعات الهائلة الهائجة كالزّوبعة كان يتّخذ قراراً في الصّباح وآخر في المساء. وكان أكثر النّجاح من نصيب الذين كانوا يُلقون قُبعاتهم على الأرض ويصرخون:

«أيها الرّفاق، ليذهب الروس إلى الجحيم ليغرقوا هم أنفسهم. أما نحن فلن نتخلّى عن أسطولنا. سنحارب الألمان لآخر قذيفة...».

ويرتفع الهدير في المرفأ: هورا!

وبدأت بلبلةٌ قويّة بشكلٍ خاصّ حين قَدِمَ من يكاترينودار قبل أربعة أيام من انتهاء الإنذار رئيس اللجنة التّنفيذيّة المركزيّة لجمهوريّة البحر الأسود روبين ومُمثّل الجيش بيربينوس، وهو شخصٌ عملاق ذو هيئة رهيبة يحمل في حزامه أربعة مُسدّسات. وكانا يُثبّتان كلاهما—روبين بخطبة مُستفيضة، وبيربينوس بصوته الهادر وتلويحه بالسّلاح لا يفهمون ماذا يقولون، وأنّ جمهوريّة البحر الأسود ستُقدّم للأسطول كلّ ما هو بحاجةٍ إليه من نفط وقذائف وموادّ غذائيّةٍ كثيرة. وصرخ بيربينوس:

– إنّ أمورنا في الجبهة ماشية (وأتبعَ ذلك ببعض اللعنات) وفي الأسبوع القادم سنغرق ابن الكلبة دنيكين ورجاله في نهر كوبان... فلا تُغرقوا السّفن، يا إخوان. فنحن نحتاج في الجبهة إلى أنْ نشعر بأنّ في مؤخّرتنا أسطولاً جباراً. أما إذا أغرقتموها، فأنا أعلن باسم الجيش الثّوريّ لكوبان والبحر الأسود كلّه إعلاناً قاطعاً بأننا لن نطيق هذه الخيانة، وإننا من اليأس سنوجّه أربعين ألف حربةٍ ضدّكم، وسنطعنكم بالحِراب لآخر رجل، يا إخوان...

وبعد هذا الاجتماع تخلخل كلّ شيء، ودارت الرُّؤوس. وأخذ البحارة يغادرون السّفن على غير هُدى. وتكاثرت في الجمع عناصر مريبة كانت في النّهار تصرخ بأعلى الأصوات: «لنحارب الألمان حتى آخر قذيفة» وفي الليل يقتربون جماعات من السّفن نصف المهجورة مُستعدّين إلى الاقتحام ورمي البحارة في الماء ولينهبوا.

في تلك الأيام يُنظّف رأس البوصلة النُّحاسيّ. كان البحارة جميعاً يعملون منذ الصّباح كاشطين وغاسلين ومُنظّفين الـمُدمّرة الرّأسيّة على مقربةٍ من أحد الحواجز. كانت الشّمس الحارّة تطلع فوق التلال الساحليّة المسفوعة... وكانت الأعلام مُرتخيةً في الحرّ الساكن. كان سيميون يفرك القطعة النّحاسيّة بحماس مُحاولاً ألّا ينظر باتّجاه المرفأ. كان البحارة يُنظّفون المدمّرة قُبيل هلاكها. في المرفأ كانت الـمُدرّعة "فوليا" تُرسل الدّخان من مداخنها الهائلة. وكانت المدافع المكشوفة الأغطية تلمع في الشّمس. وكان الدُّخان الأسود يتصاعد نحو السّماء. وكان الخليج الصّقيل يعكس في مياهه السّفينة والدّخان والتّلال البُنيّة مع مصانع الاسمنت عند سُفوحها.

قرفص سيميون على عقبيه العاريتين، وراح يفرك القطعة النُّحاسيّة.

وكان في الحراسة في تلك اللّيلة، وكان يشعر بالمرارة لدى التّفكير في عبث مجيئه إلى هنا، وعدم الاستماع إلى أخيه وماتريونا...سيضحكون منه الآن: "آه إنّك أحسنت في مُحاربة الألمان...خُنتم الأسطول، يا إخوان..." فماذا يرد على ذلك؟ يقول: نظّفتُ "كيرتش" بيديّ وصقلتها وأغرقتها.

خرج من "فوليا" قاربٌ بخاريّ، واتّجه نحو السُّفن ملوّحاً بالأعلام. رفعت المدمّرة "ديرزكي" مرساتها، وسحبت "بيسبوكويني" وجرّتها ببطء إلى المجرى الخارجيّ. تحرّكت وراءها المدمّرات "بوسبشني" و"جيفوي" و"جاركي" و"غرومكي" سائرةً على الماء الصّقيل ببطء أشدّ وكأنّها مريضة. ثمّ حدث توقّفٌ في الحركة. بقيت في المرفأ ثماني مُدمّرات. ولم تُلحظ فيها أيّة حركة. كانت كلّ الأنظار الآن مُتّجهةً نحو جسم "فوليا" الفولاذي الضّخم الرّماديّ الفاتح ذي الخطوط الصّدئة على السّطح. حدّق البحارة فيها بعد أن ألقوا من أيديهم ممسحاتهم وخرقهم وخراطيم المياه. كان علم قائد الأسطول عميد البحريّة تيخمينيف يُرفرف بكسلٍ على المدمّرة "فوليا".

كان البحارة على ظهر المُدمّرة "كيرتش" يتحدّثون بأصواتٍ خفيضةٍ وبقلق:

انظروا..."فوليا" ذاهبةٌ إلى سيباستوبول...

– يا إخوان، أمعقولٌ أنّهم أوغادٌ إلى هذا الحدّ!..أمعقولٌ أنّهم بلا ضميرٍ ثوريّ!..

– لو تذهب "فوليا" فبمن يؤمن الإنسان بعد هذا، يا إخوان؟..

– ألا تعرف تيخمينيف؟ عدوٌّ لدود. ثعلبٌ ماكر!

– ذاهبة! آه، الخونة!..

وراء «فوليا» كانت ترسو الـمُدرّعة «سفوبودنايا روسيا» شقيقتها. إلّا أنها كانت تبدو ناعسةً هادئة، وقد تغطّت كلّها بالأغلفة، وما من شخص يُرى على ظهرها. اتّجهت إليها من الساحل زوارق فيها أناسٌ يجذّفون بسرعةٍ جنونيّة. وفي المرفأ الساكن الريح انطلقت صفارات عرفاء الملاحين وقرقعت الونشات على «فوليا»، وصعدت إلى فوق السلاسل الـمُبلّلة، والمراسي المغرينة. وأخذ أنف السّفينة يستدير، وتحرّكت الصّواري الـمُتشابكة والمداخن والأبـراج على خلفيّة سطوح المدينة الـمُبيّضة.

– ذهبوا..إلى الألمان...آه، يا إخوان...تستسلمون للأسر!..أيُّ شيءٍ فعلتم؟...

خرج إلى برج القيادة في المدمّرة «كيرتش» قائدها ذو الأنف الكبير المسلوخ في وجهه سوّدته الشّمس. وتابعت عيناه الغائرتان حركات «فوليا». وانحنى من على برج القيادة. وأمر:

– ارفعوا أعلام الإشارة...

هتف البحارة بحيويّةٍ في الحال:

– سمعاً، أعلام الإشارة تُرفع!

وانطلقوا إلى الصُّندوق الـذي فيه أعـلام الإشـارة. وارتفعت على صارية «كيرتش» أعلاماً زاهية الألـوان، ورفرفت في السّماء اللازورديّة. وكانت تشكيلتها تعني:

«إلى السّفن المتّجهة إلى سيباستوبول. العار لخونة روسيا!..»

لم تردّ "فوليا" عن الإشارة بالإشارة، وكأنّها لم تلحظ شيئاً... سارت "فوليا" بلا رجال مُجلّلةً بالعار مُنزلقة بين السُّفن الحربيّة التي بقيت مُحافظةً على كرامتها... وفجأةً صاح البحارة: "لاحظت الإشارة!". ارتفع مدفعان ضخمان على بُرج المؤخّرة، واستدار البرج نحو الـمُدمّرة... أمسك قائد "كيرتش" الدّرابزين وهو على برج القيادة، واتّجه بأنفه الكبير المقشّر للقاء الموت. إلّا أنّ المدفعيْن تحرّكا، وهدآ.

التفّت "فوليا" حول حائل الأمـواج مُزيدةً سرعتها، وسرعان ما اختفى جانبها الأنوف وراء الأفق لتظهر بعد سنوات عديدة في بنزرت البعيدة مجرّدةً من السلاح صدئةً ملطّخةً بالخزيِ إلى الأبد. أصرّ تيخمينيف قائد الأسطول على رأيه، ونفّذ الأمر الشّكليّ لمجلس مفوّضي الشّعب. استسلمت الـمُدرّعة "فوليا" وستّ مدمّرات إلى الذّل في سيباستوبول. وسرّح بحارتها وضباطها. وتفرّق البحارة كلّ إلى طيّته، إلى بيوتهم ومواطنهم وقالوا: بالطّبع، إنّ أيديهم لم تطاوعهم لإغراق السُّفن، والأكثر من ذلك أنّهم ارتعبوا من الأربعين ألفاً من جنود البحر الأسود الحُمر الذين هدّدوا بكعن كلّ نوفوروسييسك بالحراب.

وبقيت المدرّعة "سفوبودنايا روسيا" وثماني مُدمّرات في ميناء نوفوروسييسك. وفي اليوم التالي انتهى أَجَلُ الإنذار النّهائيّ. وحلّقت الطّائرات الألمانيّة عالياً فوق المدينة. وفي المجاري الخارجيّة ظهرت مناظير الغواصات الألمانيّة بين الدّلفين القافز. وتردّد أنّ الألمان أقاموا إنـزالاً في تيمريوك، على مسافةٍ غير بعيدة. أما في ساحل

نوفوروسييسك فظلّت الاجتماعات العامّة الصّاخبة مُنعقدةً ليل نهار، وراح أشخاصٌ مدنيّون يصيحون بإلحاحٍ متزايد:

– يا إخوان، لا تُهلِكوا أنفسكم، لا تُغرقوا الأسطول...

– الضّباط وحدهم يُريدون إغراق الأسطول، وجميعهم باعوا أنفسهم لدول الوفاق...

– في سيباستوبول ألقيتُم الضُّباط في الماء في شهر كانون الأوّل، فماذا تخافون الآن؟ نظّموا مذبحة!..

وكان أحد الدُّعاة يتبع هؤلاء الصائحين مُباشرة، ويشقّ قميصه من صدره:

– يا رفاق، لا تُصغوا إلى الاستفزازيين. لو سقتم الأسطول إلى الألمان فإنّهم سيطلقون النّار عليكم من هذه المدافع...لا تقدّموا السّلاح للامبرياليين. أنقذوا الثّورة العالميّة!..

وعليك أن تشغل ذهنك لتعرف إلى من تُصغي؟ ويحلّ محلّ الدّاعي جنديٌّ من يكاترينودار مدجّجٍ بالسّلاح، ويهدّد أيضاً بالأربعين ألف حربة...وفي ليلة الثامن عشر من حزيران لم يعد الكثيرون من البحارة إلى سفنهم: اختفوا، وتفرّقوا، ولاذوا في الجبال...وطوال الليل ظلّت المُدمّرة «كيرتش» تتكلّم بالإشارات الضوئيّة. فردّت «سفوبودنايا روسيا» بأنّها من حيث المبدأ مُستعدّةً لإغراق نفسها، إلّا أنّه لم يبق من بحارتها الألفين غير أقلّ من مائة، ومن الصّعب تشغير البُخار، والابتعاد عن المرفأ.

وأعلنت المُدمّرة "حاجي-بيه" أنّ اجتماعاً صاخباً ما يزال

جارياً عليها، وجاءت فتياتٌ من المدينة ومعهنّ كحول، والظاهر أنّهنّ مدسوسات، ومن الـمُمكن أن تُنهب السّفينة. وفي المدمّرة "كالياكيريا" لم يبقَ إلا القائد وتنيكي السّفينة، وفي "فيدونيسي" لم يبق غير ستّة أشخاص. ووَرَدَتْ إشاراتٌ مماثلة من الـمُدمّرات "كابتن بارانوف" و"سميتليفي" و"ستريميتيلني" و"برونزيتيلني". وبحارة "كيرتش" و"والليتنانت شيستاكوف" وحدهم هم الذين بقوا في كامل طاقمهم.

وفي منتصف الليل تقدّم زورقٌ من "كيرتش"، ونادى صوتٌ جسور منه:

– أيها الرّفاق البحارة...يتحدّث إليكم مُراسل جريدة «أخبار اللجنة التّنفيذيّة المركزيّة»...وصلت برقيّةٌ لتوّها من موسكو من الأدميرال سابلين تقول: لن يغرق الأسطول في أيّ حالٍ من الأحوال، ولن يذهب إلى سيباستوبول. انتظروا التّعليمات التّالية...

انحنى البحّارة على الحاجز، وحدّقوا صامتين في الظّلام حيث كان الزّورق يتأرجح. وظلّ الصّوت يُبرهن ويقنع...خرج الـمُلازم الأوّل كَوَكيلٍ إلى بُرج القيادة، وقاطعه:

– أطلعني على برقيّة الأدميرال سابلين.

– مع الأسف، بقيت في البيت، يا رفيق. الآن أستطيع أن أجلبها...

عندئذٍ قال كوكيل بصوتٍ عالٍ مُمدّداً الكلمات لتكون مسموعة:

– ليبتعد الزّورق مائة مترٍ عن ميمنة السّفينة. لا تقترب أكثر...

صاح الصّوت من الزّورق بلهجةٍ وقحة:

– المعذرة، يا رفيق. إذا أنت لا تريد أنْ تسمع أمر المركز، سأبرق بذلك.

– في حالة الامتناع سأغرق الزّورق. سأصعدك إلى السّفينة. ولن أكون مسؤولاً عن تصرّف البحارة.

لم يرد من الزّورق على ذلك. ثمّ جذّفت المجاذيف بحذر. وغابت معالم الزّورق في الظّلام. وضحك البحارة. وضع القائد يديه وراء ظهره، وراح يذرع برج القيادة محدودباً نحيلاً، حائماً كأنّه في قفص.

في تلك الليلة لم ينم إلا القليلون. استلقوا على ظهر السّفينة مُبلّلةً بالنّدى، وبين الحين والآخر كان رأسٌ يرتفع ويتفوّه بكلمة، وطار النّوم من العيون، وجرى الحديث بأصواتٍ خافتة. وشحبت النّجوم، وارتفع الفجر من وراء التّلال. وجاء من الساحل ضابط الصّفّ البحريّ أنينسكي قائد "الليتنانت شيستاكوف" وأعلن أنّ البحارة يُغادرون لا الـمُدمّرات وبواخر الجرّ والقوراب البُخاريّة، بل والسُّفن التّجاريّة ولم يبقَ أيّ بحار، وغير معروف كيف تُسحب السّفن إلى المجاري الخارجيّة.

قال قائد "كيرتش":

– يا ضابط الصّفّ البحريّ أنينسكي. إنّ المسؤوليّة تقع على عاتقنا. سنُغرق السُّفن مهما كلّف الأمر.

هزّ ضابط الصّفّ البحريّ أنينسكي رأسه. وران صمت. ثمّ انصرف. وعندما انتشر الشّروق فوق الخليج، ابتعدت «الليتنانت شيستاكوف» ببطء عن المرسى ساحبةً وراءها «كابتن بارانوف»،

وأخذت تجرّها إلى المجرى الخارجيّ، إلى مكان الإغراق. ورفعت الـمُدمّرات أعلام الإشارة على الصّواري:

«أهلك ولكن لا أُسلّم».

وسُرعان ما اختفت وراء الضّباب الصّباحيّ. وبدت السّفن كلّها الآن خاوية. وكانت طيور النّورس تطير فوق العملاقة "سفوبودنايا روسيا" الفولاذيّة. وأرسلت "كيرتش" دُخانها. ورُغم الساعة الـمُبكّرة من الصّباح هرع الناس إلى الساحل، وماج حائل الأمواج بنقاط سود كالذّباب. وبدأ تزاحمٌ بالقُرب من السُّفن، وصعد واحدٌ فوق كتفٍ الآخر، وسقطوا في الماء.

وكان سيميون كراسيلنيكوف واقفاً في الحراسة على معبر السّفينة. وبعد الساعة الخامسة خرج من الجمع رجلٌ قصير القامة مُحمرٌّ من الانفعال في سترةٍ سوداء بحريّة بلا كتافيّات وضرب سُلّم السّفينة الأعلى بكعبيه. وكان وجهه الـمُحمرّ عرقاً بفمه الصّغير الملتوي.

نادى على سيميون مُبحلقاً عينيه الزّرقاوين المرحتين المدوّرتين في البحار الذي سدّ عليه الطريق بحربة:

– هل الـمُلازم الأوّل كوكيلٍ موجود؟

وتلمّس جبينه وصدره، وأخرج وقدّم تفويضاً يحمل اسم مُمثّل السّلطة السّوفييتيّة المركزيّة الرّفيق شاخوف. أنزل البحّار الحربة مُدلهمّ السّحنة:

– تفضّل، يا رفيق شاخوف.

خفّ كوكيلٍ للقائه، وأخذ يُحدّثه عن الوضع الميئوس تقريباً. وقد

تكلّم بالتّفصيل وعلى مهل. وكان شاخوف يقلب عينيه بنفاد صبر:

– بسيطة، وقعنا في أصعب من ذلك... لقد تحدّثت إلى البحّارة. إنّ معنويّاتهم عالية... سأحصل لكم على باخرة الجرّ، وكلّ ما هو ضروريّ... ونُنظّم اجتماعاً... ونُدبّر الأمر كأحسن ما يُمكن...

وطَلَبَ قارباً بُخارياً، وذهب به إلى «سفوبودنايا روسيا». ومن هناك أخذ يتنقّل به من سفينة إلى أخرى. وقد رأى سيميون جسمه القصير يتدلّى من سلالم البواخر التّجاريّة، ثمّ رآه ينزل إلى البرّ، ويغيب في الزّحام، حيث ارتفعت صيحات، وارتفعت أيدٍ. وفي أحد الأماكن ارتفعت آلاف الحناجر بـ«هورا».

غادرت الرّصيف بضعة قوارب محمّلة بالبحّارة، وتوغّلت في المرفأ إلى باخرةٍ صغيرةٍ صدئة، وسُرعان ما خرج من مدخنتها دُخانٌ كثيف، ورفعت مرساتها، واتّجهت نحو "سفوبودنايا روسيا". ولمع شراعٌ في قارب. استدارت "الليتنانت شيستاكوف" وسحبت الـمُدمّرة الثّانية.

في نحو السّاعة العاشرة ازدحم الجُمهور عند معبر "كيرتش". وبدأ المزاج ينقلب إلى أسوأ. شقّ بعض الأشخاص الـمُهلهلي الثّياب طريقهم إلى حاجز الـمُدمّرة، وكان لدى كلّ واحدٍ سجقٌ وخبزٌ وشحمُ خنزير. كشّروا عن أسنانهم، وغمزوا للبحّارة مُظهرين زجاجات من الكحول. عند ذاك أمر كوكيل برفع المعبر، والإقلاع. ابتعدت "كيرتش" عن تلك الـمُغريات اللعينة إلى وسط المرفأ، ومن هناك راقبت سَحْبَ المدمّرات.

وأخيراً استطاعت الباخرة الصّدئة التي بدت كالقشرة الفارغة

أن تسحب "سفوبودنايا روسيا" لاهثة نافذة الدُّخان، فمرّت بعظمة بآلاف المُشاهدين. وخلع الكثيرون أغطية رؤوسهم، وكأنّهم يشيّعون جنازة. ومرّت "سفوبودنايا روسيا" بالطّوافات والبوابة والمرفأ، وتوغّلت في أعماق المجرى الخارجيّ. وكان الناس يتوقّعون الطائرات الألمانيّة مرّةً أخرى إلا أنّ السّماء والبحر كانا هادئين. ولم تبق في المرفأ إلا المُدمّرة "فيدونسي".

وبدأ الاضطراب في الحشد من جديد، وتجمّعت نقاط الرّؤوس السّوداء على الرصيف الذي ترسو فيه "فيدونيسي". تقدّم منها قاربٌ بمحرّك وشراح ليسحبها. قذف الجمهور القارب بالحجارة، وانطلقت عدّة طلقاتٍ من مُسدّس. صاح رجلٌ أشيب الرّأس بعد أنْ صعد على عمودٍ كهربائيّ:

– يا قاتلي إخوتكم، خُنتم روسيا...خنتم الجيش...يا إخوان!.. ماذا تنتظرون؟..يبيعون آخر أسطول...

وهاج الحشد قالعين الحجارة. قفز بعض الأشخاص من فوق حاجز «فيدونيسي». عندئذ تقدّمت «كيرتش» من الساحل مُسرعة، ودقّ جرسها دقّة التّهيّؤ للقتال، واستدارت المدافع نحو الجُمهور، وصاح قائدها في المكروفون:

– إلى الوراء! سأطلق النار!

تراجع الجُمهور ناكصاً بأعقابه، وتصايح الذين ديسوا. وتعالى غُبار، وأقفر الساحل. أسرع القارب إلى الرّصيف، وسحب «فيدونيسي».

تبعتها "كيرتش" ببطء إلى حيث كانت جميع السُّفن تتأرجح على

المجرى الخارجيّ تأرجحاً خفيفاً. نظر سيميون إلى طيور النّورس الـمُحلّقة عالياً فوق الجزء الخلفيّ من السّفينة، ثمّ أخذ ينظر إلى قائد السّفينة الذي كان يُمسك درابزين برج القيادة بكلتا يديه.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظّهر. جارت "كريتش" حول الجانب الأيمن من "فيدونيسي" ونطق القبطان بكلمة واحدة فقط. فانطلق طوربيدٌ من جهاز الإطلاق كظلٍّ أسود، وانشقّ خطٌّ مُزبد على سطح الماء المموّج قليلاً وأصاب جسم "فيدونيسي" من الوسط تماماً، فارتفع، وتحطّم إلى نصفين. وتطاير جبلٌ أشعث من الماء والزّبد من أعماق البحر، وسرت فرقعةٌ بعيداً في البحر. وحين سقط جبل الماء لم تعد "فيدونيسي" على سطح الماء. لا شيء غير الزّبد. وهكذا بدأ الإغراق.

فتحت فِرق النّسف صمامات كينجستون والـمُنزلقات في الـمُدمّرات، وخلعوا كلّ كوى الإضاءة في الطّبقة السُّفلى، وقبل أن يُغادروا السّفينة الغارقة إلى القارب أحرقوا فتيل الـمُفرقعة لينسفوا بعبوّةٍ من عشرةِ أرطال الطوربينات والسلندرات. اختفت الـمُدمّرات سريعاً تحت الماء العميق. وبعد خمس وعشرين دقيقة كان المجرى الخارجيّ خالياً.

تقدّمت "كيرتش" بأقصى سرعتها نحو "سفوبودنايا روسيا" وأطلقت الطوربيدات. رفع البحّارة قُبعاتهم ببطء. أصاب الطوربيد الأوّل مؤخّرة السّفينة. وترنّحت المدرّعة مغمورةً بسيول الماء. وسقط الثاني على الجانب، في الوسط. ومن خلال سحابة الزّبد والدُّخان كان الصّاري يُرى متأرجحاً. كافحت الـمُدرّعة، كالكائن الحيّ، أكثر عظمةً وسط البحر الثّائر والانفجارات

الهادرة. ونزلت الدّموع من عيون البحارة. وغطّى سيميون وجهه بكفّيه...

رجفّ جسم القائد كوكيل كلّه في تلك اللحظات، و لم يبق منه غير أنفه الكبير، مُتّجهاً نحو السّفينة الهالكة. وانفجر الطوربيد الأخير، وانقلبت "سفوبودنايا روسيا" على الكيل...وقامت بجهدٍ آخر، وكأنّها ترتفع عن الماء، وغاصت سريعاً إلى القاع في دوّامةٍ من الزّبد.

غادرت "كيرتش" مكان الهلاك إلى توابسيه بأقصى سرعتها. وعند الصّباح أنزل بحّارتها إلى زوارق. وبعد ذلك أرسلت "كيرتش" هذه البرقيّة:

«إلى الجميع...أنا هالكة بعد أن أغرقت جزءاً من سُفن أسطول البحر الأسود التي اعتبرت هلاكها أشهى من عار الاستسلام إلى ألمانيا. المُدمّرة «كيرتش»».

فتحت المُدمّرة صمّامات كينجستون، ودمّرت المُحرّكات، وغرقت على عُمق خمس عشرة قامة.

تشاور سيميون كراسيلنيكوف مع رفاقه على الساحل: إلى أين التّوجّه الآن؟ وعرضت اقتراحات، واتّفقوا على الذّهاب إلى استراخان، إلى الفولغا، حيث قيل أنّ شاخوف يُشكّل أسطولاً نهرياً حربياً لمُحاربة البيض.

كان جيش تامان تحت قيادة كوجوخ يُحاول شقّ طريقه الملتوي إلى أعلى كوبان سالكاً الدّروب الجبليّة أو بلا درب ملاحقاً من قبل العدوّ، مُحاطاً بالقرى القوزاقيّة المُنتفضة.

كان الطّريق يمتدّ عبر نوفوروسييسك التي احتلّها الألمان بعد إغراق الأسطول. وصلت طوابير تامان بصورةٍ مُفاجئة، ومرّت القوات خلال المدينة مُنشدةً الأناشيد. ولم يفهم الألمان نيّتها، فانطلقوا إلى السُّفن، وأطلقوا القذائف من المدافع البحريّة على الطّابور الأخير، وعلى القوزاق السُّكارى الـمُحتدّين الذين كانوا في أعقابه.

وللحيطة انسحب الألمان من المدينة، وبعد أن شقّ كوجوخ طريقه مُحارباً وغادرها، احتلّها القوزاق ومن بعدهم قوّات البيض النّظاميّة. وتعرّضت المدينة للنّهب الشامل.

وشُنق البحارة والجنود الحُمر، وأهل المدينة الـمُعدمون على أعمدة التلغراف دون مُحاكمة. وحمل الحوذيّة ثلاثة آلاف جثّةٍ في تلك الأيام إلى البحر. وأضْحت نوفوروسييسك ميناء للبيض.

بلغ جيش تامان توابسيه سالكاً الساحل الذي تفشّت فيه المجاعة ساحباً وراءه قوافل خمسة عشر ألف من اللاجئين. ومن تلك المدينة اتّجه صوب الشّرق. وتعقّبه رجال دنيكين، وكانت جميع الممرّات الجبليّة والـمُرتفعات إلى الأمـام يحتلّها الـمُنتفضون. وكانت في كلّ يوم معركةٌ ضارية. ولكنّ الجيش سار مُريقاً دمـاءه مُتناقضاً بالـمُناوشات والموت جوعاً، نازلاً إلى الوهاد، صاعداً الممرّات الجبليّة والتّلال الشّديدة الانحدار، مُتضائلاً، شاقاً طريقه. وذات يوم جلبوا إلى كوجوخ جندياً أحمر أسيراً أطلق سراحه الجنرال بوكروفسكي ومعه رسالةٌ كتبت بصراحةٍ عسكريّة:

«أنت، أيّها الوضيع، دنّست جميع ضُباط الجيش والأسطول الروسيّ لأنّك قرّرت الانضمام إلى صفوف البلاشفة واللصوص

والصّعاليك. كُن على علم بأنّ النهاية آتيةٌ لك ولجميع صعاليكك. أمسكناك، أيّها الوضيع بأيد قويّة، ولن نتركك مهما كان. فإذا أردت الرّأفة، أي أنْ ينتهي الأمر بإرسالك إلى سرايا المحكومين، فأنا آمرك بتنفيذ أمري التالي: القِ جميع سلاحك اليوم، وسر بالعصابة المنزوعة السّلاح إلى مسافة أربعة أو خمسة فراسخ غرب محطّة بيلوريتشينسكايا. وحين يَنْفُذُ ذلك أبلغني فوراً في كشك السّكة الحديديّة الرابع...».

كان كوجوخ، وهو يقرأ الرّسالة، يشرب الشاي من علبة صفيح من الـمُعلّبات. ونظر إلى الجُنديّ الأحمر الحافي ذي القميص غير الـمُحزم، الواقف أمامه واجماً. وقال له:

«قذرٌ أنت، يا أخ. كيف تُسلّم لي مثل هذه الرّسائل؟ اذهب إلى وحدتك...».

في تلك الليلة وجّـه كوجوخ للجنرال بوكروفسكي ضربةً شديدة. اكتسحه وطاردهُ بالخيّالة. واقتحم بيلوريتشينيكايا وخرج من الحصار. وفي نهاية أيلول وصل جيش تامان بالقرب من أرمافير التي كان يحتلّها الدّنيكيّون، واستولى عليها بهجومٍ عاصف، والتقى بفلول جيش سوروكين في قرية نيفينوميسكايا.

كان سوروكين، بعد أن فقد تأثيره في الجيش بعد اندحاره عند فيسيلكي ويكاترينودار، وصحا من سكرة المجد العسكريّ، وأحنقته الإخفاقات، يتراجع أكثر فأكثر نحو الشّرق، دائراً كقشّةٍ في دوّامة ما كان يُسمّى قبل حينٍ فِرقاً وألوية وأفواجاً. والآن أضحت هذه جماعات تهربُ عند الطّلقات الأولى من العدوّ. وكان الجنود

يُدمّرون كلّ شيءٍ في طريق تراجعهم. وكانت تشغلهم فكرةٌ واحدة، هي أنْ يتخلّصوا من الموت الـمُسلّط فوق رؤوسهم، والهروب إلى أيّ مكان. وكانت أعداد هائلةٌ من الجنود الفارّين يجوبون سهوب تيريك، على الطّريق القديم للشعوب الذي تعالت فيه الرّوابي الـمُغطّية بالأفسنتين.

خرج بعد معركة يكاترينودار زُهـاء مائتي ألـف من القوات واللاجئين. والذين بقوا قتلوا وشُنقوا وعُذّبوا من قِبل القوزاق. وفي كلّ قريةٍ قوزاقيّة كانت الجُثث تتدلّى من أشجار الحور الهرميّة. وصاروا ينتقمون من الحُمر الآن بلا رأفة، غير خائفين من عودتهم. وفي أنحاء الإقليم كلّه كانوا يَسِمون بالنّار مجرّد اسم البلاشفة. كان سوروكين وليد الثّورة. وكان يفهم بغريزة الحيوان ارتفاعاتها وهُبوطاتها. و لم يوجّه التّراجع، فقد كان ذلك عبثاً. فإنّ العفويّة نفسها كانت تسعى نحو الشّرق، وتتوقّف حين يضعف إصرار البيض على الـمُطاردة.

ولم يبق له إلا أنْ ينظر بوحشةٍ في نافذة عربة القطار الزاحفة في السّهوب اللافحة، خلال روابي لشعوب البلازغيين والسيلت والتّوتونيّين والسلاف والخزر القُدامى...وكان حرسٌ خاصّ يحرس قطاره لأنّ الذين كانوا يمرّون به كانوا يهتفون:

– يا إخوان، الأمراء خانونا، وباعونا ليشربوا بثمننا. اقتلوا أمراء وحداتكم، مثلما قتلنا أمراء وحداتنا.

وكان رئيس الأركان بيلياكوف يأتي إلى المقصورة ويتحسّر، ويبدأ يقول بحذر كلماتٍ غامضة عن استحالة الاستمرار في القتال. «للثّورة مراحلها–كان يُكرر ذلك باستمرار، مُمرّراً كفّه على جبينه العريض–

انقضى النّهوض الثّوري، والآن تقف ضدّنا القوى العفويّة. نحن لا نقاتل الضّباط فقط، بل الشّعب كلّه. يجب إنقاذ مكاسب الثّورة في الوقت الـمُناسب...على الأقلّ بسلامٍ مُهادن...».

وكان يستشهد بأمثلة مُقنعة من التّاريخ. فكان سوروكين يكتفي بالرّد على ذلك: "بكم تًريد أنْ تشتريني، يا وغد؟" لو وقع دنيكين الآن في يده لآكله حيّاً. ولكنّ الغيظ أكثر ما يحتدم في قلبه على رفاقه أعضاء اللجنة التّنفيذيّة المركزيّة للبحر الأسود الذين هربوا من يكاترينودار إلى بياتيغورسك. كانوا لا يعرفون سوى أنْ "يبحثوا عن إجراءاتٍ تكبح نزعات سوروكين الدّكتاتوريّة..." لم يُنفّذوا الأوامر الـمُلحّة، وتدخّلوا في كلّ شيء، وانسلّوا بصاحبهم ماركس إلى قلب القائد العام. وظهرت زينكا الشّقراء مرّةً أخرى في عربة صالون سوروكين. وذلك باهتمام من بيلياكوف. وكانت زينكا، كما كانت، ورديّةً مُغرية، سوى أنّ صًوتها قد جشّ بعض الشّيء، وقد سرقت بلوزاتها الحريريّة وقيثاراتها في طابور العربات. وصار سلوكها مع القائد العام أكثر استقلاليّةً من ذلك قبل.

وفي الليل، حين كانت تسدل السّتائر في الصالون، وتستولي على سوروكين نشوةُ السُّكر السّوداويّة، كانت زينكا تعزف على البلالايكا ثمّ كانت تتفوّه بنفس الهُراء الذي يتفوّه به بيلياكوف: عن نهاية الثّورة الوشيكة، وعن سيرة نابليون اللامعة، الذي استطاع أنْ يُقيم جسراً من الإرهاب اليعقوبيّ إلى الامبراطوريّة. وكانت عينا سوروكين تأخذان باللّمعان، ويخفق قلبه دافعاً الدّم الحار إلى دماغه مُمزوجاً إلى النّصف بالكُحول...وكان يزيح السّتارة، وينظر في النّافذة، وفي ظلام الليل، حيث كانت تتراءى له التماعاتُ خياله المحموم.

وضعفَ ضغط البيض. وتشبّث الجيش الأحمر أخيراً بالضّفّة اليُسرى لكوبان الأعلى، وتخندق هناك. وفي تلك الأثناء عاد دميتري شيليست قائد الفرقة الحديديّة مع سيارات لوري من تسارتسين عبر سُهوب قيرغيز. وقد جلب معه مائتي ألف خرطوش وأمر القوات القفقاسيّة بالتّحرّك نحو الشّمال لمساعدة تسارتسين التي يُحاصرها الجيش الأبيض للاتمان كراسنوف.

رفضَ سوروكين تنفيذ الأمـر رفضاً قاطعاً. وثـارت الأفـواج الأوكرانيّة التي ضجرت من القتال في أرض الأغراب، وانسحبت من الجبهة، غير مُكترثة باستمالات وتهديدات سوروكين. وشيليست وحده، من مواليد بولتافا، استطاع أن يوقف جزءاً من القُوات. وقد تحدّث إليهم بتعقّل وعلى مهل، كفلاح لفلاحين، وامتدحهم وامتدح نفسه. ورأى الأوكرانيون أنه ليس شخصاً اعتيادياً، بل أحد كبارهم، وأطاعوه. وقادهم دميتري شيليست إلى المعركة، فحطّموا طابوراً قوياً من الضُّباط قرب نيفينوميسكايا. وقد كرهه سوروكين كرهاً شديداً من جرّاء ذلك. هنّأه بالنّصر، قائداً لجزءٍ من الجبهة، وفي اليوم نفسه أصدر أمراً سرياً بتجريد وحداته من السّلاح، ورمى شيليست وجميع أمراء وحداته بالرّصاص. عرف شيليست بهذا الأمر السريّ فترك الجبهة مع فرقته الحديديّة التي أكملها بالأوكرانيين، وسار عبر السّهوب الملحيّة والرّمال الوعثاء إلى تسارتسين مُنفذاً أمر المجلس العسكريّ الثّوري للجيش العاشر. عندئذ اعتبره سوروكين خارجاً على القانون، وألزم كلّ جنديٍّ أحمر بإطلاق الرّصاص عليه، وحظر على كلّ شخص، مهما كان، أنْ يُجهّز الفرقة الحديديّة بالعلف. إلا أنّ شيليست خرج، ولم ترتفع يدٌ واحدةٌ لإطلاق الرّصاص عليه. وحين كان يعوزه العلف

في الطّريق كان يدخل القرية، ويخلع قُبّعته، ويطلب، والدّموع في عينيه، من لجنة القرية التّنفيذيّة التّبن والشوفان والخبز، ويشرح بأنّه ليس خائناً، بل الخائن قاطع طريق الأبيض، هو القائد العام سوروكين.

وسرعان ما وقعت ضربةٌ أخرى على غرور سوروكين: فقد طلع كوجوخ من وراء الجبال، بعد أن اعتُبر هالكاًن احتلّ أرمافير على الماشي، بعد أنْ ألقى البيض وراء كوبان. وكان التامانيون ينفّذون أوامر سوروكين على مضض، أو يُهملونها تماماً. وصار جيش تامان الذي تَمرّس في أصعب مسيرة العمود الفقري في جيش سوروكين الـمُهلهل واتّخذ مواقع قويّة في خطّ أرمافير–نيفينوميسكايا–ستافروبول.

كان الفصل خريفاً، وجرت معارك ضارية دامية في سبيل الاستيلاء على مدينة ستافروبول الغنيّة. وكان جيش تامان يُقاتل في الـمُقدّمة في كلّ مكان. كما ظهرت للدنيكيين قوّةٌ جديدة–النّصير الأبيض شكورو السّفاح النّذل الذي شكّل عصابةٍ من الأوباش.

نقل سوروكين مقرّ قيادته إلى بياتيغورسك. ولم يعد يظهر في الجبهة، وحلّت أنظمةٌ جديدة، ونفَذت سُلطة موسكو إلى القفقاس، وقويت على مرّ الأيـام. وبـدأ ذلك حين قـرّرت لجنة الإقليم الحزبيّة تشكيل المجلس العسكريّ الثّوريّ. ولم يُعارض سوروكين موسكو، واضطرّ إلى الخُضوع. وتألّف المجلس العسكريّ الثّوريّ من عناصر جديدة. وانتقلت سُلطة القائد العام إلى الهيئة العسكريّة العُليا. وأدرك سوروكين أنّ حياته تحت الخطر، فأخذ يُكافح بجنون.

كان في اجتماعات المجلس العسكريّ الثّوري يجلس كئيباً صموتاً؛ وحين يتكلّم كان يصرّ على كلّ كلمة. وكان يفلح في الحُصول على ما

يُريد، لأنّ الوحدات الـمُخلصة له كانت مُتركّزةً في بياتيغورسك. وكانوا يخافونه، وليس بدون سبب. وكان يبحث عن فرصةٍ لإظهار سُلطته، ويجدها. أعلن مارتينوف قائد الطّابور الثاني في جيشٍ تامان في مؤتمر القوات في أرمافير أنّه يرفض تنفيذ الأوامر العسكريّة للقائد العام. عند ذاك طلب من المجلس العسكريّ الثّوري أنْ يرمي مارتينوف. وأنذَرَ بشيوع الفوضى التامّة في الجيش. وكان من الـمُستحيل إنقاذ مارتينوف. فاستدعي إلى بياتيغورسك، واعتُقل، ورُمي بالرّصاص في الساحة أمام الملأ. وهبّت العاصفة في أفواج تامان، وأقسموا على الثّأر له.

شُكّلت هيئة أركانٍ جديدة للقائد العام، وأبعد بيلياكوف كُلياً، ولم يُدافع سوروكين عنه. سلّم رئيس الأركان الأمور والأموال وذهب إلى شقّة صديقه السابق للاستيضاح. كان سوروكين يذرع الحجرة واضعاً يديه وراء ظهره. كان مصباحٌ نفطيّ يشتعل على المنضدة، حيث كان يوجد طعامٌ لم يُمسّ، وزجاجة فودكا قد شرب منها قليلاً. وكان جبل ماشوك الكثيف الأشجار يبدو وراء النافذة قاتماً في الشّفق الجاف...

رمقَ سوروكين الداخل بنظرةٍ سريعة، وتابع سيره. جلس بيلياكوف إلى المائدة، ونكّس رأسه. توقّف سوروكين أمامه، وهزّ كتفه.

– هل تُريد فودكا؟ آخر قدح–وقهقه ببحّة، وصبّ قدحين بسرعة، ولكنّه لم يشرب، وعاد يذرع الحُجرة. –انتهت حياتك، يا أخ... ونصيحتي أنْ ترحل من هُنا...لن أدافع عنك...غداً سأعيّن لجنةً للتّحقيق في شؤونك. فهمت؟ وبكلّ احتمال سنرميك...

رفعَ بيلياكوف وجهه إليه رمادياً مهزولاً، ومرّر كفّه على جبينه، وسقطت يده. وقال:

– أنت تافه...إنسانٌ زهيد. من العبث أنني فتحت لك كلّ قلبي. أنت وغد...بينما اعتبرتك نابليون...قملة!..

تناول سوروكين قدحه، واصطكّت أسنانه على زُجاجة، وشرب. ومشّى واضعاً يديه في جيبي سترته الجركسيّة. ثمّ توقّف بحدّة:

– لن يكون هناك تدقيق. فارحل إلى الشّيطان. وإذا كنتُ لم أطلق الرّصاص عليك الآن، فاعلم أنّ ذلك من أجل خدماتك...وقُدّر ذلك. فهمت؟

انفتح منخراه لاستيعاب الهواء، وازرقّت شفتاه، وارتجف كيانه كلّه كابحاً غيظه. كان بيلياكوف يعرف سوروكين حقّ المعرفة. أخذ يتراجع نحو الباب غير صارفٍ بصره عنه، وصفق الباب وراءه بسرعة...وخرج من الباب الخلفيّ عبر الفناء، واختفى من بياتيغورسك في نفس الليلة.

ظلَّ سوروكين يشرب الكأس تلو الأخرى ساعةً بعد ساعة، وفكّر الليل بطوله. إنّ صديقه السابق سمّمه بقطرةٍ من الازدراء، إلا أنّ السّمّ كان فظيعاً، والعذابات لا تُطاق...

غطّى وجهه بيديه. إنّ بيلياكوف على حقّ، على حقّ...كان في حزيران نابليونيّ الطّراز وإذا به يؤول إلى اجتماعاتٍ في الهيئة العسكريّة العُليا، والتّطلّع الدائم إلى الحزبين في موسكو... لم يقل بيلياكوف كلماتٍ من عنده...فذلك ما يقوله الناس في الجيش، في الحزب. ودنيكين، آوه، دنيكين! وتذكّر مقالةً صغيرة في جريدةٍ للبيض في يكاترينودار، مقابلةٌ صحفيّة مع دنيكين، ونفذت الذّكرى إلى أعماق نفسه بسُمّها: "ظننت أنّ أمامي أسداً، ولكن تبيّن من الأسد

كلبٌ جبان، يلبس فروة أسد... وهذا، على أيّة حال، لا يُدهشني. فإنّ سوروكين كان وما يزال ضابطاً قوزاقيّاً جاهلاً برتبةٍ صغيرة". آوه، دنيكين! انتظر... وسيأتي وقت... تندم فيه.

وعَصَرَ سوروكين يديه، وصرفَ بأسنانه. لو يندفع إلى الجبهة، ويسوق الجيش كلّه، ويقتحم، ويُطارد، ويسحق الضّباط بسنابك الخُيول، ويحرق القرى من الجهات الأربع، ويندفع إلى يكاترينودار... ويأمر بأن يَمْثُل دنيكين أمامه: أن يُؤخذ من سريره بملابسه الدّاخليّة... "ألست أنت، يا أنتون إيفانوفيتش تدرّبت على الكتابة في الجريدة حول الضابط القوزاقيّ ذي الرّتبة الصّغيرة؟ إنّه أمامك، صاحب المهابة... الآن هل نقطع من ظهرك سيوراً، أم نجلدك ألفاً وخمسمائة جلدة؟"

وأنّ سوروكين نافضاً عنه هذيان الحُلم الثّقيل... كان الواقع مُظلماً، مُبهماً، مُنذراً مُهيناً... وكان يجب البتّ في الأمر. إنّ رئيس الأركان وصديقه القديم قدّم له اليوم آخر خدمة... تقدّم سوروكين من النافذة، حيث كانت نسمةٌ خفيفة تحمل الهفيف الجافّ للسهوب المغطاة بالأفسنتين. ولا في السّماء الكئيبة شريطٌ قرمزيٌّ قاتم لفجر الصّباح الذي لم يسطع بعد. مرّةً أخرى ظهر جبل ماشوك الضّخم الليلقيّ... وتبسّم سوروكين بسمةً هازئة. شكراً، يا بيلياكوف، على أيّة حال... لا بأس. ليذهب التّردّد والتّخلخل إلى الشّيطان... وفي تلك الليلة قرّر سوروكين أنْ "يُقامر بآخر رصيد".

بعد أيام قليلة، وتردّدات طويلة صوّت المجلس العسكريّ الثّوريّ لجيش القفقّاس أخيراً إلى جانب القيام بهجوم. نقلت قواعد المؤخّرة إلى سفياتوي كريست، وتمركز الجيش في نيفينوميسكايا، ومنها كان

عليه أن يتحرّك نحو ستافروبول واستراخان ليتّصل بالجيش العاشر الذي كان يُحارب بالقُرب من تسارتسين. وكانت هذه هي نفس الخُطّة التي حملها دميتري شيليست من تسارتسين. وعهد إلى جيش تامان باحتلال ستافروبول. وتحرّك كلّ شيء: قواعد المؤخّرة تحرّكت إلى الشمال الشّرقيّ، والوحدات الأساسيّة نحو الشمال الغربيّ. وشدّ المُرشدون السّياسيون والدّعاة أوتار أصواتهم وهم يرفعون معنويات الوحدات، طارحين الشراعات المُثيرة. وخرج رؤساء الطّوابير إلى الجبهة. وخلت بياتيغورسك، ولم يبق فيها غير الحكومة– اللجنة التّنفيذيّة المركزيّة لجمهوريّة البحر الأسود وسوروكين بأركانه وحرسه. وفي معمعان الحركة لم يلحظ أحدٌ أنّ الحكومة قد تركت لحُسن نيّة القائد العام.

وفي المساء، أثناء عودة سوروكين إلى داره بصحبة مُرافقه أطلق العنان لحصانه، وانعطف من مُنتزه المدينة في سترة جلديّة. ترنّح الرّجل، وأمسك بوركه حيث كان يتدلّى مُسدّس. غضّن سوروكين حاجبيه بحنق، وعرف أنّه غيمزا. وكان يجب أن يكون في الجبهة... أنزل غيمزا يده عن غلاف مُسدّسه. وبدت غريبة نظرة عينيه نصف المُختفيتين تحت الحاجبين... مثل نظرة بيلياكوف في آخر حديث... وفجأةً لاح صفّ أسنانٍ أبيض على وجه غيمزا الحليق المسودّ مثل أعلى الحذاء. وجب قلبُ سوروكين: وهذا أيضاً يضحك!..

لكز سوروكين حصانه بساقيه بقوّةٍ حتى انطلق الحصان ناخراً واندفع به على الحجارة المرنة إلى الأعلى وسط قطيع من الأغنام عائد من المرعى ثاغياً مؤرجح الآليّة ناشراً رائحته في الجَوّ. كان ذلك في ليلة الثالث عشر من تشرين الأوّل. استدعى سوروكين رئيس حرسه،

فهمس هذا، وهو ينظر في النافذة، أنّ غيمزا بالفعل قد وصل اليوم إلى بياتيغورسك، وطلب من اللجنة التّنفيذيّة المركزيّة استدعاء سريّتين من الجبهة للحراسة..." حتى الأحمق يفهم، أيها الرّفيق سوروكين، ضدّ مَنْ تتّخذ هذه الإجراءات...".

وبينما كانت نجوم الخريف تتألّق بكلّ بهائها فوق بياتيغورسك الهاجعة القاتمة، وفوق جبل ماشوك دَخَلَ حرس سوروكين بهدوء وبلا جلبة إلى شقّة روبين رئيس اللجنة التّنفيذيّة المركزيّة وشقّتي فلاسوف ودونايفسكي العضوين فيها، وإلى شقّة كرايني عضو المجلس العسكريّ الثّوري، وشقّة روجانسكي رئيس اللجنة الاستثنائيّة، وأخرجوهم من أسرتهم، وطلعوا بهم من المدينة والحِراب مُصوّبةٌ إلى ظهورهم، إلى ما وراء سُدّة السّكّة الحديديّة، وهناك رموهم بالرّصاص دون أن يقدّموا لهم أيّة حجج.

وكان سوروكين في تلك الأثناء واقفاً على منبسط عربته في محطّة ليرمنتوفو. وقد سمع الطلقات—خمس ضربات في سكون الليل. ثمّ سمع أنفاساً ثقيلة، وأقبل رئيس الحرس "قضي عليهم" وعدّد أسماء المقتولين.

تحرّك القطار. الآن كان القائد العام يخفّ إلى الجبهة على جناحين. ولكنّ نبأ الجريمة الشّنعاء طار أسرع منه. فإنّ بعض الشّيوعيين من اللجنة الإقليميّة الذين حذّرهم غيمزا في الأمس خرجوا في سيارةٍ من بياتيغروسك قبل سوروكين وفي الثالث عشر من الشّهر دعوا إلى انعقاد مؤتمرٍ جبهويّ في نيفينوميسكايا. وبينما كان سوروكين يظهر أمام وحداتِ جيشه مَهيباً مثل عاهلٍ شرقيّ مُحاطاً بمئة من الحرس والنّافخين بالأبواق يعلنون قدومه، وحامل راية القائد العام يعدو

في المقدّمة، أعلن المؤتمر الجبهويّ في نيفينوميسكايا بالإجماع أنّ سوروكين خارجٌ على القانون، وقرّر اعتقاله فوراً، وجلبه إلى قرية نيفينوميسكايا، وتقديمه للـمُحاكمة.

أعلن رجال جيش تامان ذلك للقائد العامّ وقد فتحوا أبواب عرباتهم المدفّأة. عاد سوروكين إلى المحطّة، وطلب استدعاء قادة الطّوابير. ولم يأتِ أحد. ومكثَ في المحطّة حتى هُبوط الظّلام. ثمّ أمر بأنْ يُقدّم الحصان له، وعدا مع رئيس الحرس في السّهب.

شاع اضطرابٌ كبير في المجلس العسكريّ الثّوريّ، حيث لم يبق منه غير ثلاثة أعضاء. فإنّ القائد العام قد اختفى في السّهوب، والجيش بدلاً من أن يُهاجم طالب بمحاكمته وإعدامه...إلا أنّ الآلة المؤلّفة من مائة وخمسين ألف رجل ظلّت تدور، وكان من الـمُستحيل إيقافها...وفي الثالث والعشرين من تشرين الأوّل بدأ هجوم جيش تامان على ستافروبول صاحَبَهُ هُجومٌ مضاد قام به البيض. وفي الثامن والعشرين أعلن جميع قادة الطّوابير أنّ هناك نقصاً في القذائف والعتاد، وإذا لم تُجلب لهم في الغدّ فإنّ النّصر غير مضمون. أجاب المجلس العسكريّ الثّوريّ بأنه لا توجد قذائف ولا عتاد. فـ"احتلوا عين ستافروبول بالسّلاح الأبيض...". وفي ليلة التاسع والعشرين عيّن طابوران صاعقان زحفا على قرية تاتارسكايا تحت حماية المدفعيّة التي كانت تقصف بالقذائف الأخيرة، وكانت هذه القرية تبعُد خمسة عشر فرسخاً عن ستافروبول، حيث كانت تمتدّ جبهة البيض. أطلّ على السّهب قمرٌ نحاسيٌّ كبير بمثابة إشارة لأنّ الصّواريخ لم تكن موجودة...وصمتت المدافع...سارت صفوف التّامانيين نحو خنادق العدوّ الأماميّة دون أن تُطلق طلقة، واندفعت فيها. وفي الحال ارتفعت

أبواق الفرق الموسيقيّة ودقّت الطّبول. وسقطت موجاتٌ كثيفة من كلا الطابورين الـمُهاجمين على خطّ الاستحكام الرئيسيّ على أنغام الموسيقى بدلاً من الرّصاص والقنابل اليدويّة، سابقةٌ للموسيقيين، متساقطةٌ بالمئات تحت نيران الرّشاشات. تراجع البيض إلى التلال، ولكن حتى هذه التلال احتلّت بمدٍّ لا يُكبح. هرع العدوّ إلى المدينة. ولاحقته وحدات القوزاق الحمراء. وفي صبيحة الثلاثين من تشرين الأوّل دخل جيش تامان إلى ستافروبول.

وفي اليوم التالي شوهد القائد العام سوروكين في الشارع الرّئيسيّ بصحبة رئيس الحرس، كان يسير على جواده بهدوء، إلا أنه كان شاحب الوجه مُطرق العينين. وحين رآه الجنود الحُمر فغروا أفواههم، وتراجعوا عنه قائلين: "من هذا الإبليس من العالم الآخر؟.."

ترجّل سوروكين من فرسه عند مبنى السوفييت، حيث عُلّقت على الباب لافتةٌ نصف مخلوعة كُتب عليها: "مقرّ أركان الجنرال شكورو"، وكان يجتمع في المبنى النواب وأعضاء اللجنة التّنفيذيّة الذين بقوا أحياء. وصعد السّلّم بجسارة، وسأل الجنديّ الذي جفل منه: "أين ينعقد الاجتماع؟" وظهر في القاعة عند طاولة الرّئاسة، ورفع رأسه بشمم، وخاطب الـمُجتمعين الـمُندهشين الباهتين:

«أنا القائد العام، وقوّاتي حطّمت عصابات دنيكين، وأقامت السُّلطة السوفييتيّة في المدينة وفي المنطقة، إنّ مؤتمراً عسكرياً اعتباطياً في نيفينوميسكايا قد أعلنني بوقاحة خارجاً على القانون. فمن أعطاه الحقّ في ذلك؟ أنا أطالب بتعيين لجنةٍ للتحقيق في جرائمي المزعومة. ولن أتخلى عن سلطة القائد العام قبل انتهاء الجنة من التحقيق...».

ثمّ خرج ليمتطي جواده. إلا أنّ ستّةً من جنود الفوج الثالث من جيش تامان هجموا عليه فجأةً عند السّلّم، ولووا ذراعيه، ووضعوهما وراء ظهره.

كافح سوروكين بضراوة وصمت. ضربه آمر الفوج فيسلينكو بقبضة سوطه على رأسه صارخاً: "هذا جزاء قتلك مارتينوف، أيها السافل...".

واقتيد سوروكين إلى السّجن. وقلق رجال تامان خوفاً من أنْ يهرب من السّجن، وأنْ يتملّص من الـمُحاكمة بطريقةٍ ما. وفي اليوم التالي، حين جُلب سوروكين للاستجواب رأى غيمزا قاعداً إلى طاولة كرئيس، فأدرك أنّه الموت. عند ذاك تفجّر في نفسه مرّةً أخرى الظّمأ إلى الحياة، فضرب على الطاولة، متفوّهاً بفاحش السُّباب:

- أنا يجب أن أحاكمكم، يا قُطاع الطّرق! خرق الانضباط، الفوضى، ثورةٌ معاديةٌ مخفيّة...سأنكّل بكم، كما نكّلت بمارتينوف الوغد.

كان فيسلينكو عضو المحكمة جالساً إلى جانب غيمزا مُبيضاً كالورقة، وقد وضع يده وراء ظهره، وأخرج مُسدّساً أوتوماتيكياً كبيراً، وسدّده نحو سوروكين مُفرغاً كلّ مشطه فيه.

لم يتحقّق التّقدّم اللاحق من ستافروبول إلى الفولغا. إنّ خيالة شكورو الذّئبويّة قد نفذت إلى المؤخّرة، وقطعت جيش تامان عن القاعدة، عن قرية نيفينومسيكايا. وركّز دنيكين كلّ قُواته مُحاصراً ستافروبول. وجلبت من كوبان طوابير كازانوفيتش ودروزدوفسكي وبوكروفسكي، وخيالة أولاغاي، وفرقة كوبان الجديدة للخيالة التي

كان يقودها مهندس التّعدين السابق الذي بدأ الخدمة برتبة ضابطٍ صغير في الحرب العالميّة، وهو الآن الجنرال فرانغل.

وحارب جيش تامان ثمانية وعشرين يوماً. وهلكت الأفواج تلو الأفواج في الطّوق الحديديّ للعدوّ الغني بالسّلاح. وبدأت الأمطار، ولم تكن ثمّة معاطف ولا أحذية طويلة ولا عتاد. ولا مكان يتوقّع أن تأتي المُساعدة منه. فإنّ الجزء الباقي من جيش القفقاس، المقطوع عن ستافروبول قد تراجع إلى الشّرق.

وترامى التامانيون من جهة إلى أخرى في الطّوق. وكانت ضرباتهم رهيبةً مريقةً للدماء. وسقط القائد كوجوخ صريع الحُمى التيفوئيديّة. وقتل وجرح أحسن أمراء وحداته، عن بكرة أبيهم تقريباً. وفي أواسط تشرين الثاني استطاع التامانيون أخيراً خرق الجبهة. ولم يبق من جيش تامان البطوليّ غير فلولٍ هزيلة حافية عارية. غادرت ستافروبول وانسحبت باتّجاه الشّمال الشّرقيّ، إلى بلاغوداتنويه. ولم تلاحق. فقد بدأت الأمطار وأوقف طقس الخريف السيّئ هُجوم البيض اللاحق.

-١٢-

قبل عام، في تشرين الأوّل طالبت الشّعوب الساكنة في روسيا بإنهاء الحرب. وارتفعت ملايين التّوجّعات والصّرخات بسقوط الحرب، وبسقوط البرجوازيّة التي تُطيل الحرب، وبسقوط الفئة العسكريّة التي تخوض الحرب، وبسقوط أصحاب الأطيان الذين يُغذّون الحرب– واندمجت هذه التّوجّعات والصرخات في طلقةٍ مؤثّرةٍ قصيرة وجهها الطراد "أفرورا" على القصر الشّتويّ.

مَنْ كان يقدر أنْ يتنبّأ بأنّ هذه الطلقة التي خرقت السّقف الـمُزيّن بالتماثيل الرّصاصيّة والمزهريّات السّوداء لذلك البيت الكريه، نفضت إلى المخدع القيصري الفارغ بسريره الذي لم يبرد بعد، الذي كان كيرينسكي يتقلّب عليه مُصارعاً الأرق الهستيريّ، مَنْ كان يقدر أن يتنبّأ أنّ هذه الضربة التي بدت ختاميّة، صوتُ الثّورة الذي يُعلن الحرب على القصور، والسلام للأكواخ، ستجوب البلاد الشاسعة كلّها من طرفٍ إلى آخر منداحةً كالصّدى، مشتدّة، مُتعاظمة، مُتنامية، وتتفجّر كالصاعقة.

من كان يتوقّع أنّ البلاد التي ألقت السلاح من توّها، ستعود فترفعه من جديد، وترتفع طرقةٌ على طبقة: الفقير على الغنيّ...من كان يتوقّع أنْ ينبثق من حفنة ضُباط كورنيلوف جيش دنيكين الهائل، وأنّ تمرّد قطارات التشيكوسلوفاكيين سيشمل بالحرب ألف فرسخ في

حوض الفولغا، وينتقل إلى سيبيريا، ويتنامى إلى ملكيّة كولتشاك، وأنّ حصاراً سيُطبق على البلاد السوفييتية بطوقٍ خانق، وأنّ سُدس العالم على الخرائط الجغرافيّة المطبوعة من جديد، على الكُرات الأرضيّة في كلّ بلدان العالم سيرسم كمكانٍ فارغ–غير ملوّن–بلا اسم ومُعلّم بخط أسود عريض؟..

من كان يتوقّع أنّ روسيا العظيمة المقطوعة عن البحار، وعن محافظات الحُبوب، وعن الفحم والنّفط، روسيا الجائعة البائسة التي اجتاحتها حُمّى التيفوئيد لا تُغلب، ستصكّ على أسنانها، وترسل أبناءها مرّةً أخرى إلى المعارك الرّهيبة...قبل عام كان الناس يهربون من الجبهة، وبدت البلاد وكأنّها تتحوّل إلى مستنقع فوضويّ لا شكل له، ولكنّ ذلك لم يكن صحيحاً. فقد ظهرت في البلاد قُوى التّماسك الجبارة، وطلع فوق صغائر الحياة حُلم العدالة. وظهر أناسٌ خارقون لم يكن لهم مثيلٌ من قبل، وجرى الحديث في كلّ مكان عن أفعالهم بدهشةٍ وفزع.

وهزّت الفتن البلاد السوفييتيّة من الداخل. في وقتٍ واحد مع الانتفاضة في ياروسلافل (التي انتشرت إلى موروم وأرزاماس وروستوف فيليكي وريبنسك) تمرّد في موسكو "الاشتراكيّون–الثّوريون اليساريون". وفي السادس من تمّوز ذهب اثنانٌ منهم إلى السّفير الألمانيّ الكونت ميرباخ ومعهم هويّةٌ عليها توقيعٌ مزوّر لدزرجينسكي، وأثناء الحديث أطلقا الرّصاصة الأخيرة التي أصابت علباءه حين هرب من الحُجرة. وفي مساء ذلك اليوم ظهر بحارةٌ وجنود حُمر مُسلّحون في منطقة تشيستيه برودي وبولفار ياوزه. وراحوا يوقفون السّيارات والسابلة، ويفتّشونهم، ويأخذون السلاح والنقود، ويسوقونهم إلى

دار موروزوف في شارعٍ جانبيّ تريوخسفياتيتلسكي حيث يوجد مقرّ قائد قوات الانتفاضةً. وفي تلك الدار وقع فيليكس دزرجينسكي نفسه رهن الاعتقال، وكان قد جاء إليها بحثاً عن قاتلي ميرباخ. وظلّت الاعتقالات تجري المساء كلّه وجزءاً من الليل. واحتلّت دائرة التّلغراف، إلا أنه لم يكن يجرأون على القيام بأعمالٍ حاسمة ضدّ الكريملين. وكان المنتفضون حوالي ألفين، وقد أقاموا جبهةً من نهر ياوزه إلى تشيستيه برودي.

وحمت الكريملين في تلك الليلة التلفونات والأسوار القديمة. وكانت القوات مُرابطةً في معسكراتٍ في حقل خادينسكويه، وكان جزءاً منها في إجازة بمناسبة عيد إيفان كوبالا. وصار الجوّ داخل الكريملين عصبياً. وقُبيل الصّباح أمكن جمع زهاء ثمانمائة من المقاتلين، وثلاث بطاريات ومدرّعات، وفي الساعة السابعة صباحاً قامت القوات بهجوم، ودمّرت بالمدافع دار موروزوف، مقرّ الانتفاضة. وحصل الكثير من الضّجيج، والقليل من الضحايا، فقد هرب "جيش" الاشتراكيين–الثوريين اليساريين عن طريق الشوارع الفرعيّة والأفنية الخلفيّة باتّجاه غير معروف. واختفى من موسكو قائده بوبوف، الشاب ذو الشّفتين الغليظتين والعينين المخبولتين. وبعد عام ظهر عند ماخنو كرئيسٍ للاستخبارات، واشتهر بالقسوة الـمُرهفة.

وقضى على العصيان في موسكو وعلى الفولغا. إلا أنّ العصيان كان يبزغ في كلّ مكان: تمرّدٌ ضدّ البلاشفة، وضدّ الألمان، وضدّ البيض. غارت القُرى على الـمُدن ونهبتها. وطوّحت المدن بالسُّلطة السوفييتية. وبدأ عهد الجمهوريات الـمُستقلّة، وكانت تنهض وتنفجر مثل الفطر، وكان بعضها صغيراً يُمكن أنْ تقطعه على فرس ما بين فجرٍ وفجر.

وبذلت السُّلطة السوفييتية قصارى جهودها لتكبح الفوضويّة. وفي تلك الآونة وجّهت إليها ضربةٌ فظيعة: ففي الثلاثين من آب، وبعد اجتماع عُقد في مصنع ميخلسون أطلقت الاشتراكيّة–الثوريّة اليمينيّة كابلاًن النار على لينين، وجرحته جرحاً بليغاً. (وكانت من مُنظّمة الرّجل ذي الدّبوس–الجمجمة).

وفي الحادي والثّلاثين ظهرت في شوارع موسكو فصيلةٌ من الذين يرتدون الجلد الأسود من رأسهم حتى القدم، وسارت في طابورٍ وسط الشارع حاملةً معها رايةً على عودين كُتب عليها كلمةٌ واحدة: "الإرهاب"...وظلّت الاجتماعات العامّة بأكثر الإجراءات حزماً.

وفي الخامس من أيلول ظهرت صحف موسكو وبتروغراد بعنوانٍ مشؤوم:

الإرهاب الأحمر

«..يُطلب من جميع السوفييتات على الفور اعتقال الاشتراكيين–الثوريين اليمينيين، ومُمثّلي البرجوازيّة الكبيرة والضّباط، واعتبارهم رهائن...وعند محاولة الهرب أو القيام بانتفاضة اللجوء فوراً إلى إعدامهم الجماعيّ بدون قيدٍ أو شرط...فإنّ حاجتنا تدعو إلى تأمين مؤخّرتنا فوراً وإلى الأبد من الأوغاد البيض...لا يجوز أيّ تأخيرٍ في القيام بالإرهاب على نطاقٍ جماعيّ..».

في تلك الأيام كان يجري تقتيرٌ في الكهرباء في الـمُدن، وكانت أحياءٌ كاملة بلا نور. وكان سُكان الشّقق الموسرة ينظرون بفزع إلى الشّعرات الضاربة إلى الحُمرة الآخذة بالتّوهّج في مصابيحهم

الكهربائيّة... وكانت فصائل العُمال المسلّحة تدخل إلى هذه البيوت الـمُضاءة إضاءة احتضار...

وانقضى عام ١٩١٨ مُندفعاً كالزّوبعة الوحشيّة فوق روسيا. وكان الماء داكناً في سُحب الخريف الجهِمة. وكانت الجبهة في كلّ مكان؛ في الشّمال الأقصى، وفي الفولغا قرب قازان وفي حوض الفولغا الأسفل قرب نسارتسين، وفي شمال القفقاس، وعلى حُدود المناطق الـمُحتلّة من قِبل ألمانيا. ولآلاف الفراسخ كانت الخنادق تمتدّ وتمتدّ. و لم يُدخل الخريف الزاحف الفرحة على قُلوب المقاتلين، وكثيرون فكّروا، وهم ينظرون إلى السُّحب الآتية من الشمال، بقراهم، حيث كانت الريح تقلع القشّ من السطوح، والقرّاص ينمو في الأفنية، وتتعفّن البطاطس في حدائق الخضروات. وما من نهايةٍ تُرى للحرب. والـمُستقبل حافلٌ بالليالي الدامسة وعودُ الإضاءة القديم يُضيء البيوت التي ينتظر أهلها عودة الآباء والأبناء وما من عودة، ويسمعون رواياتٍ عن أمور رهيبة تجعل الأطفال يبكون وهم على الرّفوف فوق المواقد.

بعد القضاء على التّمرّدات، وكرّدٍّ على الوهن الخريفيّ جنّدت اللجنة المركزيّة أصلب الشّيوعيين في موسكو وبتروغراد وإيفانوفو-فوزنسيسك، وأرسلتهم إلى الجيش. واتّجهت قطارات الشيوعيين إلى الجبهات مُحطّمةً في طريقها تخريبات الطُّرق الحديديّة الـمُتعمّدة وغير المتعمّدة. ونفذ الإرهاب الصارم إلى الجيش. وتكوّنت من الفصائل الـمُمزّقة أفواجٌ تخضع لإرادةٍ واحدة هي إرادة المجلس العسكريّ الثّوريّ. وصارت الشّجاعةً والبسالة إلزاماً لكلّ واحد. واعتبر الجُبن صنو الخيانة. وتحوّلت الجبهة الحمراء إلى الهُجوم. واستولى بضربةٍ قصيرة على قازان، ومن بعدها سامارا. وهربت فصائل البيض

مذعورةً أمام الإرهاب الأحمر. وبالقُرب من تسارتسين، حيث كان ستالين عضو اللجنة العسكريّة الثوريّة للجيش العاشر حدثت معركةٌ هائلةٌ دامية ضدّ جيش القوزاق البيض للاتمان كراسنوف الذي كانت القيادة العامّة الألمانيّة تموّله وتُحرّضه...

ولكن كلّ ذلك لم يكن إلا بدايةً لكفاحٍ عظيم واستعراضاً للقوى قُبيل الأحداث الرّئيسيّة لعام ١٩١٩.

أدّى إيفان إليتش تليغين المهمّة التي أوكلها له غيمزا. وعيّن أثناء المعارك قُرب قازان آمراً لفوج، وكان من أوائل الذين شقّوا طريقهم إلى سامارا. وفي يوم خريفيٍّ حارّ سار على حصانٍ هزيل أشعث على رأس فوجه في شارع دفوريانسكايا. ومرّ بالساحة التي فيها نُصّب ألكسندر الثاني الذي كانوا يُخفونه على عجلٍ مرّةً أخرى بالألواح الخشبيّة...وهذا هو البيت الثاني بعد المُنعطَف...وخفض إيفان إيليتش رأسه، فقد كان يعرف ماذا سيرى. ومع ذلك فقد عصرت الوحشة قلبه. كان زُجاج نوافذ شقّة الدّكتور بولافين في الطابق الثاني محطّماً كلّه. وكان يرى جيداً من على صهوة حصانه الباب من خشب الجوز، الذي ظهرت منه داشا حينذاك، وكأنّ ذلك في حلم، وغرفة المكتب، ودولاب الكُتب المقلوب، وصورة منديلييف المُعلّقة على الجدار بانحراف وقد تهشّم زُجاجها...أين داشا؟ ماذا حصل لها؟ لا أحد، بالطّبع، كان يستطيع أنْ يُجيب عن ذلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

وانقضى عام ١٩١٨ مُندفعاً كالزّوبعة الوحشيّة فوق روسيا. وكان الماء داكناً في سُحب الخريف الجهِمة. وكانت الجبهة في كلّ مكان؛ في الشّمال الأقصى، وفي الفولغا قرب قازان وفي حوض الفولغا الأسفل قرب نسارتسين، وفي شمال القفقاس، وعلى حُدود المناطق المُحتلّة من قِبل ألمانيا. ولآلاف الفراسخ كانت الخنادق تمتدّ وتمتدّ. ولم يُدخل الخريف الزاحف الفرحة على قُلوب المقاتلين، وكثيرون فكّروا، وهم ينظرون إلى السُّحب الآتية من الشمال، بقراهم، حيث كانت الريح تقلع القشّ من السطوح، والقرّاص ينمو في الأفنية، وتتعفّن البطاطس في حدائق الخضروات. وما من نهاية تُرى للحرب. والمُستقبل حافلٌ بالليالي الدامسة وعودُ الإضاءة القديم يُضيءُ البيوت التي ينتظر أهلها عودة الآباء والأبناء وما من عودة، ويسمعون رواياتٍ عن أمور رهيبة تجعل الأطفال يبكون وهم على الرّفوف فوق المواقد.

ISBN 978-2-843090-09-7

9 782843 090097